

## إشادات حول «ملحمتي النيلية»

◀ «المذكرات بوتقة زاهية ونقش حي لسودان تندر رؤيته، وعن أسرة حنونة لبعضها اجتاحتها سلسلة من النكبات، وعن أشخاص غريبي الأطوار، وأسواق قديمة، وأسواق لبيع الجمال، وعن تراث تاريخي مذهل جرى الكشف عنه حديثاً. لقد وجدتها جديرة بالثناء، وقراءة لن تمحها الذاكرة أبداً، وبلا تردد أوصي بالاطلاع عليها».

معالي السفير (دكتور) الفريدو مايوليزي - الأمين العام للمنظمة الدولية للدول، البرلمان العالمي للسلامة والأمن. (إيطاليا)

◀ «ما يكنه كامل من حب لبلاده بدا يسطع زاهياً، ومع كل شيء لم ينتابه الخجل في وصف ما أفرزته الحرب الأهلية في دارفور ونزاعاتها من مأس وأهوال. أما التزامه بحقوق الإنسان والسلام الدائم في السودان فسيبقى موضع إلهام للجميع».

دكتور ميراندا براون - محام دولي ومدافع عن حقوق الإنسان (المملكة المتحدة/ استراليا)

◀ «هذه المذكرات عمل يجب قراءته لفائدة أولئك الذين يؤمنون وكذلك من تنتابهم الشكوك في الشمال والجنوب والشرق أو الغرب، أن العالم كله كتلة واحدة».

معالي السفير دكتور مارتن إيهوغيان أوهمويبي - الممثل الخاص المشارك/ الرئيس الوسيط

المشارك للأمم المتحدة - الأمين العام ورئيس الاتحاد الإفريقي، عمليات الهجين بين الاتحاد الإفريقي - الأمم المتحدة في إقليم دارفور السوداني (نيجيريا)

◀ «القصة الاستثنائية المثيرة للمشاعر لطفل من إفريقيا تعززه جذوره، والذي أمكنه السفر حول العالم ومقابلة زعماء عالميين ليصبح رجلاً ذا عقل منفتح من أجل السلام والإخاء على نطاق الأمم كافة».

**القاضي ميشيل ويل - قاضية فرنسية ودبلوماسية سابقة (فرنسا)**

◀ «سعيد للغاية لأن كامل قد قرر أن يكتب مذكراته هذه. لقد كانت ساحة تشرفت فيها بالعمل معه في المنظمة الدولية للملكية الفكرية»  
**دكتور مارينو بورزيو - نائب المدير العام السابق للمنظمة، ورئيس الجمعية العامة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية (شيلي)**

◀ «دكتور إدريس رجل مؤمن بالقضاء والقدر، أتضرع إلى الله أن يطره خيراً وبركات».  
**دكتور ب. إس. راو - الرئيس السابق للجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة (الهند)**

◀ «كتاب دكتور إدريس يعد درساً في إذلال كل أولئك الذين تناسوا كم هو ضيق ممر الحياة وكم هو جبار خيال الإنسان، بل هو تمجيد لأولئك الذين يمثلون رؤاهم الشخصية تتبعاً».  
**معالي هنري - فيليبي سامبوس - محام دولي سويسري (سويسرا)**



ملحمتي النيلية  
كامل إدريس

ملحمتي النيلية.. ملحمة الحياة والموت لصبي عانى من ويلات عمالة الأطفال،  
ليرتقي إلى مراتب القيادة الدولية

My Nile Odyssey.. The life and death story of a child labourer's rise to international leadership

Author: Kamil Idris

تأليف: كامل إدريس

Publisher: London Printing and Publishing

الناشر: لندن للطباعة والنشر

Design: MBG (INT) Limited - London

التصميم: شركة أم بي جي العالمية - لندن

Translation: Mustafa O Hamid (غرافيك بروفائيل - لندن ليمتد)

Printing Date: 2022

تاريخ الطبع: 2022 م / 1443 هـ

First Edition

الطبعة الأولى

© All Rights Reserved

© حقوق الطبع محفوظة



First Edition 2022

© All Rights Reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

© حقوق النشر محفوظة

لا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أو نقله أو تخزينه في نظام استرجاع أو إرساله بأي شكل أو بآية وسيلة دون إذن مسبق كتابياً من الناشر.

محتوى هذا الكتاب يعبر عن رأي المؤلف.

ISBN: 978 1912410 62 0



Printed & Published by:

London Printing & Publishing

282 Harrow Road, Paddington, London W2 5ES, United Kingdom

Whatsapp: 0044 (0) 7709 555 334

Tel: 0044 (0) 20 7289 9009

f londonbookbookuk

londonbookuk

مذكراتي:  
كامل إدريس

## ملحمتي النيلية

ملحمة الحياة والموت لصبي عانى من ويلات عمالة الأطفال،  
ليرتقي إلى مراتب القيادة الدولية

### My Nile Odyssey

The life and death story of a child labourer's  
rise to international leadership

A Memoir

Kamil Idris

ترجمه إلى العربية  
مصطفى عثمان حامد



LONDON  
Printing • Publishing  
لندن للطباعة والنشر

## إهداء

أمل أن أبعث مع هذه المذكرات رسالة ملؤها الأمل لأولئك الذين يعيشون في هذا العالم الفسيح، أياً كانت وسائل معتقداتهم أو دياناتهم... الذين يؤمنون بتلاحم الأمم، وبقدسية الحياة، وبالإخاء بين أوصال الإنسانية جمعاء.

---

أود أيضاً أن أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي عازة، وأبنائي محمد وديناس وداليا ودعد ومؤمن ومنيب.

وأيضاً إلى عائلتي الممتدة، وإلى الكوكبة الطيبة من أقرب الأقربين وأصدقائي.

## شكرو عرفان

أود بهذا أن أعرب عن عرفاني ووفائي لوالدي المغفور له الطيب إدريس ووالدتي المغفور لها أمونة حاج حسين، وإلى شقيقتي سميرة وإلى أشقائي فريد وصديق والمغفور له عزالدين، لما غرسوه في نفسي من تشجيع رائع. وأيضاً إلى شقيقتي المغفور لها عواطف وشقيقي المغفور له السر وشقيقي عابدين.

أما ما لقيته من عون ودعم من هيو دياس فقد كان شيئاً لا يقدر بثمن.

ولساني يلهج بالشكر أيضاً للناشرين UK Book Publishing، وبصفة خاصة إلى غاي وروث وجان وجوديث لنصائحهم ومهنتهم العالية

وأسجل اعتذاري مقدماً لما قد يطرأ من أي حذف أو أخطاء قد تصاحب إعداد هذه المذكرات وتجميعها.



## المحتويات

|                                                                            |     |
|----------------------------------------------------------------------------|-----|
| إشادات حول «ملحمتي النيلية» .....                                          | 1   |
| إهداء.....                                                                 | 6   |
| شكر وعرفان.....                                                            | 7   |
| مقدمة .....                                                                | 11  |
| تمهيد .....                                                                | 14  |
| الفصل الأول: ظلال الظلام... والسامري الطيب .....                           | 20  |
| الفصل الثاني: حكايات أولاد الأرض الأوائل .....                             | 35  |
| الفصل الثالث: أوقات عصيبة في عمالة الصبية وعبقرية عبدالله غير العادية..... | 58  |
| الفصل الرابع: تماسيح، وقرصان، وجن.....                                     | 76  |
| الفصل الخامس: توهان في الصحراء، العرب البدو، وانخراط في أعماق اليأس.....   | 104 |
| الفصل السادس: شمالاً إلى الجزر الباردة، محطة فيكتوريا وجيمس وإلينا.....    | 120 |
| الفصل السابع: لقد أصبح البدوي دبلوماسياً.....                              | 138 |
| الفصل الثامن: العودة إلى النيلين.. تأملات على النيل.....                   | 146 |
| الفصل التاسع: الزواج والصعود إلى أعلى السلم.....                           | 154 |
| الفصل العاشر: السباحة عكس التيار .....                                     | 189 |
| الفصل الحادي عشر: اعتقال وتحقيق.. إلزم الصخرة .....                        | 196 |
| الفصل الثاني عشر: فلسفتي في الحياة.. عقول عظيمة وقدرات غير مرئية .....     | 205 |
| الفصل الثالث عشر: صحوة حضارة تليدة ومستقبل السودان التاريخي.....           | 224 |
| الفصل الرابع عشر: نيلسون مانديلا ووعد من أجل إفريقيا.....                  | 230 |
| الفصل الخامس عشر: اضبط الأوتار وسيتبعها اللحن.. سلام ومداواة كونية.....    | 236 |
| الخاتمة .....                                                              | 241 |
| الملحق الأول: جوائز وشهادات ومطبوعات .....                                 | 252 |
| الملحق الثاني: شهادات وثناءات .....                                        | 270 |

|     |                                                                  |
|-----|------------------------------------------------------------------|
| 286 | الملحق الثالث: السيرة الذاتية                                    |
| 287 | التميز الأكاديمي                                                 |
| 287 | الاهتمامات الأكاديمية                                            |
| 287 | اللغات                                                           |
| 287 | التدريس                                                          |
| 288 | أوسمة وجوائز                                                     |
| 290 | درجات فخرية                                                      |
| 291 | الخبرة                                                           |
| 294 | مشروعات ومستندات                                                 |
| 295 | مؤتمرات وسمينارات ودورات دراسية وندوات                           |
| 295 | منشورات                                                          |
| 296 | مقالات                                                           |
| 297 | الملحق الرابع: سجل الإنجازات                                     |
| 297 | المنظمة الدولية للملكية الفكرية                                  |
| 300 | الملحق الخامس: مهمات رسمية كمدير عام                             |
| 309 | الملحق السادس: وثائق الزواج                                      |
| 312 | الملحق السابع: قائمة الشكر                                       |
| 317 | سفراء                                                            |
| 320 | شخصيات قيادية عامة                                               |
| 326 | الأمم المتحدة                                                    |
| 328 | الملحق الثامن: مثال للعمل الصحافي                                |
| 329 | الملحق التاسع: مستندات مختارة من المنظمة الدولية للملكية الفكرية |
| 333 | الملحق العاشر: قائمة مختارة من تصريحات مساندة                    |
| 363 | الملحق الحادي عشر: قائمة مطبوعات                                 |
| 372 | الملحق الثاني عشر: أمدومان التاريخية والخرطوم                    |
| 374 | اعتمادات الصور وتراخيصها                                         |



## مقدمة

◀ يسعدني كثيراً لأن أسطر مقدمة لهذه «المذكرات» المهمة لما لها من دور فاعل يمكنها أن تلعبه من أجل التنوير الثقافي اللامتوقف ليس في السودان وحسب، بل أيضاً في العالم الخارجي.

هذه القصة شهادة بينة على إنجازات النفس البشرية في تغلبها على الشدائد والمكاره كما أنها وصية عهد بأهمية التنظيم الذاتي، والنَّهْم للحصول على المعرفة والقيم الكونية للإخاء، تلك التي تسمو على حواجز القبيلة والدين.

إن دقة أدوار التركيبة العائلية السودانية وصلابتها، فضلاً عن السياق الإنساني هنا يكشفان عن سودان ربما يندر للعالم الخارجي أن يرى مثيلاً له. إن دماثة الخلق الغريزية، وكرامة النفس، وإبداء اللطف والمجاملة، والترحاب بالغرباء، تشكل تريقاً نافذ المفعول في مواجهة الخطوط العريضة لضاربي طبول الحرب الأهلية ودعاة العنف. نجد هنا عائلات ومجتمعات مختلفة بمكوناتها من البدو ومحترفي التجارة، والبسطاء من صائدي الأسماك، يملؤهم سحر المكان والزهو بأنفسهم، يتكاتفون معاً في أفراحهم وأتراحهم، ولا يزالون تربطهم حميمية التواصل المتين مع تقاليدهم المتجذرة، يكلؤهم الإحساس بالفخار بأصولهم وأسلافهم.

المذكرات أيضاً كنز دفين من التسيريات الملهمة في دهايز التاريخ والفلسفة. وكمثال، ما أثبتته الحمض النووي دليلاً على أن الإنسانية جمعاء قد نشأت من أصل مشترك لا يزال هو التراث الغني من الحفريات الأثرية في السودان التي لم يتم بعد الكشف عنها كاملة والتي كانت يوماً ما مركزاً لحضارة قديمة سادت في أعماق التاريخ.

وفي واحدة من تلك التسيريات، يجادلنا كامل بأن هناك مناحياً من الحياة تظل عصية على الإلحاد التصدي لها.

وبينما يميل الفكر العلماني الحديث إلى إنكار أي دور لما وراء الطبيعة، ودراستها باعتبارها خواطر في اللاشعور، فإن الدين هنا يسمح لنا بقبول الطاقة الروحانية. ورد في المذكرات أن نداءات توارد الخواطر التي كان يتلقاها كامل من جدته زينب، ثم الظهور الاستثنائي لمن كان يقدم له التمر، ثم التواصل مع أرواح الموتى، جميعها مؤشرات إلى بُعد من الحياة يتحدى التفسير العقلاني. إن العقيدة الدينية بكل بساطة تقرر ذلك الطرح ومن خلال التنزيل الإلهي تنتشر الهداية للإنسانية جمعاء. حقيقة أن العقيدة الدينية قد أسبىء استخدامها، وأن عدم التسامح وإعمال الطائفية كانا مصدرراً للخلافات والاستبداد، ولكن هذا لا ينبغي أن يصرفنا عن حقيقة كونها أيضاً، في أفضل أشكالها، أصل الحضارات وحجر الأساس القوي للأخلاق والرباط المتين للمجتمع.

أحيي ما جاء في المذكرات من إشارات التفاؤل لإحياء آفاق المستقبل وتقدم مسيرته في السودان، وبكل قوة أؤيد رسالة كامل بتأكيدي على النقاط التالية:

نحتاج: توليفة ومزجاً عقائدياً بين الدين والعلمانية، وتكيفاً ثقافياً للتنوع، وحكومة قائمة على مبدأ المشاركة والمحاسبية والشفافية والقانون، ونظاماً اقتصادياً يعرف دروب التنمية ويتمسك بأهداف العدالة الاجتماعية والإقليمية، وتوازناً في العلاقات بين العرب والمناطق الإسلامية والإفريقية، وعلاقات دولية أساسها السلم والعدالة.

كما أحيي أيضاً ما أوردته المذكرات من تفاؤل حول مستقبل إفريقيا بما يؤهلها لمعرفة أن أي مقدار من المعونات العسكرية لن يجدي نفعاً مع الأنظمة المستبدة والفاصلة التي لطالما ظل بإمكانها حتى اللحظة التكرار لحقوق الإنسان وإساءة استغلال ثروات شعوبها.

أضف إلى ذلك أن الإرهاب العالمي قد انتقل إلى وحشية إجرامية رجعية مستخدماً مخالب متعددة، وتحديداً: في ما يطلقون عليه تسمية (الإمارات). وهي شبكات وخلايا تضم الناشطين من المخربين، والذئاب الوحشية المدمرة. وهناك أسباب متراكمة نتج عنها هذا العمل الضار، وأن إلقاء القنابل وحده لن يكون الإجابة للقضاء عليه. ما نحن بحاجة إليه هو إدانات عقائدية تناصر القيم الإنسانية وتحترم قدسية الحياة ومبدأ التحاور.

إنني أؤمن هذه المذكرات لما اتصفت به من شجاعة في مواجهة تلك الموضوعات المبررة، ولنظرتها الثاقبة في مستقبل مبني على مبدأ الإخاء وقبول الآخر ونبذ العنف.

هذه الرسالة بالغة العمق ليست مجرد أمنيات. إن الصورة التي رسمها كامل لمجتمع طيب ومتعاون يقبل بعضه بعضاً، فضلاً عن أجندته العملية للتغيير، لها دلالة على أن ميلاد مجتمع متسامح ومنفتح على بعضه أمر ممكن حدوثه، وبالتالي فإن معالجة مشكلات العالم بإمكانها أن تصبح واقعاً ملموساً.

الإمام الصادق المهدي

رئيس وزراء سوداني سابق

1966 - 1967 : 1968 - 1989

## تمهيد

◀ قبل وفاته ببضعة أشهر في عام 2013، كنت قد تحدثت مع نيلسون مانديلا. وأعتقد أن الرجل كان على علم بدنو أجله وأراد أن يشركني معه في نظراته للمستقبل، ليس فقط بالنسبة لأفريقيا وإنما للعالم بأسره. لم تكن آماله مبنية فقط على مثالية فارغة المحتوى بل على أساس من التلاحم لنموذجه البطولي الشخصي واستراتيجياته الاقتصادية والسياسية الواقعية. كان يطلق علي «إبن إفريقيا الحقيقي» وقد حثني على أن أكتب هذه السيرة الذاتية. طلبه لي وجد هوى في نفسي، رغم أنني أحسست أن مذكراتي قد لا تتسق أبداً مع معيار إنجازاته الشخصية العظمى المتمثلة في توحيد بلاده وشعبه، والتي كانت مصدر إلهام للملايين عبر قارات العالم.

أياً كان الأمر، فقد ذكّرني بأن تجاربي مع قادة الدول من الرجال والسيدات، فضلاً عن إيماني التفاؤلي المتجذر في الطبيعة البشرية، كانا يمثلان بدقة شديدة تجربته هو، وبالتالي صار لزاماً علي السير على هدي معتقداته حينما أسرد قصة حياتي. وكان كلانا على وفاق تام بالمشكلات الموهولة التي تدور في فلك العالم، ولكنه ما فتىء يعتقد بأن رسالة طيبة وإيجابية تهدف للإخاء والتصالح وإبداء التراحم، من شأنها أن تكون ترياقاً ناجعاً لعدم

التسامح ومظاهر العنصرية وسفك الدماء. وللأمانة فقد توجست خيفة بأن هذا العمل قد يكون مستحيلاً أداؤه، غير أن ثقته في شخصي كانت قد أخجلت تواضعي، فأليت على نفسي بأن أكرم رغباته.

بالضرورة، فإن هذا الكتاب هو بوتقة طيبة لعائلة متعاطفة وحنونة لبعضها من خلال أعين صبي صغير يشب عن الطوق تدرجاً، إنه لقطة تصويرية لسودان يبدو على غير المتوقع أكثر رقة ولطفًا، وبخاصة منطقة النوبة الضاربة في أعماق التاريخ. وأياً كان الأمر فهو أيضاً جهر بالإيمان من أجل مستقبل مشرق تنعم به أمتي، وتطلعاً لئن يكون صدى لأمنيات مانديلا العظيمة وهو يصارع سكرات الموت.

بداية كانت الأسرة. لقد عشت طفولة ثرة تمتعت فيها بتحنان والدين عطوفين وإخوة أكبر سنًا وشقيقة واحدة، وكوكبة متمازجة من أقارب وبعض أصدقاء ممن ينتهجون أطواراً غريبة كانوا يزوروننا ويقيمون معنا ما طاب لهم البقاء، فكانت عائلة «ممتدة». تعلمت السباحة ولكنني كدت أهلك غرقاً حينما حاولت السباحة عبر ضفتي نهر النيل. كانت وفاة والدي الباكورة وكل من أختي غير الشقيقة وعمّاتي وأصدقائي المقربين ضربات مدمرة أقضت مضجع سعادتي، واتجهت أنشد السلوى والعزاء في العمل الشاق، والانضباط في النفس والخلق، واخترت مزاولة عمالة الصبية في مصنع للزجاج ضمن آخرين من الزملاء.

في العقد الثاني من عمري سافرت في رحلة إلى القاهرة ممتطياً سطح القطار ساعياً للبحث عن عمل أنكسب منه أكثر، وحينها تعثرت في شواطئ بحيرة ناصر حيث تعرضت للحبس والتهديد من قبل مجموعة من صائدي الأسماك الذين اعتقدوا أنني نفر من الجن أو أحد الأشباح. في مرحلة الدراسة الباكورة كنت معجبةً بالشيوعية ولكنني سرعان ما رفضتها لأنها تتعارض بقوة مع عقيدتي المتسامحة المتجذرة في نفسي. بذلت جهداً خارقاً في مرحلة دراساتي الجامعية. مارست العمل الصحافي كهواية. وأخيراً ارتقيت إلى مصاف القمة لدى الأمم المتحدة وتبوأت منصب المدير العام لكل من المنظمة الدولية للملكية الفكرية، والاتحاد العالمي لحماية الأنواع الجديدة من النباتات. وأصبحت أحد قادة لجنة القانون في الأمم المتحدة، وبكل ما أملك من تواضع، صرت أكاديمياً محترماً موثقاً به ودبلوماسياً مرموقاً على نطاق العالم.

وفي السودان حاولت أن ادافع عن حرية التعبير وحقوق الإنسان. وحينما رشحت نفسي في انتخابات رئاسة البلاد عام 2010 قابلتني تحديات خطيرة ومواجهات حتمية من قوات الأمن هناك.

وهربت، مما كان بالنسبة لي اعتقالاً قسرياً في المنزل، برفقة عائلتي في اندفاع رهيب

إلى نسيم الحرية. ولاحقاً أمكنني العودة وتم قبولي كرمز من رموز الوسطية والوحدة. إذن فقصّة حياتي تمثل العمود الفقري لمحتويات هذا الكتاب، ولكن هناك أيضاً العديد من الانعطافات ذات الصلة وهي تتعلق بأناس وأحداث هيمنت على خيالي، وكان ذلك عاملاً أساسياً في تكوين شخصيتي.

في واقع الأمر وقبل النهو من هذه المذكرات بقليل كنت قد فقدت شخصاً عزيزاً عليّ مما أحدث فراغاً مهولاً في حياتي. كان شقيقي الأكبر الحبيب إلى قلبي عز الدين قد توفي. كنت بجانبه على السرير في أيامه الأخيرة. وكم نال إعجابي العدد الكبير من الناس الذين جاؤوا لمواساتنا، وما حدث عقب وفاته كان حتى أشد تميزاً، فقد اضطرت الأسرة وخلال خمسة عشر يوماً متصلة إلى إقامة سرادق ضخمة تلبية لتدفق آلاف المعزين الذين توافدوا لأداء واجب العزاء. وكانت وسيلتنا الوحيدة لمواكبة ذلك الحشد الهائل من المعزين وخدمتهم هي أن نقبل مساعدة مجموعة خيرية من الشباب في الحي الذين تطوعوا للقيام بكل الخدمات اللازمة من ترتيب للكراسي والطاولات والنظافة المستمرة للأثاث، بل الموقع بكامله. لقد كنت أعلم أن شقيقي كان يتمتع باحترام وافر من الجميع ولكن ما رأيته من تجمع في هذا المشهد كان مثار إعجاب ودهشة للأسرة كافة. إن الإعزاز وحسن الطوية مما بدا لنا في هذا المأتم كان لهما الأثر الفاعل في تخفيف مشاعر الأسى التي أصابت الأسرة، وستظل ذكرى تلك الأيام الأخيرة باقية في ذاكرتي أبداً. لقد مثلت لي تأكيداً لما يحمله شعب السودان الرائع من الأواصر الروحانية المتجذرة في نفوسهم.

تقع بلادي في ملتقى الطرق لقارة إفريقيا، وهي حلقة وصل بين أوروبا في الشمال وقلب إفريقيا في الجنوب. ويجري خلالها الشريط الأخضر لنهر النيل شريان الحياة للبلاد والرابط المباشر لمنطقة الآثار، لم يتغير إيقاع سريانه ووجوده منذ عهد الفراعنة. لقد ظل مصدراً ثابتاً للعجب والإلهام في حياتي. ومنذ سنوات عمري الباكرة ظللت مأخوذاً بما يكتنفه هذا النيل من غموض وعظمة في مياهه الجارية على الدوام، وكنت متى ما استبدت بي أسباب القلق والأوهام لا أجد مناصاً من التجوال والتمدد على ضفافه حتى أنعم بالهدوء والسلوى. وبالنسبة لي يظل النيل إيحاءً لنا بالسرمدية، إنه استعارة متأججة دوماً، وشخص آخر في القصة، لا ينفك يهمس بأسراره الخالدة اللامنتهية أبداً، مخبراً الحاضر بجمال الأزمان الغابرة وجبروتها.



شقيقي الراحل عز الدين الطيب إدريس، كان فقده جلاً بالنسبة لنا.  
لقد كان أصيلاً ونقياً كنهر النيل الخالد

ولكن خلال السنوات القليلة الماضية، وقع السودان مهد التاريخ والحضارة القديمة في براثن الفقر والعوز وصار عرضة للدمار والخراب نتيجة حرب مدنية ضروس نتجت عنها آثار مهولة من المعاناة على نطاق القطر وسلسلة من عدم التسامح العرقي. وإحداث توازن لكل ما وقع من ظلم وقهر حاولت أن أضيف حكاوى عن الزمن الجميل حينما كان الناس، ولقرون مضت، وأياً كانت معتقداتهم - مسلمون ويهود ومسيحيون وآخرون - يعيشون في احترام متبادل وانسجام يسوده التوادد والتراحم.

إذن فهي ملحمة وطن عريض يضم بين طياته ثروات مهولة من الموارد الطبيعية والإمكانات الضخمة. وطن فخور بتعددته الإثني والعرقي وثقافته، فضلاً عن تراثه الذي لا مثيل له حينما قامت مملكة كوش التي أنشأها أجدادنا الأوائل في الشمال وهي التي، في وقت ما، كانت تحكم أراضي الفراعنة في مصر وما وراءها.

مذكراتي أعدّها محاولة لإضاءة شمعة زاهية في عالم مظلم. إنها للتيان والجهر بالإيمان والتسامح والإلهام، وتمثل التنادي للعمل. وسيكون من السهل للساحرين إزالة هذه الأفكار باعتبارها عقيمة، كورقة حائط سياسية.

ولكن هاهو تي إي لورنس مؤلف الركائز السبع للحكمة يقول:

«كل الرجال يحلمون ولكن ليس بالتساوي. أولئك الذين يحلمون بالليل في خبايا عقولهم المغبرة ربما استيقظوا نهاراً ليجدوا أن أحلامهم كانت تفاخراً زائفاً. ولكن الذين يحلمون بالنهار فهم الرجال الأكثر خطورة، لأنهم ربما يمارسون أحلامهم بأعين مفتوحة لجعلها ممكنة».

بهذا المعيار أعتقد أن مانديلا كان رجلاً استثنائياً لأنه كان يعتقد بقوة، مثله مثل غاندي، بأن العنف المفتوح كان زقافاً مسدوداً، وهو طريق لاتجاه واحد يؤدي إلى لاشيء. إن التغيير والتقدم يأتيان فقط عبر الاحترام المتبادل والحوار والتسامح والتفاهم، وليس عبر جز الرؤوس وتنفيذ الإعدام وإبداء عدم التسامح بين الديانات المختلفة.

أشاركه الرأي في صميم معتقداته وآمل أن تكون مسيرتي الشخصية بإمكانها إيقاد شمعة أخرى تقف مساندة لشمعته المتقدة الوضيئة بما يتيح لنا إنارة الطريق نحو أعالي المستقبل المضاء بوهج الشمس الساطعة.

أما لماذا كانت «ملحمتي النيلية» عنواناً لهذا الكتاب؟ فلا أعتقد أن الأمر يتطلب أية عبقرية استخبارية. أبحثوا عن تيارات المياه القوية، وعن التماسيح، وعصابات القرصان، وأسطح القطارات، ثم الصحراء الكبرى الجبارة، ستجدون الإجابة.





## الفصل الأول

### ظلال الظلام... والسامري الطيب

﴿وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾. صدق الله العظيم  
(سورة الإسراء - الآية 24)

رؤيتي للتعليم: أن تغذي مدارك الطفل بكل ما هو غامض وعجيب.  
(كامل إدريس)

◀ كانت تلك أطيّب الأوقات وأجمل أيام السنة عندي، ولكن أن تحافظ على توازن جسمك ممتطياً سطح القطار مع حرارة تبلغ خمسون درجة مئوية فذلك أمر من شأنه أن يؤدي إلى وفاتك. كما يمكن سقوطك بسهولة من على جانبي السطح حينما يمر القطار عبر المنحنيات. لذا عليك أن تبقى في وسط السطح وعليك أن تركز بصرك إلى الأمام بثبات شديد خشية الاصطدام بأحد الكباري العلوية. أحياناً قد تنشر جسمك مستلقياً على بطنك ثم فجأة تغلب عليك نوبة من النعاس الذي لا يقاوم، فإذا سقطت فإن القطار لن يتوقف لك. ولن يعرف أحد أنك سقطت. وفي فصل الصيف فإن شمس منتصف النهار القاتلة في السودان والتي تصل حرارتها إلى خمسين درجة مئوية قد تشوي جسّدك حياً، أما ليلاً فإن درجة الحرارة في الصحراء وقت الشتاء قد تتدنى إلى درجة التجمد. ولاتقاء حرارة الشمس القاتلة عليك أن تصب الماء من الزمزية على رأسك

على أن يظل جسدك إلى الأمام لمواجهة التيار الهوائي المتسلل من القطار ليمنحك بعضاً من الراحة لمواجهة حرارة دونها تلك المنبعثة من الفرن. وفي وقت ما تبدأ بفقدان التركيز. ويكون التشبث بالحياة الحلوة أمراً حتمياً.

كنت في الثالثة عشرة من عمري، عائداً للتو في رحلة استغرقتني ثمانية وأربعين ساعة من القاهرة في الشمال، حيث كنت أعمل في مصنع صغير للطباعة خلال العطلة المدرسية. كان الأجر بائساً، وكنت جائعاً ومرهقاً ولكني قريباً سأعود إلى أهلي في أمدردمان. يكاد الشوق يقتلني لرؤية والدي وأشقائي وشقيقتي، ولطالما تأقت نفسي لوجبة طعام منزلية وسرير دافئ. لم تكن هناك نوافذ في المصنع الذي عملت به، وكان لزاماً علينا أنا والإثني عشر صبيّاً الذين شاركوني العمل أن نعمل لفترة أربعة عشرة ساعة يومياً في جو خانق من الحرارة عديم الهواء. كانت وظيفتي أن أعمل في رص الكتب المدرسية وتنظيمها، وكنت أحياناً أصاب بالإغماء حينما تلقي شمس الظهيرة الحارقة بأشعتها القوية على سقف المكان فتحيله إلى فرن. بعد يوم واحد أو يومين غادر إثنان من الصبية المصنع ولكنني قررت الصمود في مقاومة لتلك الظروف القاسية وصممت على البقاء، وفي الوقت ذاته كنت مفتوناً بمصر وأردت كشف المزيد عنها وسبر غورها.

دخلت البلاد شأني شأن غالبية القادمين الجدد، غير مطمئن... ينتابني التوتر ومترع ببراءة الشباب وعفويته، ولكن النصيحة الطيبة التي سمعتها من الغرباء حين وصلت إلى المحطة أعادت لي التأكيد بأن مصر بلد ودود ورحب بزواره. أما ما لم أكن أتوقعه فهو قسوة الظروف التي كنت أعمل فيها. لقد سبق لي ممارسة عمالة الصبية في أم درمان ولكن على الأقل كان لي مأوى في منزلي أجباً إليه عقب الانتهاء من العمل. كان العمل في ذلك المصنع في القاهرة تحديداً أمراً رهيباً تمثل في نداء الاستيقاظ المبكر من كل يوم.

كنا ننام على مراتب قديمة مفروشة على أرضية ذلك المصنع، وكان غذاؤنا هو قطعة جافة من الخبز القديم، ولم تكن هناك دورات مياه أو أماكن للاستحمام والنظافة. لذا كنت قد عانيت ما فيه الكفاية... وأخيراً حان وقت العودة للوطن. وفي المساء قبيل سفري طلبت من صديقي عاطف البائع المتجول الذي كان يسترزق من بيع الحلي الرخيصة والحلويات والفواكه المجففة أن يحضر معي بغية شراء تذكرة من محطة القاهرة. فبادرني بقوله:

«لست في حاجة إلى شراء تذكرة»

«ماذا تقصد؟»، قلت مستفسراً

«إنك لا تحتاج لشراء تذكرة، هناك طريقة أفضل»

«أي طريقة تقصد؟»

«لا تقلق، عليك فقط أن تفعل ما اعتدت أنا على عمله» هكذا قال لي.

«عليك أن تحضر كمية من الفول السوداني وبعض الماء»

«ولماذا الفول السوداني؟»

«لأنه رخيص وبوسعه أن يشبعك تماماً».

في تلك الليلة نمت بصعوبة شديدة. لقد كنت أعرف ما كان يضمه هو وآخرون من عمل، وكنت مغتاضاً وقلقاً من الفكرة. كانوا يخططون لركوب القطار في آخر ثانية ليصعدوا فوق سطحه لكل الرحلة من دون تذاكر. وكانت آخر رحلة لي سافرت فيها من الخرطوم إلى القاهرة على سطح القطار أن سقط ثلاثة من الصبية على الأرض، وعلمت أخيراً أن أحدهم قد عاش أما الإثنين الآخرين فقد توفيا عطشاً في الصحراء.

كان مقرراً أن تكون الرحلة من القاهرة إلى أسوان بالقطار، ثم بالباخرة إلى حلفا وأخيراً بالقطار مرة أخرى إلى الخرطوم. كنت أعلم أنها ستكون رحلة شاقة ومرهقة، كما كان الموقف يتطلب منا أن نعمل في الباخرة أثناء سيرها لكي نسدد أجرة سفرنا. وحتى هذا القطاع من الرحلة كان لا يقل خطورة عن السفر على سطح القطار. ستكون الباخرة مزدحمة للغاية وما من سبيل لإيجاد مكان مناسب للنوم سوى على حواف جانبي الباخرة. ولو قدر لأحدنا أن يتقلب في نومه في ذلك الوضع لكان قد سقط في النيل غرقاً. وصار بإمكاننا أن نصمد حتى النهاية بفضل حرصنا الشديد واستخدام كل ما لدينا من مؤهلات الذكاء والدهاء. نحن الآن جالسون على سطح القطار ومتجهون جنوباً. وفي محطة القاهرة كنا قد تجمعنا بأكملنا بجوار مؤخرة القطار في انتظار أن يبدأ خطوته الأولى قبل أن نسرع في تسلق درجات العربة الأخيرة من القطار ومنها إلى السطح مباشرة. من المهم للغاية أن تظل في منتصف سطح القطار تماماً على أن تبقى منبطحاً لأطول فترة ممكنة. كان العمال قد اكتشفوا أمرنا وبدأوا يتصايحون في الوقت الذي بدأ القطار يتهادى في أولى خطواته، ولكن كانت تعوزهم الحماسة لفعل شيء أكثر من ذلك، وأخيراً اكتفوا بهز أكتافهم عند تحرك القطار. إذا كنا نريد الموت فهذه رغبتنا! وهذا ما لا يعنيهم في شيء. أما أنا فقد جاهدت أن أجد نوماً متقطعاً وأن أحتفظ بتوازني بأن أستلقيت مسطحاً جسمى ما استطعت مع نشر أيدي وأرجلي على السطح.

أخيراً وصلنا محطة أسوان ومنها بالباخرة إلى حلفا حيث كان يلزمنا هناك أن نمشي بضعة كيلومترات خلال حرارة منتصف النهار البالغة درجة الغليان حتى نلحق بالقطار المتجه إلى الخرطوم جنوباً. ومرة أخرى كان علينا أن نجري بعض الترتيبات والمناورات بغية أن نسافر على سطح القطار. وكانت أفضل السبل هي أن نفتح أذرعنا لمفتشي التذاكر في بشاشة، معتمدين على عدم اكتراثهم بما يحدث لاحقاً.

نحن الآن على سطح قطار أكثر قدماً، لذا فاهتزازه المتواصل إلى الأمام والخلف جعلنا في خطورة مستمرة لأن نتساقط! هذا بجانب التحذير الذي أصدره لنا مفتشو التذاكر بأننا سنلاقي في بعض المواقع أسلاكاً معلقة تقارب سطح القطار ومن شأنها أن تجز الرؤوس إذا لم نتخذ الحيطة والحذر اللازمين. ولما كان جزء من الرحلة بالليل ولكي نتمكن من التركيز أكثر ونظل

مستيقظين فقد ملأنا جيوبنا بكمية من الطماطم الصغيرة والملح. وأمكنا أيضاً إعادة «تمويننا» في مدينة شندي العريقة حيث وجدنا بعض الأشخاص الطيبين الذين زدودنا ببعض الرغيف الجاف والماء وقليل من البيض المسلوق.

وهكذا واصلنا رحلتنا بسلام على أية حال. ومع إشراق شمس صباح اليوم التالي كان قطارنا يشق طريقه بهدوء نحو محطة السكة الحديد في الخرطوم. لوحت بيدي إلى والدتي واتجهت نزولاً من سطح القطار ولكن ما أن ضمتني في حضنها حتى شرعت في البكاء، وكنت أعتقد أن بكاءها بسبب ما عانته في رحلتي من خطورة وعذاب، ولكنه كان بسبب أنها لم تكذب تصدق ما حدث من مشقة وعنت لأصغر أبنائها. ولم أكن أعرف أنني فقدت الكثير من وزني لذا فقد عكفت الوالدة منذ ذلك الوقت في إعداد وجبات متعددة من أجلي حتى أستعيد ما فقدته. كنت سعيداً بعودتي لمنزلنا وخاصة فقد كنت أعامل كالأمير العائد إلى وطنه. سادني شعور طيب بالاطمئنان بالعودة إلى أحضان عائلتي، رغم أن إحساسي بالاستقلالية كان قد تجذر أكثر. كنت قد تذوقت متعة السفر إلى ما وراء السودان من بقاع، وفي الأسابيع والأشهر التي أعقبت ذلك أصبح ينتابني قلق الهجرة والسفر. لقد عنى لي أن أكون «إيكاريوس» (\*حاشية: هو ابن ديداليوس، وتحكي الأسطورة أنه طار من جزيرة كريت بأجنحة ضخمة صنعها له والده، ولكن حينما اقترب من الشمس ذاب الشمع الذي كان يشد الأجنحة فسقط الفتى ومات، ولكنه حقق حلمه بالطيران على أية حال - المترجم). ولطالما أتيح لي أن أكافح تجربتي مع سطح القطارات فبإمكاني السفر إلى أي مكان بعد ذلك. وددت أن أنتشر عبر البحر الأبيض المتوسط لأصل إلى أوروبا، ومن ثم عبر الأطلنطي لأشاهد أميركا... لقد آن الأوان للعالم أن يُكتشف.

كان ميلادي في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس من العام 1954 في أم درمان وكانت وقتها قرية عريقة تنشط في التجارة وصيد الأسماك وتقع في الضفة الغربية لملتقى نهري النيل الأزرق والأبيض وتعرف الآن بكونها العاصمة الوطنية التاريخية لبلادي. أما الإسم الذي أطلقه علي والداي وهو «كامل» ويعني في اللغة العربية «الكمال» وهي صفة من المستحيل للمرء الوصول إليها في حياته، وأنا أعلم جيداً أنني لست معصوماً من الخطأ كأبي بشر كان. أما إدريس فهو نبي كريم جاء ذكره في القرآن الكريم في الزمان الغابر. وهو يعني «الصبور» أو «القادر على تولي المهمات الكبرى».

في ذلك العام ساد العالم بأجمعه هدوء نسبي عقب الأهوال التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية، ولكن من ناحية أخرى فقد بدأت التوترات تطل برأسها من جديد بوضوح بين الديمقراطيات في الغرب والشيوعية في الشرق. أجرت الولايات المتحدة الأميركية اختباراً بتفجير القنابل النووية في جزيرة بكيني على البحر الباسيفيكي، كما استعرضت أولى غواصاتها النووية. وقدم جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأميركية إنذاراً «بانقمام شامل» في حال أقدم السوفيت على أية ضربات نووية. كما أبطلت الولايات المتحدة قانونية الحزب الشيوعي لديها.

ومع انتخاب الرجل الذي لا يمكن التنبؤ به، نيكيتا غورباتشوف، رئيساً للاتحاد السوفيتي أمر ببناء ما وصفه ونستون تشرشل بـ «الستار الحديدي»، ممتداً من الدائرة القطبية حتى بحر الأدرياتيك، وهو ستار من شأنه حبس مئات الملايين من البشر تقريباً. أما السوفيت بدورهم فقد أجروا اختباراً لأول قنبلة هيدروجينية وهي أكثر قوة وفعالية من القنابل النووية التي أُلقيت على هيروشيما ونجازاكي.

وفي إفريقيا اجتاحت أجزاء منها جولات من التمرد مطالبة بالتغيير. أمكن لعبد الناصر السيطرة على الحكم في مصر، ونجا من محاولة اغتيال، ثم اتجه إلى حل كل من تنظيم الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي واصفاً إياهما بـ «القوى الفاسدة». أصدر عبد الناصر تحدياً دراماتيكياً إلى بريطانيا والقوى الاستعمارية الأخرى بإعلانه قفل قناة السويس، مهدداً بذلك شريان ترحيل النفط الحيوي إلى بلادهم. فرنسا أرسلت عشرين ألفاً من جنودها لقمع الانتفاضة الشعبية التي اجتاحت الجزائر، كما بدأت في الوقت ذاته في سحب قواتها التي كانت تحارب في فيتنام، بينما زادت الولايات المتحدة من عدد قواتها العسكرية في الجنوب. وفي جنوب إفريقيا كان رئيسها ه. ه. فيرورد قد أعلن في بيان أن الإنسانية في حاجة إلى تعريفها عنصرياً وتنظيمها على أساس «سيادة العرق الأبيض». في ذات الوقت الذي كان نيلسون مانديلا يرتب الأمور والخطط لعمليات المقاومة التي يتصدرها «المؤتمر الوطني الأفريقي» من تحت الأرض.

تعثرت المفاوضات حول توحيد ألمانيا بسبب عدم إجماع القوى الأربع الكبرى على صيغة موحدة لذلك. المغرب وتونس كانتا تتحركان نحو الاستقلال. فيدل كاسترو وتشبي جيفارا وثمانية وعشرون من الثوار الكوبيون تم اعتقالهم في مكسيكو سيتي. ثم بعد سنتين كان أن نال السودان استقلاله ولكنه دخل في حرب أهلية طاحنة.

كان ذلك هو العالم الذي ولدت فيه. لقد كنت محظوظاً أن ولدت في أحضان عائلة عطوفة تمتعت بحبها، ولكن منذ بواكير طفولتي نشأت مبتلياً بالكوابيس والهواجس القاتمة بشأن المستقبل. أما الحواجز والتحصينات التي كانت تصد عني تلك المخاوف فتمثلت في ما كنت أتلقاه من عطف ومحبة ظل أقربائي يقدمونها لي على مر الأيام - عصابة من الأعمام والعمات والأخوال والأجداد - وبالطبع أيضاً خلال سنوات دراستي الباكزة.

أما السمة الأخرى المميزة فهي نهر النيل العظيم. هذا النهر يجري على مدى 6.650 كيلومتراً من منبعه حتى مصبه في دلتا البحر الأبيض المتوسط، وهو أطول أنهار العالم.

منذ أن بلغت مرحلة الصبا كان النيل قد سلبني مقومات خيالي كافة، وبطريقة أو أخرى ما زال يفعل. حين مشاهدته من الجو يبدو كزهرة اللوتس العملاقة. وبطريقة أخرى يمكن رؤيته كأفعى الكوبرا المقاتلة تتلوي برأسها الذي ما انفك ينفث سمومه في البحر. إنه بمثابة القلب ومركز العصب لكل من السودان ومصر. إنه العمود الفقري لإفريقيا بل هو مسرح لا مثيل له من التنوع البشري. من المستحيل تحديد هويته، إذ ظل يشق طريقه متجاهلاً كل الحدود البشرية



بما يعني توفير أشياء متعددة ومختلفة لأناس اختلفت مشاربهم وسحناتهم. وبالنسبة للسودان ومصر تحديداً فهو شريان الحياة، يجري ماؤه عبر منطقة مقفرة تشكلها الصخور والرمال، ويستمر متحدياً كل علامات التفاهم بسبب اختلافات الجغرافيا الدراماتيكية التي تكتنفه. في الزمان الغابر كان النيل يعد إلهاً، بأكثر مما يعده الهندوس لنهر اليانج الآن. وهو نهر طويل بالقدر الذي لا يتسنى لأية قبيلة أو ثقافة من الثقافات معرفة نطاقه الكامل. في ستينات القرن العشرين كانت الممرات الجبلية في الجنوب لا تزال تحتل موقعها على الخريطة ولا يزال مصدرها محل استفهام حتى اليوم. لقد احتوى النيل كياني وتشكلت به فترة طفولتي وبقي بالنسبة لي الرفيق الروحي طيلة حياتي. وما يزال يلقي بظلال سحره علي حتى يومنا هذا.

حبيب إلي القول بأني نشأت في مدينة أم درمان. تلك التي تقف شامخة بجوار شقيقها الأكبر الخرطوم على ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، وهو موقع ساحر ربما لا يضاهية أي موقع آخر على نطاق العالم. لو نظرت ناحية الجنوب لأمكنني مشاهدة أرض الأسطورة بريستر جون مؤسس الإمبراطورية المسيحية القديمة في إثيوبيا والقلب الأخضر الكبير للقارة. أما إذا نظرت إلى الشمال فسأشاهد أراضي الفراعنة والأهرامات وكليوباترة... وإذا كان هناك من تناقض ديموغرافي في إفريقيا فهو هنا.

السهول الخصبة الخضراء والمستنقعات والجبال التي تميز جنوب السودان تسكنها مجموعات قبلية إثنية تتحدث أعداداً لا حصر لها من اللغات واللهجات. أما الشمال فهو حار جاف، وجزئياً تغمره صحراء قاحلة وتقطنه كذلك مجموعات من القبائل المتنوعة والثقافات. قبل وقوع الانفصال بين شمال السودان وجنوبه في عام 2011 كانوا يشكلون حوالي ثلاثة أرباع مجموع السكان وفي مجملهم يرمزون للبلاد بإسمها «السودان»، وهو ما كان بعض الناس يعتقدون أنها كلمة عربية قديمة تعني «أرض السود».

كانت أم درمان في ملتقى هذين العالمين الرائعين. حينما كنت صبياً كانت المدينة أصغر حجماً وأكثر حميمية، أما التجوال في شوارعها العتيقة وأطرافها، حتى في الوقت الحالي، فيبدو كأنما يشبه القيام برحلة في الماضي.

لا تزال عربات الركشة الصغيرة وعربات الكارو التي تجرها الحمير تسود المكان. المسلمون والمسيحيون واليهود وغيرهم من السكان يعيشون في تعاون تجاري متفرد، ليس فقط بين بعضهم بعضاً، بل يتنافسون في كل السلع والأمتعة الغريبة التي ترد من أنحاء العالم.

كانت عيناى مفتونتين بما شاهدته من معروضات في سوق الذهب والفضة والأواني المنزلية بأنواعها المتناثرة في أكوام كبيرة، ثم الأكداى الملفوفة من السجاجيد متعددة الألوان، والتصنيفات المتعددة من الفواكه المستوردة. في الزمن الماضي كان السوق يعج بأنواع من جلود الأسود والنمور وريش النعام والذهب من إثيوبيا، والبهارات المختلفة، والعاج وسن الفيل والأعشاب الطبية، والسُحَب المتصاعدة من أدخنة أعواد الصندل والبخور.

كم هو مزج ساحر وتعبئة مسكرة... ذلك كان عالمي، وأسرتي، وبلادي، ونهر النيل.

والدي الطيب إدريس ولد في شمال السودان عام 1915 في منطقة الزورات. وهو ينتمي إلى قبيلة الدناقلة الخرج، وقد يعود أصله ونسبه لحوالي 1400 عام مضت حين هاجر جزء من قبيلة الخرج من شبه الجزيرة العربية أيام الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. لقد ولد في ظروف قاسية للغاية تقريباً. كان والده الشيخ إدريس عبد الحفيظ قد هاجر من دنقلا إلى أم درمان في مطلع القرن العشرين تقريباً واستقر في منطقة كانت مفضلة لدى أنصار الثورة المهدية، وما يزال المنزل الذي شيده آنذاك قائماً حتى يومنا هذا.

جدتي من جهة الأب هي الحاجة النعمة السيد. وحينما كانت طفلة في عام 1890 كان الإنجليز ولاحقاً ما سمي بالحكم الثنائي الإنجليزي المصري قد احتلوا وباشروا إدارة السودان فعلياً. كان سلوكهم تجاه المواطنين العاديين من أبناء البلاد وفي مناسبات متعددة قاسياً وفظاً. وكان السلوك المهين المؤلم الذي انتهجه المصريون في جباية الضرائب مسيئاً للغاية في حق السودانيين. وقد أثار فيهم ذلك التصرف نكرة الغبن والإحساس بالظلم والإهانة مما أدى بدوره إلى القيام بانتفاضة كبرى قاد نضالها المهدي الذي أمكن دراويشه من إسقاط الجنرال غردون وتفكيك دفاعاته.

في الخرطوم. وقبل وفاته كان جدي، الذي أبدى تعاطفاً وحماسة مع حركة العصيان المهدوية، قد نقل عائلته من دنقلا إلى أم درمان واستقر به المقام في منطقة قريبة من موضع قبة المهدي. ولاحقاً أمكنه جمع بعض المال لبناء منزل في الجوار وهو الذي ورثه والذي مستقبلاً.

والدتي أمونة كانت امرأة طويلة القامة نحيفة البنية ذات بشرة شاحبة، وتقليدياً ذات أنف نسري معقوف وعينين سمراوين راقصتين. كانت فخورة للغاية بشعرها الطويل الفاحم اللون، وسبق أن أخبرتني مرة أنها في صغرها كانت تمشط شعرها الذي كان يتدلى إلى كامل ظهرها. وهي كوالدي تعود جذور أسرتها إلى أجيال سابقة وذات أصول تركية ومصرية قوية. كانت امرأة مزهوة بالثقة والأمانة وذات مشاعر خلّاقة وعرف عنها حبها لجميع أبنائها بلا قيود أو شروط. كانت رغم كل شيء حازمة وأكثر صرامة معنا بما يكفيها أن تصدر لمحة صغيرة من عينيها بعدم موافقتها على موقف محدد حتى يعود كل منا إلى قواعده أيّاً كانت تحركاته. كان صوتها حازماً وعطوفاً في آن ولا أتذكر أبداً أن صرخت فينا يوماً. كانت والدة ذات طبيعة إياضية معبرة عن عواطفها فضلاً عن كونها محبة وعطوفة لكل أبنائها، وغريزياً لم يفتها مطلقاً أن تحضن كل واحد منا بعفوية في حالات سفرنا ووصولنا.

حينما يهم أحدنا بالسفر كانت تجمع كمية الرمل التي تنتج من وقع خطواتنا على الأرض وتحفظ بها تذكراً غالياً لديها وتفاؤلاً حسناً بطيب عودتنا من السفر سالمين.

لقد كانت طاهية ماهرة أيضاً ولم يخل مطبخها في كل الأحوال من القدور الضخمة المعبأة بأنواع الشوربة واللحوم المختلفة جاهزة للاستهلاك الفوري. لقد كانت القدور جميعها إما أنها



تغلي... أو تفرقر... أو تنهرس محتوياتها لساعات طوال على ظهر الموقد الضخم ذي الوقود الخشبي، فيما تبقى الطاهية حائمة حولها جميعاً وفي يدها معلقة ضخمة بنية اللون، تارة مبتسمة وتارة عابسة بحسب نوع الطعم الذي تذوقه. كانت الخضروات الطازجة شغفها الأول وقد اعتادت أن تغدو كل صباح إلى سوق الخضروات الواقع على ضفة النيل ثم تعود محملة بأكياس متعددة من الخيار والفلفل الأخضر والفاصوليا والبطاطس والجزر والبصل. كما كانت تعشق حبوب القمح والباشية (وهي خضار يطلق عليه إسم «أنامل السيدات» في الغرب). حينما يكون الموسم متاحاً وفي المناسبات الخاصة اعتادت الوالدة أن تخبز بمفردها رغيف العيش والبسكوت اللذيذ الطعم، وتظل النكهة الجميلة تفوح معطرة أرجاء المنزل.

في ركن من المطبخ كانت لدينا «سحارة» وهي خزانة في شكل صندوق خشبي عتيق حيث كانت تحتفظ الوالدة بداخله قطعاً من الرغيف الطازج وأية بقايا من الرغيف المجفف ملفوفاً داخل أوراق الصحف القديمة. ولم أكن أعلم حتى الآن ما إذا كانت تحتفظ به من أجلنا نحن أم لغذاء الدجاج والأغنام في المنزل.

لم يكن الأمر يهمني بقدر ما كنت أستمتع كثيراً بحلاوة النكهة حينما أتناول قطعة من الرغيف الناشف ثم غمسها في الشوربة الطازجة.

وكانت أفضل أوقاتها عند مغيب الشمس حينما اعتادت أن تفتح أبواب المنزل للزائرين وتعد الطعام الساخن والشاي لمن يفد منهم إلينا. كان لدينا منزل من النوع «المفتوح» ليس فقط للأقارب والأهل بل لكل الزائرين. كان ذلك هو الجانب الخير من طبعها، وبلغ الأمر ذروته في فصل الشتاء حينما يكثر المحتاجون للمساعدة والمرضى جراء زمهرير الشتاء والأمطار الموسمية. وكانت تبادلهم الزيارات وتقدم لهم ما تجود به أياديها عليهم من الطعام وتحببهم بابتسامات البشاشة والنقاء. لم تكن تملك الكثير من المال ولكنها لم تكن تبخل بما في يدها لمن يستحق سواء أكان عامل تكسير الحطب أو المرأة التي ساعدتها في غسل الملابس وكبها أو لمن يطرق الباب في حياء من المضطرين للعون المادي. لقد كانت لها مكانة خاصة في قلوبنا جميعاً ولكن لا أحد منا كان يدرك حجم المأساة التي كانت ستعصف بنا بعد وقت قليل، بالنسبة لوالدتي تحديداً.

كان والدي رجلاً طويل القامة عريض الكتفين تميزه عينا عسلتان واسعتان وشعر أسود اكتسى ببعض الشيب. وكان «حاضراً» دائماً ويحمل مزجاً خاصاً بين الوقار والهدوء، خاصة حينما يضع نظارات القراءة على عينيه. وكان تقليدياً متقد الحواس وصبوراً، وكان اهتمامه بأمور عائلته مما لا تخطئه العين، ويحتفظ دوماً بمجموعة من باكتات السجائر من نوع «روثمانز» و«بنسون أند هيدجز» ويمارس صلاحياته كأبي معلم منغمس في وظيفته يحاول أن يضبط فصلاً دراسياً لتلاميذ مشاغبين. من الغريب الآن تصور أنني ما زلت اذكر هذه التفاصيل الدقيقة بعد كل هذه السنوات. كان مشهد باكتات السجائر الذهبية اللون «بنسون أند هيدجز» لطفل في سني

أمراً مثيراً نسبياً، إنها مستوردات غالية الثمن جلبت من بلاد باردة بعيدة في الشمال، وما زال بإمكانني حتى الآن أن أتذكر ونحن صبية كيف كان بمقدورنا أن نقرأ على جانب الباكete عبارة «صنع خصيصاً للسودان»!

كنا نحب والدنا كثيراً - لقد كان حاذقاً فصيحاً وتغمره روح الفكاهة، وكان كريماً على الدوام وملتزمًا بصرامة بزي السكة الحديد ذي السترة الزرقاء مع جوز الحذاء اللامع السود.

ومع كونه صفحة مفتوحة سهلة القراءة للجميع فقد كان شخصاً هادئاً قليل الكلام، لا يتحدث إلا عند الحاجة لذلك، ورغم تركه مساحة معقولة بينه وبين أبنائه فقد كنا ندرك أن حبه لنا جميعاً غير محدود أو مشروط بشكل يضارع ما تكنه لنا الوالدة من حب. كان دائماً يمنح جل وقته لعمله، ترك مهمة الطهي وترتيب شؤون المنزل للوالدة بسبب أن عمله كان يأخذ منه ساعات طويلة كل يوم. لم يكن منفتحاً بشكل واسع على الآخرين كما لم يكن متكلفاً في مظهره أو تصرفاته، وحين تأتي ساعة الراحة من العمل كان يلجأ للصحف اليومية ومطالعة كتب الآداب التقليدية التي كان يحتفظ بها مكدسة بجوار مقعده. وكانت الوالدة بما لديها من شعور تعلم أنه كان يأتي من العمل متعباً لذا يجب أن يخلد لبعض الراحة لتغيير ملابسه وأداء الصلاة. وعقب تناوله القسط الوافر من الراحة كان يتجه لمساعدتنا في واجباتنا المدرسية، مبيناً لنا الخطوات العريضة لتعقيدات الرياضيات وموضحاً الكيفية الصحيحة لنطق الكلمات الإنجليزية.

كان يأخذ الأمور الدينية بجدية فائقة وملتزمًا بعقيدته بعمق لا يتزعزع، ولكني لم أشاهده يوماً يوعظ الناس أو يبدي إلحاحاً بأن نعمل هذا أو نترك ذاك. كانت تصرفاته تبدو إكليشيه ثابتاً ولكنه عاش على سبيل المثال بأن يكون قدوة لنا، وكانت النصيحة الجيدة التي ظل يقدمها لنا هي أن نواجه بشكل حاسم المشكلات التي تطرأ في حياتنا بدلاً من الهرب منها. كان ذاك هو الوقت الذي قررنا فيه الرحيل عن المنزل.

كان والدي إدارياً كبيراً في ما كانت سابقاً هيئة السكة الحديد ذات الهيبة والوقار. كان قد أنشأها وأورثنا إياها الإنجليز في ثمانينات القرن التاسع عشر. وكان يتولى منصب المدير العام لقطاع الشمال ومركزه كريمة التي تبعد 400 كيلومتر شمال أم درمان. كان يتطلب من كل العائلة - المكونة من الوالد والوالدة وأشقائي الثلاثة الأكبر مني سنًا وهم فريد وصديق وعزالدين وشقيقتي سميرة وأنا - أن نغادر لنبداً حياة جديدة في الشمال. وبالنظر إلى الوراء، لم أكن متأكدًا إذا كانوا راضين عن اقتلاعهم عن منزلهم الذي نشأوا فيه، ولكن على الأقل كنا معاً جميعاً.

لقد كانت رحلة طويلة خاصة لطفل في الخامسة من عمره. وأتذكر أنني كنت أهدق ببصري من نافذة القطار نحو كتبان الرمل المتلألئة التي تجمع خليطاً بين اللونين الأصفر والكراميل، فضلاً عن النتوءات الصخرية التي امتدت لمسافة ثلاثة آلاف ميل إلى أن تصل مشارف ساحل الأطلنطي. كانت حرارة صحراء العتومور عديمة الرحمة تغلي كالفرن وقد تتجاوز خمسين درجة سنتغريد بالنهار وتتندي إلى ما دون الصفر خلال الشتاء، وهي منطقة تتقاطع فيها قبائل البدو،

سفریات قوافل الجمال الطويلة والقبائل العتيقة التي تقيم هناك مثل البدو الموشحين بالثياب السود، والطوارق. كان والدي أساساً قد ضرب في أوتار حاسة الدهشة لدي، محدثاً إياي بصوته الجهوري العميق عن طرق التجارة القديمة والواحات و«الهبوب»، وهي عبارة عن عواصف تحمل كميات ضخمة وثقيلة من الأتربة تجتاح الفضاء الواسع لأيام عديدة. وفي مناطق بعينها تعربد في الأرض الفضاء، التي قد تصل مساحتها إلى مساحة الولايات المتحدة بأكملها، وصولاً إلى مدينة تمبكتو الأسطورية. وعلى الجانب الآخر من عربة القطار، جهة الشرق، أمكنني مشاهدة البداية للجانب المخضر من الأرض متمثلاً في أشجار النخيل الباسقة على حافة نهر النيل الخالد - وهو النهر الذي ترك في نفسي سحراً خاصاً يصعب فك طلاسمه وقد ملك حيزاً كبيراً من حياتي الباكّة.

ذلك القطار القديم ذي الصفيّر المتكرر، فضلاً عن حرارة الجو كانا سبباً في نومي قسراً. وفيما كنت أمسك بيد شقيقتي سقط رأسي على كتف والدتي وأغمضت عيني. ولسبب غريب حقاً ما زال بإمكانني حتى اليوم تذكر ذلك الحلم الغامض الذي رأيته في منامي في ذلك القطار. رأيت في ذلك الحلم أنني بينما كنت ألهو في أيام طفولتي على ضفة النيل حيث تعلمت كيف أصطاد السمك وأبني القلاع الصغيرة من الرمل وحدث أن كدت أغرق في النيل أثناء تعلّمي للسباحة. كنت قد سمعت قصصاً عن تماسيح عملاقة تجوب ضفتي النيل لتسحب ضحاياها من الحيوانات وحتى البشر إلى قاع النهر المضطرب بالحفريات، وبالسفر إلى أماكن بعيدة وأسماء لمدن وبلاد غريبة، وبمعاناة وتحديات جمّة سوف تصاحب مسيرة حياتي. حلمت بأشخاص يشبهون الملائكة... وأسفار في رحلات بحرية وجوية طويلة.

ولكن الشياطين أيضاً كانت تحوم وتحلق كالنسور الجائعة. وكانت الكوابيس قد أخذت فرصتها في غزو سموات طفولتي وملائكة سود يهيمنون دخولاً وخروجاً في أودية اللاوعي عندي. وهناك حلم آخر انتابني في القطار عند عودتنا إلى أم درمان.

انتابني هاجس مزعج بأن والدي قد توفي، وأنني صرت وحيداً هائماً على وجهي على ضفة النيل، وأن مرضاً شديداً قد أصاب والدتي. وحين صحوت من نومي كنت في غاية التشوش والقلق النفساني. ربما كان كل ذلك يعزى لمخاوف الطفولة وقلقها من المجهول وما يتبع ذلك من عدم استقرار للعواطف في حال الرحيل من المنزل، ولكنني شعرت في الوقت ذاته أن العالم يكتنفه التهديد ولم يعد مكاناً آمناً. ثم صوت داخلي، وملاك منقذ، وبعض من غريزة الطفولة، جميعها غمرتني في آن، فتظاهرت بأن لا شيء من شأنه أن يقلقني. وعدت مجدداً للنوم.

وفي هذه المرة حلمت بأني أسير في الصحراء حافي القدمين بصحبة رجل عجوز كان يبدو متوهجاً لامعاً. شاهدت على الرمل آثار أرجل لثلاثة أشخاص، فسألته لمن كان الأثر الثالث من الناس، ولكنه أمرني بالصمت.

بعد مسيرة طويلة مرهقة وصلنا إلى موقع فيه بقعة ضخمة من الماء. الرجل العجوز الذي

لم يكن يتحدث، نطق الآن بقوله: «الأثر الأول للأرجل تابع لي، والأثر الثاني هو أثرك أنت، أم الأثر الثالث فهو لهذه البركة من الماء التي تراها الآن. هذا هو نهر النيل. إنه نهر الحياة». وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لي.

لم أتحدث مع أي شخص بشأن هذه الأحلام المتواترة ولكنني منذ ذلك الحين وحتى الآن ظللت أتعجب من أين جاءت تلك الأحلام. ولكن أيضاً كانت لدي أحلام أخرى أكثر إشراقاً، فما كان يتمثل لي من رؤى في وضوح النهار لأسرتي وما كان يتميز به الوالد من الصلابة والهيبة كانت توثق لذلك. حتى وأنا طفل صغير كنت أفكر ملياً في مستقبل حياتي. أين سأعيش؟ هل سوف أتزوج؟ ما هي سبل كسب عيشي في الحياة؟ كنت أعلم أن لدي رغبة قوية في السفر لمشاهدة المزيد من هذا العالم الساحر الذي أسرني كثيراً، وكان لدي إحساس قوي بأنه أياً كانت الجهة التي سأسافر إليها سوف تكون في عالم بعيد عن مقر أسرتي وأسلافي.

أخيراً بدأ القطار يتهادى بصفيhre نحو محطة كريمة. انتهت الرحلة وأخذ القطار يرتجف مراراً إيداناً بالتوقف التام ثم أخذنا إلى مسكننا الجديد. كان منزلاً كبيراً غريب الشكل بني على الطراز القديم في تسعينات القرن التاسع عشر بواسطة الإنجليز كمقر لرئيس هيئة السكة الحديد الجديدة في المنطقة. كان المنزل مطلياً باللون الرمادي من الخارج ويحوي صالة استقبال ضخمة على المدخل. وكانت تزينه حديقة كبيرة لولبية الأشجار في المقدمة وبستان للفواكه في الخلف يعج بأشجار الجوافة والبرتقال والليمون والمانجو والنخيل. وكان يشرف على المسكن رجل مسن وقور إسمه عم الفيل، الذي استقبلنا بكثير من التقدير والترحاب. كان منزلاً مدهشاً في شكله العام ولكنني منذ البداية شعرت بشيء مخيف تجاهه. ربما كان ذلك لكوني في مرحلة تفاعل الطفولة فائقة الحساسية، ولكن سرعان ما تأكد لي ما كنت أخشاه.

بعد بضعة أسابيع بدأنا نسمع شائعات على استحياء من جيراننا الجدد الذين بدأوا يتهايمسون بأن هذا المنزل «مسكون» أي كان مرتعاً للجن، كما أن والدتي وجدتي التي حضرت لاحقاً لتقييم معنا قد مرتا بأوقات عصيبة مخيفة في المنزل. وكان لدينا أيضاً خادم منزلي شاب إسمه رابح أراد أن يخبرنا كم كان المنزل مرعباً إلا أن عم الفيل رمقه بنظرة حادة واضعاً أصبعه على شفثيه في زجرة ذات معنى توقف بعدها رابح عن الحديث في هذا الشأن.

وذاذ ليلة مظلمة عاصفة في كريمة كانت أشجار النخيل بسببها تكثر من الصفير والتمايل الشديد في حديقة المنزل، لم أجد بداً من البقاء ساكناً على الأريكة بجوار والدتي. كان والدي بعيداً في مهمة تتعلق بعمله وكنا لوحدا أنا والولدة في الغرفة، أما اشقائي وشقيقتي فقد اختاروا غرفة أخرى وكنت أشعر بسعادة غامرة إذ استأثرت بكامل رعايتها دون مشاركة من أحد وهي تحكي لي قصصاً ما زلت أتذكرها حتى يومنا هذا. كانت القصة الأولى تتعلق بمنزلنا السابق في أم درمان. كان هناك مجموعة من الصبية بمن فيهم أبناء عمومتي وقد أخذوا يتصايحون بالخارج حينما شاهدوا جدي يطارد شيئاً ما. وفيما خرجت جدتي من المنزل تستفسر الأمر كانت

عمتي تصبح بشدة قائلة إن المرأة العجوز بجوار النافذة قد غادرت فجأة. لم تكن أياً من والدتي أو جدتي ممن يعتقدون بوجود الجن (الأشباح) ولكنهما أقسمتا بأنهما شاهدتا المرأة العجوز وهي تتحول إلى قطع متوهجة من الضوء ثم ذابت في النيل مباشرة. ربما كانت تلك القصة انعكاساً لما **يعتور** الخيال المنهك من رؤى، ولكنها بقيت في ذاكرتي، بل أضفت إلى ذخيرتي المتنامية من المعرفة بأن هناك من الأشياء في الأرض والسماء أكثر مما في إدراكنا.

هناك حادثة مخيفة أخرى حدثت في أم درمان حينما كنت في الرابعة من عمري وكنت أنام في الغرفة ذاتها مع والدتي. كنت في حاجة قوية للنوم ولكني بقيت أغلب النوم حتى أحظى بسماع حكاياتها عن العرب البدو في الصحراء، وعن طرق التجارة القديمة، وعن القصص الرهيبة التي تحكي عن ضياع قوافل الجمال البرية واختفائها في الصحراء، ولا بد من قصص آثار الممالك القديمة التي تكالبت عليها رمال الصحراء فغطتها كلية. وفي اللحظة التي قررت أن أنهض من نومي راجياً والدتي أن تتوقف عند هذا الحد لأنني لم أعد أستطيع مقاومة النوم، شعرت بأنني قد قذف بي في الهواء فجأة مع المرتبة التي أنام عليها. طارت بي عالياً في الهواء ثم أعادتني بقوة إلى السرير. أصبت بالهلع الشديد وصرت أصرخ عالياً. جاءت والدتي مسرعة لتهديتي وكانت تصر على أن ذلك لم يكن أكثر من حلم مزعج، ولكن لم يمكنها تفسير لماذا كانت المرتبة وقتها في موقع آخر وفي شكل مختلف تماماً! قد يبدو الأمر ساذجاً الآن ولكنه حقيقة ظللنا أنا ووالدتي مستيقظين طيلة الليل بشأنها. بقيت مفتوح العينين يملؤني الخوف إلى أن عاد والدي من العمل في الساعات الأولى من فجر اليوم التالي.

حينما كنا في كريمة اعتاد والدي أخذ الأسرة جميعها إلى رحلة في الصحراء في يوم الجمعة نهاية كل الأسبوع. لم يحدث أبداً أن كنت على علم بأي اتجاه عن مسيرتنا، ولكن متى ما بدأ والدي يتحدث كانت تتكشف لي صورة مذهلة عن إفريقيا في العصور الأولى.

بعد رحلة مرهقة على ظهر سيارة ساخنة وصلنا إلى إهرامات مروي التي تبعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من كريمة. لم تكن هناك طرق معبدة أو أسفلتية واضحة العالم، فقط هناك طرق ترابية عادية من النوع الذي تمحوه العواصف الترابية في أي وقت، وكان يملؤني الخوف من أن نضل طريقنا في الصحراء فنموت عطشاً. كان هناك حوالي مائتين من الأهرامات متناثرة على الضفة الغربية من النيل، وفي مجملها عبارة عن مدافن لملوك وملكات الفراعنة وتحفهم وآثارياتهم، وقد بنيت خلال القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد. كنا في وسط مملكة كوش النوبية التي بدأت نهضتها قبل ألف سنة تقريباً عقب سقوط الأسرة الفرعونية المصرية الرابعة والعشرين إلى الشمال. ويعد هذا الموقع قلب المملكة والذي عرف لاحقاً في الأدب التقليدي بأنه «جزيرة مروي». وبسبب بُعد موقعها فقد ظلت المنطقة عصية على الجذب السياحي العالمي إلى حد ما، إلا أن القلة من زوارها السياح كانوا يغادرونها وهم في قمة النشوة. وربما كنت وقتها صغيراً بقدر لا يؤهلني من تقييم ذلك التاريخ المدهش، ولكن كان لا بد لشيء

ما أن يعلق في ذهني، ومع تطور العمر بدأت أنقب بهمة كبيرة في المكتبات لكي أحصل على المزيد منه.

تأقلمت فوراً على حياتي الجديدة في كريمة. لم أكن مهياً بعد للدخول في مدرسة منتظمة، لذا التحقت بمدرسة دينية غير رسمية، وأذكر أننا كنا نجلس على الأرض الرملية ونحرق بأعيننا نحو سبورة خشبية متهالكة. هنا تعلمت أن أكتب الكلمات الأولى في اللغة العربية كما حفظت شيئاً يسيراً من القرآن الكريم. لم تكن مقدمة طيبة لتعليم الصغار... لا توجد نوافذ للتهوية، وكان مصدر الضوء الوحيد في الغرفة عن طريق بابها ونافذة صغيرة على السقف، لذلك كانت مظلمة فضلاً عن درجة حرارة لا تطاق.

التنظيم لم يكن له وجود. كان التلاميذ وآباؤهم يجوبون أرجاء الفصل الدراسي كما يحلو لهم. لم أمكث هناك كثيراً وكانت بداية دراستي الرسمية في أم درمان حينما بلغت السادسة من العمر.

بعد انقضاء سنة كاملة في كريمة انتقلنا مجدداً إلى أم درمان، وكما سعدت بالعودة إلى منزلنا الحقيقي حيث أمكنني بعد فترة وجيزة بداية رحلة دراستي. في أُمسية إحدى ليالي ديسمبر شديدة البرودة أخذني والدي معه لمتجر قريب لشراء رغيف وزيت للطعام وصابون. وكان الدكان الصغير يمتلكه ويديره طيفور وهو شخص فظ التعامل، قصير القامة لديه شلخ صغير في خده الأيمن. ينظر إلى العالم بنظارة سوداء قديمة جعلت عينيه وكأنهما قطعتان من العنب الأكبر حجماً. وكنت قد اصطدمت من قبل مع طيفور في مناسبة سابقة لذا ظللت متحفظاً من ظهوره. كنت متضايقاً بشدة من هذه الرحلة القصيرة ولكنني اعتقدت أنها ربما كانت فرصة طيبة بأن يجود علي والدي بشيء من القصص اللطيفة أثناء الطريق. ولكنه على أية حال كان يسير بهدوء حتى وصلنا الدكان أخيراً. الدكان لم يكن أكثر من جراج مسقوف من الطوب الآجر قائم على جانب من منزل صغير ذي طابق واحد. لم يكن به باب محدد للدخول وكان على والدي الانتظار ريثما يمكنه ان يلج المدخل المعتم.

خرج طيفور من الظلام الدامس ونظر إلينا بكآبة ولم يقل شيئاً. كان يلبس كما السذج (الديكنزيين)، قميص طويل من الخاكي وبنطلون أسود قصير تشوبه الكثير من بقع الزيت والطعام. كان «الدكان» شيئاً لا يصدق، وسجائر، وكبريت، وأطعمة انتهت صلاحيتها، ولعب أطفال وأقلام رصاص، وفحم، وكراسات لا تخلو من بقع الحبر عليها، ومطرقات ومسامير عادية وصحف قديمة ومسامير لولبية وآلات نفخ العجلات، وزجاجات من سائل البرافين (الجاز) وكميات متنوعة من الخردة تم تكديسها في أكوام عشوائية حتى وصلت إلى السقف. وأمكنا أن نشاهد فقط جزءاً من هذا لأن طاولة البيع (الكاونتر) كانت على مستوى الرأس مما جعلها تشكل حاجزاً بين طيفور وزبائنه.

أما والدي الذي لم يكن على الأقل متوتراً من مظهر طيفور، طلب منه بتأدب أن يبيعه رغيفاً



طازجاً وزيتاً وصابوناً. أعقب ذلك فترة صمت صغيرة، ثم دلف طيفور بعد همهمة خافتة إلى داخل العتمة في ما اعتقدت أنها ستكون مهمة غير موفقة. ولكن لدهشتي فقد رأيته يحمل كل متطلباتنا في صندوق صغير من الكرتون. وبعدها أخرج دفتر حساباته.

«هل تود أن تدفع الآن أم لاحقاً؟»، سأل مستفسراً والدي. في تصوري أن تلك كانت محاولته ليبدو فعالاً، ومع ذلك لم يوفق. لقد سقطت بعض الأوراق المتسخة من الدفتر المهترئ أصلاً فيما ظل طيفور يواصل خربشاتة المحمومة على ما تبقى من أوراق بقلم رصاص قصير مكتنز.

«سأدفع الآن يا طيفور»، رد عليه والدي شاكراً ومودعاً ببعض عبارات المجاملة، ثم قفلنا راجعين إلى المنزل. كنت مندهشاً من تصرف والدي مع طيفور وسألته لماذا كان رقيقاً لطيفاً مع من كنت أظن أنه اللؤم بعينه. أعطاني إجابة قصيرة، وأعتقد أنها أجملت تفهمه الغريزي للتفلس البشرية وتعاطفه مع الناس. أخبرني بأنه عثر على فقرة في إحدى السير الذاتية كان لها وقع قوي في نفسه، وهي تقول: «غالبية الرجال يعيشون حياة ملؤها اليأس». أصبت بالارتباك من الوهلة الأولى ولكن عندما أضاف بقوله إن طيفور لم يكن رجلاً غنياً ولكنه فقط كان يحاول العيش بالكاد، بدأت أتفهم ما كان يقصده تجاه طيفور، وهو أنه رغم سلوكه غير الطبيعي إلا أن بداخله رجلاً كريماً طيب القلب.

ثم حدث شيء مثير للدهشة أثناء عودتنا للمنزل.

رأيت رجلاً شبه عار متقرصاً على الرصيف. كان ماء المطر يتصبب من كتفيه بغزارة وهو يرتعد بقوة من البرد. قطعة الملابس الوحيدة التي على جسده بطانية رمادية اللون كان يلفها حول وسطه. وكان واضحاً من بنيته النحيفة وأصلحه البارزة أنه يتضور جوعاً. رمقته بنظرة يائسة تحرك بعدها والدي نحوه يحمل بعضاً من الرغيف الذي اشتريناه للتو بعد أن لفه في قطعة من القماش وأعطاه للرجل. ليس بإمكانني أبداً أن أنسى تعبيرات الشكر والعرفان التي بدت على أعين الرجل حين امتدت يده النحيفتان لتسلم الوجبة المتواضعة. ثم، ولذهولي، رأيت والدي ينزع عمامته وأيضاً الشال الملحق معها ثم بدأ يضعهما على جسد الرجل. بداية أحجم الرجل وتراجع للخلف لشعوره بالحرج ولكنه أذعن أخيراً وأحنى هامته تقديراً لقبوله الهدية. كنا على مقربة من محطة للبص، وكل ما حدث كان أمام مجموعة من الناس، بمن فيهم قلة من تلاميذ المدارس، تجمهروا لمراقبة ما حدث.

كانوا يتجادلون ويصيحون، ليس تجاه والدي، وإنما في ما بينهم وكانوا مشدوهين بما كانوا يشاهدونه أمام أعينهم. ثم فجأة ران عليهم الصمت حينما هب رجل عجوز رافعاً كلتا يديه إشارة للتحديث. أعتقد أنه كان معلماً دينياً أو ما شابه ذلك، لأنه استطاع أن يتلقى استجابة سريعة من الناس بالإنصات له. لم يمكنني سماع كل ما قاله ولكني علمت لاحقاً أنه وصف ما فعله والدي من تصرف باعتباره «عملاً مباركاً»، وبالتالي إذا كنا فقط قادرين على أن نحذو حذو هذا العمل لأصبح العالم مكاناً أكثر جمالاً وعطفاً. لاحظت أن والدي كان ينصت باهتمام ملحوظ لما كان

يقال، وفي طريقنا للمنزل أمسكت بيده بقوة. وكم كنت فخوراً به.

تقليدياً لم يعلق والدي بأي كلمات عن الحادثة ونحن في طريقنا للمنزل. إنه لم يكن بحاجة لذلك. وما فعله كان قد ترك أثراً عظيماً في عقلي. لم أنس أبداً مثاله ذاك، وقد ارتفع مستوى احترامي له بشكل كبير منذ تلك اللحظات. أعتقد أنه في بعض المخطوطات الدينية هناك قصة عن السامري الطيب الرجل الذي وجد شخصاً غريباً وليس من ملته أو عشيرته والذي كان قد تعرض للسرقة وهو ينزف دماً وفاقداً للوعي وملقى على جانب الطريق. وبدلاً من تركه للموت أخذ يضمّد جراحه بل أعطاه ملجأً لحمايته. ذلك كان والدي.



## الفصل الثاني

### حكايات أولاد الأرض الأوائل

«الحكمة عطر الحكيم»  
(كامل إدريس)

«ماذا عسانا أن نخبرك؟ حكايات، حكايات رائعة، عن السفن والنجوم والجزر  
حيث يرقد الرجال الطيبون...»  
(جيمس إلروي فليكر، شاعر إنجليزي. 1884 - 1915)

◀ كان النيل سبباً في تحديد طفولتي وتلوينها. وأعتقد أن قدماء الأغريق كانوا سوف يطلقون علي إسم «نيمفوليت»، وهو الشخص الذي وقع خياله أسيراً للماء الجاري. لم يحدث لي أبداً أن مللت من مراقبته أو حتى مجرد التفكير في ذلك، بل أشعر بأن هناك شيئاً إعجازياً يكمن في أمزجته المتغيرة على الدوام، فتارة يكون حنيناً هادئاً وأخرى تجده عنيفاً عاصفاً ومتوحشاً. وفي مخيلتي هو رمز للديمومة بل حتى السرمدية والخلود، كل ذرة من هوائه الطيب مكثفة بعقب الماضي. كنت قادراً على البقاء جالساً على ضفافه لساعات وأظل مأخوذاً دوماً بسرياته اللامنتهي، تأثهاً في أعجوبة أن كل قطرة صغيرة منه في طريقها إلى البحر البعيد هناك... إلى الأبيض المتوسط في أقصى الشمال. إذا نظرت إلى رحاب أكبر اتساعاً لرأيت أسراباً من طيور البلشون والرفراف الأبيض (طائر الرهو) وعصافير السنونو وآكل النحل الأخضر والجمع الطائر

ثم الفلامنجو الجميل ذي المنقار الأحمر، تحوم كما تشاء وتقفز داخل الماء في سعيها الدؤوب بحثاً عن طعامها. وحين يجول بصري إلى أعلى كنت أرى أسراباً ضخمة من طيور اللقلق البيضاء المهاجرة وهي تتخذ من النيل مرشداً ملاحيّاً لها في رحلتها الكبرى إلى أوروبا للتعايش هناك. وربما كنت وقتذاك قد قطعت عهداً على نفسي في اللاوعي بأنني يوماً ما سوف أحذو حذو هذه الطيور رغبة في اكتشاف الأرض البعيدة اللامعروفة لدي.

كان النيل أيضاً وسيلة عبور في الماضي. وأنا صبي بما يكفي لمعرفة أن الأسلاف الأوائل لإفريقيا حينما وصلوا إلى النيل وذهلوا بصفافه العملاقة، وقتها كانت مياهه لا تزال جارية عبر مساحات طويلة من التاريخ امتدت لمئات الآلاف من السنين. وفي تصوري أن ذلك كان أمراً مدهشاً. أعتقد أن غالبية البشر يحتفظون بذكريات غالبية في أوقات من العمر حينما كانت الحياة تمضي في وئام جميل، ربما ذلك في صغرهم وهم يملكون قلوباً صافية وسرائر نقية، لذا أراه أمراً مهدتاً ومطمئناً في استعادتي لذكرى تلك الأيام الرائعة وأنا طفل صغير أمارس هواية صيد السمك على ضفاف النيل. وحينما كبرت قليلاً صارت لدي عادة التمدد الهادئ على ضفة النيل، بعيداً عن صخب المدينة المحموم حيث كنت أنشد الهدوء ويروق لي أن أظل طويلاً هناك كي أنعم بمياهه الجارية. وحينها تختفى العديد من هواجس الحياة من قلق أو فتور، وما هي إلا لحظات قليلة حتى يخيم هدوء القرون الماضية على روحي فيسكتها ثم يتتابني الإحساس بالصمت المطبق الذي يأتي هامساً عن فجر الإنسانية. إن المنظر الذي كان أمامي ذو صلة لما قبل التاريخ، لم يتغير شأنه شأن النجوم التي تشع من السماء في بساطتها الأزلية. وكان علي أيضاً أن اكتشف بأن قدماء الإغريق كانت لديهم كلمة رائعة أخرى هي «تيمينوس» وذلك ما كنت بصدده. بالنسبة لهم كانت وصفاً لمكان مقدس، وملاذاً يضم كل وسائل التعافي ونعم الشفاء. وبدوري كنت أعتر بهذا الإحساس للتواصل الروحاني معهم.

ما زالت تراودني تلك الأحلام الغريبة ولكن يبدو أن النيل قد مسحها بعيداً فيما ظل يسري جريانه بهدوء على مر الأيام.

هناك شاعر إنجليزي كان قد وصف تلك اللحظات بعبارة «ديمومة البهجة»، بمعنى، رؤى الماضي أعيد جمعها في رحاب الطمأنينة، لتهب ثقلاً من الأعاصير الوعرة للوجود. اكتسحني النيل بحبائل إغرائه. كيانه الضخم وتاريخه الذي لا يضاهاى كان قد اختلط بالدم في عروقي. وهو «نهر الإنسان القديم» أما بالنسبة لي فقد كان عالمي بأكمله. وكم كنت مفتوناً أيضاً بالصورة التي يلتحم فيها النيل الأبيض مع الأزرق ثم سريانها معاً في هدوء شديد إلى الأمام، الأول يتهادى بلونه الكريمي المغبر ليلتقي أخيراً مع رصيفه الثاني بمياهه بنية اللون المطمورة بالطيني. ومن بين أوهام أواخر عقدي الثاني كنت أتخيل أن اندماجهما ذاك إنما هو شكل مجازي يرمز إلى ما يعتور البشرية من مشكلات.

المصير، والرحلة، والتوتر اللامحدود حول العنصر والدين... كلها مما يمكن تهدئتها وتسويتها،

حتى مع وجود التيارات القوية والفيضانات والشلالات الخطرة على الطريق. أليست الدلتا العظيمة المسالمة الواقعة على بعد آلاف الكيلومترات إلى الشمال استعارة أخرى من السماء، وأليست كل المصادر الواردة هي رموز لميلادنا جميعاً؟ قد يبدو ذلك تحليلاً غريب الأطوار ولكنني على أية حال اختزنه في عقلي الشاب.

كان ذلك هو الوقت الذي سبق دخولي إلى عالم الدراسة مباشرة حيث أمضيت أياماً سعيدة عديدة مع بعض أقراني استمتعنا فيه بصيد الأسماك على ضفة النيل والسباحة إلى جزيرة توتي. وهي منطقة مساحتها حوالي ثمانية كيلومترات مربعة تغلب فيها زراعة بساتين الفواكه وحقول الخضروات وعادة تفيض حاجتها من هذه المنتجات، وتقطنها منذ قرون عديدة قبائل المحس وآخرون - وتقليدياً هم مزارعون وصائدو أسماك. وقد أحببتها كثيراً. وكنا في الزمن الجميل نستخدم دودة الأرض كطعم في صنارة الصيد لنصطاد بها نوعاً من السمك إسمه البلطي ونوعاً آخر من أسماك الفرخ ذي الزعانف الحادة. لم تكن الحصيلة عموماً من الحجم الكبير ولكن حُق لنا أن نفخر بصيدنا الذي كنا نحمله في حاويات صغيرة إلى منازلنا لننعم بوجبة عشاء مسائية عائلية دسمة. وكانت والدتي تشهق فرحاً حينما آتي محملاً بصيدي واضعاً إياه على منصة المطبخ. وبعد قيامي بعملية تقطيع السمك وإعداده تتولى الوالدة شواء السمك على نار مكشوفة في فناء المنزل، وفي ذات الوقت كنت أتلقى عبارات الاستحسان من إخوتي الكبار وهم يربتون على ظهري وفي أيديهم أكياس الرغيف الحار والسلطة استعداداً للوليمة.

وفيما كانوا يمدحونني بقوة، كانوا أيضاً يحاولون إثارتي وغيظي بأنني الأصغر في العائلة والحلقة الأكثر ضعفاً فيها. لم يكن لديهم أي قصد سيئ بالطبع وإنما هي طريقتهم في تذكيري بترتيب مكانتي في ما بينهم - ومن هو الأكبر عائلياً. لم أزل أذكر تلك الأيام جيداً حتى اللحظة ومتى أتيح لي أن أشم عبق بخور يحترق، أو أعشاب، أو رائحة لحم مطبوخ في أية أمسية دامسة، كانت السنوات الطوال تنجرف سريعاً لتعود بي الذاكرة إلى ذلك الطفل الصغير الذي تربى في كنف أسرته.

كسبت العديد من الأصدقاء ممكن كانوا يشاركونني صيد السمك على ضفاف النيل، ولكن من لا زلت أذكره جيداً كان إسمه الهادي آدم.

وكان يطلق عليه أيضاً إسم «ولد ناس البحر» وتعني «ولد أهل النيل». كان عمره حينها حوالي ثماني سنوات، طويل القامة دائم الابتسامة ذو بنية قوية ودائماً تكون يده وأظافره ملطخة بالطين. كان تلميذاً ذكياً في المدرسة ولكن قدره أن يغادر المدرسة مبكراً لمساعدة والديه في مشقة الحياة. ويسودني اعتقاد بأن ثقته في نفسه نتجت من حقيقة معرفته أن مستقبله سيكون تماماً كمستقبل والده وجده. وكان سعيداً للغاية بذلك. كانت عائلته فقيرة، وأمكنها أن تجد مقرأً مناسباً لها بالقرب من النيل مباشرة، ولكنهم كانوا ذوي رقة وتأدب ويتعاملون بأخلاق الأرستقراط. وفي خارج عُشَّتْهم الصغيرة كانوا يزرعون بعض الحبوب والخضروات الموسمية،

شأنهم شأن ست أو سبع عائلات مجاورة لهم في السكن. وكانت جل حياتهم تتركز كلية على النيل. كانوا يستحمون ويغسلون ملابسهم في النيل، ويأكلون مما يصطادونه من السمك وبييعون ما تبقى من حاجتهم.

كانت حياتهم معرضة للخطر في ذلك الوضع، إذ غالباً ما يجتاح النيل في أوقات الفيضان كل مساكنهم الهشة ويجعلها كالقوارب الطافية على سطحه ومع تياراته القوية يأخذ معه كل ممتلكاتهم. وكم أدهشني كثيراً قبولهم لهذه الطريقة التي رضخوا لئن تظل حياتهم على شاكلتها. ولم يكن الخوف أبداً عنصراً مؤثراً لديهم في حالات فيضان النيل مهما ارتفعت مستوياته.

وقد أسرني كثيراً، حتى وأنا طفل وقتها، أن أعلم كم صعبة هي الحياة ومحفوفة بالمخاطر. كما دهشت أكثر بهدوئهم وتسليمهم بالقضاء والقدر. كان يبدو عليهم قناعتهم التامة بأن مقاليد أمورهم وحياتهم بيد الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن كل نوااميس الحياة ستنتهي بشكل طيب - وهي فلسفة بسيطة وجدت أنها بالفعل مطمئنة. كنت وقتها أتعلم العديد من الدروس التي استقيتها من وجودي على ضفة النيل، وكنت ازداد إعجاباً بما لدى هؤلاء القوم الفقراء من ثبات وقدرة على تحمل الصدمات مع بساطة حياتهم التي اعادوا عليها. كانت فيضانات النيل بالنسبة لهم عنصراً مدمراً، ولكنها في الوقت ذاته سبباً في ازدهار حياتهم إذ بعد انتهاء الفيضان وعودة النيل إلى حجمه الطبيعي ترشح كميات ضخمة من الأسمدة والمواد المعدنية على أراضيهم. وحينما يحين الوقت المناسب تراهم يزرعون كميات أكثر وفرة من الحبوب والمحصولات على أراضيهم الغنية بالطمي، تماماً كما كان يفعل أسلافهم الذين عاشوا هنا قبل مئات السنين.

وقد أسرني كثيراً، حتى وأنا طفل وقتها، أن أعلم كم صعبة هي الحياة ومحفوفة بالمخاطر. كما دهشت أكثر بهدوئهم وتسليمهم بالقضاء والقدر. كان يبدو عليهم قناعتهم التامة بأن مقاليد أمورهم وحياتهم بيد الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن كل نوااميس الحياة ستنتهي بشكل طيب - وهي فلسفة بسيطة وجدت أنها بالفعل مطمئنة. كنت وقتها أتعلم العديد من الدروس التي استقيتها من وجودي على ضفة النيل، وكنت ازداد إعجاباً بما لدى هؤلاء القوم الفقراء من ثبات وقدرة على تحمل الصدمات مع بساطة حياتهم التي اعادوا عليها. كانت فيضانات النيل بالنسبة لهم عنصراً مدمراً، ولكنها في الوقت ذاته سبباً في ازدهار حياتهم إذ بعد انتهاء الفيضان وعودة النيل إلى حجمه الطبيعي ترشح كميات ضخمة من الأسمدة والمواد المعدنية على أراضيهم. وحينما يحين الوقت المناسب تراهم يزرعون كميات أكثر وفرة من الحبوب والمحصولات على أراضيهم الغنية بالطمي، تماماً كما كان يفعل أسلافهم الذين عاشوا هنا قبل مئات السنين.

إن ما يميزهم من تواضع جم مع عقيدتهم القوية وإيمانهم الراسخ بالله، يأتي متسقاً تماماً مع طيبة قلوبهم وحسن معشرهم. كانوا أسرة كريمة ومرحبين بضيوفهم دوماً، وكانوا غالباً ما يدعوني لمشاركتهم وجبات من العدس اللذيذ والسمك والخبز المصنوع محلياً وأتناول معهم كوباً من الشاي بالنعناع الذي يتم إعداده عادة في الهواء الطلق خارج الكوخ.

أتذكر يوماً وفيما كنا نحتسي كوباً من الشاي، كان الهادي آدم يراقبني بتفحص شديد مع نظرات غريبة في وجهه. وكانت نظراته قد سرحت به نحو النيل. وفجأة انتفض واقفاً على قدميه. «انهض» صرخ في وجهي، «سوف تتعلم السباحة!» فأصبت بالذعر.

كنا نصطاد السمك على بعد مئات الأمتار فقط من مقرن النيلين، ومع أن مياه النهر كانت ضحلة على الضفة، فإن العمق كان يصل أيضاً إلى حوالي ثمانية أمتار تقريباً في المنتصف، وكانت ترد تيارات قوية بين الفينة والأخرى.

لم يكن ذلك مصدر خوفاً الوحيد - رغم أنني لم أشاهد أياً منها فقد سمعت كثيراً عن تماسيح النيل آكلة البشر التي تجوب المياه الضحلة بحثاً عن ضحاياها. كانت تسبح تحت الماء وتظل ساكنة بلا حراك كما الكتلة الصماء وتنتظر قدوم أحد ضحاياها لتلتهمه. لا يمكن للمرء رؤيتها حتى تنبعث بقوة على الضفة لتخطف ضحيتها. كما سمعت أيضاً قصة المكتشف الذي شاهد صيماً يبكي على ضفة النهر وبجوار تماسيح ميت كان قد ابتلع جدته. وكان الصبي قد باع التماسيح مقابل مبلغ من المال وبداخله جثة جدته! التماسيح لديها أعين صفراء ضيقة الفتحة وصفوف متراسة من الأسنان البيضاء شبيهة بمفاتيح آلة البيانو، ولديها حاسة شم قوية للغاية وبمقدورها أن تحدد بالضبط الوقت الذي ينزل فيه الشخص إلى الماء. لذلك كنت خائفاً ولكن الهادي نزل سابحاً غير عابئ بأي شيء في العالم، وبدأ يضحك حينما أبدت له مخاوفه. ثم أشار إلي بالنزول إلى الماء.

«وماذا عن التماسيح؟»

«ملعوننة هي التماسيح!» صرخ في الماء.

«ولكنها ستلتهمنا. وعلى أية حال أنا سوف أغرق!» صرخت محتجاً.

«إنك لن تغرق وحتى إذا هاجمتنا سنضربها على أنفها ثم نأكلها!» هكذا رد علي.

لم أكن مقتنعاً بما يكفي. بدأت أخوض بحذر شديد داخل النيل، وفي ذهني توقع بأن رجلي سيتم قضمها حالاً، ولكن لا شيء حدث. كان الماء دافئاً - ولم يكن سوى تيار خفيف وحينها جاء الهادي آدم سابحاً تجاهي.

انتصب واقفاً أمامي موجهاً بأن أخفض رأسي تحت الماء، بما يمكن تسميته التمرين على الغرق مسبقاً. كنت مجبراً على الأداء ولكنه ضغط علي لأجلس على الماء ثم ضغط على رأسي بهدوء إلى الأسفل. شعرت بحسرة في الحلق فنتج عنها بعض الكحة وإخراج اللعاب ولكنني لم أمت كما أن التماسيح لم تكن قد ظهرت بعد. وتدرجاً بدأت مخاوفني تتبدد، وبعد يومين أو ثلاثة وجدت نفسي أسبح بجواره، ورغم أن سياحتي لم تكن بالقوة اللازمة، إلا أنني أصبحت أطفو على الماء وأتحرك قدماً. وأخذ بعض الصبية ينضمون إلينا. وما زلت أتذكر أسماء بعضهم حتى اليوم وغالباً ما أجول بخاطري عما حدث لكل منهم. وكانوا عصمت عباس، وأحمد حامد، وعثمان دارصليح، وكردش، وصلاح عباس وابن عمه محمود.

أصبحنا الآن عصابة وقد نصب الهادي آدم نفسه رئيساً عليها، وبالطبع بدافع من صغر السن والجهل، أصبحنا نبحث عن بعض التحديات. أعلن لنا يوماً أننا سنمضي سباحة إلى جزيرة توتي لزيارة المزارعين هناك. بدايةً اعتقدت أنه كان يمزح ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد بدأت العصابة في التوجه نحو النهر. ولكنني تراجعت إلى الخلف يملؤني الخوف. كنت أقلهم حجماً وأصغرهم سناً وأعلم جيداً أن مشاركتي تعني سباحة لفترة ساعة على الأقل لأن النهر كان فائضاً وقتها وقد بلغ عرضه حوالي كيلومتر ونصف الكيلو. وعلمت أيضاً أن هناك تيارات قوية تحدث في منتصف النهر... لذلك لم أود أن أفقد ماء وجهي أمام الآخرين فتراجعت بخطى متثاقلة إلى الوراء. كان بوسعي أن أجرى من الموقع، ولكنني أخيراً أخذت نفساً عميقاً وقفزت إلى الماء. بدا الأمر طيباً في البداية إذ كان بإمكانني التجديف لمسافة طويلة على الماء ولم أكن أسبح بشكل كامل إلا عند المياه العميقة بالضرورة... وأياً كان الأمر، وعند منتصف المسافة تقريباً بدأت أشعر أن جسمي ظل ينسحب عكس الاتجاه بسبب التيار القوي للماء، واضطرت أحياناً إلى ابتلاع الماء مع بعض الكحة نتيجة الاختناق. بذلت كل ما لدي من طاقة لكي أواصل مكافحة التيار إلا أن يدي وأرجلي صارت ثقيلة إلى حد كبير وأخذ التيار يجرفني معه. وهنا شعرت بقية المجموعة بما كان يحدث لي فانقلبوا تجاهي في قلق شديد. تمكن إثنان منهم من التقرب نحوي وأخذوا يدفعاني دفعاً إلى الأمام. وكنت أحاول دائماً أن يظل رأسي خارج الماء وبعد فترة وجيزة أمكنني السباحة بمفردي. وفيما كنا نقرب من الجزيرة كنت أسمع صراخهم وتهليلهم بما حققته. وكان ذلك دافعاً مشجعاً لي... وأخيراً وصلت إلى الشاطئ.

خرجت من الماء وأنا أجد على أربع من جراء الإرهاق واستخرجت ما علق بحلقي من ماء أثناء السباحة، وازددت ثقة وكنت فخوراً بنفسني. وما لم نكن نعرفه هو أنه طيلة الرحلة كان لدينا متفرجون هم مزارعو الجزيرة وقد اصطفوا لمراقبتنا وتشجيعنا. أولئك الرجال المسنون كانوا فقراء للغاية. وكانت ملابسهم الوحيدة عبارة عن قميص طويل أبيض اللون مع سروال قصير قديم ومهترئ، كانوا يراقبون سباحتنا وقد استقبلونا بحرارة وبشاشة ودعونا لتناول معهم وجبة الغداء. كان طعامهم لذيذاً بحق. مكون من سمك تم اصطياده للتو، وطبيخ بطاطس، وجزر وعجور، كذلك تم إعداده على نار مكشوفة في العراء، ثم تناولنا وجبة من البطيخ أعقبها الشاي بالنعناع. وفي المقابل عرضنا عليهم مساعدتنا لهم في عملهم الزراعي ولكنهم ابتسموا بلطف واعتذروا. وكان ردهم لنا بأننا ضيوفهم ولم يكن في حسابهم أو أحلامهم بأن يقبلوا عرضنا بمساعدتهم في عملهم. بقينا نبادلهم الأحاديث لمدة ثلاث ساعات تقريباً وسمعنا منهم حكاوي كثيرة عن تجاربهم في صيد الأسماك.

أوضحوا لنا أن هناك حقيقة تماسيح آكلة البشر على النيل ولكن غالبيتها اتجهت شمالاً مع التيار. ثم أن هناك البقعة الموحشة التي يطلقون عليها «السود» وهي منطقة كانت في قديم الزمان مستنقعات كثيفة حيث كان النيل يمر بصعوبة عندها، وكانت مرتعاً خصباً للحشرات

ولا تكاد تسمع فيها سوى أصوات فرس البحر والتماسيح، كما كانت مقبرة للمكتشفين الأوائل الذين لم يعد لهم وجود أبداً عقب دخولهم فيها. وهناك حكاوي توضح بأن السكان الوطنيين القدامى كانوا يزينون أعواد رماحهم بما يجمعونه من خصيات الدخلاء من الغزاة السابقين، وكان هناك ملك يفخر كثيراً بزوجاته البدينات للغاية حيث كان يسمح لضيفه بقياس أجسامهن بشريط قياس من نوع خاص. وكان هناك نوع من السمك الضخم أكبر حجماً من الرجل البالغ يتميز بالشراسة والعداء، وكان هدفاً طيباً للصيادين المهرة. كما يحكى أيضاً عن أنواع مرعبة من الثعابين التي بإمكانها أن تبتلع الخنزير. ثم كان هناك سمك السلور وهي مخلوقات ضخمة ذات جسم نحيف اعتادت العيش في قاع النهر وهي تتغذى بشكل مقيم من الأسماك الميتة أو الأسماك المتهالكة وما يأتي من فضلات وأوساخ تصل إلى القاع. ومنها ما يكبر حجمه بشكل مهول يجعله يصطاد صغار الصبية وسحبهم إلى القاع لأكلهم...

كنا نستمتع لتلك القصص بأعين متسعة وكثير من الدهشة والتعجب، ولكن كان النهار قد فات منه جزء كبير وahan موعد العودة إلى منازلنا.

ما حظينا به من حفاوة طيبة وطعام جيد كانا مبعث نشوة لي مما أنساني ما قد يترتب علي من هموم لسباحة العودة، ولكنني على أية حال كنت قد نلت قسطاً وافراً من الراحة وبإمكانني أن أعبر النهر من دون أية متاعب واضحة، كما أن الأولاد الأكبر سناً مني كانوا سيراغبون سباحتي حتى النهاية. بدأنا السباحة وكنت أنتظر تمساحاً أو سمكة ضخمة تتجه نحوي لتقضم رجلي من كاحلها وتغطس بي إلى قاع النهر ولكن ذلك لم يحدث. وعند وصولي للضفة الثانية كان الإرهاق قد أخذ مني كل مأخذ، وصرت بالكاد أسحب جسمي خارج الماء.

عموماً، كانت تلك الرحلة علامة فارقة في حياتي. قبلت التحدي وأثبتت لرفاقي الأكبر سناً أن بإمكانني مجاراتهم من دون إبداء مخاوف كبيرة، وهذا الأداء منحني قدراً مهولاً من الثقة في نفسي. وصلنا إلى وجهتنا وفيما كنت أسير صوب منزلنا فخوراً بما أنجزته، كانت ملابسي قد جفت تماماً. لم أخبر أحداً بما حدث خلال هذا اليوم لأن ذلك كان من شأنه أن يحبط مسيرتي ولكنني أبقيته سراً حتى صبيحة اليوم التالي حيث استأثرت به صديقي عمر خاطر. وأعتقد أنه قد ذهل وربما أخذه بعض الغيرة. أعطاني تحذيراً شديداً للهجة حول كيف أن فيضان النيل قد يحدث دون سابق إنذار مما يتطلب مني الحرس الشديد مستقبلاً. ويا لها من مفارقة، فقد غرق هو نفسه في ذات المكان الذي كنا نتحدث عنه، مع أنه كان سباحاً ماهراً.

لاحقاً، وفي عام 1974 قرأت خبراً في إحدى الصحف المحلية جعل الدم يتجمد في عروقي - وللحظة محددة لم أكد أصدق. في ذات المنطقة تحديداً التي كنت أسبح فيها اختطف تمساح رجلاً كبيراً من ضفة النيل ونزل به إلى الماء حيث افترسه. لم أكن أعلم أبداً أن التماسيح تجري بسرعة أربعين ميلاً في الساعة بل تضاعف سرعتها تلك حينما تنشق خارجة عن الماء فجأة!

الذكرى الوحيدة الأخرى التي أحتفظ بها حول صيد السمك في النيل، هي ذلك اليوم الذي



ابتلع فيه صديقي محجوب عظماً من سمك السلور وتثبت في حلقة. ورغم جهوده في مقاومة الاختناق فقد ظل العظم باقياً ولم تنجح محاولات إخراجه. أصبنا جميعاً بالذعر والقلق. وفجأة مر بجانبنا سائق عربية كوكا كولا ورأى ما كان يحدث لمجموعتنا، فما كان منه إلا حمله بعربته إلى المستشفى حيث عولج محجوب تماماً وعاد بنا الرجل بسيارته إلى ضفة النيل التي كنا فيها، بل حتى شاركناه ساندوتشاته في العربية، إنها طيبة أخلاق الغرباء...

لم يكن النيل وحده الذي أسر طفولتي وفتح آفاق العالم أمامي - فقد بقيت مسحوراً أيضاً بذلك النوع من الأسواق الأسطورية. متخذة من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض موقعاً فقد امتد عمرها إلى مئات من السنين. كانت تعج بالصخب والضجيج، وفوضى أزقتها التي تشبه المتاهة ويسودها الباعة المتجولون والمتاجرون الذين يسوقون بضاعتهم بأنفسهم، فضلاً عن كبار التجار، وعربات «الكارو» الصغيرة التي تجرها الحمير. أما السوق فقد كان يؤمه ويتعامل فيه المسلمون والمسيحيون واليهود في انسجام شديد، الكل مشغول ببيع ما لديه من سلع ومنتجات متناسين تماماً فوارق القبلية والأديان.

وحيثما كنت في السوق فإن حواسي كانت تتراقص بهجة. كنت أشم رائحة الجنزيبيل والقرفة، وعبق البخور النافذ، والتمرهندي والبن وحتى رائحة اللبان المر. وأتذكر أنني كنت أرى الحرير والسيراميك المستجلب من الهند، والزجاج والأحجار الكريمة من الصين، وعظم فك الحوت والمنسوجات والمعادن البراقة من شمال أوروبا.

كان والداي يشرحان لي كل شيء كلما مررنا بأرض العجائب تلك. لاحظت أن بعض أنواع البضائع كانت مفروشة على بطاطين والبعض الآخر معروضاً على قوائم وترابيز خشبية.

لقد ظللت أحمل في مخيلتي هذه الصورة الذهنية طيلة حياة طفولتي حينما كانت الخرطوم بمحلاتها التجارية الكبيرة وأسواقها الصغيرة ودكاكينها ذات قوة تجارية ديناميكية رائجة من الباعة والزبائن بأنواعهم وتجار المحال الكبيرة، وجميعهم في تضافر طيب وعلاقات تسودها المودة مع بعضهم بعضاً، يمارسون نوعاً من الاحتفائية العملاقة بيعاً وشراءً ومساومة تسودها الروح الطيبة ونبل النفس. كان ذلك مؤتمراً كونياً للإخاء التجاري حيث سقطت كل حواجز الديانات جانباً في سبيل التعايش الذي يجلب المنفعة المشتركة والتسامح.

كان هناك خليط من المسلمين والمسيحيين واليهود، و«الشوام» من سوريا ولبنان، والأرمن والإغريق يتنافسون حول من سيأتي مبكراً لفتح متجره قبل الآخر. وفي أطراف المدينة كانت تقيم مجموعة من الغجر متجاورين وفي تجانس تام مع الأقباط والمسلمين، ولا أزال أتذكر رنين جرس الكنيسة في حي المسالمة بأم درمان والأملاك في الشمال لمناداتهم بغرض الصلاة في صبيحة يوم الأحد.

كانت بواكير الأمسيات في الأسواق الكبيرة أكثر نشاطاً وحيوية بصفة خاصة، وسيظل القدماء من التجار يتذكرون المحلات الكبرى ذات الأضواء الباهرة مثل محلات كونتو ميخالوس، وأولاد



فانيان، وعبدالله الأزرق، وسوركسيان وهم يبيعون أجود أنواع المجوهرات والذهب والفضة والأحجار الكريمة.

ويأتي أيضاً ذكر شارع الجمهورية والسوق الأفرنجي حيث الملبوسات الراقية والأثاث والبضائع المختلفة من الحاجات المنزلية التي تغري الزبائن للتسوق. أما السوق العربي فيتميز بكميات مهولة من الفواكه والتوابل والبن والخضروات والعطور بأنواعها. وعقب التسوق كان الناس ينشدون المتعة في صالة غردون للموسيقى، أو في وسائل الترفيه للعائلات في سينمات مثل «النيل الأزرق». وكان هناك أيضاً كازينو يطلق عليه «كازينو النيل الأزرق» وموقعه بجوار النهر مباشرة، ترتاده بصفة خاصة العائلات والأصدقاء في الأمسيات حيث يقضون وقتاً طيباً يحتسون خلاله مشروبات طيبة مثل الجنزيبيل والدبل كولا ويتسامرون حول أخبار المدينة وغيرها. هنا كان يجتمع أثرياء المدينة مثل عثمان صالح، وعبدالمنعم محمد، وأبو العلا، ومأمون البرير، والسر عباس، وقارو فانيان، والشيخ مصطفى الأمين، وكونتو ميخالوس، وسعد أبو العلا والشنقيطي، وطه الروبي، وهم من كانوا يمثلون القيم الكريمة للمجتمع.

المساجد الكبيرة في الخرطوم وأدرمان، والجامع الإدريسي في الموردة كانت دائماً تكتظ بالمصلين. وما زلت أسمع الصوت الغنائي الشجي لحسن عطية، وفي الوقت ذاته أسمع الشيخ صديق أحمد حمدون وهو يرتل بصوته الملهم الجميل آيات من الذكر الحكيم ليستمتع الملايين من الناس بالإنصات إليه في المدن والقرى على نطاق البلاد.

وأكثر ما كان يشد أوتار قلبي وحتى اليوم، من القرآن الكريم، سورة «الكافرون»، الآية السادسة منها التي تقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (أنتم أحرار فيما تتخذون من ديانكم وأنا لي ما أشاء من ديانتي). وتأكيذاً على هذه الرسالة الضرورية لنشر مبدأ التسامح، هناك أيضاً الموضوعات الأساسية التي جاءت في مقدمة سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ \* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلِ هَذَا هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾ صدق الله العظيم.

تلك هي الصورة التي اعتز بها باعتبارها جزءاً من الأمل حيال المستقبل. وأعلم يقيناً بأننا لن نوقف الزمن أو نعيد عقارب الساعة للوراء ولكن إزاء عالم مضطرب ومتغير باستمرار يتوجب علينا أن نضع نصب أعيننا نظرة للمرتفعات المضاءة بالشمس حيث يكون الانسجام والتسامح والمعاملات الطيبة بين الناس هي الفضائل السامية، وهي الصخرة المتينة لقناعاتي، وأظن أنه مراراً وتكراراً في هذه المذكرات بأن ذلك الهدف الغالي مما يمكن تحقيقه.

وكانت هناك أسواق أخرى أيضاً أذكر منها على وجه التحديد سوق الذهب وسوق البهارات وشارع الملبوسات وشارع الفضة.

وقد علمت أن أجود أنواع الفضة في السوق تباع لدى الرشايدة، وهم قبيلة من شرق السودان امتهنت التعامل بصفة خاصة في الأحجار الكريمة، والتماثيل والأسرة والقلادات مما يتعلق على

الجسم. ومع الرائحة الطيبة لدخان الأخشاب والبخور مع البهارات المختلفة تختلط متجانسة أصوات مثيرة ونقاشات يطلقها الباعة والزبائن حول تفاصيل الأسعار. كنت أعرف القليل جداً من اللهجات واللكنات المختلفة ولكن

أمكنني من ذلك الخضم أن أعرف صيغة الإحياءات التقليدية للمساومات.

«بكم هذا؟»

«مضحك!»

«أعطني سعرك الأدنى!»

تقليدياً كان جمهور الزبائن يتجمعون عادة حول أماكن التنزيلات الكبيرة فيما يقع كل من البائع والمشتري في دوامة من التمثيل، وهما مدركان أهمية إنشاء ما يشبه المسرح الصغير للمشاهدين من حولهما وكل منها لا يتمنى أن يكون الخاسر.

وكان الغش، ومكافحته، وغياب المظاهر الشائنة كلها جزء من المرح. وأخيراً يتم التراضي حول مساومة معقولة بعد فصل درامي لطيف، وربما أعقبته موجة عارمة من التصفيق عقب إنجاز الصفقة ولا بأس من تصافح حاد تمثله صفعات الأكف القوية بعضها بعضاً.

لاحظت أيضاً أن الثقة والأمانة أمران في غاية الأهمية. أعجبتني قصة تاجر الذهب الذي لاحظ صبية صغيرة تنظر بتمعن إلى سوار من الفضة، ولم تكن متأكدة من شرائه أم لا، فما كان من التاجر إلا أن سمح لها بأن تأخذ السوار إلى منزلها لمشورة أهلها من دون أن تدفع القيمة، على ثقته منه بأنها ستعود به في اليوم التالي للقرار النهائي، وقد كان... واشترت منه السوار الفضي!

بالعودة إلى منزلنا، فقد كان والدي معتاداً في كل أمسية أن يجمع حوله أبناءه ويحكي لهم بعض الحكايات الجميلة. وفي تلك الفترة لم يكن لدينا جهاز تلفزيون في المنزل ولكن كنا نملك جهاز راديو عتيقاً بني اللون ماركة «غرونديج»، وكنا نستمتع إلى المحطات المحلية أولاً ثم يبدأ الوالد بواسطة قرص الراديو حتى يقف على محطة هيئة الإذاعة البريطانية - الخدمة العالمية (بي بي سي - وورلد سيرفيس). وكان والدي هو من يختار عادة البرامج التي ينبغي علينا الاستماع إليها، وبما أنه كان مهتماً بالأخبار والأحداث حول العالم فقد بدأت مداركي حول الشؤون السياسية والاجتماعية تنمو منذ ذلك الحين.

وفي أوقات أخرى من بعض الأمسيات كان يقفل جهاز الراديو، وحينها نستقر متحلقين حوله وكنا نعلم تماماً ما سيقوله بعد، ولكننا نبقي متشوقين كثيراً لسماعه مرة ثانية. كان يحكي لنا القصص القديمة عن إفريقيا، وهي قديمة قدم الزمان نفسه. كانت تلك ذكريات لأناس أتيح لها أن تنتقل من جيل إلى جيل، وهو تقليد ظل الناس يتناقلونه شفاهة بالشكل الذي ربما جعل والدي على نحو عفوي يستمر في نقله كذلك. كان يذهب بنا إلى البدايات الضاربة في القدم

لمعرفة العنصر الإنساني الذي بدأ، وفقاً للخبراء، في الوادي المتصدع الذي يقع جنوباً (في الموقع الذي تحتله كينيا حالياً). حكى لنا عن رجال الأدغال البدائيين الذين يعتقد أنهم سلالة أكثر القبائل قدماً في قارة إفريقيا، مهد البشرية، وربما كانوا أول من سكن في الدنيا. وكانوا يشكلون القبائل البدائية الأساسية في العصور القديمة، وفي وقت ما كانت حدودهم تمتد من كينيا جنوباً حتى رأس الرجاء الصالح. كانوا هم، أو أسلافهم، قد عبروا البحار إلى الجزيرة العربية وبلاد الشام، وعبر آلاف السنين أمكنهم أن ينتقلوا شمالاً إلى آسيا وأوروبا. إنهم الأقوام الذين وصلوا في نهاية المطاف إلى أستراليا وحتى إلى أميركا، بعد عبورهم مضيق بيرنج.

هذه القصص جعلت عقلي يترنح، هل كان أولئك من سلالة آدم وحواء عليهما السلام؟ هل كل ذلك مجرد قصة...؟ هل هناك أي رابط جيني بين بدائيي الأدغال اليوم مع أجدادهم السابقين؟ كما أن القصة نفسها تبعث على إثارة التساؤل حول النظرة المعاصرة اليوم التي تقر أن الأوروبيين هم الذين «اكتشفوا» إفريقيا. إذا كان علماء الأجناس على حق، فإن العكس هو الصحيح، أي أن الأفارقة البدائيين هم من اكتشف العالم. إنهم الأجداد الأوائل للإنسانية. لم أكن أعرف الإجابة لكل تلك الأسئلة ولكنني بقيت مستمتعاً فاغراً فمي. في الوقت الذي كان العديد من أصدقائي يجعلون من هذه القصص أضحوكة ويصفونها بأنها «حكاوي حبوبات». وأياً كان الأمر فقد ظهرت بحوث في وقتنا الحاضر، استناداً على عينات من الحمض النووي، تؤكد بأن سكان العالم جميعهم كانوا يوماً ما قبيلة واحدة، وأن أفريقيا هي الأم والأب للإنسانية كافة.

وهناك قصص أكثر عن قبائل أخرى مولعة بالحرب، ربما كانوا من سلالة أولئك الذين كانوا يعتدون على البدائيين في الأدغال. كان هؤلاء البدائيون قد تم دحرهم جنوباً وكانوا طيلة مسيرتهم يقاتلون من يعترضهم حتى استقروا أخيراً في المناطق الملائمة التي كانوا يرون أنها الأكثر أمناً لهم - وتلك هي صحراء ناميبيا بصفة خاصة. أخبرنا والدنا بأنهم ما يزالون يعيشون هناك، وأن تمسكهم بخرافاتهم وطقوسهم ومعتقداتهم هي ما ساعدهم على البقاء في كل الحالات التي كانوا يواجهون فيها صدمات حتمية من العالم المتحضر. لقد عاشوا حياة متخلفة ولكنهم اعتادوا عليها وتحملوها كما هي - صيادون مهرة وجامعو ثمار ومنتجات الغابة، وقد حرصوا على رعاية حكمة أسلافهم وما نالوه من معرفة، أولئك الذين كان لقصص نشأتهم ووجودهم صلات غريبة الأطوار مع عظماء المفكرين والشعراء في بقية أنحاء العالم. ووفقاً لمعتقداتهم فإن الإله العظيم كانخ هو الذي خلق العالم، ولكن حدث الموت والدمار لاحقاً حينما أصبحت الإنسانية تتميز بالوقاحة والعجرفة. ويعتقدون أنه يعيش في السماء وأن روحه غير المرئية تسكن في كل شيء حي. وهناك قصة بعينها عن البدائيين حكاهما لي والدي وما تزال تؤجج عقلي: يحكى أن زوجة الملك كانت قد أنجبت ظيئاً جميلاً ملفوف القرنين، ولكن لخطأ ما تم قتله بواسطة إثنين من أبنائه. فأمر الملك بغلي دم الحيوان على أن تجمع بقية المادة الدهنية وتبعر على الطبيعة، وبدورها تحولت المادة إلى طبي آخر وأتيح لحيوانات السكان أن يصطادوه ويقتلوه ويأكلوه.

أما تفسير الوجود وكل ما يكتنف الحياة من غموض فقد تم احتواؤه في عبارة واحدة: «هناك حلم لنحلم به» - وهي نظرة أتيح لي أن اكتشفها لاحقاً في رواية «العاصفة» لشكسبير من خلال الأسطر المبهمة التي نطق بها بروسبيرو، الملك الفيلسوف، في ختام الرواية حينما أعلن: «نحن أدوات وقد خلقت الأحلام للسيطرة عليها، كما أن حياتنا الصغيرة محاطة بالنوم».

وفي بعض الليالي الأخرى كان والدنا يبهرننا بمعرفته بتاريخ القبائل الأفريقية. كانت أسماؤهم بمثل أعداد النجوم ولكن الأسماء التي أمكنني استيعابها مثل الأشانتي والبربر والطوارق، والدوغون من سكان الصحراء، والأقزام الذين يستوطنون الغابات الإستوائية الكثيفة، وهناك المولوعون بالحرب ملوك الزولو صائدو الأسود قبيلة الماساي. وفي السودان يوجد النوبيون والبجا والفور والنوبة والبقارة والدينكا والنوير والشلك والدناقلة والشايكية والجعليين والعديد من القبائل الأخرى. وكل قبيلة لها لغتها وتقاليدها الخاصة بها وحساسيتها القوية تجاه شعورها بالاستقلالية. كان صوته يبدو متغيراً قليلاً حين يتحدث عن القبائل النوبية، وكان ينتابني شعور بأن لها مكانة خاصة في قلبه. أخبرنا أن النوبيين هم من أنشأوا مملكة كوش العظيمة، وما إهرامات مروي إلا شاهد يحكي عظمة حضارتهم وجبروتها.

كان ذلك التبيان كشفاً مثيراً بالنسبة لي. لقد زرنا الإهرامات من قبل حينما كنا في كريمة ولكنني كنت صغيراً بما لم يمكنني من استيعاب أهميتها التاريخية. الآن فقط عرفت أن المصريين لم يكونوا وحدهم الذين بنوا الضرائح المتسعة والمعابد تمجيداً لموتاهم. يوجد في مروي حوالي أربعين هرمًا كلها مبنية من الحجر البركاني البني المائل للإحمرار الذي يشع بزهو بالغ كل ما انعكست عليه أضواء المساء. وبعض تلك الإهرامات كان قد نسفت رؤوسها، وهو عمل قام به الإيطالي غوسيبي فيرليني حينما فجر أحدها من أعلى في عام 1843 وعثر بداخله على بعض الكنوز. ثم اعتقد خطأ أن بقية الأهرامات تحوي شيئاً من الجواهر والأحجار الكريمة، فقام بنسفها بالديناميت هي الأخرى، وذلك تخريب إجرامي كان سيجد عقوبة السجن في عهدنا هذا. من الصعوبة التكهّن الآن ولكنها حضارة استمرت ألف سنة وأخيراً اضمحلت وبدأت في الانحسار في حوالي عام 400 قبل الميلاد. لا أحد يبدو أنه على علم بسبب انهيار تلك الثقافة، ولكن في وقت ما كانت مروي مركزاً لتجارة عالمية وموقعاً مهماً لصناعات عملاقة. وكانت تتحكم في وادي النيل بأكمله، ومن داخل المسابك ومواقع التعدين كان يستخرج الحديد والذهب ويصدر إلى الصين والهند وإندونيسيا وأخرى من العالم.

وقريباً من ذلك الموقع يوجد جبل البركل المكون من حجارة رملية، وهو جبل ضارب في القدم كان الفراعة القدماء يعتقدون أنه الموضع الذي ولد فيه آمون ويعدونه إلههم الأسطوري للخلقة. منتصباً في الجزء الجنوبي من إمبراطوريتهم، كان في اعتقادهم أن هذا الجبل هو المكان الذي بدأ منه النيل سريانه (وبالتالي إذاً كل المخلوقات!)، وفي عام 1500 قبل الميلاد بنوا معبداً لآمون. لم يكن جبلاً بالمعنى الحقيقي ولكن بقامته التي ترتفع إلى حوالي 98 متراً

بقي شامخاً على أرض الصحراء المسطحة كمعلم مهم لقوافل التجارة، ومساعداً لها على تبيان كل الطرق الأساسية المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط والجزيرة العربية. وكان مؤشراً ودليلاً إلى أكثر المواقع أماناً لعبور النيل. جمع الكوشيون قوة عسكرية لا قبل لأحد بها وغزوا بها مصر في عام 747 قبل الميلاد، وبذلك أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين من السلالة الفرعونية. وامتصوا الثقافة المصرية، كما أنهم نشروا عباداتهم في المعابد، وبنوا الأهرامات في مروي كقباب لدفن موتاهم من الملوك. وكانت هندستهم المعمارية ذات طابع أخاذ بحيث اتخذوا لأهراماتهم سقفاً محدداً لا يتجاوز قمة جبل البركل وذلك بدوره يتسق مع شروق الشمس في اليوم ذاته الذي يبدأ فيضان النيل في الانحسار.

أحد ملوكهم وإسمه تهارقا كان قد بنى صرحاً ذهبياً نقشته عليه رسالة إلى كل من الآلهة والموتى على السواء، وكان رأس هذه المسلة يعكس أشعة الشمس لأميال عديدة منتشرة عبر الصحراء المحيطة بها. الألوان التي كانت تزين هذه التحفة قد اختفت بفعل الزمن، ولكن حتى اليوم إذا أمعنت النظر فيها ستجد آثار الكتابة واضحة على قمة النصب المعماري. كم هو مدهش ومجيد ذلك العمل الهندسي الرائع. إنه أمر كان يتطلب ذكاءً وتخطيطاً يفوقان طاقة البشر العادية تقريباً لإنشاء مثل ذلك العمل المعماري الخلاق، وطيلة حياتي بقيت مندهشاً يملؤني العجب والثناء لتلك الإنشاءات الخالدة.

الفراغة والنيل عنصران وجداً حيزاً من الفخار والعزة في مخيلتي. وآمل صادقاً أن يأتي الآخرون إلى السودان لينعموا بالنظر إلى هذه الروائع الحضارية من الآثار والتحف وما تبينه من عظمة وسؤدد كما ظلت أنعم بذلك منذ طفولتي.

إنها ليست فقط القصة التي تُرى بأنها جزء من السحر.

في ذات يوم أخذني والدي لمشاهدة سوق الجمال في ضواحي أمدردمان، وشعرت وقتها كأنني رفعت قناعاً عن الماضي. وعاد بي الزمن إلى قرون مضت. كان السوق عبارة عن خليط متشابك من المزارعين والمتاجرين بملابسهم وأثوابهم البيضاء والزرقاء التي اكتست بالغبار، وهناك بعض النساء من بائعات الشاي والقهوة على ترابيزهن الصغيرة. كان السوق يحتوي على مئات من الجمال انتشرت في مجموعات وقد تم ربطها بالحبال من كواحله وأرجلها بحيث لا يمكنها الهروب أو التحرك. كانت تصدر شخيراً كثيباً ولها أفواه مخملية اللون سرعان ما تكشف عن أسنان صفراء مكشوفة للعيان وهي تقذف أمامها بقدر كبير من الزبد القميء ذي الرائحة النتنة. كانت الجمال تعرف بأنها «سفن الصحراء» وقد اختصها الله بقدرته على تحمل أقسى عوامل الطبيعة من طقس حار وعواصف ترابية قوية لما لديها من رموش سوداء طويلة تساعدها على التغطية من هجمات الذباب ووسطوة الرياح. كما أنها من الممكن أيضاً أن تفقد أعصابها وتتملكها الثورة فجأة، لذا كنت حريصاً على ألا أقرب منها كثيراً. في الزمان الماضي كانت التجارة بالجمال من الشمال تجلب معها زيت البلسم الذي يستعمل في الأغراض الطبية، ثم الورق

المصنّع في أوروبا والمنسوجات والعطور والتوابل والصبغات، وكذلك كميات محدودة من العتاد العسكري نظير تبادل تجاري بالجمال نفسها.

وكما هو الحال في الأسواق الصغيرة دائماً يحتدم النقاش في دراما مثيرة حول المساومات في صفقات البيع، وينشط البدو ذوو الثياب المغبرة في استخدام أساليب الدهاء والخبرة في تعاملهم مع التجار.

كان أولئك التجار يشترون كميات كبيرة من الجمال وإرسالها شمالاً إلى مصر عبر الطريق الأسطوري المسمى بـ «درب الأربعين» الذي تستغرق الرحلة فيه أربعين يوماً. إنه طريق تجاري ظل يستخدم منذ حوالي 700 عام ويربط الأسواق مع أسبوط على الحدود المصرية - وتستغرق الرحلة فيه حوالي ثلاثة أشهر.

وتعتمد سلامة الرحلة بأكملها على تخطي بقعتين في الطريق هما واحتا سليمة والخارجة. وإذا حدث أن أخطأوا الطريق أو اجتاحتهم عاصفة ترابية هوجاء لمدة ثلاثة أو أربعة أيام سيكون أمرهم صعباً للغاية. وقد تعلمت أن الجمال يمكنها أن تظل بلا ماء لفترة ثلاثين يوماً، أما الإنسان فلا يستطيع البقاء أكثر من أيام معدودات.

هؤلاء المسافرين كانوا يتميزون بالخبرة الجادة والنظرة العميقة - أشداء وأجسامهم نحيفة وكانت أعينهم دائماً وأبداً تتطلع إلى الأفق البعيد. دائماً فخورون بما يفعلون تدفعهم الاستقلالية والثقة بأنفسهم بتحمل المشاق. إنهم أساتذة الصحراء الحقيقيون، لقد غرسوا في نفسي انطباعاً بأن أشياء مثل الحدود والسياسة والهرولة المحمومة بما يجري في الحياة المدنية، لا وجود لها في حياتهم.

بما أن حكايات والدي قد حركت أشجاناً في نفسي، فكنت أسعى لمعرفة المزيد منها. كان ينتابني إحساس في بعض الأماكن بأنني أقف في أرض من الأشباح. كل حضارة التاريخ الماضية كانت أمامي. أحجارها المهملة وتمثيلها كانت أبدية، دعوات ملحة... كل ما كان علي فعله أن أعود مرة أخرى لكي أشفي غليلي من ذلك السؤدد. بالنسبة لي فإن الماضي لم يكن أبداً بلداً أجنبياً وكنت أشعر بأن تاريخ الأجيال السابقة كله قد تجمع حولي. لا يمكننا إعادة تشكيل الماضي ولكن حاضره، إذا كان الخيال قد سمح بالتجوال، فهو أمر في متناول اليد بشكل محير. يسودني اعتقاد بأن النيل كان هو النهر الذي وقف إزاءه الإنسان الأول في يوم ما وحلّق ببصره حوله، وعلم أن الأرض صالحة للبقاء فاستقر وبنى فيها أولى معسكراته المشتعلة ناراً. لقد شعرت بالزهو كثيراً إزاء أحاسيسي التي جمعتني قريباً من الموتى. ولكن لكي أكون أكثر قرباً كان يلزمني أن أكون صبوراً ومستمعاً جيداً. كان يتطلب مني أولاً أن أسأل الناس عن ذكرياتهم، ومن ثم أعرف لنفسي.

لقد بدا لي أمراً غير عادي أن الخرطوم كانت المكان الذي أرسلت إليه بعثة استكشافية رومانية من قبل الإمبراطور نيرو في عام 61 قبل الميلاد. كانوا قد وصلوا إلى مروي ثم منحوا



فرقة لمرافقتهم عبر النيل الأبيض، ولكن وجود المستنقعات وتكاثر الحشرات الضارة في السدود كانا حائلاً دون تقدمهم جنوباً فقفلوا راجعين دون إكمال المهمة. كنت اصطاد السمك في الموقع ذاته الذي كانت تستخدمه قوات المدافع البريطانية في ضربها لقبة المهدي حينما لقي آلاف الرجال حتفهم بذلك الشيء المرعب الذي كان يسمى مدفع المكسيم. تلك كانت معركة أمدرمان المروعة التي وقعت في العام 1998 حينما كان أجدادي أطفالاً وقتها. حدث ذلك حينما كان المصريون والإنجليز يحكمون السودان كحمية في أواخر القرن التاسع عشر. وفي عام 1983 انفجرت ثورة اجتاحت السودان أشعل شرارتها وقادها رجل مسلم ملهم ذو جاذبية إسمه محمد أحمد أطلق على نفسه إسم «المهدي»، من السلالة النبوية، كان عليه أن يصلح أمر العالم الإسلامي ويظهره مما به من رجس.

كان، ابن صانع المراكب، على قناعة تامة بأن عليه واجباً روحانياً يدفعه إلى تخليص البلاد من المستعمر الغاصب. وكان غالبية أنصاره ومريديه من أبناء قبيلة البقارة من منطقة كردفان الواقعة إلى الغرب من النيل. مزودون ببضعة بنادق ومدافع غنائم كانوا قد هزموا فرقة مصرية من ثمانية آلاف جندي في شيكان عاصمة كردفان وقتذاك، والآن بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل زحفوا صوب أمدرمان.

كانت المدينة تحت حماية الجنرال غردون، وهو ضابط بريطاني صعب المراس رفض الاستسلام بتاتاً. وحينما سقطت المدينة في أيدي الثوار قتل غردون، وقرر البرلمان البريطاني إرسال كتيبة عسكرية للسودان لإجهاض الانتفاضة الشعبية والانتقام لمقتل غردون.

وكان من ضمن القوات البريطانية ضابط صغير إسمه ونستون تشيرشل، وكان يعمل أيضاً مراسلاً حربياً للصحافة البريطانية، وقد كتب أخيراً تفاصيل كاملة عن أحداث المعركة. وكان موقع المعركة في منطقة كرري التي تبعد حوالي أحد عشر كيلومتراً شمال أمدرمان. وكان تشيرشل قد ساهم في واحدة من آخر أعمال سلاح الفرسان في التاريخ البريطاني العسكري.

وكان الجيش البريطاني المكون من 26.000 من الجنود البريطانيين والمصريين تحت قيادة الجنرال كتشنر، يمتلك 20 مدفع مكسيم تدعمه عشرة بواخر مزودة بالمدافع. وكانت مدافع مكسيم آنذاك من الأسلحة الفتاكة التي بإمكان الواحد منها أن يطلق 600 قذيفة في الدقيقة، وكان كتشنر قد أعد تلك المدافع في الخط الأمامي للمعركة. وكان قد أعد رجاله في شكل نصف دائري على الضفة الغربية من النيل فيما كانت بواخر المدافع ترسو خلفهم مباشرة. وكان على مسافة ثلاثة أميال فقط وعلى بقعة مسطحة يكسوها الغبار يتمركز حوالي 60.000 مقاتل هم جنود المهدي وغالبيتهم من الأنصار أو «خدّام الله». وكان قائدهم عبدالله التعايشي وهو خليفة المهدي. وكان الأنصار قد أطلعهم المهدي قبل وفاته بأن بركاته بمقدورها أن تحيل كل مدافع العدو إلى ماء وأنهم سينتصرون في أية معركة يواجهونها. كانت تشكيلات الأنصار بملابسهم متعددة الألوان تبعث على الرعب في ساحة القتال. كانت صفوفهم الأمامية تنتشر لمسافة

خمسة أميال في ذلك السهل الصحراوي. غالبية المحاربين كانوا في ملابسهم القصيرة بيضاء اللون وقد زينت برقعة سوداء من القماش تمت خياطتها بعناية من الأمام والخلف على السواء، وكل فرقة كان يميزها علم بعينه يرفرف خفافاً إما باللون الأحمر أو الأخضر أو الأزرق. وكانت هناك أيضاً العديد من الأعلام البيضاء التي تزينها آيات من القرآن الكريم.

أما تشيرشل، الذي كان على صهوة جواده من تلة قريبة، فقد كتب يصف المشهد:

«يبدون كأنهم خطوط ضبابية يسودها السواد، يكتنفهم الهدوء وعدم التجانس ويشع من بينهم ضوء غريب منبعثاً من أسنة رماحهم. يأتي من وسطهم هدير هائل في موجات متلاحقة بأصواتها العنيفة في ما يشبه ما يسبق الأعاصير القوية التي تجتاح البحار من جلبه وهدير.

بدأت المعركة ولكن قبل أن يلتفت الأنصار إلى سيوفهم ورماحهم. كانوا قد حصدوا كما تحصد الحشائش».

ووفقاً لشاهد عيان قوله:

«لم يكن بمقدورهم أبداً الزحف قدماً... ولكنهم رفضوا النكوص للوراء. إنها لم تكن معركة... بل كانت مجزرة مهولة».

جثتهم لم تكن مكدسة ومتراكمة، بل حتى بالكاد حصرها، ولكن تلك الجثث تطايرت بالتساوي عبر مساحات كبيرة من الأفدنة. بعضهم رقد على الأرض في تماسك وقوة وقد وضعوا أحذيتهم كوسادة تحت رؤوسهم للمرة الأخيرة، وبعضهم بقي في حالة ركوع لآخر صلاة له.

أصيبوا بأقصى أنواع الجروح وأشدّها ضراوة، الأيدي والأرجل تطايرت عشوائياً، والرجال يترنحون ألماً يحاولون لملمة أحشائهم الممزقة بعد أن انشطرت وجوههم إلى قطع متناثرة. وفي أقل من خمس ساعات كان كل شيء قد انتهى. أكثر من أحد عشر ألفاً من قوات المهدي كانوا قد قتلوا فضلاً عن ستة عشر ألفاً من الجرحى. أما القوات الأنجلو - مصرية فقد فقدوا حوالي خمسمائة رجل بين قتل وجريح. هناك ضابط بريطاني استعاد بذاكرته واحدة من تلك اللحظات المناخية للمعركة حينما تجلت جسارة وشجاعة رجال جيش المهدي إلى الحد الذي أصبح يفوق الوصف تقريباً بقوله:

«لقد كانت واحدة من أعظم الأشياء التي رأيتها في حياتي. لم يُعطوا الفرصة للقتال... ولكن لم يتداعى منهم رجل واحد، كل منهم سعى إلى موته من دون أن يجفل لحظة».



كان يصف فرقة الخيالة المحكوم عليها بالفشل المكونة من 200 فارس من قبيلة البقارة بأنهم كانوا يمتطون صهوات جيادهم في بسالة وثبات متجهين مباشرة نحو مدفع المكسيم وهم يعلمون يقيناً بأن مصيرهم المحتوم قد دنا. وكانت القذائف تتساقط عليهم كالطر ولم ينج منهم أحد. وضابط آخر تأثر كثيراً بتلك البسالة النادرة فقال: «لم أشاهد في حياتي شجاعة عفوية متهورة تثير الوجدان بمثل تلك...».

وكان تشيرشل وقد ملكت عقله شجاعة العدو وبسالته في عدم تراجعهم إلى الخلف أثناء المعركة، ولكن كان قد تملكه حزن عميق جراء القسوة الفاحشة في أعقاب المعركة، حينما أهمل الجرحى ليلقوا حتفهم في أرض المعركة. وقد كتب إلى والدته قائلاً:

«لقد كان انتصارنا مشوباً بالخزي والعار إزاء إعدام جرحى الحرب بتلك الصورة اللإنسانية، واللورد كتشنر هو المسؤول عن ذلك».

دخل الجنرال كتشنر الخرطوم مزهواً بنصره، خاصة وقد ضمن مقتل العديد من قادة الخليفة وتابعيه. وفي إهانة أخيرة أمر بنبش قبر المهدي وإلقاء ما تبقى من عظامه في النيل. أما تشيرشل فكان يكن احتراماً كبيراً للمهدي ويصفه بـ «البطل» وأنه قائد ذو كاريزما، وقد استهجن كثيراً الطريقة التي عوملت بها رفات المهدي. وفي مستقبل حياته السياسية كان دائماً يدعو قواته المحاربة في كل مكان بالتحلي بالشهامة والنخوة تجاه المهزومين من أعدائهم - وربما كانت نتائج معركة أمدردمان قد تركت أثرها الكبير في تكوينه لتلك الأفكار.

كنت قد اكتنزت بإعزاز شديد تلك المعلومات من والدي وكذا من حكاويه الرائعة عن إفريقيا وما نشب فيها من معارك منذ زمن طويل. أقول إنها عزيزة علي لأنه انتقل إلى رحاب رحمة ربه بعد فترة قصيرة بعد ذلك. كان ذلك في عام 1960 كان والدي وقتها طريح الجناح الخاص في المستشفى الإنجليزي بالخرطوم، يعاني من آثار ارتفاع ضغط الدم. كنا في زيارته في الساعة الواحدة وخمسة وأربعين دقيقة بالتمام، وكم هو غريب أن أتذكر بالتحديد ذلك الوقت رغم إنني كنت يافعاً صغيراً. ربما في لحظات الكوارث والملمات ينشط المخ بحدة زائدة وبالتالي فإن كل الأحاسيس تكون في أقصى درجات اليقظة والإدراك. لا أدري. نهض والدي من كرسيه في الغرفة وقادني معه قليلاً إلى حيث كانت نافذة الغرفة. ثم أشار بيده إلى متجر بعينه في الطريق العام، وقال لي إنه لو كان لديه المال الكافي لاشترى ذلك الدكان من أجلي حين أصبح كبيراً. ثم أعطاني صورته الشخصية بعد أن شجعني وحثني كثيراً على الاجتهاد في المدرسة وأن أعيش حياة طيبة ملؤها الأمانة والصدق. بداية أصبت بالاستغراب قليلاً لما جرى ولكنني تناسيت الأمر إذ كان قد حان وقت الغداء وكان علينا أن نغادر جميعاً. في ذلك الوقت تقريباً كان الوالد قد شفي تماماً من المرض وكان مقرراً له أن يغادر المستشفى في اليوم التالي. أشار إلينا بيده مودعاً ثم استقر في كرسيه لفترة القيلولة.

بعد ساعتين فقط ومع نهاية تناولنا لطعام الغداء في المنزل، فإذا بنا نسمع ضجيجاً وصيحات هستيرية من الجوار. وكانت تأتي تحديداً من منزل عمي الملاصق لنا مباشرة، ثم أصابتنا الصدمة جميعاً حينما قفز علينا عبر الحائط ابن عمي عابدين علي صائحاً وباكياً بأعلى صوته في ساحة منزلنا. تلقى مكالمه هاتفية من المستشفى تحمل أخباراً مؤسفة. غطى وجهه بيديه وبدأ يبيكي، لم أكد أستوعب كلماته بداية ولكنني لاحظت أن والدتي وشقيقتي أخذتا في البكاء والعيول. وكان عابدين علي قد أخبرنا بأن الوالد قد توفي للتو.

وخلال دقائق معدودات كان منزلنا يعج بمئات الناس من الأقارب والأصدقاء. تجمدت أوصالنا من الصدمة وتماسكت أيدينا معاً ولم نكد نصدق ما حدث.

كانت ذاكرتي الحية في تلك اللحظات بحكم حادثة سني أن بقيت مسمراً بلا حراك وليس بوسعي سوى النظر في وجوه كتل من البشر ويكون. بقيت قدمي ثابتتين على الأرض، بشكل سليم. وكنت أشبه بالريشة في خضم ريح إعصار عاتية.

لم أكن ريشة وحسب - بل أحسست بكوني طفلاً ممزق القلب وقد انسدت امامه كل آفاق الكون وسبله. الناس يرون أن الأطفال لديهم بعض المرونة في تحمل الصدمات والكوارث، ولكن وفاة والدي كانت قد دمرت نياط قلبي، ورغم وجود والدتي بجانبني إلا أنني كنت أشعر بالضياع والإهمال. بعد أسبوع سألني أحد المسنين، ويبدو أنه لم يسمع بخبر الوفاة، أين كان أبي خلال الفترة الماضية؟ فصرت أبكي طيلة ذلك اليوم تقريباً.

فضلاً عن مواساتي من قبل أفراد عائلتي المباشرين، فقد ظل كل أطفال الحي من أقراني يحاولون تخفيف الصدمة على نفسي. كان بعضهم من أسر فقيرة يرتدون ثياباً ممزقة ويمشون حفاة الأقدام، ولكنهم كانوا يتسممون وهم يرتبون على ظهري وبعضهم كان يطلب مني مشاركتهم في لعب الكرة. استجابة لرغباتهم كنت أشاركهم صعود الأشجار وصيد السمك وغيره، ولكن مع مرور الزمن توجهت بثقل نحو متاعب الحياة.

أعتقد أن ذلك كان الوقت الذي شعرت فيه أن الوالدة هي أكثرنا معاناة وحزناً فصار لزاماً علي أن أبذل قصارى جهدي لمساعدتها.

لقد كانت فترة قاسية للغاية على الأسرة كافة لأننا جميعاً كنا نحب والدنا بقوة ونعتمد عليه في كل مناحي الحياة. كان يشرف بنفسه على جميع الأمور المالية والقانونية، وليس من بيننا من يدري أين كانت كل تلك المستندات الضرورية. تقليدياً يفترض أن تكون في حيازة أكثر أشقائه قرباً الذي يفترض فيه أن يبرز الوصية والمطالبات التي لا مفر منها بشأن المنزل، وبذا صار عمي قرشي هو الوصي الشرعي والمنفذ الرسمي للتركة. كعائلة واحدة كنا في حالة من التوتر والقلق بسبب أن المنزل الذي كان يأوينا هو مصدرنا الحقيقي للأمان، ولكن حتى ذلك كان مهدداً بالضياع.

بما أن المنزل كان ورثة فقد ظهرت العديد من المطالبات الشرعية للنزاع حوله وكان لابد من

تسويتها جميعاً. وبعد بضعة أسابيع حضر إلى المنزل مندوب من المحكمة الشرعية يحمل أوراقاً كان يطلب من والدتي أن توقع عليها. وكان معلوماً أن الوالدة ما تزال في حالة نفسانية وعاطفية لا تسمح لها بالظهور شخصياً في المحاكم. كنا في حيرة من أمرنا، ولكن كان لدينا شخص في الأسرة له من القوة والتأثير بما يحسب له. دخلت علينا الخالة حياة وهي أقرب شقيقات والدتي إليها، كانت طويلة القامة، طيبة القلب وعلى خلق، فوق أن شخصيتها مؤثرة وحكيمة الرأي حتى النخاع. اقتحمت حياتنا بقوة مدهشة وتحدٍ منيع كأنما كانت مرسلة لنا من السماء، وبكل بساطة أنقذتنا مما كنا فيه من حالتي الإحباط والشعور باليأس اللتين كنا نعانيهما. كنت صغيراً للحد الذي لم يمكنني من تفهم ما يدور من تعقيدات الأمر، ولكني أيقنت أنها انصبت على الأوراق الرسمية تمحيصاً وشطباً وإضافة وتعديلاً على الهوامش. وأخيراً قادتنا إلى متاهة الإجراءات الشرعية غير المفهومة. لقد جادلت، وتحدثت، واحتجت واعترضت بكل ما لديها من طاقة.... إنها هدية من السماء، أرسلها الله لتغير حياتنا وإعادة الثقة لنا. ولم أنس أبداً أن أدعو لها في كل صلواتي.

كانت إحدى السبل الأخرى التي استطعنا بها احتواء الأزمة هي أن نبيع بعض مما لدينا من أصول. ولم نكن نرغب في لفت انتباه الجيران لهذا العمل فكان علينا أن نتوخى الحذر والكتمان. كان لوالدتي كمية صغيرة من الذهب التي ورثته سابقاً وكان محفوظاً داخل خزانة عتيقة من صنع القرن الثامن عشر. أفراد العائلة الآخرون لا يعرفون شيئاً عن هذا الذهب لأنها كانت تخفيه داخل أحد الشقوق خلف أحد الجدران في غرفة نومها.

من دون علمنا جمعت الذهب سراً وباعته لأحد الصاغة في سوق أمدرمان. الآن كل الذهب قد اختفى ولكن تبقت لنا بجوار الخزانة الصلبة مكنة خياطة من الطراز القديم وقد فكرت الوالدة في أنها ربما تدر بعض المال. كانت هذه المكنة هدية من والدتها بمناسبة زواجها وبالتالي فهي ذات قيمة وجدانية كبيرة بالنسبة لها ولكنها أيضاً كانت تدرك أننا بحاجة إلى ما قد تجنيه من مال. لم يمكنها إخفاء حقيقة رغبتها في بيع المكنة، وحين عودتها من السوق أخبرتنا بأنها باعتها بأقل من سعرها الحقيقي.

ثم جاء الدور على الخزانة نفسها، وقبل حملها للسوق أفرغنا محتوياتها التي كانت ما تزال بداخلها - بعض نسخ من القرآن الكريم، وشهادات ميلادنا. تم وضعها جميعاً بعناية داخل درج كبير في الدولاب ولكننا افتقدناها منذ ذلك الحين! كانت الخزانة ثقيلة إلى حد تطلب أن يحملها ستة رجال لإخراجها من المنزل، وفي تلك الأثناء كان عدد من الجيران قد تجمعوا حول المنزل مندهشين لما كان يحدث. وبمزيد من الرفع والسحب والعنت أمكن وضع الخزانة على عربة كارو يجرها حمار، في رحلتها الأخيرة نحو السوق لبيعها.

كانت تلك أوقات عصيبة على الأسرة، ولكن والدتي، بفضل مساندة وتصميم شقيقاتها حياة وهدي وفاطمة وخالتها زينب، أمكنها أن تستعيد قوتها وتماسكها. كانت لدينا غرفة واحدة في

المنزل زائدة عن حاجتنا فقررت الوالدة أن تستأجرها للمساعدة في تغطية نفقات الأسرة. وبما أننا كنا نسكن قريباً من النيل وهو موقع مرغوب إلى حد كبير فقد كانت الغرفة تشكل فرصة مغرية لزوجين شابين لتأجيرها.

ومن الأقارب الذي تركوا أيضاً تأثيراً طيباً في حياتي كانت زينب وهي عمّة والدتي. وكنا نناديها بكلمة «حبوبة» أي الجدة، وكان يسعدنا مناداتنا لها بأي من الإسمين. كانت سيدة فارعة الطول وجسدها ذو ثقل واضح فيما اكتنز وجهها باللحم، قوية البنية وعيناها لامعتان بلونهما البني، وكانت هي الأخرى مثلاً للثقة والصرامة، وتملؤها روح القيادة ولا تقبل المساومة كثيراً. إنها ذات أصول تركية، ولم يكن يساورني أدنى شك في أنها كانت يوماً ما رائعة الجمال. وبما أنها تقاعدت عن تدريس الفنون والحرف اليدوية والخياطة، فهي تجد متعة كبيرة الآن في لعب دورها كأحد عمماء الأسرة. ولسبب ما، ربما لإصابتها بحالة من الربو لم يتم تشخيصها، كانت دائماً تعاني من صعوبة شديدة في التنفس. وكانت تأتي لمنزلنا وهي في حالة من النفخ واللهاث، محملة بأنواع متعددة من الطعام والهدايا من رحلة تسويق قريبة. وكانت دائماً تسرع إلى سوق صغير على ضفة النيل القريبة للشراء من المزارعين المحليين، ولكن غالباً ما كانت رحلتها لهذا الموقع تجريبية فقط.

كنت أحب زيارتها لمنزلنا خلال كل أسبوع. وفي محاولتها التغلب على تنفسها كانت تضع «قفتها»، وهي سلة من السعف مصنوعة محلياً، على طاولة المطبخ، وكنت أجاهد في الوقوف على أمشاط أصابعي في محاولة لكشف ما بداخلها من طيبات. وكانت عادة تشكيلة من حلويات مصنوعة يدوياً وزبدة الفول السوداني وبعض البهارات والبن والخضروات واللبن الطازج، وأحياناً تأتي لنا بلعبات تقليدية كالعبة الورق الملون والعدادات. بعد ذلك تبدأ في تجاذب الحديث ونقل الأخبار، أساساً لبنات أختها وأحفادها، ومن ثم تعمل على إعداد وجبة طيبة كبيرة لأفراد الأسرة كافة، كنا نسمع قعقعة الأواني وصليلها حتى تخضع كل شيء لسيطرتها، وتبدأ في إصدار الأوامر والتعليمات كأى رئيس لفرقة عسكرية. طبيعياً كانت هي الطباخ الأساسي للأسرة ودائماً تصر على أن يتناول جميع أفراد الأسرة الوجبة معاً. وكان تخصصها هو ملاح «العصيدة»، وهي خلطة من اللحم المدروش مضافاً إليه بعض البهارات والتوابل وقليل من اللبن. إنها وجبة مدهشة.

كانت حينما تضحك يهتز جسمها ويرتج بكامله، أما حينما تنتابها نوبة من الغضب والغليان فلن تكون مستعدة لإعطاء حكمة العمر والسن لأي فرد بعينه. ما تنطق به من عبارات وما تضربه من أمثال كان أكثر قدماً من نبي الله موسى، وهو نتاج عصارة تجربتها الشخصية في الحياة. «يا إلهي، الحياة، كم هي قصيرة للغاية!»، «الضحك هو الدواء الأفضل!»، «إذا لم نجد ما نشتهي يجب علينا أن نحب ما نجدناه!».

كانت تمثل دور المرأة الإعصار في حياتنا، وكنا نحيا كثيراً. لقد كنت مفتوناً كثيراً بها، وكنت أسألها أحياناً عن جذورها، وتاريخها، وتلاميذها ومراحل تعليمها، ولكنها كانت كثيراً ما تتجاهل

اسئلتني بنظرات ذات معني، أو ربما تجيب عنها في تعميم مبهم (وأحياناً بسخرية واضحة)، ثم تتحرك بثقل بعيداً عني. كنت أعتقد أنها ربما اكتنفت حياتها مأساة بعينها وتحاول إخفاءها منا، وربما أيضاً كان الجانب المنفتح من شخصيتها هو أحد وسائلها الدفاعية. ولكني لم أصل إلى نتيجة في هذا الصدد.

خالتي فهيمة هي الأخرى أرملة وجاءت لتعيش معنا منذ زمن بعيد. كانت تحمل في عروقتها خليطاً من الدم المصري والتركي والمغربي، وبالنسبة لي أعدها رائعة الجمال بيد أن شعرها الفاحم الطويل وعينيها العسليتين الغائرتين لم يمكنهما حجب ذلك الحزن العميق الذي ترسمه ملامحها فيما تظن هي أن أحداً لم يلحظ ذلك. كان زوجها قد توفي بعد عامين فقط من زواجهما ولم ينجبا أطفالاً. أتذكر أنها كانت دائماً تلبس الملابس التقليدية البيضاء، وهي مهذبة كثيراً وعلى حُلق رفيع وهي تتحدث بصوتها الخفيض الجميل. أما حينما كانت تسودها الأمزجة والذكريات السوداء تظل هادئة ساكنة تلوذ بسريرها تحمق في حائط الغرفة لساعات وأحياناً لأيام بطولها. كنا نحاول عدم تعكير مزاجها بقدر تفهمنا لحالتها وما نكنه نحوها من محبة وحنان ما أمكننا ذلك. وكانت تكافئ اهتمامنا بها ببذل المزيد من الرغبة لصديقة في خدمتنا وبالخصوص في شؤون المدرسة. أعتقد أنها شرعت في بدء تقدم بطيء نحو إعادة توجيه حياتها ومواجهة كل ما لديها من غريزة الأمومة في خدمة أبناء وبنات أخواتها ورفاهيتهم.

لسبب ما، ربما لكوني طفل الأسرة المدلل، كانت توليني عناية خاصة. حينما آوي إلى فراشي للنوم كانت تأتي إلى غرفتي تلاطفني وتسرد لي بعض القصص والحكاوي ولا تغادر إلا بعد التأكد من أنني غرقت تماماً في النوم. ومثل زينب تماماً فقد أصبحت هي الأخرى شخصاً أسطورياً لا غنى عنه في حياتنا. كان يبدو لي أنها أصبحت قادرة على الإحساس بحالتي حينما ينتابني القلق من الامتحانات في المدرسة، لذا كانت تترك أي عمل لديها وتجلس بجانبني بهدوء.

أخبرتني ذات يوم أنها تعد مفاجأة لي، كنا في رحاب المولد النبوي الشريف، وطلبت مني أن أرافقها إلى حيث مقر الاحتفال الكبير بالمولد في ميدان بيت الخليفة بأمدردمان، إذ كانت تنوي شراء شيء خاص. كنت أكثر الأولاد سعادة في تلك اللحظات إذ كانت أميني الطفولية أن أحصل على لعبة كانت عبارة عن حصان مصنوع من السكر باللونين الأخضر والقرمزي وأحضره للمنزل ثم أطلع عليه أصدقائي لمشاهدته. ومن ثم يمكنني قضاء ساعة بطولها أمتع نفسي بقضمه قطعة قطعة. كما كنت أهذي جداً حين علمت أنني سأكون مشاركاً في ما يلي من احتفالات بالمناسبة ذاتها في اليوم التالي مباشرة. إضافة إلى الشعائر الدينية وترنيماتها، كان ذلك وقت الزحام في الشارع، إضاءات مونة، ألعاب أكروباتية وسحرية، حركات القروود، ضرب الطبول والمزامير، ودورات الدراويش المجذوبين ورقصاتهم الروحانية عالية الشفافية، ثم الغبار الكثيف الذي بدا يعلو في سماء الموقع مع استمرار الاحتفالات إلى عمق الليل.

بطريقة ما علمت فهيمة أن إحدى طموحاتي في الحياة أن أقتني من ساحة المولد النبوي

لعبة الحصان المصنوع من السكر، لذا سعت إلى توفير مدخراتها الثمينة من العملة المعدنية لتشتري لي تلك اللعبة. كنت أعلم أن حظها من المال كان ضئيلاً للغاية رغم أنها كانت تتظاهر بعكس ذلك، ولكنني وضعت ذلك في أقصى ركن من ذهني، وفي تلك الأمسية تملكنتني الإثارة والتشوق لدرجة لم أتمكن معها من النوم. وفي صباح اليوم تحركنا أنا وفهيمة يداً بيد إلى ساحة المولد. كانت أصوات الطبول من بعيد، وضجيج الحشود المتحركة وعبق البخور المتطاير في الأجواء وسحب الغبار المعلقة فوق رؤوسنا ذات اللونين البني والرمادي كلها عملت على تحفيز مشاعري مما جعلني أحث السير أكثر نحو الهدف. أثناء سيرنا لم تكن فهيمة تتحدث كثيراً بل ظلت ممسكة بيدي بقوة فيما كنت أحاول سحبها. كاد الشوق يقتلني للوصول!، كما أن فهيمة كانت لديها مهمة هي الأخرى، إذ أخذت في تفحص كل الدكاكين المختلفة وكذا الطبلات الخشبية الصغيرة، بعين الصقر القوية، وأخيراً توقفت عند أحد الدكاكين الذي يحوي عدداً كبيراً من اللعب السكرية الملونة من شاكلة الحصان وعليه فارس بسيفه الممشوق. كان يبدو لي أنها بدأت في نقاش حول سعر اللعبة التي وقعت عينها عليها مع صاحب المحل، وكان شخصاً مستدير الوجه، تفوح منه رائحة العرق يرتدي جلابية وعليها وشاح أخضر اللون. ولكنني لم أسمع ما قالته له، وكنت أراقب صاحب المتجر عن قرب. كان يتظاهر بالأهمية الشخصية حتى لدرجة العجرفة، ولم يكن يلقي بالاً كبيراً على مساومتها له، خلال مرة أو مرتين كانت تتحني بظهرها لتخرج بعض النقود من محفظتها الجلدية الصغيرة التي كانت تحملها في يدها اليسرى ثم حسبت المبلغ بعناية... كانت نظرتها في تلك اللحظات توحى بحزن عميق، أخفضت رأسها بوضوح وبدأت على عينيها آثار الدمع الحزين، وفجأة خرجنا من الدكان في طريق عودتنا إلى المنزل. في الطريق لم تنظر إلي أو تتحدث معي، لكنني لم أكن في حاجة لأي تفسير - كان سعر لعبة حصان الحلوي أكبر من قدرتها، ولم تكن هي تحسب لذلك. لم يكن بوسعي أن أبذل أية مساعدة ممكنة، وظللت أرقب الأطفال وهم يلوحون جذلين فرحين بمقتنياتهم من قطع الحلوى وألعابهم الملونة التي اشتروها من ساحة المولد، كانوا يصرخون ويتصايحون ويرقصون على أنغام النوبات التي تصدر من المجاذيب وال دراويش في وسط الساحة. ورغم كوني الوحيد الذي لم يحصل على أي من اللعبات السكرية، فقد كنت مهتماً كثيراً بمشاركتهم البهجة والطرب قبل أن أطلب من فهيمة الانتظار قليلاً ولكنها سحبت يدي بقوة واتجهنا في مسيرة طويلة نحو المنزل. لاحظت أثناء الطريق أنها كانت تبكي، إلا أنها كانت تتظاهر بأن غبار الطريق هو السبب في إثارة عينيها!

حال وصولنا إلى المنزل أصيبت والدتي بحالة من الصدمة وخيبة الأمل، ولكنها سرعان ما فهمت ما حدث في لحظة واحدة. شاهدت في محياي علامات كسر الخاطر والإحباط وكان ذلك يكفيها. ذهبت فهيمة إلى غرفتها من دون أن تتفوه بكلمة، وكانت ما تزال تبكي بحرقة وقد استلقت في سريرها ووجهها على الحائط.

كنت محبباً لأبعد الحدود، ولكنني شعرت أيضاً بأسى شديد تجاهها نسبة لأن ما حدث لها من إذلال كان كبيراً، ولأنها كانت تعلم أنها خذلتني بشكل عميق. كنت أود أن أحضنها برفق مع تأكيدي لها أن الأمور ستسير على ما يرام، ولكنها بقيت في غرفتها ليومين كاملين من دون أكل أو شرب. وفي نهاية الأمر عادت إلى حالتها الطبيعية وتظاهرتنا جميعاً بأن شيئاً لم يحدث. ورغم ذلك، لم تمض فترة طويلة حتى عادت فهيمة مجدداً لحال الحزن والكآبة. كانت تظل باقية في غرفتها لساعات طوال بل لأيام وليالٍ، ولم تفلح كل محاولات التشجيع والتعاطف في إثنائها عن موقفها. لم يمكننا جميعاً أن نرفع من معنوياتها، وأخيراً توفاه الله.

ما زلت أتذكرها كإمرأة ذات كبرياء وكرامة، وأعتقد أن الصدمة المزدوجة بعد وفاة زوجها الشاب وما تبع ذلك من وقوعها في حرج شديد بسبب فشلها في ما حدث لها من إذلال معنوي في ساحة المولد، كانا معاً من القوة بمكان عليها لتحملهما. ربما هناك بعض البشر قد يموتون من انكسار القلب والخاطر.

كان ذلك الدرس هو أحد الدروس الأولى بالنسبة لي لأعرف أن الناس البالغين هم أيضاً من الضعف والحساسية بمكان، كما تعلمت منه أيضاً أن الأشياء الجميلة في الحياة تبدو أحياناً صعبة المنال إلى حد بعيد.



## الفصل الثالث

### أوقات عصيبة في عمالة الصبيّة وعبقريّة عبد الله غير العادية

« كل الأسر السعيدة متساوية في حياتها. وكل أسرة لا تسودها السعادة  
فهي غير سعيدة لأسبابها الخاصة بها»  
(ليو تولستوي، 1828 - 1900)

سقوط شجرة واحدة يقلق القرية كافة، بينما الغابة تنمو بمفردها في صمت.  
(كامل إدريس)

◀ الوفيات الفجائية غير المتوقعة في الأسرة كانت تشكل حِمماً من الجحيم وتلقي بسحابة  
سوداء كثيفة على الأسرة كافة. أصبت بالتشوش وصرت محطماً بشدة وأحسست أن والدتي كانت  
على حافة الانهيار. إنها الآن أرملة ويقع عليها عبء تربية أسرة من الصغار ورعايتهم، فيما كنت  
صغيراً إلى الحد الذي لم يمكنني من المساعدة في حسن رفاهية الأسرة.

كنت في السادسة من عمري وحن الآن موعد الدخول للمدرسة، تلك التي درس فيها إخوتي  
الأكبر مني سناً. وكنت قد تحصلت على القليل جداً في مدرسة مظلمة وبائسة في كريمة حيث  
كان مطلوباً منا أن نجلس على الأرض الرملية. كان كل ما تعلمته منها القليل جداً من اللغة العربية  
بما يكفي فقط لأكتب إسمي مع تركيب بعض الجمل الأساسية. ولسبب ما كان شقيقي الأكبر  
فريد قد علمني ثلاث كلمات عشوائية من اللغة الإنجليزية هي: «دراجة» و«خزانة» و«فيل».



كان ينتهج طريقة غير عادية لتعليمي التهجئة الصحيحة لكلمة (cupboard) أي «الخزانة» وذلك بوضع ورقة على فمي حتى يمكنه سماعها مني بالنطق السليم وذلك بإهمال حرف P الصامت في الكلمة. كانت تلك هي المقدمة الأولى بالنسبة لي في عالم اللغة الإنجليزية، وكنت فخوراً بشدة لكوني أصبحت أكتب الحروف الأبجدية للغتين وأنا في الخامسة من عمري.

كما تعلمت أيضاً أسماء غالبية دول العالم وعواصمها. وكنت قد تعلمت تلك البلدان من شخص استثنائي كان يطلق عليه إسم عبدالله العوير. كان لقبه «عبدالله المسكين»، والبعض أيضاً يطلقون عليه إسم «عبدالله الغبي». لم يكن لديه مسكن محدد، وكان سعيداً بالتجوال في المدينة ليقضي وقته في منازل الناس، حيث يجد الغذاء والرعاية منهم. ولم يكن أبداً يعاب بما يقال عنه من تسمية وألقاب. كان رجلاً طويل القامة نحيلاً ذا شعر اكتسي بالشيب، ودائماً كانت ملابسه نظيفة للحد الذي لم أشاهد أكثر منها نظافة. كان يحتفظ بملابس إضافية في بعض المنازل وكان يعنى بغسل ملابسه في النيل، ويستلف المكواة من الآخرين ليهتم بتسوية التجاعيد والثنيات على قمصانه وسراويله (بنطلوناته) بطريقة حسابية.

كان من الصعب تحديد سنه، إذ يعتقد أنه ما بين الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والستين، ويبدو انه لم يأكل أبداً، وكان ينام حيثما أتيح له وغالباً يكون ذلك على إحدى المراتب الملقاة خارج أحد المنازل. وأنا على يقين أن أي خبير نفساني حديث في زمننا هذا كان سيجعل له مصطلحاً تقنياً في وصف حالته، ولكن نظرنا العامة له كانت تحدد أنه قد فقد عقله.

لم يكن أحد يعرف من أين جاء، ولكن يشاع بأنه جاء يوماً من رحلة طويلة لعدة أميال من الشمال وهو ينتمي إلى عائلة غنية تملك أراضي زراعية شاسعة تنمو فيها آلاف من أشجار النخيل.

وجد قبولاً من السكان لأنه كان طيب القلب غير مؤذ أو ضار، وربما كان سلوكه الغريب أيضاً سبباً في قبول الناس له بشكل طبيعي. وكان طبعه الداخلي مما يجب أن يكون مكاناً آمناً، إذ توحى أعينه بنوع من الوداعة والطمأنينة فيما كان يوزع ابتساماته لكل من حوله.

كان يحب زيارتنا في المنزل لسببين، أولهما أن والدتي كانت تقدم له الطعام، وثانياً لأنه كان يحب سماع الأخبار من محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) بالإنجليزية والعربية من راديو منزلنا. هذا التصرف أثارني فعلاً إذ يشير إلى أنه لم يكن غريباً كما كان الناس يظنون. وبشكل ما صار بوسعه التقاط قدر من المعرفة في اللغة الإنجليزية وأصبح قادراً على فهم واستيعاب كل ما يقال. كان يعامل الراديو كأنه جهاز مقدس وقبل بدء نشرة الأخبار كان ينظف المنضدة التي سيوضع عليها الراديو بعناية ملحوظة ويمسح أقراص الراديو بمنديله النظيف. ولا يبدأ الاستماع إلا بعد أن يضع أذنه اليمنى ملاصقة للجهاز، ثم يغمض عينيه. كان بإمكانني مشاهدته وهو يحرك الأقراص يمناً ويسرة للحصول على أكثر موجات الإرسال نقاء. كنت مندهشاً بمعرفة قائمة من أسماء المدن التي كنا نسمعها، فضلاً عن كونها بلغة أجنبية بالنسبة لنا: بوردو - ميونيخ

- هلسنكي - أثينا - روما - لندن. ولطالما أسكرتني أسماؤها الرومانسية فقد فكرت أن أكون طيراً مهاجراً لكي أحلق عالياً مع النيل وحتى البحر الأبيض المتوسط للوصول إليها.

في هذا الأثناء كان عبدالله قد حصل على محطة لندن. كان تركيزه مع الأخبار عالياً، ولاحظت أنه كان يهز رأسه من جانب لآخر كلما جاء في الأخبار ذكر لخبر مؤسف أو حادث خطير مثل انفجار طائرة أو حدوث زلزال.

مع مرور الزمن أصبح عبدالله قاموساً متحركاً حياً للغة الإنجليزية، وفي بعض الأوقات كانت والدتي تلاحقه في الشارع لتعرف منه معاني بعض الكلمات «الصعبة» في اللغة الإنجليزية. مثلاً: «عبدالله، المذيع في الراديو قال كلمة «sacrosanct».

«فماذا تعني هذه الكلمة؟»

«معناها شيء مقدس أو منزّه»، هكذا أجاب، «ولا يجب أن يكون عرضة لأية إساءة».

واحدة من ضروراته كانت المشاركة في تحدٍ بأن يذكر قائمة من دول العالم مع عواصمها. ولسبب ما كان قد تبناى «تلميذاً»، وكان يصرّ علي أن أنعلمها كذلك. وما أن تنتهي نشرة الأخبار حتى يكشّر في وجهي، بادئاً بسرد خمسة أو ستة دول وكان علي أن أذكر عواصمها.

«الاتحاد السوفيتي» «موسكو»

«إسبانيا» «مدريد»

«المغرب» «الرباط»

«شيلي» «سانتياغو»

«مصر» «القاهرة»

خلال هذه المناظرة، كنت أشاهد والدتي وقد تملكها الضحك بكل حواسها لدرجة أنني أحسست بأنها قد تناست حتى أحزانها. وما أزال أنذكر أيضاً أن عبدالله كان لديه نوع من التفاهم الخاص مع طيفور صاحب الدكان.

كان طيفور لديه جهاز راديو صغير يحتفظ به خلف الكاونتر مباشرة. وكان عبدالله من وقت لآخر يسترق السمع من حول الكاونتر، وفي الوقت ذاته كانت يده تمتد إلى شيء من حبات الفول أو الحلويات القريبة منه، وحينما كان طيفور يكتشف ذلك لم يكن يعاتبه أو يردعه بل كانا يجلسان معاً لمناقشة أخبار العالم وكأنهما أعقل زعيمين سياسيين في الكون. وذات يوم سمعهما شقيقي وهم يناقشان البث الإذاعي لتشيرشل ولكن بمجرد أن علما أن هناك من يراقبهما توقفا فجأة عن الحديث.

كنا جميعاً مفتونين بشدة بسلوك عبدالله وقد تركنا لخيالنا العنان حول حياته الباكورة وخلفياته. كنت أتصور أنه ربما كان أستاذاً جامعياً أو معلماً ولكن أصيب بمأساة حادة أصابت عقله بهذه اللوثة. وأياً كان السبب الذي قاده إلى حالته تلك فقد كان لي معه موقف عاطفي

طبيب، إذ أن دروس الذخيرة اللغوية في الإنجليزية التي تلقيتها منه كانت لي رصيذاً إضافياً مؤثراً حينما بدأت دراستي للمرحلة الأولية.

لم تكن تلك الأحداث بعيدة كثيراً عن وفاة والدي، وكنت مكرهاً بشدة على مغادرة ملاذي الآمن في المنزل. سحابة الحزن السوداء لم تزل تحلق فوق رؤوس الأسرة كافة... وكم أصبت بالتوتر العصيب والقلق النفسي. أعتقد حينها أن إخوتي وشقيقتي قد فطنوا إلى ذلك، ورأوا أنه ربما كان أي تغيير لنمط حياتي مساعداً لحفظ التوازن لحالتي. وكانت لدي أخت غير شقيقة إسمها عواطف أقترحت بلطف على والدتي بما أنني لم أتجاوز الخامسة من عمري فيمكنني البقاء لسنة أخرى قبل الالتحاق بالمدرسة.

عواطف امرأة شابة جميلة طويلة القامة وقد أنجبت ثلاثة اطفال. كانت تسكن على مسافة عشرة كيلومترات من منزلنا وكانت داعماً قوياً للوالدة التي، كما هو حالي أيضاً، أنهكتها الصدمة كثيراً. كنت أثق فيها تماماً، إذ كثيراً ما رأيت والدي وهو يتحدث إليها كأنما لو كانت شخصاً راشداً، وربما كان يسعى طالباً نصائحها وآراءها. انتظرت القرار النهائي آملاً أن يكون عكس أمني بأن يكون علي البقاء بجوار والدتي لسنة أخرى. ولسوء حظي فإن أشقائي هم من اتخذوا القرار النهائي.

في صبيحة اليوم الأول الذي كان يفترض أن يكون بداية اليوم المدرسي، كنت مستلقياً على سريرتي أطلع إلى يوم هائي في رحاب المنزل،

حتى دخل علي ثلاثتهم في غرفتي. انتزعوني انتزاعاً من السرير، أبعادوا أنفسهم من أرجلي التي كانت ترفس في كل الاتجاهات، تجاهلوا صرخاتي وصياحي، ألبسوني ملابسهم ثم أخذوني عنوة في الطريق إلى المدرسة الأولية - التي كانت تبعد حوالي نصف كيلومتر من المنزل. وكانت والدتي تتبعنا من الخلف ورأسها مطأطأ، وبلا شك كانت تشتاط غضباً على ذلك الحسم الذكوري المتعسف. في تلك المرحلة هدأت قليلاً ولكن أشقائي لم يكونوا ليسمحوا لي بالهروب إلى الخلف للحاق بوالدتي.

كانا يمسان بقوة بكتلي يدي بغية أن يخرج علينا ناظر المدرسة. من جهة أخرى أعتقد أن والدتي كانت تعاني من بعض الحرج ليس بسبب سلوكي ولكن بسبب أن كل الأطفال وصلوا إلى المدرسة برفقة آبائهم وكانوا منتظرين بهدوء.

كانت المدرسة عبارة عن مبنى متداع آيل للسقوط تقريباً تشكل مربعاً سكنياً واحداً بها مجموعة قليلة من النوافذ وفتحات على الحيطان للأبواب وبوابة خشبية قديمة للمدخل. وأعتقد أن الناظر كان خجلاً من شكله، فحينما أطل علينا كان يبدو مرهقاً أشعث الشعر وهندامه غير مرتب. كان إسمه السيد/ الجيلي وهو أول شخص أصلع الرأس تماماً كنت قد رأيته في حياتي. كان فارع الطول إلى حد كبير ولديه شارب أسود كثيف. ويرتدي بنطالاً باللون البني الغامق مدعماً بحمالات فضفاضة. كنت أتصور أنه ما من أحد كان على ثقة بترك ابنه في ذلك المكان.

أخيراً تم أخذنا لنشاهد فصولنا الدراسية فيما ظل أولياء الأمور منتظرين حيث هم لفترة من الوقت. وعلى أية حال فقد ظلت والدتي وإخوتي منتظرين وكانوا يتهايمسون بأنه يجب علي أن أرتب أمر عودتي للمنزل بمفردتي عقب اليوم الدراسي. ثم أخذتني والدتي إلى حضنها وداعاً مع توصيتها لي همساً بأن أتزود بالثقة على الدوام وأنها تحبني كثيراً. وهكذا بقيت وحيداً.

كنت في تلك اللحظات في قمة القلق، ولكن يبدو أن الأمور كانت في طريقها للأسوأ... كان باب الفصل الدراسي قد انفصل تماماً عن الدعامات (المفصلات) التي تربطه مع الحائط وكان علينا أن ننتظر ريثما يصل أحد التلاميذ الكبار ليعالج أمر الباب حتى يمكننا الدخول. كانت الحجرة مظلمة كئيبة ومغبرة ممتلئة بشباك العنكبوت، وكانت غالبية الكراسي والترابيز واقفة على ثلاث أرجل، بل كان بعضها قد سقط تماماً وتكوم على الأرض بما يشبه السلحفاة المقلوبة على ظهرها. وكانت العناكب تزحف في كل موقع. رغم أن الوقت لم يزل مبكراً فقد كانت الحجرة ساخنة إلى درجة كبيرة ويبدو أن السقف كان قد بني بنوع من الزنك المتوهج.

أخذت عيناوي في التفاعل مع الظلام، وأمكنني ملاحظة أربع فتحات نوافذ صغيرة كانت ترسل بقعاً من الضوء على أرض الحجرة. إنها لم تكن سوى غطاء من الطوب وبعض الرمل، وأمامنا كانت سبورة سوداء يكسوها الغبار وتتسخ بشيء من البقع.

كانت أرض الحجرة وأدراج التلاميذ مغطاة بقطع من التبشير البيضاء المكسرة.

جميع التلاميذ الجدد يبقون متحلقين سوية حول بعضهم في تجمع صامت بما يشبه الخراف المضطربة التي تنتظر دورها في الذبح. لا أحد يتحرك.

الصوت الوحيد كان يأتي من مروحة السقف الشائخة وهي تدور حول الرؤوس في ملل عقيم. لم يحدث أي شيء، لذا رفعت رأسي لألقي نظرة عليها. كانت تصدر كل ما أتيح لها من إزعاج يتهدد الأرواح، وكنت على يقين أنها ستقع يوماً وتقطع رأس أحد الأولاد.

أخيراً دخل علينا رجل طويل القامة أشيب الشعر ذو لحية. رمقنا بنظرة فاحصة بوجهه المتعرق ذي اللون الأحمر، ثم صاح فينا «صباح الخير عليكم جميعاً. أنا معلمكم شيخ صديق. اجلسوا على الكراسي ومن لم يجد كرسيّاً فليجلس على الأرض!» وهنا تسابقنا، كل منا يسعى للحصول على كرسي. وأمكنني سريعاً أن وجدت كرسيّاً وجلست عليه. لم يكن رجلاً ممن يمكن المناورة معهم. وكان هناك واحد أو اثنين من الصبية ييكون. أما أنا فلم يكن لي سوى التركيز بنظري على هذا العملاق الواقف أمامي. وفيما كان يحرق فوق رؤوسنا همس لي أحد الأولاد قائلاً: ما اسمك؟ كنت خائفاً من الإجابة وبقيت مركزاً ببصري فقط إلى الأمام.

«أنا إسمي عثمان، يمكننا الذهاب إلى المنزل، يمكننا الهروب...»

حاولت إسكاته، ماذا لو كان المدرس قد سمعه في تلك اللحظة؟

«هل أنت قادم معي؟ يمكننا الذهاب إلى المنزل.»

لم أكن أرغب في القيام بأية مشاكل في اليوم الأول للدراسة، وكنت على وشك أن أهمل في أذنه، لولا أن صرخ فينا شيخ صديق بسؤال: «الآن، هل فيكم من يعرف كيف يكتب إسمه؟ لم يجب أحد.

«أكرر. هل هناك أي واحد يمكنه أن يكتب إسمه؟»

لم يجب أحد. صمت مطبق.

وحينما سأل للمرة الثالثة بدأ يضحك في سخرية واضحة. «حسناً، يتطلب منا أن نبدأ من البداية إذاً».

مع نفس عميق أخذته، رفعت يدي اليمنى، فرمقني بنظرة حادة. «ما اسمك؟» سألني.

«كامل»

«كامل من؟»

«كامل الطبيب إدريس»

«هل يمكنك كتابة إسمك؟»

«نعم، سيدي»

«أين تسكن؟»

«أسكن على مقربة من النيل»

«هل تعرف الهادي آدم؟»

كل التلاميذ بدأوا ينظرون إلي بقوة، وشعرت بالاضطراب.

من كان يتحدث عنه؟ في خضم شعوري بالاضطراب نسيت إسم صديقي الذي كان يأخذني معه لصيد السمك وعلمني كيف أصبح حتى جزيرة توتي.

«نعم، أعرفه»، أجبت عليه. «ما زلت أراه من وقت لآخر».

لاحظت أن أعين شيخ صديق كانت تبدو ضيقة، أما أنا فقد أحنيت رأسي إلى الأسفل.

«كان معنا في هذا الفصل الدراسي، كان ذكياً للغاية ولكنه ترك الدراسة ليتكسب سبل عيشه. إنه ولد فقير». ثم استمر الحديث سجلاً بيننا. سألني عن أسرتي، وقال لي إنه كان يعرف والدي. أهمل بقية التلاميذ وقد شعرت بأن تعابير وجهي كانت توحى بالحرَج، رغم أنني بدأت أستمتع بالدور الذي أنيط بي أداؤه لاحقاً وهو رئيس الفصل. ثم طلب مني أن أحضر إلى مقدمة الفصل لأكتب إسمي كاملاً على السبورة السوداء. انتقيت بعضاً من قطع التبشير الأبيض الملقاة على الأرض ثم كتبت إسمي باللغة العربية. وحينما انتهيت من مهمتي طلب المدرس من الفصل مكافأتي بدورة من التصفيق.

«هل تعرف أي شيء آخر؟»

«نعم. أعرف أسماء عواصم بعض الدول، كما يمكنني أن أكتب ثلاث كلمات باللغة الإنجليزية». «مدهش! أخبرني عن بعض الأسماء ثم أكتب الكلمات الثلاث على السبورة»!

قلت بالإنجليزية، «الخرطوم، عاصمة السودان. واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية. لندن، عاصمة المملكة المتحدة. القاهرة، عاصمة مصر». وعلى الأسفل مباشرة، كتبت باللغة الإنجليزية هذه الكلمات «دراجة»، «خزانة»، «فيل». مزيداً من التصفيق... شيخ صديق لم يكن يعلم وقتها أن ذلك كل ما كان بمقدوري أن أفعله... فقد وصلت إلى نهاية ذخيرتي اللغوية.

«هذا طيب للغاية. أحسنت يا كامل. هل لديك أي شيء آخر تود إضافته؟» تلك كانت ضربة غير متوقعة. لم أكن قادراً على كتابة أي شيء آخر. لقد كان عقلي خاوياً كخواء الجزء المتبقي من السبورة نفسها. ماذا كان بإمكانني أن أفعل؟ كل ما كنت أسعى لفعله هو العودة إلى قواعدتي سالماً. أين كانت والدتي؟ لا أزال مقبوضاً علي. انتظرت قليلاً، وبدأت أتذكر شيئاً كنت قد سمعته من أحد أقاربي في المنزل. أنزلت يدي من السبورة وابتعدت عنها قليلاً ثم سلمت قطعة الطباشير لشيخ صديق. «نعم. النيل هو عاصمة لقلبي».

بدت حينها تنهيدة قوية من بقية التلاميذ.

كما بدت أيضاً ابتسامة واضحة من شيخ صديق نحوي... ثم سمعنا قرع الجرس. حدث كل ذلك في عجلة سريعة لدرجة أنني كنت في حالة من الصدمة المخدرة. لم تكن لدي أية فكرة من أين أتاني ذلك الإلهام لتلك العبارة، ولكن منذ تلك اللحظة ولاحقاً علمت أن بإمكانني التصرف غريزياً في المواقف الصعبة - بمعنى أن استجمع كل ما لدي من دهاء أمام ذلك الموقف المخيف، الجمهور المترقب. سمح لنا بالخروج في فسحة من الوقت، وحدث أن تجمع كل الأولاد حولي وأخذوا يربتون على ظهري ويضحكون. ومن دون أن أعرف ماهيتها، أو حتى أسعى إليها، أصبحت متحدثاً ورجل المهمات الصعبة في الفصل.

كان أمراً محيراً فعلاً، إذ كل ما أتيح لي فعله أن كتبت ورددت بعض الكلمات على السبورة، لكن ما فعلته أمام المعلم كان مثار إعجابهم جميعاً. ولكن فورة نشوتي لم تدم طويلاً، إذ ما أن خرجنا للفسحة حتى طلب منا أن نتناول إفطارنا. أين كان طعام إفطاري؟ لم يكن عندي أي طعام... لماذا لم يخطر بذهن والدتي أن تعي ذلك؟ وأياً كان الأمر فلم أكن لوحدي هذه المرة - قلة من الأولاد هم من منحوا أي شيء ليقاوتوا به وكل منهم حمل طعامه وانزوى بركن قصي في فناء المدرسة محاولاً إخفاءه ما وسعه ذلك من أعين الآخرين. ولكن الحمد لله فقد تعطف علينا إثنان من التلاميذ الكبار وقدما بعض ساندويتشات البيض ليتم توزيعها على الفصل. وربما كنت سريعاً في الحصول على مقعد ولكني كنت بطيئاً في الحصول على حصتي من تلك الغنيمة، وحينما وصلت للمقدمة كانت كل الغداءات قد التهمت.

صُرب الجرس مرة أخرى إيذاناً بالتحرك نحو الفصل.

كنت أتساءل حول ماذا سيكون الدرس المقبل، ولكن دخل علينا شيخ صديق معلناً بما أن

ذلك كان اليوم الدراسي الأول فسوف يسمح لنا بالمغادرة إلى المنزل بعد قليل. أصبت بخيبة أمل نوعاً ما إذ كنت أتوقع أنه ربما قد يتاح لي المزيد من الفرص لاستعراض قدراتي، لكن بقية التلاميذ كانوا يصيحون في بهجة عارمة. «ولكن قبل ان تغادروا يتطلب مني أن أكتب أسماءكم كاملة».

وفي اللحظة التي ذكر فيها التلميذ الثالث إسمه كان هناك طرق على باب الحجرة. لدهشتي كان الطارق هو الهادي آدم، وكنت لم أره منذ وقت طويل، وحينما وقف بجسمه على باب الفصل كان يبدو أكثر طولاً ولكنه ما زالت عليه مسحة أكثر هدوءاً وحرناً. «من فضلك يا شيخ صديق. لقد أتيت لآخذ شخصاً ما إلى منزله».

«أهلاً ومرحباً بك، الهادي آدم. بالطبع يمكنك أن تأخذ الشخص الذي تريده إلى منزله. سوف ننتهي مبكراً على أية حال، من هو الذي تود أن تأخذه؟». في هذا الوقت أخذت شفة آدم السفلى ترتجف فيما بدا ينظر مباشرة إلى الصف الذي كنت أجلس فيه، ثم شرع في البكاء وساد الفصل صمت شديد. ثم رفع بصره إلى آخر الفصل وسأل: «هل كامل هنا؟».

ماذا كان يفعل؟ لقد كان يعلم أنني هناك، ثم توجه ببصرة إلي مباشرة!  
«بالطبع إنه هنا، هاهو أمامك». شيخ صديق كاد أن يفقد صبره. وازدادت الدموع غزارة في وجه الهادي آدم.

«أنا آسف، عواطف شقيقة كامل أنجبت مولوداً وتوفيت الحين».

كنت في حلم، سحابة سوداء تحلق فوق رأسي. وجدت نفسي أسير مع الهادي آدم إلى المنزل. كان صامتاً ولم ينفك ينظر إلى الأمام فقط. ولم نكن نتحدث مع بعضنا أثناء الطريق، فقط كنا تساءل أنبكي بشدة، وكان المارة يتوقفون وينظرون إلينا. بدأنا نسمع العويل والبكاء قبل وصولنا إلى المنزل الذي كان قد امتلأ بالأهل والأصدقاء قبل وصولنا. كان كل فرد قد أصيب بصدمة حادة بسبب الوفاة. لم يكن ممكناً لأحد أن يصدق بأن امرأة شابة جميلة قد أخذت منهم. شاهدتني كل من والدتي وعمتي فهيمه وشقيقتي سميرة وأسرعن نحوي لمواساتي حضناً، ولكنني انفجرت بالبكاء واختفيت وسط حشود المعزين.

ثم فجأة رأيت شيئاً جعلني أزداد بكاءً من أعماق قلبي.

لقد حضر شيخ صديق مصطحباً كل زملائي الجدد في الفصل وظل واقفاً بهم خارج المنزل. وكان العديد من هؤلاء الصبية سيكون. كنت أعرف أن ليس بإمكانهم أن يعيدوا عواطف مرة أخرى، ولكن مجرد تعاطفهم معي ومحاولتهم تقديم مساعدتهم لي بطريقتهم الخاصة كان أمراًبعث في نفسي كثيراً من الراحة. مثلت تلك الحادثة كابوساً آخر في ذلك العمر المبكر من حياتي، ولأيام عديدة لم أستطع قبول أن ما حدث قد حدث. كل ما أردت عمله هو البقاء في المنزل فقط، وقد استغرقني وقت طويل قبل أن أقوى على الذهاب إلى المدرسة.



كانت تلك أوقات عصيبة عصفت بي، ولكنني في موقع آخر وجدت المرونة والمنعة للتغلب على المآسي والسير قدماً. لا أدري من أين تأتي تلك المرونة ولكنني أعتقد أن هناك قوة حياتية كامنة في داخل كل منا تدفعه دفعاً للمضي إلى الأمام. إنها قوة إلهية من شأنها أن تساعدنا على تقويم حياتنا وتشكيلها، خاصة إذا كنا صغار السن. وفاة شقيقتي مثلت ضربة عنيفة أفضت مضجع طفولتي وسعادتها، ولكنني تيقنت أن علي أن أذهب إلى حجرة الفصل وأقبل ما حدث كأمر واقع. وعلمت أيضاً أن التركيز في دروسي والتحصيل هو ما سوف يساعد عقلي على نسيان تلك المآسي.

أخيراً وجدت أن مواد الدراسة أصبحت تذوب في نفسها. وكان عقلي في تلك السن كالورق النشاف، إذ وجدت من السهولة بمكان أن أتذكر الحقائق والمعلومات وكل المواد التي أدرسها في الفصل كانت ترسخ بذهني مباشرة. وبينما كان الأولاد يستذكرون دروسهم في المنزل في وقت الامتحان، كنت سرعان ما أحصل على الأجوبة التي تأتيني فوراً. بدأت أحب المدرسة وبخاصة مواد الرياضيات والعلوم والتاريخ.

كنا نتلقى دروسنا باللغة العربية وبعض الدروس بالإنجليزية. كما أتيح لنا أيضاً ممارسة كرة القدم والكرة الطائرة وكرة السلة، أما في عطلة نهاية الأسبوع فكنا نمارس صيد السمك والسباحة. أحببت المدرسة منذ البداية. كان المعلمون ذوي رقة ومتعاونين وكنت أجد لذة طيبة في تعلم الشعر والصلوات والحقائق المجردة عن ظهر قلب. مغامرة جديدة في كل يوم جديد - حل مسائل الرياضيات، وتذكر التواريخ والأحداث الغريبة والمدهشة عن بلاد العالم، والتراث الغني للسودان. لا أدري من أين اكتسبت عنصري البهجة وحب الاستطلاع في حياتي - ربما منذ زمن بعيد عرفت أنني بنحو ما كان علي أن أساعد والدتي الأرملة وفي الوقت ذاته كنت أشحن ذهني بعجائب متنوعة. أياً كانت الأسباب، فقد كنت موقناً منذ صغري بأنني إذا اجتهدت كثيراً فسوف أكافأ على ذلك يوماً ما وستكون والدتي فخورة بي.

التعليم متعة فائقة بالنسبة لي والساعات التي كنت أمضيها في الدراسة والتحصيل ساعات مخدرة. ورغم صغر سني آنذاك فقد تعهدت بعمل روتين يومي وآليت على نفسي بالتزامه بقوة. لم أكن شديد الصرامة في مسالك حياتي، فقد ركزت كثيراً على أن تنعم الأسرة بفترات من الراحة والمتعة ومزيد من الوقت للعب، ولا بأس من أيام للسباحة وصيد السمك على ضفاف النيل مع الأصدقاء.

أعددت الجدول الزمني المبين أدناه، وأقولها بكل الصدق إن وضع هذا الجدول كان واحداً من أهم الأشياء الناجحة التي أنجزتها. لقد منحني إطاراً عريضاً للعمل والإحساس بقيمة الهدف، وحينما كبرت كفاية حولته معي للدراسة الثانوية ومن ثم إلى الجامعة مع بعض التعديلات. الاجتهاد الشديد والعمل الدؤوب أثناء فترات الدراسة، ثم اللعب والتخطيط القوي أثناء العطلات، عوامل أبقتني سعيداً وذا طاقة متجددة ومرونة عقلية ومتطلعاً للمزيد من العلم والمعرفة.



## يوم تقليدي في المدرسة الابتدائية:

- 5.30 ص الاستيقاظ، والنظافة، وتغيير الملابس ثم أداء صلاة الفجر.
- 6.00 ص استمع إلى الأخبار من راديو الإذاعة المحلية. الأسرة بأكملها الآن مستيقظة الآن. الوالدة تعد لنا بعض الخبز مع الحليب والشاي الساخن.
- 6.15 ص أتوجه إلى غرفتي الصغيرة الهادئة، لمراجعة واستعراض الدروس التي ستلقى علينا في ذلك اليوم. مع التأكد بأن كل الواجبات المنزلية قد أكملتها، وفي حالة أي امتحان أتأكد بمعرفتي بالحقائق الأساسية في المادة. الامتحان قد يكون في آيات من القرآن الكريم أو التاريخ أو الشعر أو الرياضيات. كل حصّة في المدرسة مدتها 45 دقيقة، وعادة ما يكون عددها خمس أو ست حصص يومياً.
- 7.15 ص أبدأ رحلة الدقائق العشر إلى المدرسة، وفي الطريق أمارس مراجعة عقلية للتأكد من معرفتي لكل شيء.
- 7.25 ص أصل إلى المدرسة وأقابل أصدقائي ونتبادل التحايا والنكات لبضع دقائق.
- 7.30 ص يضرب جرس المدرسة بغرض التجمع في فناء المدرسة. يخرج ناظر المدرسة للتأكد من أننا نلبس الملابس والأحذية والحقائب الصحيحة.
- 7.45 ص بداية الحصص الثلاث الأولى.
- 10.00 ص الإفطار. الساندويشات إما أن تكون ملفوفة داخل ورق صحيفة قديمة من المنزل، أو بالشراء من دكان المدرسة، أو بـ «المشاركة» مع آخرين. وهذا درس رائع تعلمته مبكراً في السخاء والسماحة وروح الفريق. من «لا يملك» مالاً للمشاركة يجد العون من الآخرين ولا بد له من رد الجميل في وقت لاحق.
- 10.45 ص مزيداً من الحصص الدراسية.
- 2.00 ظ نهاية اليوم الدراسي. في الطريق إلى المنزل مع مراجعة ذهنية لدروس اليوم.
- 2.15 ظ حمام بارد خاصة في أشهر الصيف الساخنة. تغيير ملابس المدرسة.
- 2.30 ظ أتجاذب الحديث مع والدي وعمتي فهيمة وشقيقتي سميرة. وثلاثتهن يتطلعن بشغف دائماً لمعرفة ما حدث لي في المدرسة وما إذا كنت قد احزرت بعض التقدم. وتملوئن الغبطة ولا تنقصهن عبارات الاستحسان في حال أن قدم أحد المعلمين أية ثناءات لي، ولا يبخلن أبداً بدفع زخات قوية من الثقة في نفسي.
- 3.00 ظ وجبة الغداء العائلية. تلك هي اللحظة الأشد إشراقاً في اليوم. تجتمع كل العائلة على مائدة خشبية كبيرة دائرية الشكل ليست مرتفعة كثيراً عن الأرض. كنا نتناول عادة طعاماً من مواد غذائية بسيطة. وفي حال استقبالنا لضيوف أو زوار ليسوا في الحسبان تسارع الوالدة والعمة فهيمة لإبداء مزيد من السخاء، وإذا كان لديهن

متسع من الوقت تعملان على إعداد أطعمة طيبة المذاق مثل الكفتة والسلطة والبامية، ولفائف من الأرغفة الطازجة المعجونة محلياً والأرز، تلازمها أطباق صغيرة من الليمون والشطة والملح. كن يجدن متعة في إعداد هذه الأطعمة ويطالبن الضيوف بإصرار على المشاركة معنا، يمسكن أياديهم ويجبرونهم على الجلوس على المائدة. وبانتهاء الوجبة الأساسية في مثل هذه المناسبات يلي أحياناً تقديم أطباق من الفواكه مثل المانجو والليمون ويعقبها الشاي الساخن في أكواب تم تبخيرها بأنواع طيبة من البخور لتعطيتها نكهة خاصة مع شرب الشاي. ويمكنني الآن أن أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام الجميلة بمقدار رائع من الحنين إليها. أحترسي كوب الشاي وأستغرق توهماً في القصص المألوفة تلك، والنكات والألقاب السائدة وأداء الأغاني التقليدية، وصلوات الجماعة، والإغظات اللذيذة وكل الحميمية الغالية التي تربط العائلة مجتمعة في توادد.

4.00 ظ

العودة إلى غرفتي الصغيرة الهادئة لإكمال ما لدي من واجبات منزلية. وكنت أحرص دائماً على عدم وجود ما يزعجني مثل جهاز الراديو أو الصحف وغيرها، وأحاول التركيز الشديد ما استطعت. لاحقاً وفي المدرسة الابتدائية بدأت أكتب فكرة ثم أخذت أضيف إليها إضافات مستمرة حتى يومنا هذا.

6.00 م

أتناول قسطاً من الراحة وتجتمع الأسرة بأكملها حول الراديو لسماع الأخبار من محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي الخدمة العالمية). يسودنا صمت جماعي رهيب حينما تصدح ساعة بيغ بن الشهيرة بست ضربات متتابعة. ضربات ثابتة قوية لدرجة أن جهاز الراديو ماركة غروندنغ كان يرتجف ليلاً نتيجة أصواتها. ثم يعلن المذيع «هنا لندن». تلك هي أكثر اللحظات جدية في حياة عبدالله، وما أن تعلن رؤوس المواضيع وترد الأخبار حتى يشعر عبدالله وكأنه رئيس وزراء العالم، يزم شفثيه وبهز رأسه في حالة الأخبار السيئة، أو يومئ برأسه بحكمة ثم يبتسم إذا كانت أخباراً سارة.

6.15 م

الخروج لمقابلة بعض الأصدقاء، وزيارات عائلية. واسترخاء عموماً.

8.00 م

العودة لغرفتي لمزيد من المذاكرة وقراءة كتيبي المفضلة. أتذكر منها إثنين تحديداً: أحببت قصة «أنيمال فارم» أي (مزرعة الحيوانات)، رغم أنني لم أكن أدرك بشكل كامل ميوله السياسية إلا بعد أن كبرت، وعلي أن أقر أيضاً بأنني قرأت «تريشر آيلاند» (جزيرة الكنز) بقلب مضطرب. منظر القرصان والخناجر، وشخص إسمه «بيو العميان» كان قد أثار الوسواس لطفولتي، ولفترة محددة كنت أفضل النوم في غرفة مضيئة.

9.45 م

حديث عائلي عادي مع والدتي وأشقائي وشقيقتي ثم أتوجه إلى سريري.

كنت عادة أضع جهاز راديو ترانزستور تحت المخدة، وإذا أدت الموجات بعناية كان بإمكانني الحصول على محطات مثل راديو لوكسمبرج وراديو مونتي كارلو وهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي - الخدمة العالمية) وأحياناً كنت أنسى أن أغلقه نهائياً. نومي عميق ولكن ربما أذكر في بعض الأوقات أن أسمع طرقاتاً عنيفاً على باب منزلنا الخارجي، إما في وقت متأخر من الليل أو عند الفجر الباكر. هذا النوع من الطرُق غير مرحب به عادة وبما أنه يكون غالباً باستعمال الحجر على الباب المعدني لمنزلنا، فالسبب يكون دائماً خبراً لوفاة أو مرضاً خطيراً في أوساط الأسرة. وضوضاء أخرى أتذكرها هي الأصوات المتناغمة لحوافر الخيل التي يمتطيها رجال شرطة «السواري» الذين يجوبون الشوارع والأحياء ليلاً لبسط الأمن والطمأنينة على السكان.

أحياناً أستيقظ قبل الفجر مباشرة فأحدق ببصري إلى السماء لرؤية الليل وهو يتلاشى رويداً رويداً مع بقية النجوم التي لا تزال تتوهج.

كنت أفكر في أحيال من المسافرين والبدو والصيادين الذين كانوا يعتمدون في ملاحظتهم ليلاً على موقع نجم الشمال الثابت دوماً، وكذلك اعتماداً على المسافات الشاسعة فوق رأسي والتي لا تحدّها حدود - وهو غموض لم يمكن لعقلي البشري أن يستوعبه. وأخيراً كنت أسمع والدتي في تعاملها مع الأواني في المطبخ وهي تعد لنا وجبة الإفطار. وبداية يوم جديد.

أعلم أن بعض الناس ممن يقرأون هذا السرد قد يعتقدون بأنه ليس مألوفاً لصبي في هذه السن أن يعنى بمثل هذا النوع من الانضباط الذاتي، ولكن دعني أقرر أن ما أصاب هذه الأسرة من أحزان وملامات قد ارتبط بعقلي ربطاً محكماً إلى الحد الذي أيقنت فيه أن تنظيم اليوم وتركيبته بذلك الشكل يبدو عملاً مطمئناً بشدة. وأيضاً، ليس كل يوم كان يسير على ذلك النهج بالدقة ذاتها - كانت تحدث تغييرات عشوائية ومع ذلك لم يحدث قط أن فقدت شهيتي الطبيعية للعب والمغامرة.

بعد أشهر قليلة لاحقاً، كان صديقي عثمان، الذي سبق أن أوعز إليّ بالهروب من المدرسة في يومها الدراسي الأول، جاءني خلسة في فترة الراحة الصباحية. «هل تود الهروب؟»  
«ليس للمرة الثانية! أنا لا أود الهروب - أنا سعيد للغاية. هل أصبت بالجنون؟»  
لا، لست مجنوناً!« أخفض رأسه ثم انزوى بعيداً.

«والدي ووالدتي...» بدأ يتحدث

«ماذا بهما؟» سأله.

شعر بالحرج ولم يرد أن يكمل حديثه، ولكنه أبان لي أن عائلته فقيرة للغاية وأنه مضطر لترك المدرسة ليعمل في أحد المصانع لإعالتهم. ما سرده لي جعلني أفكر ملياً - لم يكن يخطر ببالي أن أترك المدرسة الآن لأنني سعيد بها للغاية، ولكني كنت أعرف أن المال أيضاً غير متوفر لدى أسرتي، ومنذ وفاة والدي ظلت والدتي تكافح بقسوة لإعالتنا. وعقب وفاة والدي كانت كل ثروته

(باستثناء المنزل) قد ذهبت، بشكل يكتنفه «الغموض». ولم يكن ممكناً لي وقتذاك إجراء أية تحريات في الأمر. لقد كان عقلي يسابق الزمن.

«أين هو ذلك المصنع؟» سألت عثمان.

«مسافة ساعة مشياً بالأقدام. حوالي ستة كيلومترات».

في اليوم التالي ذهبنا أنا وعثمان إلى المصنع بعد انتهاء اليوم الدراسي. كان يأمل أن يجد وظيفة دائمة فيه، أما أنا فكنت أمل أن أجد وظيفة مؤقتة، لما بعد الظهر والأمسيات بعد المدرسة. كنا ما نزال أطفالاً صغار السن، كل منا في عامه السابع، ولم أكن أشعر بأن فرصتنا في الحصول على العمل ستكون طيبة.

كان المصنع كثيباً وشكله يوحي بالتوتر والقلق، صمم من الطين الأحمر وحيطانه الخارجية ملئت في أعلاها بقطع كثيرة من الزجاج المكسر منعاً للصوص من القفز لداخله. تفوح منه رائحة العفونة المنبعثة من الزيوت والكيماويات. وهناك بوابة خارجية متهاكة من الحديد الصدئ يحرسها ثلاثة رجال يبعث منظرهم على الملل والسأم. أخذنا نفساً عميقاً من الهواء ثم تجاوزناهم إلى داخل المصنع. نظروا إلى أعلى وأسفل ولكن لم يحركوا ساكناً، لقد كانوا يعرفون سبب مجيئنا.

مدير المصنع كان يبدو رجلاً ذا أهمية، ممتلئ الجسم ويبدو أنفه كأنما كُسر في مباراة للملاكمة. ألقى علينا نظرة فاحصة، استنشق قليلاً وأدار ظهره، ثم بدأ يتحدث لنا، وكأنه يقدم لنا معروفاً كبيراً، بأن من الممكن أن نبدأ العمل فوراً. كان يتطلب من عثمان أن يعمل لإحدى عشرة ساعة في اليوم أما أنا فكان علي أن أبدأ العمل في الثالثة مساءً عقب اليوم الدراسي مباشرة وحتى المساء. وكان مقررًا أن يحصل عثمان على أجر أقل من عشرة دولارات شهرياً - وبالطبع كنت سأحصل على أقل من ذلك. كان مبلغاً ضئيلاً ولكن على الأقل من شأنه أن يساعد والدتي في إعالتنا. كانت مهمتنا هي أن نعصر كميات من السمسم داخل ماكينة ذات أنابيب متعددة لتنتج زيتاً صافياً. ومن ثم نعمل على تعبئة الزيت داخل زجاجات وأخيراً نقوم بإعداد المنتج ورضه في صناديق خشبية توطئة لترحيله. لم تكن بالمصنع وسائل تهوية أو أية خدمات صحية، وكان بقية الخمسة عشر عاملاً الآخرون أو حوالي ذلك، أكبر سنًا ومتعبين نوعاً ما وقد أهملونا تماماً. كان العمل مكرراً باستمرار ومدعاة للملل، ولكنني كنت أفكر فقط في الأجر الذي سوف أتقاضاه نهاية الشهر وبالتالي ستكون الوالدة سعيدة للغاية به.

كما فكرت أيضاً أن أخطط للحصول على بعض المصروفات الشخصية من إخوتي الكبار. لقد كانوا مهتمين كثيراً بحسن مظهرهم وسلامة ملابسهم والعناية بها لدرجة حرصهم على حسن مظهر آثار المكواة القوية على قمصانهم وبنطلوناتهم بشكل لافت. تماماً كحال عبدالله. لذلك أخبرتهم بأني سوف أتولى مهمة كواء ملابسهم بدلاً عن الوالدة شريطة أن كل واحد منهم يدفع لي أتعابي عن كل قطعة ملابس. لم يأخذوا الأمر على محمل الجد إذ كانوا يرون أنني عديم

الخبرة. ولكنهم رضخوا أخيراً وناولوني ملابسهم. كانت لنا مكواة عتيقة في المنزل يتم تسخينها بالفحم الحار الذي يوضع بداخلها. ولكي تبقي الفحم ملتهباً باستمرار عليك أن تنفخ فيه بين كل فينة وأخرى. وذات مرة كانت المكواة ساخنة أكثر من اللازم مما دفعني لأتسبب في حرق بنطلون شقيقي ازرق اللون مما نتج عنه ثقب ظاهر في منطقة الأرجل. اشتاط شقيقي غضباً! «أنظر ماذا فعلت؟ لا يمكنني أن أخرج بهذا!»، صرخ في وجهي بشدة. «لقد أفسدت علي ملابسي!»

ولكن والدتي طيبت خاطري بكلمات حنية. وأردفت: «لا تغلق كثيراً. أنا واثقة منك. لا تنسى أنك ولدت وآثار أسنانك المبكرة كانت ظاهرة ثم مشيت بأرجلك في فترة أقل من إخوتك جميعهم». أصابتني الحيرة من كلامها. ولكني اعتقدت أنها كانت تود القول إنني لست بليداً كما يعتقد شقيقي. ثم طرأت لي فكرة. ذهبت إلى شقيقي.

«لدي فكرة»، قلت له.

«وما هي؟»، سألتني.

«لدي قلم بايرو أسود هنا».

«وماذا يعني ذلك؟ هل ستكتب لي به خطاب اعتذار؟»

أعقب شقيقي مستفسراً.

«لا، رددت عليه، إذا ملأت موضع جسمك باللون الأسود بغزارة في مكان الثقب فلا أحد سيلاحظ ذلك!»

نظر إلي ملياً لبضعة ثوان كم لو كنت مجنوناً بحق، ثم ابتسم قائلاً: «حسناً يا كامل، تفكير جميل».

في بعض الليالي كان يتطلب مني البقاء إلى وقت متأخر من الليل نسيباً، أظل وحيداً في المصنع بعد أن يغادر كل العاملين ولم يتبق إلا أحد الحراس برفقتي. كان الموقف يبعث على الخوف ولكنني اعتدت على البقاء وكان يلزمني بعد ذلك أن اقطع كل المسافة مشياً في الظلام. كانت والدتي على علم بذلك وأبدت موافقتها على بقائي إلى ساعة متأخرة في العمل. وفي واحدة من تلك الليالي كنت ماشياً ليلاً، وعلى بعد مسافة عشرين دقيقة للوصول إلى منزلنا شاهدت إثنتين من الكلاب الضالة يلهثان ورائي، كانا نحيفين للغاية وتبدو عليهما آثار الجوع، وكانت تصدر من حلقوميهما همهمة خفيفة. بدأت أحث السير قليلاً ولكنهما أخذتا في الخبب والهرولة خلفي. تملكني الخوف بحق وحقيقة. دقائق قلبي تتسارع. وبدأت في الجري... في تلك اللحظة ارتفع نباحهما عالياً وكدت أرى بياض أسنانهما وسط حلكة الليل. أسرعت جرياً بقوة عبر شارع جانبي كنت أعرف أنه يقصر المسافة لمنزلنا، ثم قفزت عبر حائط إحدى الحدائق حتى وصلت إلى المنزل. وما زلت أسمع صوتيهما خلفي ولكنهما توقفوا يأساً عن ملاحظتي في نهاية

المطاف. عقب تلك الحادثة قررت أن أغير خط سيرتي في حال عودتي من المصنع ليلاً. كانت حياة لا تخلو من تعاسة أن أعمل في مصنع بتلك الطريقة، ولكنني كنت فخوراً بحقيقة أنني سوف أسعد والدتي كثيراً. كنت أسلمها كل حصيلتي من الأجر الذي أقتاضه نهاية الشهر، وكانت تعطيني جزءاً منه كمصروف. وبعد فترة بسيطة أمكنني أن أشتري لنفسني هدية صغيرة. كنت أمني نفسي دائماً بشراء زوج حذاء جميل الشكل، وما أن وفرت المبلغ الكافي لذلك حتى أسرعرت إلى السوق بحثاً عن حذاء أسود. وكنت فخوراً كثيراً حينما عدت إلى المنزل بالحذاء الذي تمنيت لبسه. لقد اقتنيت زوج حذائي هذا بعد مثابرة وعمل دووب. وبين الحين والآخر كنت أتوقف لأمسح الغبار عنهما تماماً كما كان يفعل والدي.

كان حجم العمل قد ارتفع كثيراً على عثمان لذلك فقد ترك العمل في المصنع أما أنا ففكرت أن أبقى لأطول فترة ممكنة. في هذا الوقت كانت الوالدة قد سيطرت عليها الهواجس بشأن مستقبلتي الدراسي، ولكنني كنت قادراً على التوفيق بين الدراسة والعمل ووفقت في اجتياز كل الامتحانات المقررة. واكتشفت إن بإمكانني الصحو مبكراً لاستذكار دروسي. احتفظت بمفكرة صغيرة في جيبتي كنت أستعين بها على القراءة ومراجعة دروسي تحت ضوء عمود النور في طريق عودتي من المصنع أو أثناء ذهابي إلى المدرسة. كما كنت أيضاً أختلس بعض اللحظات للدراسة أثناء عملي في المصنع حينما يكون المشرف بعيداً عن الموقع. أما أساتذتي في المدرسة، من دون علم لديهم بالضغوط التي تكالبت على كاهلي، فقد كانوا راضين عما أنجزته، وكنت قادراً على الوصول إلى أعلى مستوى في الفصل - وهو شيء كانت والدتي في قمة النشوة والفخر به. لم يكن يتكشف إلي حتى مراحل متقدمة من حياتي بأن هناك ملايين الأطفال في هذا العالم ممن سرق منهم طفولتهم. لقد كنت محظوظاً بأن أتاحت لي فرصة الخيار بين أن أعمل أم لا، ولكن في بعض البلاد كان الأطفال قد أجبروا قسراً على العمل. الضغوط النفسية والإرهاق والحرمان من الحرية واللعب جميعها عوامل رهيبة مروعة عليهم وهم دائماً يبقون بشكل مستمر تحت رحمة القساة الوحشيين من رؤسائهم ومخدعيهم الذين لا يمنحونهم حتى أجورهم أحياناً.

خلال حقبة الستينات من القرن الماضي مارست عمالة الأطفال في مصانع لإنتاج الزيوت، والورق، والكيماويات، ومعجون الأسنان. كانت ظروف العمل مجحفة للغاية حيث لا أجر يمنح لنا في حال المرض. كنا نعمل لساعات طوال من دون أن تتوفر لنا متطلبات السلامة الضرورية. وظللت أعاني من ضغط نفسي متواصل إذ كنت أعلم جيداً أنه إذا ارتكبت أي خطأ فإن النتيجة هي فقدانتي لوظيفتي.

ربما كانت تلك التجارب العملية التي مارستها مبكراً في حياتي هي التي جعلتني أميل إلى تبني الفلسفة الماركسية. ربما أكون قد عرفت في أشد مصطلحاتها بساطة، ولكن دفاعها عن الطبقة العمالية جعل لها تأثيراً قوياً في حياتي. ولم أراجع عنها إلا بعد فترة من الزمن أصبحت

فيها أكبر سناً ووعياً إذ اتضح لي أن تناقضاتها الأساسية التي بنيت عليها وتغييبها التام للاعتبارات الروحانية في الحياة لم تكن ذات معنى بالنسبة لي. وهكذا مرت سريعاً جداً سنوات الدراسة الأولية.

رغم أنني كنت أعيش حياة مزدوجة كتلميذ وطفل عامل، فإنني كنت أيضاً قادراً على أن أمارس اللهو والشغب في كل من فناء المدرسة أو داخل الفصل. اخترت لنفسى أصدقاء ما زلت أذكرهم حتى اليوم... رغم أن تعاملنا في الصغر لم يكن يخلو من الشجار والمشاحنات. ولكن كنا في الغالب أصدقاء طيبين وكرماء مع بعضنا بعضاً. كنا نتبادل الثقة في ما بيننا وكذا نشارك الهموم والآلام، ولن أنسى أبداً أن بعض التلاميذ كان الواحد منهم يعمل على تقطيع ساندويتش إفطاره إلى قطع صغيرة في فترة الراحة لمشاركة من لا يملكون إفطاراً. إنه درس آخر في فن التصديق البسيط. وكان مفهوم المشاركة يمتد إلى ما وراء الطعام بل للمذكرات والأفكار وحتى للملابس وضرورات الحياة الأخرى. لقد ألفت تلك التضحيات ضوءاً باهراً على حياتي وعلمتني أهمية الزمالة والمشاركة والمسؤولية المشتركة والتلاحم مع الآخرين، وهي أشياء حاولت أخذها معي في مسيرة حياتي.

كان واحد أو إثنان من الأصدقاء قد كشفوا حتى عن علامات لمهارات مبكرة في العمل التجاري. معاوية جابر الذي كان يجمع النقود منّا ليشري بها فلافل وسلطة ورغيف بقيمة مخفضة. وفي فسحة الإفطار كنا نجلس معاً في حلقة دائرية ليدفع كل منا مساهمته في الوجبة، بينما كان معاوية يجلس بالقرب من (أو حتى يخفي) القطعة المفضلة في الوجبة لنفسه.

وكان تلك الفترة قد شهدت وفاة أحد أعز أصدقائي، عمر خاطر، غرقاً في النيل. كان صباح يوم الجمعة وهو عطلة المدرسة، وقد طلب مني اصطحابه للنيل بغرض السباحة. ولكنني كنت مشغولاً بشدة في المصنع. ذهب هو بمعية إثنين من أصدقائه ولكنه تعثر في حفرة دوامة أو دردور صغيرة في النيل فلم يستطع النجاة منها، وبعد ثلاثة أيام عثر على جثته على مسافة كيلومترين في مجري النهر.

تلك كانت ضربة أليمة أخرى بالنسبة لي، ولكي أتعامل معها بشكل متوازن فقد أمعنت أكثر في التحصيل والواجبات المدرسية. كان ذلك تشبهاً للأهداف، وإلى تلك المرحلة يجدر بي أن أحيي أولئك الرجال الذين أشرفوا على تعليمي خلال كل تلك السنوات الماضية. بعضهم توفاه الله ولكنني لم أزل أحتفظ لهم بذكرات طيبة حية.

كان الدكتور معز السراج رجلاً عظيماً قضى معظم حياته معلماً لطائفة من العلوم، ولكن اللغة الإنجليزية كانت مادته الأساسية. كانت أهم أولوياته أن ينجح جميع طلابه، وقد عمل كل ما في وسعه لتطوير النظام الدراسي. لقد كان من الرواد المخلصين في حقل التعليم، وأمكنه أخيراً أن ينشئ جامعته الخاصة حيث أن موروثه الأبوي في حقل التدريس كان بالنسبة له قاعدة انطلاق ناجحة. أما أستاذ القاضي فقد كان ناظر مدرسة مرموقاً فضلاً عن كونه مدرس رياضيات موهوباً.



كان قمة في النضج والحكمة والوقار، ويبدو كأى جنتلمان متكامل يتمتع باحترام كل التلاميذ. أستاذ عمر حاج التوم وأستاذ عبد الغني آدم كان كل منهما قد كرّس نفسه كلية لتدريس اللغة الإنجليزية بامتياز. كلاهما ينتهج طريقة مختلفة في التدريس باختلاف شخصيتيهما وكانا مكملين لبعضهما بشكل رائع. وكان استاذ عطا مدرسنا في اللغة العربية وقد أشبعنا بحبه للشعر والأمثال العربية بما لديه من وسيلة مشجعة مليئة بالحماسة. أما أستاذ عوض فكانت طريقته في التدريس حديثة وديناميكية وكان قادراً على تدريس مواد متعددة في المنهج الدراسي المقرر، وأستاذ كمال مزمّل كان معلماً دؤوب العمل ودائم المثابرة في تدريس مادة العلوم. أخيراً وليس آخراً أتذكر الأستاذ عبدالوهاب الشعراي الذي كان معلماً عملاقاً يجدر ذكره بكل ما لدي من ود وتقدير.

كانت هناك أيام ذهبية يعتز بها الإنسان عند بلوغه سن الرشد. بعض من أجمل الأوقات كانت تحدث إما في فصول الشتاء أو في الأيام النادرة التي تكون ممطرة. كنا نلعب بمرح وسعادة وأحياناً نمارس الصراخ والزعيق بغرض إمتاع أنفسنا. كنا نتنافس فيما بيننا لنرى من منا كان قادراً على تغطية غالبية جسده بأكبر قدر من الطين. بعد ذلك المرح أجري مسرعاً لمنزلنا لأخذ قسط من الحمام البارد، وكانت والدتي تشتاط غضباً حين ترى ملابسي متسخة وقد حملت معي قدراً لا بأس به من الطين إلى المنزل.

بعد ذلك تذهب الوالدة لإعداد كوبين كبيرين من الشاي الأسود، ثم أغمس في كوبى رغيفاً ناشفاً قديماً وكذا شقيقى عزالدين ونحن جالسان حول الوالدة صامتين وسعيدين نستمتع فقط بكل ما تحفنا به من حنان وعطف فيما نرتشف الشاي. إنه لشيء غريب حقاً ولكني ظلت احتفظ في مخيلتي بصورة لذلك المشهد طيلة حياتي، ومتى ما مرت بي لحظات تسبب لي بعض الكدر كنت أجد فيها سلوى وراحة لنفسى.

كبرت الآن بما يكفي لأعلم أن عائلتي الممتدة كانت أكبر بكثير مما كنت أتصور، وهناك شخصيات جديدة بدأت تظهر على المسرح.

إنهم عمات وأعمام من كل المناطق. كانت هناك شقيقة والدتي الكبرى هدى، وكانت طويلة القامة، ممتلئة حيوية وطيبة القلب. عاشت بمفردها في منزلها الخاص بها وكانت تداوم على زيارتنا بشكل مستمر. توفي زوجها قبل استقلال السودان ولم يرزقا بالذرية. كانت تسعد كثيراً حينما يزورها أبناء وبنات أخواتها وإخوانها. كنا دائماً نتطلع شوقاً لزيارتها لأن ثلاجة منزلها الضخمة ظلت دائماً مكدسة بأنواع الجبن والزبادي والمياه الباردة. وشقيقتها الصغرى سعاد كانت صورة طبق الأصل من والدتي من حيث اعتزازها الهادئ بنفسها وربما أكثر حدة. كانت لا تسمح لنا أبداً بمغادرة منزلها ما لم تشبعنا بما تصنعه بنفسها من كيك وحلوى.

في بعض الأحيان كانت سعاد ووالدتي وهدى وفهيمه وعمتي حياة يجتمعن معاً في تجاذب للحديث وقراءة بعض أبيات من الشعر ثم جولة من الضحك وسرد القصص. هؤلاء النسوة كن



كالملائكة التي نزلت لي من السماء لتظلل حياتي. كانت خالاتي كالكتل الخشبية تشكل علينا حماية شرسة غير متوقعة مدفوعة بعاطفة قوية، سخرها لنا الله جميعاً. وفي اعتقادي كن أيضاً يتنافسن في ما بينهن لإبداء آيات الكرم والمساعدة. لو كنا قد حظينا مثلاً بقطعة كبيرة من الحلوى من هدى فإن سعاد تعمل بشكل خفي على تقديم قطعتين.

ثم هناك أيضاً أعمامي، أشقاء والدي.

لقد كانوا بحق مقياساً صادقاً للوفاء وتكريساً له ولكن بالطريقة الرجولية على عكس خالاتي. كان خالي عباس شقيق والدتي هو الأكبر سنّاً في الأسرة، وكان يعمل موظفاً كبيراً في مكتب البريد. وكان رجلاً حازماً ملماً بوضعه العائلي والإداري ولكنه رقيق الحاشية ومراعٍ لرغبات الآخرين ومشاعرهم. في الأمسيات عادة كان يفضل الجلوس على كرسيه خارج المنزل وفي يده كوب من الشاي أو القهوة يراقب العالم من حوله برفقة أصدقائه. أما محمد فكان موظف خدمة مدنية كبيراً... رجل آخر ممتلئ طيبة وكرماً، وكان يكتب الشعر في أوقات فراغه. كانت جيوبه دائماً تعج بالعملات المعدنية وحيثما حل فهو يصرف بسخاء. ثم هناك عبده ضابط الشؤون الخارجية، ربما كان واحداً من أكثر الناس احتراماً ممن شاهدتهم في حياتي على الإطلاق.

كان رجلاً عاطفياً ورفيقاً لدرجة تملكه بالحزن أحياناً، فإن عرف أن شخصاً مريضاً لا ينفك يزوره يومياً حتى يشفى تماماً. أما خالي أمير فقد كان رجلاً مرحاً يحب الضحك، له عيون مجمدة ويعمل إدارياً في المستشفى ومحبوب من الجميع. ليس لدي مساحة لذكر كل واحد بشكل مفصل ولكن هذه تقريباً كانت عائلتي التي أحبها. أعتز كثيراً بذكراهم، وما أوردته من اقتباس لتولستوي في مطلع هذا الفصل يلخص عصارة سعادتي التي عشتها بين أحضانهم.

وفي ذات الوقت عودة للمدرسة، فإن أساتذتي لم يكونوا يعلمون أنني كنت أمارس عمالة الأطفال وكم أنا فخور بما قدمته من مساعدة لوالدتي من دون أن أفقد أي شيء.

وحقيقة فقد آثرت أن أمضي قدماً ولا أكتثر، وكنت أعلم جيداً أن أساتذتي كانوا دائماً يشجعونني بذلك. وعموماً فإن كل الأشياء الطيبة دائماً تأتي في النهاية، فقد حان الأوان لنا جميعاً أن نلتحق بالمدرسة الثانوية. عشقت كثيراً المدرسة الابتدائية، ولم أكن أصدق أن المرحلة المقبلة ستكون مثل سابقتها، ولكن أياً كان الأمر فقد كنت مستعداً للتحديات الجديدة.

كنت وقتها دون الثالثة عشرة من عمري بقليل. أمضيت أربع سنوات في المرحلة الأولية ثم أربعاً أخرى في المرحلة المتوسطة. إنها الآن عطلة الصيف الكبيرة وأصبحت متلهفاً للسفر. لم أخبر والدتي ولكني أعددت العدة للسفر إلى القاهرة التي تبعد عن بلدنا بأكثر من 1600 كيلومتر إلى الشمال.

## الفصل الرابع

### تماسيح، وقرصان، وجن

«أفكارك هي ما يحدد شخصيتك»  
(كامل إدريس)

كيف، إن لم تكن في غير طقوسنا واحتفالاتنا، لا تولد البراءة والجمال  
(دبليو بي يتس. شاعر إيرلندي. 1865 - 1939)

في داخل كل رجل، توجد ملازمة عميقة في طبيعته، شيء بسيط وبدائي،  
ذكرى لحياة باكرة وأخرى أكثر نضارة. لذا فإن القنص وصيد الأسماك،  
والسفر والإبحار عبر العالم أشياء ذات فائدة دائمة للبشرية.  
(جون بوخان، منتقاة من «موسى بيكاتريكس»)

◀ أغلقت المدرسة أبوابها للعطلة الصيفية. بلغت الآن الثالثة عشرة من عمري، وبعد موافقة  
متردة ومباركة من الوالدة قررت السفر في رحلة طويلة إلى مصر. كنت أعلم أنني إذا وجدت  
عملاً هناك فسوف أصمد وأتمكن من توفير بعض المال، وكان يمكنني أن أعمل لأكثر عدد من  
الساعات متاحة لي بقدر معاناتي المريرة من عمالة الأطفال سابقاً التي جنيت منها الإرهاق  
والسأم. لم تكن لدي وظيفة بعينها أتجه نحوها ولكن أحد أصدقائي القدامى كان نصحني بأن  
أفضل شيء هو أن أسأل الناس عامة حين الوصول إلى محطة القاهرة للسكة الحديد. وقال إنني

سأكون سالماً تماماً وما يتطلب مني إلا أن أواصل محاولاتي. وثقت من حديثه معي، ولكن الرحلة الطويلة إلى القاهرة قد تستغرق يومين كاملين بالقطار، متضمنة رحلة بحرية لما يقارب أربعة وعشرين ساعة على ظهر باخرة عقيمة ومهلهلة.

كانت القطارات دائماً تعج ازدحاماً بركابها الذين يحملون معهم أطناناً من العفش، وهناك بعض الشجعان من الشباب ممن يحالفهم الحظ في اختيارهم السفر على أسقف عربات القطار. لم تكن في القطارات أية اختبارات للسلامة، وقد اعتاد مفتشوا القطارات على غض الطرف أو ربما تعاطفاً مع هؤلاء الشباب الذين يخاطرون بحياتهم. إذا حدث لأحدهم أن سقط من القطار، فإن القطار لن يتوقف وعليه أن يواجه مصيره بمفرده في الصحراء. كان يتطلب مني أن أخبر والدتي بأنني سأشتري تذكرة السفر ولن أشارك أولئك المغامرين. ولكن نقودي كادت أن تنفذ لهذا خططت أن أساعد البحارة على البادرة في عمليات نقل العفش والمناولة، وربما أمكنني أن أعد لهم الشاي أيضاً. كنت قد وضعت كل ثقتي في العناية الإلهية والكلمة العظيمة التي تعلمتها من جدي زينب - «المرونة». وفي اعتقادي أنك حينما تكون صغير السن وتقوم بعمل فيه بعض المخاطرة فإن هناك قوة خفية ترقب عن كثب ما تقوم به وكأنها ملاك حارس. وبالتأكيد كانت تلك القوة ترعاني وتهتم بي. وشعرت بثقة أن بإمكانني القيام بما أنوي عمله حتى أقف على قدمي الإثنين.

في القطار أخذت معي حقيبة سفري مع بضع حبات من البيض المسلوق، وقليل من الرغيف المجفف والتمر وزجاجة ماء عادية من المنزل، وجلست قبالة امرأة في منتصف العمر، ذات أعين طيبة ضاحكة ووجه بريء. لقد رتبت أمرها بأن تتبنى شخصي في مقام ابنها وتعهدت لي بمشاركتها طعامها مع بعض الصبية الآخرين أيضاً. وأخيراً أتيت لي أن أتعرف عليها بشكل طيب. أخبرتني بأن إسمها حجة السرة وأعتقد أنها كانت أرملة بما أنها تسافر لوحدها، وفي طريقها لمقابلة والتحدث مع شخص ما. وأعتقد أيضاً أنها كانت تعاني ضعفاً في السمع لأنها كانت تناديني «كمال» بدلاً من «كامل». أحببتها كثيراً وأعتقد أنه كان شعوراً طبيعياً، إذ أنها حينما انتهت رحلتها في محطة الزيداب أخبرت المفتش بأنني ابنها وطلبت منه أن يُعنى بي لبقية الرحلة! وقبل مغادرتها إلى خارج القطار فتحت سلة «الزودة» (التي تحتفظ فيها بطعامها) وأعطتني منها بضع حبات من الطماطم وقليل من التمر وقبينة من الشاي. أوضحت لي عن سعادتها لمرافقتي في تلك الرحلة، مع تأكيدها لي بأهمية التعليم والتربية القويمة، وأنها تتمنى أن تتقابل مرة أخرى إن لم يكن في الأرض فليكن في الجنة ونعيمها. هذه السيدة تركت في نفسي تأثيراً قوياً وعمقت ثقتي في ما يقدمه الناس العاديون من دفء **وتحنان** وكرم.

لم يكن يتطلب مني القول إنها كانت فقيرة ولكنها لم تكن غنية أيضاً. لم أنس أبداً صنيعها الطيب في نفسي، وأنا الآن على قناعة تامة بأنها في رحاب الله، آملاً أن تشارك بطعامها الملائكة الكرام.

عقب تلك الرحلة صرت أسافر كل صيف تقريباً، ومع التجربة أصبحت متاجراً وبوسعي أن أدفع قيمة تذكرة السفر في كل مرة. وبعد أن تعلمت كل الدروب والوسائل أصبحت أحضر معي من السودان عدداً من نظارات البيرسول الشمسية التي تجد رواجاً في مصر وأمواص الحلاقة ماركة (ناسيت) وكمية من الفول السوداني كنت أشتريه من سوق أمدرمان، ومن عائد ما تدره علي تجارتي كنت أشتري الملاءات القطنية التي أتاخر بها أيضاً في بلدي.

بقيت على حالي في الباهرة بالسفر المجاني إذ ظلت أعاون طاقمها في مناولة العفش وتنظيمه على ظهر الباهرة تم إعداد الشاي بالنعناع للطاقم. وفي نهاية المطاف كان قد توفر لي من المال ما يكفيني لركوب القطار في رحلة العودة على الدرجة الرابعة. وهي وسيلة تسمح للراكب بالجلوس فقط على مقاعد خشبية غاية في الصلابة، ولكنها كفتني مؤونة التعرض لحرارة الشمس الغائظة حين كنت أمتطي سطح القطار وتخلصت من هاجس التعرض للأسلاك التي كانت تعلقو القطار وتهددني بقطع رأسي، وأيضاً درءاً لي من السقوط والموت عطشاً في الصحراء. ما زلت موقناً بقوة بأن العناية الإلهية كانت ترافقني، رغم أن هناك حالات في رحلاتي تلك كان من شأنها أن تؤدي بحياتي.

ما زلت أتذكر حتى يومنا هذا، ذلك اليوم الرهيب الذي غادرت فيه الباهرة بغرض أخذ قسط من الراحة والمشي على ضفاف البحيرة. في منتصف الطريق أثناء رحلتها عبر البحيرة توقفت الباهرة في إحدى المحطات في محطة نزول صغيرة. لا أحد كان يدري لماذا توقفت الباهرة، ولكن حين استفسرت كم من الوقت سيستغرق البقاء في تلك المحطة، أجابني أحد البحارة بقوله: «ساعتان على الأقل، وربما الليل بطوله». كانت الباهرة مزدحمة بشكل لا يصدق فضلاً عن الضوضاء العنيفة جراء العدد الهائل من المسافرين الذين كانوا يتزاحمون فوق بعضهم ثم أكوام مهولة من البضائع المختلفة، ثلاثيات وكراسي وموترسايكلات وصناديق الكارتون الكبيرة التي تحوي الأطعمة وجميعها مكدسة فوق بعضها بعضاً. إزاء هذا قررت أن أخذ قسطاً من الراحة والتجوال على الشاطئ.

لم يكن النهار قد انتصف بعد وكان الجو ما يزال حاراً إلى حد قاتل. ورغم عدم وجود ما يستوجب المشاهدة، باستثناء حقول صغيرة لبعض الخضروات المتناثرة وقلة من أشجار النخيل مع وجود ما يشبه غرفتين بلا سقف مهجورتين، إلا أنه كان أمراً مريحاً التخلص من ضوضاء الباهرة وصخبها. كان علي أكون حذراً - وكان صيادو جزيرة توتي قد نصحوني من قبل بأن الثعابين والعقارب عادة تتخذ مرتعاً خصباً لها بجوار الماء، ويجب علي ألا أتغافل بالطبع عن التماسيح. وأعتقد أنني كنت خائفاً أكثر من الثعابين، ومن المعلوم أن في السودان حوالي تسعة وثلاثون نوعاً، منها عشرة أنواع قاتلة. هناك الأفعى السامة المسماة «شيطان الليل»، والمامبا السوداء (التي يمكنها أن تنسحب متحركة داخل الرمال بأكثر من سرعة الرجل)، ثم الكوبرا المقنعة التي تنفث بالسم على أعين ضحيتها. أما أكثر ما كان يخيفني منها بشدة هي المامبا

السوداء لأنها النوع الوحيد الذي يتابع الإنسان ومهاجمته من دون سبب واضح - بل حتى يمكنها أن تصعد الأشجار! أما الأنواع الأخرى فتصبح عدوانية فقط في حال شعورها بالتهديد على حياتها. وجدت مكاناً طيباً أسفل إحدى أشجار النخيل وجلست عليه.

نظرت إلى أعلى، هل هناك مامبا سوداء تنظر إلى من خلال اغصان الشجرة؟ هل لو حركت ذلك الحجر ستخرج عقرب من خلفه لتلدغني في كاحلي؟ هل كنت أجلس قريباً من موقع حضانة لأنثى تمساح؟ حركت الحجر فلم أر شيئاً خلفه. ونظرت إلى أعلى بقدر استطاعتي فلم أشاهد ثعابين على النخلة. وكنت على أية حال على علم بأنها تنشط في الظلام وحينها أكون قد غادرت الموقع. دخلت في استرخاء سريعة، ثم هبّ على وجهي نسيم عليل منعش فأغمضت عيني. وعلى مبعدة مائة متر مني كان النيل العظيم ينسدل بهدوء في رحلته الممتعة إلى القاهرة في الشمال. لقد كنت في مغامرة يدفعها عنصر الصبا وكل شيء في العالم كان متاحاً بالنسبة لي. ويا له من عالم. كانت السماء اللازوردية اللون تتوهج فوق رأسي والرياح تهمس بلطف شديد من حولي وأخيراً مياه النهر السريعة الجريان تبعث الراحة على عقلي. تنفست هواء الصحراء النقي و، ما زالت عينايا مغمضتين، رفعت رأسي إلى الشمس ثم غرقت في نوم عميق هادئ.

كنت وحيداً أتناجى مع عشقي الحبيب النيل، والهدوء الرائع الذي لف المكان كان قد رؤّس لي روعي.

لفترة محددة من الوقت تملكنتني نشوة خفيفة - تماماً كأنني قد تخلصت من جسدي. كنت أحس بأني في وضع أعلى من الأرض، أرنو ببصري إلى تلك البانوراما الفطرية، جنة عدن تحفها أصوات عذبة وسعادة غامرة. أعتقد من الواجب أن هناك أوقاتاً في حياة كل شخص حينما تكون هناك تجارب كهذه، لحظات من الطمأنينة حينما يرفع الخمار وتقول الطبيعة كلمتها، «أنبهوها - هذه لقطة تصويرية من الجنة». يبدو لي كما لو أن هناك شريطاً في رأسي ومن خلاله يمكنني إعادة ذكريات الطفولة كافة. في أحلامي كنت مرة أخرى طفلاً صغيراً جالساً على فصل دراسي بلا حيطان وفي المساء كنت جالساً بجوار والدي أستمع منه الحكاوى المدهشة عن فجر إفريقيا الأول، يهددني القطار القديم بلطف شديد في رحلته إلى كريمة. وكنت قد أشرت من قبل إلى المخاوف والكوابيس التي أقضت مضجع طفولتي، ولكن النيل كان شقيقي المقاتل إنابة عني، أحد أهم حلفائي في الحياة الذي تحدث عن عالم أكثر بقاءً وسرمدية. حمل معه سحر وكل أسرار القرون الماضية، وبقدر ما أتيح لذاكرتي أن تختزن، فسيظل خيالي الذي يصحبنى ويقويني عبر عاديات الدهر والأيام الأشد ظلمة.

لم أتذكر كم من الوقت استغرقتني هذه الأحلام النهارية، ولكن أخيراً أخذت الرؤية تتلاشى وحن وقت العودة للباخرة. إنه الآن وقت متأخر من العصر وقد انقشعت حرارة النهار التي تشوي الوجوه. نهضت واقفاً وشدت أذرعني وأرجلي، ونفضت الغبار والأتربة من ملابسني، ثم

توجهت عائداً إلى شاطئ البحيرة. ولفترة دقيقة تقريباً كنت أظن أنني لم أزل أحلم. يفترض ان يكون ذلك حلماً... كان ذلك كابوساً وفجأة صحت بكامل قوتي. لقد غادرت الباخرة! أي عالم ذاك الذي وجدت نفسي فيه؟ هل كان ذلك حقيقة؟ ومع أنها كانت على مسافة مئات قليلة من الأمتار إلا أن ما حدث كان حقيقة. لم أكن نائماً.

كنت أصرخ وأصيح لها بالعودة لتأخذني، ولكن بلا فائدة بالطبع. ورغم أنه كان عملاً يائساً فقد بقيت أنظر إليها حتى اختفت تماماً من ناظري. كنت أتمنى أن لو عادت أدراجها لإنقاذي. صرخت وصرخت مكرراً ولكن ما كنت أسمعه فقط لم يكن أكثر من صدى خافت لصوتي. استمر هدير محرك الباخرة يثير حفيظة المياه التي كانت تبعث بموجات خفيفة وراءها ظلت تتكسر قبالي، «لقد فات الأوان!» وكأني بها أسمعها تخاطبني، «لقد فات الوقت عليك وقد أصبحت مهملاً ووحيداً...». كنت أفكر لو أن شخصاً ما ربما كان قد فطن لغيابي. ولكن ذلك أيضاً لا يكفي - لقد كان على ظهر الباخرة أناس كثيرون مقابل ولد صغير لم يتأكد أحد من اختفائه من بينهم. لم أكن أصدق أن ذلك قد حدث لي فعلاً حتى أتقهقر مستسلماً لليابسة، أما قلبي فكانت تملؤه الحسرة وعدم التصديق بما حدث!

حاولت أن أظل متماسكاً. لم أر مبرراً يستوجب البكاء أو الندم على ما حدث لي. كان علي أن افكر بسرعة. قارنت بسرعة احتمالات نجاتي وإنقاذي. هل كنت سأموت من العطش؟ لا، ماء البحيرة متوفر، ولكن ماذا عن التماسيح؟

لم أكن أشاهد أيّاً منها رغم علمي بأنها موجودة هناك.

كان معلوماً لدي أن النيل يعج بالآلاف منها وأنها معتادة على خطف ضحاياها من البشر من حافة النيل حينما يأتي الناس للشرب أو غسل ملابسهم. وعلى الضفة تكون أكثر خطورة حتى، فلو حدث أن اقتربت من منطقة بها حضانة لأنثى التمساح فلن تتردد في تمزيقي إرباً إرباً. كانت فرص وقوف الباخرة للأسبوع التالي في وسط هذا المرسى اللامنتمي، تكاد تكون معدومة تماماً. كان ممكناً أن أموت ربما بسبب ضربة الشمس أو الجوع. أما البنائتان الخريتان اللتان بلا سقف فقد تهدمتا كثيراً ولكن ما زال بإمكانهما توفير قدر ضئيل للوقاية من شمس منتصف النهار. ومع ذلك ربما يرزح الموقع بعدد من الثعابين والعقارب التي تحوم حول الأركان المغبرة أو خلف أكوام الطوب المكدسة. لم تكن هناك أية آثار لطرق أو للحياة البشرية.

بدأت أصلي لله وأتضرع إليه تعالى أن يعجل بإنقاذ صبي صغير فقير، مفقود وحيداً في هذا القفر. بدأت أفكر في والدتي وأشقائي وشقيقتي وهم ينعمون بنوم هادئ في المنزل. وحيال ما أصاب ذهني من خلط وتشويش فقد بدأت ترد إلى عقلي صور خيالية عن أشجار النخيل التي أكل عليها الدهر وهي منتصبه أمام منزلنا في أمدرمان، وعن عبدالله، والهادي آدم، والطريق المؤدي إلى مدرستنا وكل زملاء الفصل. كل أولئك بدوا لي واقفين في صف طويل كأنما تجمعوا معاً حول جسدي الميت.

ثم رأيت الصخرة - بناية عملاقة من ناحية الشمال، على بعد بضع مئات من الأمطار تسقط بأكملها في الماء.

ربما يبدو ذلك أمراً لا يصدق الآن، ولكنني على يقين بأنني سمعت صوت زينب وهي تحذرنني بأن أتخذ كل أدوات الحيلة والحذر الممكنة.

«أنت قريب من الموت، ولكن عليك أن تتحلى بالشجاعة»، هذا ما قالت لي، «توجد أخطار كثيرة هنا - حيوانات مفترسة وحتى الجن - عد إلى الصخرة! عد إلى الصخرة!» ربما سأكون آمناً هناك. كانت ما تزال باهتة بما يكفي لرؤيتها... وجريت نحوها.

تعثرت وجرحت كاحلي، ولكنه لم يكن جرحاً كبيراً، وفي خضم نوبة الهلع التي أصابني لم أشعر بأي ألم. ومع ذلك فقد كانت على الأرض بضع قطرات من الدم وتمنيت ألا تشمها الضباع والذئاب ثم تبدأ في ملاحظتي. وكنت كلما اقتربت منها كانت الصخرة تلوح في الغسق مثل جبل صغير. وإذا أمكنني الوصول قريباً من القمة فسأكون في مأمن من هجمات التماسيح.

كان علي أن أكون حذراً أكثر من اللازم، لأنه في مواقع بعينها كانت الصخرة تسقط بانحدار شديد داخل البحيرة. كنت في حاجة لئلا أجد طريقاً للصعود إليها على ألا يكون شديد الانحدار. كانت الرياح آنذاك قد خففت من سرعتها وأصبح وجه الماء مسطحاً كرقائق الصفيح. ثم بدأت أشاهد تموجات الماء الصغيرة. كانت تتحرك نحوي ببطء على مسافة ثلاثين متراً تقريباً، وبين الفينة والأخرى أخذت فقائيع الماء تترى خلفها. الناس يقولون إن التماسيح تتنابها الحساسية تجاه أية دذبذبات على الأرض، وربما كان جريبي قد أيقظ واحداً منها. صعدت الآن فوق الصخرة. وبالتأكيد فإن التماسيح لن يتمكن من اللحاق بي على هذا المنحدر؟ وبالنظر إلى الأسفل فقد كنت بالكاد قادراً على رسم شكل مظلم داخل الماء. كان التماسيح ضخماً بحق، وقد وضع جسده مثل كتلة من الخشب طافية على السطح، موجهاً أنفه مباشرة تجاهي. تأكدت أن لديه أكثر من ستين سنّاً خطيرة، وأن هناك آلافاً من نوعه داخل البحيرة وأن وزنه يعادل وزن سيارة صغيرة. صعدت أكثر إلى أعلى وأخذت في النظر إلى الأسفل. غطس التماسيح إلى داخل الماء ولكنني كنت متأكداً أنه ما زال يتحرك تحت السطح.

صادفت قطعة أرض صغيرة مسطحة في منتصف الطريق للقمة، تلفت يمنة ويسرة نحو الشقوق والفتحات الصخرية خوفاً من وجود مخلوقات قاتلة ثم جلست أرضاً. كان الدم ينزف من ركبتي ولكن الجرح لم يكن عميقاً كما أن كمية الأدرينالين التي كانت تتصبب من جسمي لم تجعلني أشعر بأي ألم. وحتى تلك اللحظة ليس من آثار للضباع. وكنت قد قرأت في موقع آخر أن التنفس ببطء شديد من شأنه أن يساعد الأعصاب على الهدوء وتصفية الذهن. وكنت حقاً في حاجة لذلك العمل لأنني تذكرت فجأة بأنني نسيت حقيبتتي التي تحمل أهم ممتلكاتي الدنيوية داخل الباخرة وربما لا أراها بعد اليوم. جواز سفري وكمية قليلة من النقود وملابسي الشخصية وبضع قطع من الرغبة والفواكه كلها ضاعت! دفنت رأسي بين راحتي يدي ومرة أخرى استغرقت في أداء صلواتي ودعائي.



لم يحدث لي أبداً طيلة حياتي أن أدت صلواتي ودعواتي بذلك الشكل. ولطالما إن الله هو السميع المجيب فقد ظلت أدعو بتركيز شديد للغاية عسى أن تُسمع كل دعواتي وتوسلاتي حتى يأتيني القبول والفرج. ولكني أيضاً كنت أسمع أصواتاً غريبة ترد إلي من جوانب الصخرة المختلفة مما أقض مضجع صلواتي.

فمن منطقة قريبة كثيفة الأشجار كنت أسمع ثرثرة وضجة غريبة وهي خليط من زعيق لأصوات الحيوانات ونواح الطيور الليلية التي بدأت الحركة تدب في أوصالها. كنت أعلم أن البومة والفئران والثعالب مخلوقات غير مؤذية، ولكني لم أكن واثقاً عما إذا كانت الذئاب أو مجموعات الضباع قد عرف عنها مهاجمتها لضعاف البشر. أما عن الثعابين...! فقد جلست بشكل ضمت فيه كلتا ركبتي إلى صدري وبقيت أجول ببصري بحثاً عن عصا. كنت في حاجة إلى شكل من الحماية، أياً كانت متخلفة، ولكن ليس من وسيلة يعتمد عليها. كما أن الطقس بدأ يزداد برودة. ربما كان بإمكانني إيقاد بعض النار - إذ من شأنها أن تبعد عني الحيوانات المفترسة فضلاً عن تدفئتي، ولكني لم أكن أملك أعواد الكبريت أو مواد الإشعال.

استلقيت بجسدي على الصخرة، ما يزال هناك بعض الدفء من ضوء الشمس. ثم لففت يدي حول جسمي محاولاً النوم. كنت مرهقاً إلى حد بما يلزمني أن أغفو لثوان معدودات. وكانت زينب معي مرة أخرى. «إلزم الصخرة»، هكذا وجهتني، «إلزم الصخرة!». ثم بعد ذلك أتى ضوء لامع ليخفيها عني - هل كان ذلك هو ضوء شمس الصباح التي أشرقت يا ترى؟ أصيبت عينايا فجأة بصدمة حين شعرت بحزمة قوية من الضوء اجتاحت وجهي. وكان خلف الضوء شكل مكسي بالسواد ومن ذلك الشكل خرج صوت:

«إنه جن! الله أكبر!»

«لا يمكن أن يكون من الجن. إنه صغير للغاية»

«إنه جن. جن حقيقي. احترس منه!»

لم يكن ذلك حلماً أبداً، فقد كنت مستيقظاً تماماً! وكل ما استطعت تحديده هو رؤيتي لأربعة أشكال بشرية من خلال ضوء القمر. وكان أحدهم مشعلاً بطاريتة اليدوية على كامل جسمي.

«إنه جن! ماذا تفعل هنا؟» صاح أحد الأشكال. «هذه صخرتنا. أنت جني.»

«لا، أنا لست جنياً»، أجبته. «أنا مفقود. لقد كنت في الباخرة.»

«أنت جني. أي باخرة تتحدث عنها؟» سألوني. «لا توجد باخرة! لم يحدث أبداً أن توقفت الباخرة في هذا المكان!»

«أنا كنت في الباخرة ثم غادرت من دوني»، دافعت عن موقعي.

استمرت بقية الأشكال البشرية في استجوابي. «لا، إنك من دون أغراض. أنت تكذب علينا.



أين هي أغراضك؟ إنك جني. لماذا أتيت إلى هنا؟»

هنا جاء صوت عميق من الخلف. «الجن يمكنهم الذهاب إلى أي مكان. ألا تعلمون ذلك؟». بعد ذلك أخذ الرجال الأربعة يحادثون بعضهم بعضاً. وفكرت أن أفضل شيء يمكنني أدائه هو أن أظل هادئاً ولا أتحرك. الوسيلة الوحيدة التي تمكنني من البقاء هي أن أتلاعب بالزمن. عرفت أشياء قليلة عن الجن من خلال ما كان والدي يروي لي من قصص وما توفر لي من كتب في المنزل. الجن هم أشباح - ويمكنهم الظهور في أي شكل أو هيئة ويمكنهم تسبب الأذى. بعض الناس يطلقون عليهم الأرواح الشريرة وهناك مئات القصص عنهم، وهي قصص تعود لآلاف السنين في الماضي.

أنهم أربعة من صائدي السمك ممن يؤمنون بالخرافات، وإذا قرروا فعلاً أنني أحد أفراد الجن ربما اعتدوا علي. ما زال الظلام يلف المكان ولكنني نجحت في إبقائهم بعيداً عني. كانوا يلبسون ملابس قديمة رثة، ويحملون معهم أيضاً خنجر وفؤوساً يضعونها في وسط أجسامهم، إضافة إلى ما يبدو أنها أمتار عدة من القماش كانوا يلفونها على رؤوسهم. كان منظر لحاهم ووجوههم المدهونة يذكرني بصور لبعض القرصان الذين قرأت عنهم في مكتبة المنزل. ربما كانوا من المهربين أو نوع من الجن هم أنفسهم. وبالنسبة لعقلي الصغير المرتعد كانت كلها احتمالات واردة. يبدو أن الذي كان يحمل البطارية هو زعيمهم، فيما اصطف الباقون خلفه بمسافة كبيرة، وهو يبدو أكثرهم شراسة وعدوانية، وإذا كان قد قدر لأحدهم أن يطعنني بالخنجر فسيكون هو. رتبت عقلي بتسمية زعيمهم «البطارية» والثاني هو «الحية الزرقاء». وحتى يمكنني النجاة منهم كان علي أن أقنع البطارية بأنني بشر لحماً ودماً.

الحية الزرقاء تقدم نحوي أكثر. «إنه صغير»، قال لهم. «إنه ولد لأحد الجن». ثم سحب سكيناً معكوفة كبيرة من وسطه.

«انتظر قليلاً»، تدخل البطارية. «لو كان جنياً فيمكنه إطلاعنا على موقع الكنز. عليك أن تخبرنا عن الكنز».

«عن أي كنز تتحدثون؟»، تساءلت. ليست لدي أية فكرة عما كان يتحدث عنه البطارية.

«الكنز. الجن يعرفون مكان الكنز»، قال لي.

«أنا لست من الجن»، رددت عليه، «ولا علم لي بأي شيء عن هذا الكنز»

«بل إنك تعلم. تعلم عن الباخرتين اللتين غرقتا هنا. لقد أنقذ الكنز وتم دفنه في مكان ما

هنا. أين هو؟»

«لقد قلت لك إنني لا أعلم أي شيء عن هذا الموضوع!»

في ذلك الوقت تجمع الأربعة حولي، وكانت سكينه الحية الزرقاء تتدلى من بين يديه. وما لم يكونوا على علم به هو أنني كنت قد بدأت بتنفيذ خطة في رأسي ولكنني كنت أتلاعب بالزمن.

«حسناً، سوف أخبركم، ولكن من فضلكم أجلسوا الآن وضعوا سكاكينكم جانباً». لا أعرف من أين جاءتني هذه الكلمات. لقد كنت على أعتاب الثالثة عشرة من عمري وأحاول إقناع أربعة رجال قساة بماذا يفعلون. حملقوا في وجهي لفترة ثم جلس البطارية أرضاً. كانت تلك إشارة للآخرين بالاسترخاء، ورغم ذلك ظل اللحية الزرقاء واقفاً، يرمقني بنظره من أعلى كتف البطارية بسكينه التي أخفى نصفها بين أكمام قميصه.

جازفت مقامراً بأنني أعرف أكثر مما يعرفونه هم.

«قبل أن نتحدث عن الكنز»، بدأت موضحاً رأيي، «أود أن أسألكم بعض الأسئلة. إذا كنت من الجن هل كنتم ستقتلونني؟»

نكسوا على رؤوسهم لفترة من الوقت ثم رفع البطارية رأسه قائلاً:

«ربما. من الممكن أن تكون شيطاناً رجيماً».

«نعم، ولكن ممكن أن أكون جنياً طيباً. لعلكم تعلمون أن بعض الجن تكون ودودة مع بني البشر. هل تعلمون ماذا يحدث للبشر الذين يقتلون الجن الطيب؟» وجهت سؤالي لأربعتهم.

لا إجابة. ولم يكونوا يعلمون أنني أعددت كل ذلك في وقته. «إنهم يأتون إليهم في منازلهم ليلاً ويسرقون أطفالهم. ثم يجعلونهم ينامون ويشربون دماءهم. أو ربما يسممون مياههم. وأياً كان الأمر، أنتم لم تنظروا إلى ذراعي أو يديّ الإثنتين».

«ولماذا ننظر إلى ذراعيك أو يديك؟»، سألني أحدهم.

«لأن الجن حينما يكونون في خطر يتحرك الوشم في أيديهم إلى أعلى وأسفل وينقلب لون أيديهم إلى اللون الأزرق».

هنا حدث تلهف جماعي إزاء هذا الاكتشاف...

نهض البطارية وأمسك ذراعي بقوة، موضحاً للبقية «ليس لديه وشم».

«لا وشم. لأنني لست من الجن» أوضحت لهم.

تكلم اللحية الزرقاء قائلاً، «أعتقد أنك جني شاطر، نحن نعلم أن الجن يمكنهم تغيير أشكالهم ويطلقون الأكاذيب كما تفعل أنت الآن، وأنا أعرف كيف أقتلك. لدي سكين من الفضة، وكل ما أحتاجه هو غمسها في دماء حمل وسوف تموت».

«أين هو الحمل؟»، عقت عليه، «وعلى أية حال إذا فعلت ذلك فإن أصدقائي من الجن ربما يأتوا ليثأروا لي».

أنا أعرف جنياً مخصوصاً بإمكانه أن يأخذ البشر ويجعلهم صغاراً ثم يضعهم في زجاجة. إذا قتلتنني سيأتي عقب ذلك بعض الجن وسيجدونك وستأخذ وقتاً طويلاً قبل أن تموت».

ظل البطارية يفكر بعمق. «هل تريد قليلاً من الماء؟» قال لي، «لعلك عطشان بشدة». لم

أكن متأكداً من نواياه نحوي. ولكن عقب ذلك النقاش المجهد كنت فعلاً أشعر بالعطش الشديد. مد إلي ما يشبه حقيبة بنية اللون، لقد كانت قربة من جلد البقر مترعة بالماء. كان طعمها لزجاً لا يخلو من آثار الطين ولكنني كنت في ذروة العطش جراء ذلك العنت المرهق وشربت حتى ارتويت.

«دعني أرى قدميك»، قالها محاولاً زجري.

«ماذا؟»

«دعني أشاهد قدميك»

«لماذا؟» استفسرته

أمسك بقدمي اليمنى بقوة ومرر يده على الجزء الأعلى من حذائي ثم صاح لرفقائه. «لا يبدو أنه واحد من الجن. أصابع قدميه وكاحلاه ليسوا مقلوبين إلى الأسفل. وعلى أية حال أيضاً فإن الجن لا يشربون الماء».

لم أصدق أنني أستمع إلى مثل هذا الحديث. إنهم حقيقة كانوا على قناعة بأن الجن الحقيقي لا يشربون الماء كالآدميين كما أن أصابع أقدامهم وكواحلها موضوعة بشكل مقلوب!

«ظللت باستمرار أخبركم بأنني لست من الجن، قلت موضحاً رأيي، «أنا بشر مثلكم. ولكن بإمكانني أن أحدثكم عن الكنز».

«أين هو؟» سألوني جميعاً.

«سوف تجدون الكنز مرتين» قلت لهم مستفزاً.

«ماذا تعني؟»

أصبحت الآن في قناعة على الأقل بأنهم لن يقتلونني، وأخبرتهم إذا كانوا سيتركونني لأعيش ومساعدتي فسوف يجدون نوعاً خاصاً من الكنز في أرواحهم. أعمالهم الطيبة ستجد القبول من الله وبالتالي ستكون فرصهم في الدخول إلى الجنة قد ازدادت. لقد كنت فقط طفلاً فقيراً مفقوداً - ولست جنياً - وبمساعدي لمواصله سفري سيحقق لهم أكبر قدر من عمل الخير. وكان ذلك فس حد ذاته نوعاً من الكنز الروحاني المخصوص. الجن أيضاً كانوا سيلتفتون لذلك الأمر وربما في المستقبل، حينما يظهر شخص طيب آخر على الصخرة، قد يساعدونه في العثور على الكنز الآخر.

سأدهم الهدوء لفترة محددة قبل أن ينتفض البطارية ويقودهم بعيداً. لم يبتعدوا كثيراً وما زال اللحية الزرقاء يحملق في وجهي. لم أتمكن من متابعة حديثهم بلهجتهم القوية، ولكني أحسست أن البطارية قد أقنعهم تقريباً بأنني ربما لم أكن من الجن.

«حسناً. نعتقد أنك ربما تكون من البشر، ولكننا غير متأكدين بعد. سنحاول مساعدتك، ولكن يلزمك البقاء معنا لمدة يومين قبل أن نخطو الخطوة التالية. امتنع عن التجوال ليلاً وإلا ستكون

فريسة للضباع والذئاب. أما الآن فسنتناول عشاءنا ثم نخلد للنوم». وفي لمح البصر أمكنهم إشعال النار ثم طبخوا عليها قليلا من السمك. لم أكن أعرف من أي الأنواع ولكن يكفي أنه من النيل وقد كان لذيذ الطعم. في تلك الليلة رقدت بعيداً عن الرجال ولكن الصخرة كانت قوية إلى حد كبير على جسدي مما جعل نومي غير مريح تماماً. لاحظت أنهم كانوا يتناوبون الحراسة ومراقبة النار أثناء الليل، وحينما جاء دور اللحية الزرقاء في الحراسة ظل يحرق ببصره تجاهي باستمرار. ودعوت الله ألا يتقدم ناحيتي ويقطع رقبتني بسكينه. كنت أرتجف خوفاً. فتحت إحدى عيني وتظاهرت بالنوم.

قضيت اليوم التالي في قطع الأخشاب ومراقبتهم يسطادون السمك. إنهم يعلمون بوضوح شديد كل شيء عن التماسيح، وكانوا حينما يشاهدون خطوطها على سطح الماء يقفون على مسافة بعيدة من الماء. كما كانوا يستعملون شباك صيدهم بمهارة وهم يقذفونها على الماء في شكل نصف دائري ثم يراقبون الفلين الذي يظل طافياً على السطح تحسباً لأي هجوم غير متوقع من الأسفل. عقب تناولنا وجبة ذلك المساء، سألت البطارية عن الأكواخ المهجورة. ظل صامتاً لبرهة من الوقت ثم قال «لا تسأل عنها. لا نود أن نسمع أية أسئلة حولها، وبهذه المناسبة سنتحرك غداً للبحث عن الكنز. وعليك أن تعطينا إشارة لذلك».

«ولكنني لست من الجن»، حاولت تذكيره.

«لا، ولكن ربما تكون نصف جني. نعتقد أن لديك بعض القوة». كان الأمر مقلقاً بالنسبة لي. إذا لم أعطهم نوعاً ما من المساعدة ربما اضطروا لقتلي. وكلما سادهم الاعتقاد بأن بإمكانهم مساعدتهم في العثور على الكنز، كلما كانت فرصتي أكبر في البقاء حياً.

قضيت ليلتي تلك نائماً على بعض الخرق البالية التي أتاني بها البطارية، ولكن الصخرة ما زالت قوية مؤلمة ولم أتمكن من النوم متابعة سوى دقائق قليلة. حينما استيقظت من النوم فكرت في إعداد خطة للهروب منهم، ولكنني سرعان ما عدلت عن رأيي. كان موقفي ميئوساً منه. كما جال بخاطري أيضاً أن أعرف شيئاً عن الأكواخ المهجورة. لماذا ظل البطارية يبدي قلقاً في الحديث عنها؟ ربما لاعتقادهم بأن بعضاً من الجن كانوا يسكنون فيها. لقد كان مرجحاً كثيراً أن هناك عمليات تهريب تجري في المنطقة. وكنت قد سمعت بعض الشائعات تروج في الباخرة بأن عدداً من صائدي الأسماك يتعاملون في الذهب والآثار والتحف النادرة ثم يبيعونها لبعض المتاجرين في الشمال.

خلال الليل كنت أفكر في شيء من شأنه أن يغري هؤلاء القوم بالابتعاد عن الصخرة قليلاً حتى أنعم بها لوحدي لفترة من الوقت. أخبرت البطارية بأنني قد حلمت حلماً مثيراً.

كان شيئاً غريباً ولم يكن يعني أنني فرد من الجن، فقد حلمت بأن الكنز يقبع مجاوراً لصخرة كبيرة وغالباً هي مثلثة الشكل وتنفرد لوحدها من مثيلاتها الصغار. وكان من اليسير رؤيتها بسبب لونها غير المعهود الذي يشبه لون الصدا. ولم أكن متأكداً من موقعها تحديداً إذا كان شمالاً مع

مجرى المياه أم جنوباً، ولكنها كانت على هذا الجانب من البحيرة، وعلى مسافة كيلومتر واحد من حيث معسكرنا. حينها بدا متشوقاً كثيراً ونادى على رفقائه بالمجيء إلينا وطلب مني أن أعيد ما ذكرته له قبل قليل. وبالطبع كررت لهم ما قلته له، وعلى الأقل كنت قد أعطيت نفسي متسعاً من الوقت لتدبير خطة للهروب.

لم يمكنهم الانتظار أكثر حتى اتجهوا بأنظارهم صوب الموقع، ثم اختفوا تجاه الجنوب بحثاً عن الصخرة بلون الصدا. تقاسموا المهمات في ما بينهم وكنت أسمعهم يوزعون الإرشادات لبعضهم بعضاً. إذن فقد بقيت وحدي - ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ كان البطارية قد طلب مني بصرامة شديدة أن أبقى في الموقع وأن أحافظ على النار الصغيرة متقدة. ويجب عليّ ألا أتحرّك إلى حين عودتهم. لم ألق بالاً لتلك التعليمات وبدأت في التجوال حول شاطئ البحيرة، سائلاً الله مرة أخرى أن ينقذني من هذه الورطة. كنت أهدق بشدة في مياه البحيرة حتى لفت انتباهي شيء يتحرّك من جهة الشمال.

لقد كان ذلك قارباً صغيراً وبالكاد لمحت بداخله ثلاثة رجال. لوحت لهم في قلق شديد، ولفرحتي فقد ردوا إلي التحية واتجهوا صوبي. كنت أسأل الله أن تردّد سرعتهم تجاهي، إذ أن البطارية ومجموعته ربما كانوا عائدين خالي الوفاض في تلك اللحظات ومن ثم سيعلمون أنهم خدعوا في مهمتهم تلك. أوقف الرجال قاربهم على الضفة وساعدوني للركوب معهم. أوضحت لهم أنني كنت في طريقي لمصر ولكن فاتتني الباخرة وبالتالي فقدت كل ملابسي ونقودي. وللحظة محددة كان يرتابهم شك في أنني من الجن أيضاً ولكنهم أخيراً كانوا أكثر رشداً وتفهماً من البطارية ومجموعته. كانت أعينهم تحمل بعض إشارات الشك تجاهي ولكنني أفلحت في إقناعهم بصحة مشكلتي. وما أن حكيت لهم قصتي مع البطارية ومجموعته حتى تبادلوا في ما بينهم نظرات ذات معنى، ثم أسرعوا بالابتعاد عن موقع الصخرة إلى عرض المياه. ربما لعلمهم بأن أولئك القوم يمتهنون التهريب. وسرعان ما اختفينا عن الأنظار لدى انحناءة في البحيرة.

كان قائد المركب رجلاً في عقده السابع من العمر يبدو طيب المحيا ذا وجه كساه السواد ولا يخلو من بعض الدهاء. «أنا أمين»، قال لي «وهؤلاء أبنائي جابر وسامر. يمكنك الذهاب معنا. وسنوفر لك مكاناً آمناً ترتاح فيه إلى حين تدبر أمرك بالسفر على باخرة أخرى. إنك تبدو مرهقاً كثيراً. يمكنك أن تنام هناك».

وأشار بيده إلى مقدمة المركب حيث كانت توجد بعض البطانيات بجانب مساحة صغيرة على السطح. استغرقت في نوم عميق لساعات عديدة مثلي مثل أي طفل. وفي أحلامي سمعت صوت زينب مرة أخرى: «إلزم المركب... إلزم المركب!».

حينما صحت وأكملت لهم قصتي ومعاناتي لم يكادوا يصدقون أنني وبمفردي أمكنني الصمود ليلتين كاملتين من شر الثعابين والحيوانات المفترسة. لاحقاً علمت أن أمين وأبناءه جابر وسامر ربما كانوا يتحدرون من أصول نوبية وبالتأكيد فإن الخرافات هي جزء من تراثهم،

ولكنهم أيضاً يغمرهم الفخار بما اكتسبته قبيلتهم من سمعة طيبة في التسامح والكرم المتأصل في نفوسهم مع حيرانهم ومن يعاشرونهم من الضيوف والمسافرين. ظلوا تقليدياً يتزاجون في ما بينهم لقرون خلت حتى عصرنا الحالي، ولكني لاحظت أن هذين الولدين، اللذين كانا يظهران احتراماً عميقاً لوالدهما، يحملان شعراً أسود مجعداً ويشاركان والدهما عينيه الواسعتين اللتين في شكل حبة البندق الكبيرة، وشفتيه الغليظتين اللتين تنبئان عن سلالتهما.

كانوا مضيافين وتسودهم روح التأزر، وقد أصرّوا علي أن أتناول معهم طعامهم المكون السمك المحمر ورغيف الخبز، رغم أنني قبل فترة ليست طويلة كنت أقرأ في أذهانهم أيضاً رغبة في البحث عن الكنز المفقود.

كانوا يرددون القصة ذاتها التي قالها البطارية بأن سفناً في الزمان الغابر سبق أن دفنت كنزاً في هذه الضفاف. وكانت إمكانية ربط هذه الأقاويل مع وجودي معهم في الوقت ذاته تبدو شيئاً محيراً. ربما سادهم اعتقاد بشكل سري بأنني أحد أفراد الجن الطيبين الذي فقدته عشيرته! وعلى أية حال لم يبدر منهم ما يشكل تهديداً لي. وحينما حكيت لهم عن الكنز الروحاني رأيت أعينهم تشع تعجباً. وكان بإمكانني أن أخبرهم بأن ذلك كان يعني صفقة طيبة لهم، حتى رغم علمي بأنهم سيتجهون بحثاً عن الكنز الحقيقي بجوار الصخرة الحمراء مثلثة الشكل حين غادرها البطارية وجماعته. أمضيت معهم حوالي يومين وقد توجهوا عبر البحيرة بقاربهم إلى المحطة التالية قريباً من أسوان. كانوا يتناوبون الملاحه، وأثناء الليل يظل أحدهم صاحياً على الدوام بينما يبقى الإثنان الآخران نائمين، وكان ثلاثتهم على دراية تامة بتقلبات الرياح والأعاصير والتيارات المفاجئة. وأمضينا النهار بطوله في نشر شباك الصيد على البحيرة وإعداد الشاي الحلو وتجاذب الحديث في ما بيننا.

حينما اقترب النهار من نهايته رسونا بمركبنا بالقرب من الضفة وهنا بدأ الصبيان بإشعال النار داخل المركب بينما سعى والدهما في إعداد وجبة العشاء. يبدأ أمين في تقطيع بعض الطاطم والبصل، مضيفاً إليها قليلاً من الملح، ثم يقسم الرغيف إلى أجزاء ويبدأ في طهي بعض الأسماك الطازجة التي اصطيدت للتو، ونهي الوجبة بتناول الجوافه والبطيخ. لا أدري ما إذا كان ذلك بسبب الطقس المنعش أم بسبب الجوع الشديد متضامناً مع شهية الطعام وجودته، ولكنها كانت وجبة لن تنسى. وقتها لم يكن ثمة صوت يُسمع باستثناء صوت الماء وهو يصطدم بجوانب المركب في خفة بين الحين والآخر، أو ربما طنين الحشرات ونباح الكلاب من مسافات بعيدة. وضع أمين بعضاً من البخور على ما تبقى من النار فيما تمدد أبنائهما ملتحفين بطنائيهما. فاحت الرائحة الزكية مختلطة مع دخان الخشب، فكان ذلك كافياً لنسيان العالم. وحن الوقت للحكايات القديمة أن تبدأ.

بعد سنوات عديدة لاحقة عرفت أن الأمسيات التي قضيتها مع أولئك الصيادين البسطاء كانت من بين أجمل أيام حياتي قاطبة. وأياً كانت الكلمات فهي لا تتسجم إنصافاً وعدلاً لوصف

ذلك الجمال الباذخ في الدهشة متمثلاً في مغيب الشمس على النيل. لقد أتيح لي السفر إلى العديد من بلاد الدنيا وزرت روائعها وعجائبها، ولكن فخامة رمال النيل القديمة وهيبته التي تأسر القلوب تقف شامخة من فوقهن جميعاً. أخذت حرارة شمس منتصف النهار اللاهبة في الخفوت تدرجاً ولم يبق سوى همس الرياح الخفيف. وعلى طول ضفاف البحيرة بدأت الحيوانات في التحرك النشط بعد أن صحت من سبات منتصف النهار فيما أخذت الطيور بأنواعها، مالك الحزين والبلشون الأبيض وطيائر الغاق البحري تغزو المياه وتمشطها بحثاً عن وجبة المساء - والبجع المتوحشة كانت تتجمع في مجموعات كبيرة عفوية وهي تبحث لها عن أراضٍ آمنة للمبيت فيها حتى الصباح. وطيائر السنونو المندفع يسمح الجو متراقصاً برشاقة كفرقة باليه. أما شمس المغيب فكانت إبداعاً إلهياً، تلقي بظلال سحرها الأخاذ على الماء. ألوان إعجازية - البنفسجي والذهبي والأحمر والقرمزي والأخضر والأزرق جميعها تنعكس روعة على سطح من الزجاج المائي - وتبدو تلك الظلال والأصباغ متناهية الدقة مشهداً نادر الظهور في هذا العالم. بدأت الظلال المغادرة تفسح المجال تدرجاً لأخرى اتخذت منحى رمادياً وأسدل الليل أستاره التي صبغت ماء النيل بلونها الداكن، ثم أخذت أولى النجوم الخجلى تغمز وتومض على استحياء من واء العتمة. وأخيراً ظهر القمر المنير صافياً بهياً، ذلك الملهم لآلاف الأساطير والحكاوى عبر القرون. كان كزائر ودود قدم لينشر مسحة من الألق الفضي - الرمادي على المياه الداكنة، مضيفاً لمسة رائعة من الإعجاز المدهش على تلك الهيمنة من السكينة والوقار.

رأيت أيضاً أن الصيادين قد تملكهم سحر المكان وهيبة العرض بمثلما أصبت به أنا رغم أنهم ربما كانوا قد شاهدوا هذا الجمال آلاف المرات من قبل. أغمضوا أعينهم ليس بغرض النوم وإنما كان استغراقاً في أفكارهم وعالمهم الخاص شأنهم شأني. أدهشني رد الفعل الذي بدر منهم، وهنا أحسست بقليل من الذنب حين كنت أقابل خرافاتهم الصيبانية تلك بشيء من السخرية في دواخلي. هؤلاء الرجال الأميون البسطاء لم ينالوا قدراً وافراً من التعليم، ولكنهم اكتنزوا تهذيباً وسمواً من الداخل يسودهم الشعور بالتأدب مع الآخرين وتبجيل أحداث الحياة وغموضها بالقدر الذي انتزع احترامي لهم. لاحقاً في خضم الحياة حينما انخرطت في أعمال الرسمية سعيّاً وراء طموحاتي كنت أضع في ذهني حكمتهم الواقعية وشجاعتهم الوقورة الرزينة في وجه الفقر المدقع ومعاناتهم اليومية في كفاحهم لشطف العيش.

ثم جاء دور القصص والحكاوي. كان أمين يمتلك صوتاً مخملياً عميقاً كسته سحابة كثيفة لسنوات من التدخين. ويميزه نوع من الإيقاع والتناغم الطبيعي في سرده للقصص القديمة. وواضح أن أبناءه كانوا يحفظان قصصه عن ظهر قلب ولكن، مثل الأطفال، لم يكونا يمانعان في سماعها مراراً وتكراراً.

كانت قصصه مثيرة جاذبة يسردها بطريقة توراتية، شخصيات أسطورية، وحكايات عن أناس وأساطير التأمّت في رحلة لامتوقفه عبر التاريخ.



لقد كانت جنية جميلة ذات أصوات ساحرة تستخدمها لتغري بها الرجال للوقوع في مطب الحفرة الدوارة (الشيمة) في النيل ومنحدراته الخطرة. معابد سليمان الرائعة بناها الجن، ولكن حينما تم تدميرها من قبل الغزاة الفرس، لجأ القساوسة والقساوسة إلى أخذ كنوز الذهب والفضة من حجرات القصر المنيع وألقوا بها في النهر. في بعض الليالي المضيئة حين كان القمر بدرًا مكتملاً شوهدت باخرة ذهبية اللون وحولها مجموعة من الأسماك الزرقاء تسبح حولها. العديد من الناس كانوا يحاولون اللحاق بالباخرة ولكنها اختفت وسط موجة كثيفة من الدخان. وهناك قصص أخرى عن عروسات مختطفات، وقرابين عذراوات، وملوك وملكات عظماء أكثر منعة وقوة من المصريين. وقص علينا أمين قصة التمساح الإله سوبيك حامي الصيادين العظيم، وعن الكنز المدفون الذي ما يزال كل الناس الذين يعيشون حول النيل يبحثون عنه. كانوا يعتقدون أن هناك مخلوقات غريبة ذات أعين رأسية نصفها آدمي ونصفها الآخر سمكة اعتادت أن تظهر على السطح بين الحين والآخر باحثة عن عروسة لتتزوجها، وفي حالة الإنجاب يأتي الوالدان والأقارب لنثر حفنات من عصارة الحليب بملء أيديهم على النيل بغية شكر الآلهة التي تستوطن النيل.

وهناك روايات أخرى حول بناء السد العالي في عقد الستينات من القرن العشرين. وهو مشروع عملاق صمم بغرض استغلال مياه النيل للحد الأقصى، وقد جعل منها ثالث أكبر بحيرة صناعية في العالم. وكان الرئيس المصري عبدالناصر قد كلف السوفييات بتصميم السد وبنائه بعد أن اختلف مع الأميركان. ونتيجة لتصادم المياه التي غمرت أجزاء ضخمة من الأراضي كان يتطلب من عدة آلاف من السكان السودانيين مغادرة مدنها وقراهم المجاورة للبحيرة. وكان العديد منهم قد غادروا مكرهين فيما قرر البعض البقاء متحملين نتيجة فيضانات المياه.

وبالفعل فقد غمرت مياه السد آلاف القرى الصغيرة والحيوانات والأشجار. وفي بعض المناطق ظلت المعالم الوحيدة لتحديد مواقع المدن والقرى هي رؤوس منارات المساجد التي وقفت تختلس النظر من على سطح البحيرة المتمردة. وبدا صوت أمين متهدجاً حينما أوضح لنا أن العديد من السكان الذين رفضوا مغادرة أراضيهم قد أدركهم الغرق جراء فيضان البحيرة، ومع ذلك لم يعلن عنهم بشكل رسمي أبداً في ذلك الحين. أما الصيادون فقد كانوا قلقين للغاية من أن كميات الطمي التي يجرفها النهر معه باستمرار قد تقود إلى طمر البحيرة بأكملها مما سيؤدي في النهاية إلى موت الأسماك في البحيرة؟ وكان هذا المشروع قد نتج عنه ضرر كبير في التراث الثقافي السوداني، مسألة السكوت عن النتائج والآثار التي أصيبت بها مجموعة من الناس في المنطقة.

في هذا الوقت كان قد استغرق أبناؤه في النوم تماماً، ربما كانا يحلمان بإناث جميلات من بنات الجن، ولكنه ظل مستيقظاً تماماً. أشرت بيدي إلى نجمة في السماء ساطعة اللمعان بشكل مثير مستفسراً «ما هي تلك النجمة؟».

«تلکم النجمة؟ إنها سيوريوس»، أجابني، «إنها أكثر النجوم لمعاناً من بين كل المجموعة



قاطبة. وهي مقدسة كثيراً».

«ولماذا هي مقدسة؟»

«لأن بإمكانها أن تختفي، وحينما تعود للظهور مرة أخرى نعرف أن النيل سوف يفيض. لديها قوة خاصة. هل تعلم أن هناك اعتقاداً مفاده أن الآلهة إيزيس حينما بكت حزناً على زوجها أوزيريس، كانت دموعها قد روت نهر النيل حتى فاض؟ نحن نعرف عن إيزيس، ولكننا أيضاً نعتقد في هابي، إله النيل، وكذلك أنوكيت. إنها ملكة ذات خصوصية تماماً مثل سيرْيوس»، أوضح لي مفسراً.

«ولماذا هي ذات خصوصية»، أجبته.

«لأنها ابنة ملك الشمس الإله رع، وهي تحمل كل النيل في ذراعيها. إنها السيدة الأولى للسماء، وتجعل الأرض والنهر أكثر خصوبة من أجلنا. هل يمكنك أن ترى ذلك الممر الرمادي الذي فوق رأسك؟

البعض يسمونه «الطريق - اللبني»، بينما آخرون يعتقدون أنه صنع من الأرواح الميتة التي كانت في طريقها للجنة».

«وهل تؤمن بكل هذا؟» سألت الرجل.

«ولم لا؟» أجابني. «هل تعلم أن بعض الرجال ملحدون؟»

«نعم»، أجبته.

«ولكنهم أحياناً لا يكونوا ملحدين أثناء الليل، أليس كذلك؟»، أضاف قائلاً، «أثناء الظلام ينتابهم الخوف. أنظر إلى أعلى لمشاهدة تلك النجوم.

إلى أين ينتهي بها المطاف؟»

«لا أدري».

«ليست لها نهاية أبداً. لا شيء من ورائها. إنها نجوم مستمرة إلى الأبد. أليس ذلك حدثاً غامضاً مثيراً؟»

استلقيت على ظهري وبدأت أنظر إلى النجوم، وبالفعل كان مشهدها مثيراً بحق. لم يمكنني أبداً نسيان تلك الليالي في ضيافة أولئك الصيادين البسطاء. أعتقد أن السبب لأنها كانت خليطاً بين ما يتصفون به من طيبة ورقة، مزدوجة مع مهارة أمين في سرد الحكاوي والقصص مما ساعدني في تكوين قناعاتي المبكرة وهي أن، رغم ما اعتورني من أحلام سيئة وخيالات للجن وسوء المعاملة التي لقيتها من بعض الموهومين، فإن الدنيا لا تزال مليئة بالخيرين والأصدقاء من أصحاب المودة والقلوب الطيبة وأن هناك نظاماً إلهياً من شأنه أن يراقب ويرعى ما يحدث في هذا الكون. الألوهية تشكل حيواتنا، أما في عقلي فقد كانت تلك البداية لتكوين معتقدي بأن ما واجهني من صدمات مع جبروت العالم الطبيعي ما هي سوى إشارات لحقائق مجردة لاحقة

تكاد تكون مخفية. ما ظلت أحمله من ذكرى لتلك الحفاوة والكرم اللامتهي الذي غمرني به أولئك الصيادون البسطاء وحميميتهم التلقائية مع عظمة تلك الليالي، سيبقى دائماً عضداً متألّفاً لإيماني بالطبيعة البشرية وخالقها.

الزمن الذي أمضيته معهم كان عزيزاً غالياً عليّ وحينما أنزلوني إلى البر أشاروا إلى نحو الطريق المؤدي إلى أسوان، لَوْحوا لي بأيديهم مودعين بحرارة وتمنّوا لي أن أكون في معية الله. كنت أود أن أعطيهم شيئاً ذا قيمة مقابل مساعدتهم لي وإنقاذي ولكني لم أملك شيئاً باستثناء ثلاثة أشياء صغيرة في جيبتي وكنت أشعر بالخل وأنا أعطيهم إياها، ولكنها أقل ما كان بوسعي أن أفعله. أحنيت جسمي لهم مودعاً ولم يكن بحوزتي سوى صندوق صغير يحوي حوالي سبعة أو ثمانية أعواد ثقاب كان البطارية قد أعطاني إياها، ثم قطعة «مسواك» احتفظ بها لتنظيف أسناني، وجزء يسير من قطعة صابون أحملها في جيبتي. وقد شعروا هم أيضاً بالحرص ولكنهم قبلوا هديتي بكثير من عزة النفس الدفينة التي تميز الفقراء، مع إحساسهم العميق رغم ما كنت أعانيه من فقر مدقع بأن تلك الهدايا الصغيرة كانت شيئاً عزيزاً بالنسبة لهم. لم أنس أبداً ما غمروني به من طيبة وكرم. ولو كان بمقدوري لكنت أعطيتهم شيئاً من المال، ولكني أعتقد أن كبرياءهم كان سيتعرض للإهانة.

كان عليّ بعد ذلك أن أقطع مسافة ستة عشر كيلومتراً مشياً على أقدامي لكي أصل أسوان في شمس عز النهار التي تلفح الوجوه. لقد فقدت الاتصال تماماً بالباخرة وبالطبع لن أرى ملابسي وممتلكاتي بعد الآن، ولكنني على الأقل على قيد الحياة وكنت أعرف أن بإمكانني أن أشرب الماء من خلال مياه «الأريار» التي توجد خارج منازل السكان. وتلك كانت تقليداً آخر لا يقدر بثمن يدل على مدى الكرم الذي يبذله هؤلاء السكان خدمة لعبري السبيل الغرباء خاصة المسافرين الذين أصابهم الإعياء أمثالي. وكان يلزمني التوقف مرات عديدة بسبب حرارة الشمس، ولكن كلما اقتربت أكثر من أسوان كنت أشاهد السكان خارجين من منازلهم يدفعهم الفضول حول هذا الشاب المغبر الجسم في وسطهم. وحينما حكيت لهم قصتي بدأوا يفدون إليّ بقطع البرتقال والرغيف ويهزون رؤوسهم غير مصدقين.

أخيراً وصلت أسوان وعلمت أن الباخرة قد غادرت منذ وقت طويل. ثم سألت عن الاتجاه لمحطة السكة الحديد. واعتقدت بكل ما أملك من براءة بأنني إذا أخبرت أحداً بمشكلتي ربما أمكنه مساعدتي في مواصلة مسيرتي. شاهدت هناك باباً كبيراً باللون البني ومكتوب عليه باللون الأحمر العريض «مكتب المفتش». نقرت الباب نقرّاً خفيفاً. لا إستجابة. ثم نقرته بقوة وهنا فتح الباب رجل ضخّم أحمر الوجه يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض، مثل زي والدي تماماً. كانت السيجارة تتدلى من شفتيه وابتسم حين شاهدني أسفل منه. ثم فجأة تذكر هيبته، فقطب حاجبيه مدعياً تعطيله عن عمله الرسمي من هذا الصبي. اختفت الابتسامة - أما أنا فقد نسيت كم كنت أبدو متسخاً ومرهقاً في تلك اللحظة. «نعم، ماذا تطلب؟» سألني. أخبرته عن قصتي مع

الباخرة وأغراضي التي ضاعت. لم يبد أي اهتمام ملحوظ. «أنا آسف، ولكن ليس لدي ما يمكنني فعله من أجلك» أجابني، «ربما إن اتصلت بالشرطة في إمكانهم مساعدتك». وكان قد همّ بقفل الباب في وجهي، لولا أن سألته: «هل كنت تعرف والدي؟».

«ماذا؟»

«هل كنت تعرف والدي» كررت له سؤالي.

«ولماذا أعرف والدك؟»، سألني.

«لأنه كان مديراً لإدارة السكة الحديد السودانية»، أوضحت له، وأضفت: «إنه الآن متوفى».

نظر إلي الرجل بشيء من الريبة والشك. جذب نفساً عميقاً من سيجارته ونفث دخانه في الهواء فوق رأسي ونظر إلي بعيون ضيقة. وسألني: «ماذا كان إسمه؟»

«الطيب إدريس»، كانت تلك إجابتي له. وما زلت ألاحظ أنه لم يقتنع بعد.

«ماهو نوع السيجار الذي كان يدخنه؟» مستفسراً.

«بنسون آند هدجز في باكتات من حجم عشرين سيجارة».

«وما هو إسم والدتك؟»

«أمونة»، أجبته.

أدار ظهره مني واتجه إلى مكتبه. رمقني بنظرة طويلة فاحصة ثم أخرج من أحد أدراج مكتبه صورة قديمة باللونين الأسود والأبيض التي اكتست تجعيلاً وكانت تضم مجموعة من الرجال. وفيما كان يسلمني الصورة، قال لي: «لو أن ما كنت تقوله لي عن نفسك حقيقة لأمكنك أن تتعرف على الشخص الواقف في منتصف الصف الخلفي على الصورة».

«نعم. أعرفه. إنه عم الفيل الذي كان يساعدنا في ترتيب الحديقة حينما كنا في كريمة».

«حسناً، حسناً، عادت الابتسامة من جديد على وجه الرجل. «إذن فأنت فعلاً ابن الطيب. يمكنني أن أرى أوجه الشبه بينكما. أعرفه معرفة جيدة. حينما زرتة في منزله كان يحدثني كثيراً عن الجن! كان رجلاً طيباً، أسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة». ثم هدأ الرجل قليلاً، ولاحظت أن عينيه أخذتا في اللبل. خيل إلي أنه كاد يبكي ولكنه مسح ما بحلقه من حشجة، وبصوت حنون أخفض وجهه قريباً من وجهي سائلاً، «وأنت ما اسمك؟».

«كامل»، كان ردي عليه.

سأته فترة صمت مرة أخرى وبدأ ينظر إلي مجدداً، كأنه غير متأكد مما سوف يفعله لاحقاً.

«تعال معي يا كامل، وسنرى ما يمكننا فعله من أجلك».

طلب مني أن أجلس على أحد أركان مكتبه فيما ظل هو في دوامة من المكالمات الهاتفية مما استغرقه أكثر من ساعة في انتظار الردود عليه. أعتقد أن إحدى المكالمات كانت لزوجته إذ

سمعته يقول ربما نستقبل ضيفاً صغيراً هذا المساء. أما بقية الرجال العاملين فكانت ابتساماتهم تزين وجوههم نحوي، وكان شكلي غير المرتب وملابسي المتسخة مصدر تسلية لهم ولا يخفون استغرابهم من كيفية وصولي إلى مكتب هذا الرجل المهم. وقدمت لي أكواب من الشاي الحلو والبسكوت. وأخيراً وضع كبير المفتشين سماعة التلفون وأوماً لي برأسه من خلف مكتبه. «نحن محظوظون للغاية يا كامل. حقيبة ملابسك وجواز سفرك ونقودك كلها في انتظارك في محطة القاهرة. هناك شخص أمين قام بتسليمها لهم». لم أكد أصدق ما سمعته! أحسست وقتها كأني أطيّر طيراً من الفرح. «وهناك شيء آخر، إكراماً لوالدك فقد قررنا أن تسافر مجاناً لبقية الرحلة». «لا أدري كيف أشكرك»، قلت له. وبكل ما لدي من مخاطرة، واصلت حديثي معه، «لكن إذا سمحت، لدي رجاء واحد».

«نعم».

«لعلك تعلم أن هناك أطفال فقراء ولا يملكون قيمة التذكرة وعادة يسافرون على سطح القطار. فإذا كان هناك أي منهم في الطريق إلى القاهرة، هل تسمح لي باستضافة إثنين أو ثلاثة منهم للجلوس معي في الحجرة؟». «أعتقد ذلك. سأصدر توجيهاتي للمفتش لإعداد غرفة مناسبة. ولكن لهذه المرة فقط! وبالمناسبة إذا صادفت أي متاعب، هاهو رقم هاتفي».

أخيراً ترتبت أموري. وددت أن أعانق الرجل بحرارة. وكان ذلك سيكون رد الفعل الطبيعي من ولد صغير، ولكن ما أصابني أخيراً من مخاوف من المهربين كان قد ارتقى بي بسرعة البرق إلى مصاف البالغين. وقفت منتصب القامة بأشد مما تسنى لي وصافحت الرجل مودعاً كما ينبغي لأي صبي أن يفعل. وكان الرجل صادقاً بوعده. خلال رحلة القطار إلى القاهرة أمكنني أن أجلب من سقف القطار إثنين من الأشقاء التوأم هما حسن وحسين ليجلسا معي في غرفتي، وقد بقيا مشدوهين بأعين مفتوحة ويسودهما التعجب مني طوال الرحلة إلى القاهرة. ولاحقاً عملنا معاً في مصنع للورق كعمالة أطفال، ولكن تلك قصة أخرى...



أعلى الصورة من اليمين: فريد، والدتي أمونة، صديق. جلوساً: كامل، سميرة، وعزالدين. 1962 في السودان.



السترة التي كنت ألبسها أيام طفولتي. أخذتها معي حينما كنت أمتطى سطح القطارات معلقاً عبر الصحراء. لقد شهدت أحداثاً درامية على النيل.



والدي الحبيب الطيب إدريس يرتدي بذلته الرسمية كمدير إقليمي لهيئة السكة الحديد.



والدتي أمونة حاج حسين، امرأة عظيمة مكافحة لولاها لما أمكنني الصمود، مثال للتضحية والصبر والتحدي.





خالتي حياة حاج حسين



خالتي فهيمة حاج حسين



خالتي سعاد حاج حسين



خالتي هدى حاج حسين



عمي عبدالحليم محمد مبروك الذي توفي هو الآخر مبكراً. كان رجلاً شهماً كريماً.



والدة زوجتي، المرحومة فتحية محمد مبروك التي توفيت منذ وقت مبكر، إنها ملاك سماوي.



والدتي أمونة مرة أخرى



ابنة خالي إنصاف محمد حاج حسين



صهري والد زوجتي، اللواء محي الدين أحمد مبروك،  
كان مثلاً رائعاً للقيادة، والمثابرة والتفاني.



شقيقي المرحوم عزالدين الطيب إدريس



خالي عباس حاج حسين



خالي عبده حاج حسين





بنت خيرى، زوجة عمى قرشى إدريس



جدتي المرحومة زينب، كانت ملهمتي ومعلمتي  
("إلزم الصخرة، إلزم الصخرة")



إبن عمى محمد قرشى إدريس



عمى قرشى إدريس



إبن عمي عباس قرشي إدريس



إبن عمي علاء قرشي إدريس



خالي محمد حاج حسين



خالي أمير حاج حسين



محمد أحمد المادح، صهر شقيقي فريد. لم يكن فقط جاراً مخلصاً وكراماً، بل أيضاً مثلاً يحتذى للنزاهة والوقار والاحترام



صلاح قرشي إدريس، إداري وقائد من الطراز الأول. كان ديدنه يتجلى في دعم الآخرين ومساعدتهم



مع زوجتي العزيزة عازة في عام 2016، في حديقة سفاري للحوانات في كاويتي درهم في المملكة المتحدة



السفير عبد الهادي الصديق، صديق حميم وذو ثقافة عالية متعددة الاتجاهات بشكل استثنائي

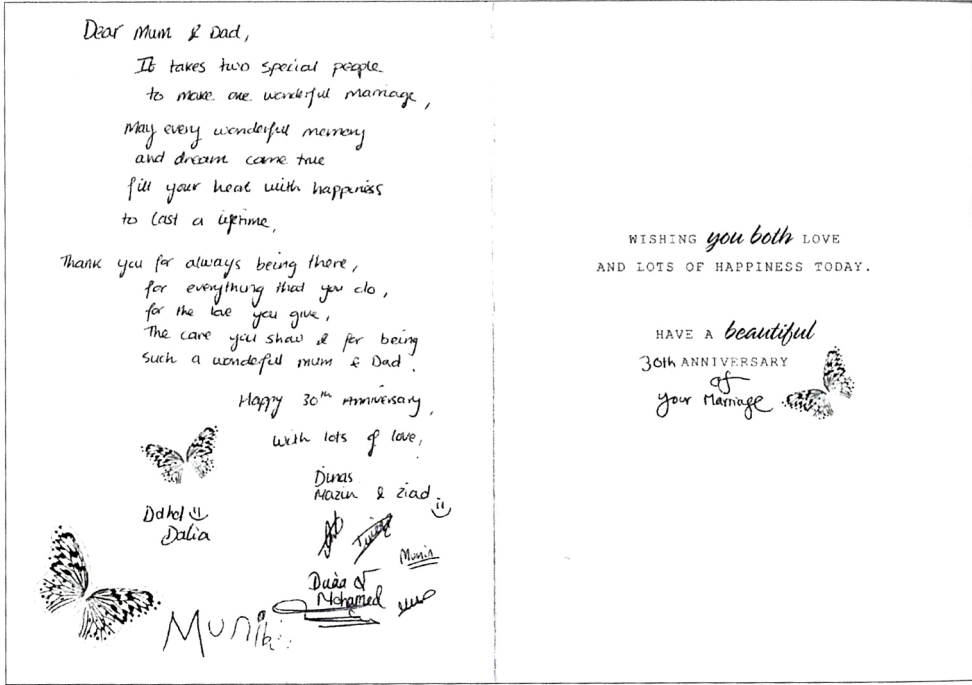




لقطة زواجنا - إنه اليوم الأكثر سعادة في حياتي مع عروستي الغالية عازة، لم يحدث قط أن استيقظت من بعدي، كما لم يحدث لها أبداً أن نامت قبلي، وظلت على الدوام رفيقة العمر الحبيبة إلى قلبي طيلة حياتي



أسرتي الصغيرة من أمام منزلي في المملكة المتحدة  
وقوفاً: إبنتي الدكتورة دينا إدريس، والدكتورة داليا إدريس، وزوجتي الدكتورة عازة إدريس،  
إبنتي الدكتورة دعد إدريس وشخصي بروفيسور كامل إدريس.  
جلوساً: أبنائي الثلاثة: مؤمن إدريس، منيب إدريس والدكتور محمد إدريس



### احتفاء بالذكرى الثلاثين لزواجنا

أعزائنا الوالدة والوالد،

لقد أتيت لشخصين غاليين علينا وفي درجة من الخصوصية والحميمية أن ينتج هذا الزواج الرائع،

هل لكل الذكريات الرائعة، وما تلاها من تحقيق لأحلامكم، أن تملأ حياتكم بأهازيج من السعادة الدائمة مدى الحياة.

شكراً لوجودكم دائماً بجانبنا... لكل شيء تفعلانه من أجلنا، ولحب العميق الذي تهبانه لنا، وللرعاية الغالية التي توفرانها لنا، ولكونكم أباً وأماً عظيمين.

نرجو لكم أطيب ذكرى بعيد زواجكم الثلاثين، مع تدفق المزيد من حبنا لكم.

دعد، داليا، دينا، مازن، زياد، محمد، منيب

نتمنى لكم معاً حباً عميقاً ومزيداً من السعادة الأبدية في هذا اليوم.

نرجو لكم ذكرى جميلة بمناسبة العيد الثلاثين لزواجكم.

## الفصل الخامس

### توهان في الصحراء، العرب البدو، وانخراط في أعماق اليأس

«تشكل الحياة من يومين، يوم لك ويوم عليك. فإن كان لك لا تتفاخر به أو تتقاعس، وإذا كان عليك فالزم الصبر، إذ في واقع الأمر كلاهما سوء».

(الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، رابع الخلفاء الراشدين، وابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم)

(ستكون هناك مطبات على الطريق ولكن الأقوياء هم من يتجاوزونها)  
(كامل إدريس)

◀ كان آخر عمل أديته في عمالة الأطفال هو وظيفة في تغليف للكتب داخل مصنع صغير في القاهرة. في ذلك الحين كان هاجس العمل قد أخذ حيزاً كبيراً في حياتي وصرت معتاداً على كل صنوف العمل الشاق وساعاته الطوال. وكنت دائماً أحرص على أن أعطي كل ما لدي من طاقة بنسبة مائة في المائة أياً كان نوع العمل الذي أؤديه، ولم أكن أغادر موقعي حتى اكتمال المهمة التي أوكلت إلي وأشعر وقتها بالفخر حتى لو كانت صغيرة أو مملة. وأياً كان الأمر، فإن زينب كانت قد لعبت دوراً مهماً في توجيه دفعة حياتي في تلك الفترة. وكنت على الدوام قريباً منها وأتحدث معها كثيراً حينما تأتي لزيارتنا. وعند عودتي من القاهرة ذكرت لها قصتي مع تغليف الكتب وتصوير المستندات. وفوراً تحركت لديها حاسة الفضول والاستفسار والشك، وأخيراً تحررت

الأمر. اتضح لها أن العملية برمتها (غير معلومة لدي) لم تكن مضبوطة بالشكل المطلوب وبالتالي قد ينتج عنها ما يثير التساؤل. لذا فقد طلبت مني في إصرار أن أتوخى الحذر حين أذهب للعمل في مصنع الكتب مستقبلاً. استمعت إلى نصيحتها وابتعدت عن العمل هناك. سادني اعتقاد بأنه درس آخر مهم وأن بذوراً لفكرة قد بدأت في النمو. وبدأت أفهم أن الأعمال الذهنية تعد أصولاً غالية عند الإنسان مما يتطلب حمايتها، كما يجب إعطاؤها المزيد من الاحترام.

في أحد الأيام حضرت زينب إلى منزلنا في وقت أكثر تبكيراً مما اعتادت عليه، وكان معطفها ممتلئاً كالعادة بمختلف الحاجيات. وكانت متوترة ويبدو مزاجها عكراً بما يكفي، طلبت منا جميعاً الجلوس على «العنقريب» وهو سرير خشبي تقليدي ومتوارث. بدأت تلقي علينا دروساً في الحياة بأسلوب أستاذي حقيقي، واشترطت علينا بوضوح شديد عدم مقاطعتها أثناء محاضرتها المهمة. بدأت قولها بتذكيرنا بأنه وفقاً لثقافتنا فإن الرجال والأولاد يتوقع منهم أن يتناولوا وجباتهم معاً ويحدثون بعضهم بعضاً ويمرحون معاً. وفي ما عدا التعليم المدرسي، فإن البنات من شأنهن أن يبقين في المنزل، بما يشبه التحفظ عليهن، تحت رعاية آبائهن وأشقائهن إلى حين موعد زواجهن. ثم أخذت زينب نفساً عميقاً من الهواء وأفصحت لنا أن هذا الوضع غير صحي وغير طبيعي. وطلبت منا منذ تلك اللحظة إن كنا موافقين على تأييد دعوتها ودعمها بوسائل مجتمعية في سبيل تحرير المرأة من ذلك النمط الحياتي. كتبت خطابات مطولة للسلطات المحلية وتحدثت في بعض النوادي الاجتماعية بل شاركت في نقاشات من خلال الإذاعة المحلية. وكانت واحدة من الرسائل التي كانت تصر على إلقاء الضوء عليها هي أن جميع الأديان الكبيرة منحت المرأة حقوقاً أساسية، تمثلت في صون كرامتها، والحرية والمشاركة الكاملة في مجتمعاتها، ويجب علينا أن نحذو حذوها.

لم أكن على علم بمعرفة أفكارها، ولكنها في ذلك الزمن كانت نظرة متطورة للغاية في مجتمع تقليدي محافظ بالضرورة. وربما كانت ستواجه مخاطرة كبيرة لاحقاً إذا فكرت في نشر آرائها على الملأ. لقد أثارت إعجابي إزاء تلك المقدمة النسوية الباكورة، وأيضاً لحقيقة محاولتها الجادة في وضع أفكارها موضع التنفيذ.

لقد كان واضحاً بجلاء أنها فكرت ملياً وبعناية فائقة في اختيارها لتوقيت زيارتها لنا وإعلان حجتها للتنفيذ. انتصب قوامها وأزالت ما بحلقها من حشرة واتخذت مرة أخرى موقف المعلم الذي لا تعوزه الجدية. عمدت على تذكيرنا بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت تعمّن تلك الأيام، وألقت علينا محاضرة حول رسالة النبي الكريم عن السلام والغفران والتسامح ومحبة البشرية جمعاء. وقد استمتعنا بيوم مفعم بالغناء والأكل والرقص، ولكن قبل ذلك كان علينا أن نؤدي بعض الصلوات. وحدثنا لاحقاً عن معجزة السيدة آمنة بنت وهب وهي أم الرسول صلى الله عليه وسلم التي حدث حملها في شهر رجب. وكم كانت الطيور ترحب بها وتشققق حين رؤيتها لها وكانت كلما ذهبت إلى البئر لتشرب كان الماء يرتفع إلى أعلى البئر تكريماً



للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. ومع أن هناك قصصاً أخرى مدهشة كنت قد سمعتها في المدرسة إلا أن روايتها من زينب كانت ذات طابع خاص. كانت قد أوتيت موهبة قوية لتجعل منها معلمة جيدة قادرة على إضافة المزيد من الدراما وعوامل الإقناع للمتلقي. أكدت لنا بقوة أن ذلك اليوم من شأنه أن يساعد البشرية كافة على التلاحم والتسامح من دون اعتبار لمعتقداتهم الدينية أو اختلاف مشاربهم أو جذورهم العرقية.

كنت أراقبها عن كثب فيما كانت تخرج من مقطفها بعض القطع الناصعة من القماش الأخضر التي ورثتها من أبيها.

بينت لنا أن هذا اللون هو لون الملائكة ولون الموروث السماوي. من جهتي كنت أجد كل ذلك شيئاً غامضاً غريباً رغم أنه يبعث على الراحة والإلهام. ما كانت تقصد قوله بالضبط هو إرشادنا بأن نحترم كل الطوائف الدينية ونتسامح رغم اختلافنا معها لأن البشر كافة هم مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

أكملت زينب الآن حديثها في الوقت الذي ظلت الأسرة بأكملها متيقظة وقد استوعبنا تماماً تلك الرسالة القوية. جلسنا جميعاً صامتين لبضع دقائق فيما أغلقت عينيها وأحنت رأسها. ومن ثم حان وقت الاحتفال بالمولد النبوي الشريف واتجهت زينب إلى المطبخ. خلال العشاء الذي تناولناه في تلك الأمسية لم تكن قد أكلت شيئاً تقريباً ولم يكن يعرف عنها تلك الشخصية الثائرة. جلست بهدوء شديد في ركن من غرفة المعيشة وظلت تراقب وتستمع إلى ما كنا نؤديه من أغان وألعاب مختلفة. لاحقاً، وفيما كنا نستعد للنوم كانت قد طلبت من الأطفال المبيت معها في غرفتها، فقمنا بتحريك بعض المراتب على الأرض ففتحاً الجميع للنوم في تلك الليلة. وكنت أخشى أن شخيرها أثناء نومها مما قد يمنعني من النوم ليلاً ولكنني كنت أول من راح في نوم عميق. وبالقدر ذاته كنت أتطلع بشغف إلى صبيحة اليوم التالي حيث وعدتنا زينب بالمزيد من القصص والألعاب، وكاد الشوق يقتلني لذلك.

كنت أول من صحا من النوم في الأسرة رغم أن العتمة ما زالت سائدة. اتجهت ببصري نحو سريرها فلاحظت أن كلتا ساقيها كانتا متدليتين إلى الأسفل. أسرع نحوها لأرى ما إذا كانت بخير فوجدت أنها تبدو نائمة وقد ارتسمت ما يشبه البسمة على وجهها، ولكن حينما لمست يديها كانتا كقطعة من الثلج. لقد توفيت زينب. وكانت تلك أيضاً ضربة موجعة لطفولتي الغضة آنذاك - إن فقداني لأبي ثم شقيقتي عواطف وزينب في تلك الفترة القصيرة كان صدمة مدمرة في حياتي الباكرة، ولم أجد سوى الارتواء في أحضان والدتي باكياً.

ثم كانت الضربة الأكثر قسوة وإيلاماً. فقد تم تشخيص والدتي بأنها مصابة بداء لعين وقد أعطيت طبيباً فترة أسبوعين فقط للحياة. وكان يبدو لي وكأن شيطاناً مريداً ظل يجبرني على أن أحرق ملياً نحو الجحيم. بدأت أسائل نفسي بكثرة حول ماهية الحياة. لماذا قُدر لمخلوق لطيف وديع مثل والدتي أن تعاني قسوة ومعاناة في حياتها وأن تموت مبكراً؟ هل تم اختيارنا خصيصاً

كأسرة لتلقي معاملة رهيبة كذلك؟ ماذا فعلنا حتى نواجه بذلك الكم المهول من الوفيات؟ بدأنا نصلي وندعو ونكرر الدعاء وقد تجمت العَمَّات والخالات للمؤازرة. أما استجابة والدتي لعلاج الحالة ومقاومتها فقد كانت مدهشة - لقد واجهت مصيرها بكثير من الشجاعة والصمود وحقيقة ما يقال هو أنها تمكنت من هزيمة مرضها. كيف حدث ذلك؟ لا أدري، ولكنني أعتقد أن قوة عزيمتها وتصميمها ربما لعبا دوراً فاعلاً في دحر المرض ثم الشفاء. وللهشة فقد عاشت لأكثر من خمسين عاماً عقب تلك الحالة، ولكنها كانت دائماً مهددة بعودة ذلك المرض الذي كان ممكناً عودته في أي وقت. وكما قالت لنا مرة: «الموت لا يحمل معه رزنامة...».

كوسيلة دفاعية، فقد رميت بنفسي مجدداً في خضم العمل أثناء الدراسة فضلاً عن العديد من الأنشطة التي أتيح لها ممارستها. وهنا يجدر بي أن أذكر رجلاً كان له فضل كبير وتأثير على تقويم مسار حياتي الاجتماعية. إسمه عبدالخالق محجوب وكان هو سكرتير الحزب الشيوعس السوداني في ذلك الوقت. كان يسكن على مسافة كيلومترين من منزلنا وقد دعاني مرات عديدة لزيارته بمنزله للنقاش حول السياسة والأمر ذات الصلة بماركس وإنجلز. لم تفرض علي أي قيود للانضمام للحزب، وكنت أعلم فقط الفكرة الأساسية التي تتطوي عليها فلسفة الحزب، ولكن ذهني كان متفتحاً وكنت مفتوناً بالإجابات التي جرى طرحها لمعالجة مشكلة الفقر. وأكثر ما شدني احتراماً هو ما كان يتمتع به الرجل من ذكاء ونزاهة. ولعلها فترة يمكن وصفها بمغازلة الروح الشبابية التي لم تؤد حقيقة إلى أي تقدم. وفي واقع الأمر أنني ومع تقدم السن والتجربة في الحياة أصبحت أكثر وعياً وإدراكاً بأبعادها وتناقضاتها كفلسفة سياسية.

وإذا عدنا بالذاكرة إلى الوراء نجد أن ذلك التصرف لم يكن شيئاً غير مألوف في ذلك الوقت، فهناك الملايين من الشباب أمثالي على نطاق العالم كانوا قد انغمسوا في نقاشات مماثلة، يبحثون في أوضاعهم الديمقراطية وأنظمتهم الرأسمالية. كان ذلك وقت الحرب في فيتنام، وثورات الطلاب في أوروبا وأميركا، والثورة الثقافية في الصين، والتمرد ضد السلطات الفاشية عموماً. كان هناك نضال مستعر في شوارع باريس ولندن وشيكاغو وواشنطن، كانت الدبابات السوفيتية تجتاح شوارع براغ بغية إجهاض الثورة الشعبية العارمة ضد الغزو السوفيتي. وكانت الولايات المتحدة تغلي جراء اغتيال جون وروبرت كينيدي ومارتن لوتر كنج، وتبع ذلك مقتل فيرويرد رئيس وزراء جنوب إفريقيا، كل تلك الأحداث كانت قد مزقت النسيج الاجتماعي والسياسي في العالم في ما بدا للعديد من البشر وكأنما العالم يتجه إلى نهايته.

وفيما كانت تلك الأحداث الكارثية تغمر العالم، كنت أنا وإخوتي نؤدي صلواتنا في المسجد مع مواصلة الدعاء والصلوات لوالدتي، ولكنني أيضاً كنت مستعداً لقبول كل ما يختم في رأسي من أفكار جديدة. لم أجد أي تضارب بين معتقداتي الدينية وبين ما كنت أحس بأنه مثالية الفكر الشيوعي، ولكن ما نتج عنه من تناقضات ورفض للقيم الروحانية حدا بي في نهاية الأمر إلى التخلي عنه. وكان ملمحاً مؤسفاً بالنسبة لي أن تم إعدام عبدالخالق محجوب بقرار من الرئيس

نميري عقب المحاولة الانقلابية التي وقعت في السودان عام 1971 - وكانت تلك تجربة عملية بينت أن حرية التعبير كانت تحمل قدراً مهولاً من الأخطار.

لم أسمح لتلك المعاناة الفكرية أن تعطل مسيرة دراستي، ومع ذلك فقد استمر عملي في المصانع. وإلى هذا الحد كنت قد اكتسبت بعض الخبرات في صناعة النسيج وصناعة الورق وتصنيع الطلاء وتعبئة الزيوت وتصنيع الملابس الجاهزة في المنطقة الصناعية الواقعة في أطراف مدينة أمدردمان. كما أتيت لي من جهة أخرى فرصة اكتساب الخبرة في تدريس اللغة الإنجليزية في القاهرة. على ظهر الباخرة وهي عائدة من مصر التقيت برجل كان قد سمعني وأنا أتفوه ببعض الكلمات الأولية في اللغة الإنجليزية. لم تكن كلمات كثيرة ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عنها، فبادرني بالقول إن عدت إلى القاهرة في الصيف المقبل فسيجد لي وظيفة تدريس اللغة الإنجليزية في إحدى المدارس الصيفية. بالطبع فرحت كثيراً لتلك الفرصة المتاحة لي وقد صممت أن تكون أولى الكلمات التي سيتعلمها تلاميذي بالإنجليزية هي كلمات:

( cupboard, bicycle, elephant ) وتعني على التوالي «خزانة ملابس» و«دراجة» و«فيل». كما سوف أعلمهم أسماء المدن الكبيرة من العالم.

في تلك اللحظات كان يساورني الاعتقاد، وأنا في منتصف عقدي الثاني من العمر، بأنني أصبحت مسافراً متمرساً، ولكن في إحدى رحلاتي السنوية بالقطار إلى القاهرة تعرضت إلى صدمة العمر.

كانت ذكرى حادثة عدم تمكيني من اللحاق بالباخرة والتي تعرضت لها من قبل ما تزال تمثل كابوساً رهيباً ظل يراودني في كل مرة، وقد آليت على نفسي ألا تتكرر تلك المأساة مرة أخرى... ولكنها وقعت مجدداً...

في العام 2015 كان القطار الأملس المكيف الهواء يقطع مسافة ألف كيلومتر من الخرطوم إلى الحدود المصرية عند وادي حلفا في حوالي إثنتي عشرة ساعة. أما في ستينات القرن الماضي فكانت الرحلة تستغرق ستاً وثلاثين ساعة. وكنت قد أمضيت غالبية تلك الساعات منبطحاً محفوفاً بالخطورة على أسطح عربات القطار الذي كان يسير بالبخر وهو يتلوى ويتأرجح عبر الصحراء. كان هذا الخط الحديدي قد شيده البريطانيون في العام 1896 بغية تمكين جيش الجنرال كتشنر من التوجه جنوباً من القاهرة إلى الخرطوم لتأمين البلاد. لقد كان عملاً هندسياً مذهشاً لأنه من جهة ربط منطقة الصحراء النوبية الواسعة الانتشار وهي منطقة لم تكن مكتشفة من قبل ويعتقد أن من المستحيل اجتيازها آنذاك. البدو فقط هم من كانوا يسبرون غورها ويعرفون شعابها، وكانوا عادة يتفادون السير فيها أثناء الصيف حينما تصل درجة الحرارة إلى أعلى من خمسين درجة مئوية. وتلك هي المنطقة التي يتخذ فيها النيل التواءة عملاقة صوب الجنوب. وتبدو من الجو في شكل علامة استفهام ضخمة.

ولقطع مساحة هذه الأنشطة الضخمة يتطلب الأمر رحلة طولها 350 كيلومتراً من أبي حمد

إلى وادي حلفا عبر سهول مسطحة مقفرة لا علامات ولا دلائل فيها سوى تكتلات صغيرة منتشرة من أشجار السنط القصيرة الباهتة والصخور البركانية. تتميز هذا الصحراء بأنها واحدة من أكثر المناطق قسوة ووحشية على نطاق العالم ويطلق عليها «طريق الموت». وإن حالفها الحظ فإن قوافل الجمال تقطعها في ثمانية أيام ولكن كل شيء في النهاية يعتمد على معرفة أماكن آبار المياه المتناثرة على خط سير القوافل. أما في حالة عدم العثور عليها...! ويقول الخبراء والسكان المحليون إن كتشنر كان مجنوناً في مجرد تفكيره لإنشاء هذا الخط عبر هذه الصحراء الهالكة، ولكنه استخدم 3000 من العمال وعشرات المهندسين في عملية البناء. وفي فترة الصيف الحارقة كانت مسافة ثلاثة كيلومترات فقط تستغرق يوماً كاملاً كما أن اكتمال الخط الحديدي استغرق ما يزيد قليلاً عن العام.

كنت وقتها في منتصف الطريق تماماً حين توقف ذلك القطار الذي كنت بداخله بشكل مفاجئ. وكنت معتاداً على ذلك. لأسباب يعلمها السائقون لوحدهم كان معلوماً أن يتوقف القطار في أي مكان عادة لفترة عشرة دقائق إلى ربع الساعة بينما تجري بعض الإصلاحات والضبط لماكنة القطار. ولإحساسي بضرورة تنشيط أرجلي فقد نزلت من سطح القطار واتجهت إلى آخر عربة في القطار لاعتقادي بأن بإمكانني أن أحصل على حصيلتي من المياه من أحد زملائي المسافرين.

كان عليّ أن أمهبط لمستوى قصير لكي أصل إلى ما أريد، وما أن حاولت الصعود مرة أخرى إلى السقف حتى أحدث القطار شخرة حادة بشكل فجائي وتحرك منطلقاً بعدها مما لم يمكنني من اللحاق به. حاولت التشبث به جرياً خلفه وانزلقت في الرمال ثم وقعت على كومة منها. وخلال ثوان معدودة كان القطار ينطلق بأقصى سرعته بما لم يسمح لي باللحاق به. وظل زملائي الذين يشاركونني سطح القطار يصيحون لي عالياً أن أسرع بأقصى ما لدي من طاقة، ولكن بلا فائدة. أطلق القطار زفرات من سحب الدخان الأسود وهو يشق عباب الصحراء.

وجدت نفسي مرة أخرى وحيداً خائفاً في الصحراء. في ذلك السكون الذي بدأ يثير أعصابي. وللحظة معينة كنت أعتقد بأنني أحلم وإنها إحدى الكوابيس التي كانت تراودني... ولكن الأمر لم يكن كذلك إنها الحقيقة القاسية. جلست على الأرض في انتظار مصيري. بكل تأكيد ما كان ممكناً أن يحدث لي ذلك مجدداً؟ حاولت أن أنماسك بالهدوء ثم استعرض فرص نجاتي من هذه المشكلة. كانت الساعة العاشرة صباحاً وقتها ودرجة الحرارة بدأت في الارتفاع نحو الأربعينات. كانت هناك بضع صخور بالجوار من شأنها أن تقيني نسبياً من حرارة منتصف النهار كما كنت أحتفظ بقبعة كبيرة واسعة الأطراف وضعتها على رأسي. وأياً كان الأمر فإن أول قطار قادم سيصل إلى هنا بعد أسبوع على الأقل وهو وقت كاف لأن أغدو هيكلاً عظيماً على الرمال. يسود الاعتقاد بأن البشر بمقدورهم البقاء لمدة ثلاثة أيام بلا ماء وسبعة أيام بلا أكل ولكنني في تلك الحرارة القاتلة ربما كنت سأموت خلال أربع وعشرين ساعة.

كنت أحمل على حقيبة ظهري بعض المال وجواز سفري وقليلًا من الطعام والماء بما يكفي ليوم واحد تقريباً، ولكن لا مجال لي البتة أن أسير إلى أبي حمد أو وادي حلفا - فالمسافة إليهما بعيدة للغاية. وكان أمني الوحيد هو أن أتمسك بخط السكة الحديد سيراً بمحاذاة عسي أن يكون القطار قد أحدث وقفة أخرى في الطريق. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي بإمكانني فعله لذا حملت متاعي على ظهري ومشيت متناقلاً متابعاً الخط الحديدي. وبعد حوالي ساعة أو أقل بدأت أشعر بالدوار وما يشبه فقدان الوعي جراء حرارة الشمس القوية على رأسي. لم أكد أرى أي شيء تقريباً بل كئيبان لانهاية من الرمال الذهبية المتلألئة والصخور السوداء. وقع بصري إلى مجموعة من أشجار السنط المتناثرة فاتجهت إليها ووجدت لنفسي بقعة صغيرة من الظل فحشرت نفسي فيها وأنا نصف نائم ونصف متضرع إلى الله طالباً رحمته لإنقاذي من ذلك الموقف.

أثناء نومي كنت قد حلمت برؤية تتلخص في رجل عجوز ذي شعر طويل ولحية طويلة وهو ينثر حبيبات من الدقيق في وسط الصحراء. وكانت الرياح قد بعثرتها في كل الاتجاهات. ثم طلب مني إعادة جمعها. فأجبته بأن ذلك مستحيل، لقد تناثرت جميعها على أية حال. فأجابني بأنها ما زالت باقية في أماكنها وبالتصميم يمكن إعادتها مرة أخرى. وقفت على أرجلي وبدأت الجري يمنة ويسرة ملاحقاً الرياح وجمع ذرات الهواء.

بعد فترة وجيزة كانت أكوام من ذرات الدقيق قد تجمعت أمام الرجل العجوز، وبادرني قائلاً: «ألا ترى، لقد قلت لك أن لا شيء مستحيل».

حينما صحوت من غفوتي كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله. وعرفت أن ذلك هو موعد خروج الحيوانات المفترسة بحثاً عن وجبة العشاء. أرتال من الثعالب والضباع وحتى الذئاب عرفت بأنها تمشط المنطقة في مجموعات وهي جائعة.

حرارة الطقس في ذلك الوقت كانت محتملة نوعاً ما، ومرة أخرى كنت قد سمعت صوت جدتي زينب وهي تقول: «واصل سيرك، واصل السير محاذياً للخط الحديدي». بقيت ماشياً بجانب الخط، وكنت أبحث بجانب علي أعثر على عصا للدفاع بها عن نفسي من أية هجوم محتمل، ولم يكن ذلك شيئاً ميسوراً ولكنني عثرت بالكاد على قطعة معدنية من الممكن أن تفي بالغرض المطلوب. كنت آنذاك قد أمضيت ثماني ساعات بمفردي ولم يتبق لي سوى قليل من الماء في زجاجة صغيرة وقليل من الرغيف والخيار. ثم شاهدت ضوءاً صغيراً يتقد على البعد. ربما كان على مسافة نصف كيلومتر تقريباً من ناحية الشمال. وحين اقتربت منه أكثر علمت أنه معسكر ليلي، ومن خلال الظلام تبين لي رؤية ظلال إثنين أو ثلاث خيم مربعة الشكل. لقد تعثرت إذن في معسكر للعرب البدو!

نهض حوالي خمسة أو ستة رجال بملابسهم البيضاء الواسعة المسدلة لمقابلتي. توقفت عن المسير. سادت فترة صمت كثيفة فيما كانوا يحملقون بتمعن شديد في ذلك الشبح المغبر برمال تلك الصحراء الداكنة.

أخيراً تطوع أحدهم مبادراً بالقول: «أهلاً وسهلاً» وهي علامة الترحاب بال القادم الجديد.

تلك هي التحية التقليدية السودانية للشخص الغريب الذي يصبح بعدها ضيفاً موضع تكريم وحفاوة. كنت قد سمعت حكايات متأصلة عما يتصف به أولئك البدو من كرم ونخوة، وقد ارتحت نفسانياً لوجودي معهم وبدأت دعاء بشكر الله تعالى على ذلك. ثم ظهرت امرأة منهم بملابسها التقليدية المحجبة. وفيما تجنبت النظر إلي مباشرة كانت قد مدت لي إناء به ماء وشيئاً من لبن الإبل الدافئ. بعدها أصبحت مدعواً للجلوس مع هؤلاء الرجال حول حلقة نار التدفئة. كان سلوكهم معي ودياً للغاية ولم تأت من أي منهم كلمة أو سؤال أثناء جلوسي معهم وقدموا لي بعضاً من الرغيف والخضر من وجبتهم التي كانوا يتناولونها.

عقب فراغي من الأكل بدأ زعيمهم وهو رجل نحيل الجسم طويل القامة ذو لحية بيضاء يبدو عليه الوقار والمنة وهو في عقده السابع متسائلاً من أكون أنا. وقدم نفسه بأنه الشيخ طاهر ومن حوله من القوم هم أبناءه وأصهاره. من أين أتيت؟ وماذا حدث لك...؟

وكانت إجابتي مبعثاً قوياً للتأوهات وعبارات القلق والشفقة من الحاضرين. وما أن أكملت حديثي حتى أطرق الشيخ طاهر ملياً بينما كان أبناءه ينتظرون ما سيأتي منه من تعليق ورأي.

«مثل هذه الأحداث لم تعد غير مألوفة بالنسبة لنا»، قال الشيخ طاهر، «لقد سمعنا عنها كثيراً من قبل، ولكنك شخص يحبك الله لأن هذا المكان ليس هو المقر المعتاد لمعسكرنا. كنا نتحرك متجاوزين خط السكة الحديد ولكن كانت هناك بعض الحيوانات المفترسة التي اعترضت طريقنا التقليدي. إنك شاب محظوظ للغاية أن تلتقي بنا في هذا الموقع». أحنيت هامتي احتراماً لهذا الرجل وأبدت له الكثير من علامات الشكر والتقدير لوجودي معهم. ابتسم وأخبرني بأنني ومنذ تلك اللحظة أصبحت كأحد أبنائه في الأسرة وسوف أتحرك معهم شمالاً لبضعة أيام حتى نصل إلى محطة القطار التالية.

إذن فقد تواصل السمر الليلي مع بعض الحكاوي والقصص اللطيفة حول النار المشتعلة. ولو أتيح لي أن استمع بعناية إلى ما يقولونه لفهمت غالبية لهجتهم. كانت لغتهم غنية بالمفردات وذات طابع شعري من الطراز القديم. وكانت قصصهم شبيهة بتلك التي كنت قد سمعتها من الصيادين. كان يبدو أن لكل واحد منهم «رسالة» أو واجباً أخلاقياً. الفقراء دائماً هم من ينتصرون في نهاية المطاف، وحين يلتبس الأمر على الأغنياء، فإن الحب الحقيقي هو الذي يسود، الجن والآلهة والآلهات ما فتئت ترفرف داخل حياة البشر وخارجها، الحيوانات امتلكت قوى سحرية، ثم الأمانة والسخاء والثقة في الله وكرم الضيافة كانت هي الفضائل الأكثر سمواً.

في تلك الليلة استسلمت لنوم طيب على سجاجيد من صنع يدوي محلي داخل خيمة منفصلة عن خيام النساء. وفي الصباح سمح لي أن أشارك مع شابين من أبناء الجيل الثاني في الأسرة للعناية بقطيع الإبل الذي يبلغ إثنا عشر بعيراً. لقد تعلمت الكثير منهما وفي اعتقادي كانا يجدان سعادة في إبراز مواهبهما البدوية لأحد ساكني المدن ولاحظت أنهما كانا يتسمان حينما



تعتورني نوبة جفل من أحد الحيوانات ذات الطبع الحاد. كانت بين القطيع إثنان فقط من إناث الإبل تم ادخارهن للحصول على الحليب والإنجاب، لذا فقد ظل الشبان يستخدمان الذكور البعير في عمليات النقل والترحيل وغيرها. وبين الحين والآخر كانا يطعمان القطيع بكميات من قصب الذرة عالي الغذاء ولا بد من عملية مساج على رقبة البعير للمساعدة في عملية الهضم السريع. وفي حال ضرورة تركيب واحد منها كان الشبان يبديان ضجة غريبة في شكل غرغرة متصلة حالما يستجيب لها الجمل وسرعان ما يطوي جسمه إلى الأسفل تماماً كالخيمة التي تنهار من أعلاها تجاه الأرض محدثاً حسيساً وزبداً وتذمراً علامة احتجاج على إذلال كبريائه.

أخبراني بأن أفضل الجمال هي الفتية الشابة التي تتراوح أعمارها بين سن الرابعة والسابعة، كما أنهما ربما يحتاجان في بعض الأحوال إلى عقال بعضها في موضع الركبة لمنعها من التحرك ليلاً. وفي حال أصبح الجمل مُسنناً ولا يقوى على العمل فإنهم يقومون بنحره سريعاً على الطريقة الإسلامية.

سافرت مع المجموعة في صبيحة اليوم التالي فجرّاً وعقب صلاة الفجر مباشرة وكنا نرتاح خلال ساعات النهار حين ترتفع درجة الحرارة التي ما يشوي الوجوه.

عادونا السير في نهاية العصر تقريباً، وكنت دائماً أطلع إلى الأوقات اللطيفة التي تعقب وجبة الأكل حيث تتعقد جلسات السمر والنقاش حول نار المعسكر. أدهشتني بقوة غزارة الموضوعات التي تشملها تلك النقاشات. ورغم أن إلمامهم المعرفي يكاد يكون محدوداً فإن أولئك القوم امتلكوا حظاً وافراً من الذكاء، مع هجر تام لأية تطلعات فكرية أياً كانت. إنهم ينظرون بكثير من المهابة والقبول إلى ما يحدث من معجزات كبيرة في الحياة. ومع أن الإسلام قد زدوهم بالإجابة على كل شيء تقريباً إلا أن هناك أموراً ما تزال تثير تساؤلاتهم وتكهنتهم حول سرمدية الفضاء والمسافات بين الكواكب المختلفة وما يكتنف الحياة اليومية من غموض بشأن الميلاد والوفاة وغيرها. لاحقاً حينما تدرجت في سلك التعليم وصولاً إلى درجة الأستاذية كنت قد تبهرت عميقاً في الفلسفة، وبكل ثقة يمكنني التقرير بأن أولئك القوم كان ممكناً أن تكون نقاشاتهم أكثر أريحية وسهولة. أضيف بُعد آخر لتلك الأمسيات هو منظر النار المتوهجة أمامنا على الدوام فضلاً عن المظلة السماوية الضخمة من النجوم التي كانت فوق رؤوسنا. لم تكن هناك أنوار المدينة حتى تحجب ذلك الوهج المتلألئ، أو تسطح إلى أعلى مختركة ذلك السواد الممتد من حولنا، وسيظل مشهد السماء المرصعة بملايين لا حصر لها من النجوم محفوراً في ذاكرتي إلى الأبد.

بعد ستة أيام من السير وصلنا إلى المحطة التالية في خط السكة الحديد، وما إن توقف القطار حتى اجتمعت كل الأسرة بمن فيهم النساء ليقولوا وداعاً. وتقدم الشيخ طاهر إلى مفتش السكة الحديد راجياً منه معاملتي معاملة الضيف في القطار وأن يسمح لي بالبقاء بالداخل. وبما أن ذلك كان من صميم صلاحيات المفتش فقد وافق على الفور لذلك الرجاء. ثم تقدمت



السيدتان نحوي ودستا بين يدي بعض الأرغفة الطازجة وقليلاً من اللبن داخل إناء صغير من الألمونيوم. وأخيراً قدم لي الشيخ طاهر هدية ذات قيمة خاصة وهي شنطة من الجلد الخالص تعلق على الظهر، وما زلت محتفظاً بها حتى اليوم. تأثرت كثيراً بما اتصف به هؤلاء القوم من طيبة وكرم لدرجة أن واحداً أو اثنين منهم قد ذرفوا الدمع في تلك الحظات بشكل عاطفي أخاذ. وبمثل ما حدث لي مع الصيادين، فإن تجربتي مع هؤلاء الرجال كانت قد تركت أثرها القوي في حياتي. الحصول على التعليم الأكاديمي شيء ممتاز ولكن ما تعلمته منهم من قيم تمثلت في - الأخلاق الكريمة والطيبة الفطرية المتأصلة واحترامهم لكبرائهم وكرم الضيافة وحسن استقبال الغرباء التائهين ورعايتهم - كان قد أصاب صميم كياني ووجداني. لم تكن لديهم كتب يقرأونها ولكنهم أنقذوا حياتي بفطرتهم السليمة وأعادوا في نفسي الثقة في بواغث الخير المتأصلة في الطبيعة البشرية.

★ ★ ★

◀ عقب زيارة القاهرة عدت إلى المدرسة حيث كنت قد تعرفت على أصدقاء طيبين، كما تزودت بقدر كبير من الثقة بالنفس وأمكنني المشاركة بفعالية في الأنشطة الاجتماعية كافة. مارست الرياضة وبخاصة كرة السلة وكرة الطاولة وكرة القدم التي كنت فيها لاعباً معقولاً وقد أتيح لي أن أشارك مع فريق المدرسة في بضع منافسات خارجية، ولكن غالبية ما لدي من فراغ كان يستأثر به موقعي ومسؤولياتي كرئيس لاتحاد الطلاب في المدرسة. كنا نتبنى الاتجاه اليساري وهو جزء مما كان يعرف بالجبهة الديمقراطية في ذلك الوقت. وكنا نشعر - فضلاً عن أن معاناتي السابقة في فترات العمل المرهقة التي عشتها كانت قد أفنعتني كذلك - بأن الحزب الشيوعي رغم أنه كان يكتنف الساحة تقريباً فقد كان علينا أيضاً مقارعة حركات اليمين وذلك بدعمنا الفقراء والمناضلين.

وبطريقة أو أخرى فقد أتيح لي كذلك أن أمارس بعض أنواع التمثيل، فقد انضمت إلى مجموعة محترفة تطلق على نفسها «أبادماك» تؤدي بعض المسرحيات والاستعراضات حول المنطقة.

وكنت وقتها ما أزال في السادسة عشرة من عمري بمعنى كوني أصغر أعضاء الفرقة، ولكن لفترة معقولة كنت أمتع نفسي بمثلما كان الغجر المترحلون يعيشون إذ كنا نجوب أرجاء البلاد على ظهر لوري متهالك أكل الدهر عليه وشرب.

كان مدير مجموعة الدراما محبوب عباس سيد أحمد وهو رجل متميز وخريج مثقف ومفكر جيد وكان قد اتخذ من منزل يقيم فيه مع بعض الأصدقاء في مدينة الخرطوم بحري مقراً للفرقة، ورغم أنني كنت في مرحلة الدراسة فقد شاركت في حلقات التفاكر وأمسيات النقاشات التي كانت تضم مجموعة من المثقفين وتتناول أموراً متعددة. أذكره كرجل بشوش دائم الابتسامة

ولا تنقصه روح الفكاهة وكان غالباً ما ينفجر ضاحكاً حينما يتخذ الجدل منحى جاداً للغاية. لقد كان ذكياً ذا ثقافة متعددة الجوانب، وكان يبدي اهتماماً لكل شيء تحت الشمس وبخاصة الآداب والسياسة والدراما. وحدث مرة أن وضعني كشخصية أساسية في مسرحية أطلق عليه إسم «السود». ولم يكن موضوعها كما هو من إسمها بل كانت تركز أساساً على مسائل حرية التعبير وحقوق الإنسان. وبصورة أخرى كان الانتماء لتلك الحلقة مثل الانتماء لجامعة مصغرة مع فائدة أنه لا توجد فيها امتحانات في نهاية العام! وأخيراً تزوج محبوب من سعاد آدم وهي معلمة لغة إنجليزية متميزة تحظى بالاحترام أما شقيقها مصطفى آدم فقد انضم لاحقاً إلى حلقتنا. وهناك آخرون ما زالت ذاكرتي تحتزنهم منهم جعفر عباس الشقيق الأكبر لمحبوب عباس وهو الآخر مثقف كبير، والمرحوم الخاتم عدلان وهو فيلسوف ومثقف وحجة في السياسة العالمية التي كان يغوص كثيراً في أعماقها. وهناك أيضاً قدورة وكان رجلاً محترماً معتدلاً بشخصيته وذا معرفة وإدراك واسعين، ومحبوباً من الجميع. كان مستمتعاً جيداً وبهدوء ملحوظ، أما آراؤه وأفكاره الثاقبة فكانت البلمس الشافي لكل ما يطرح على طاولة النقاش من موضوعات.

عند النظر للوراء لأيام الدراسة اشعر نحوها بحنين مكثف مدهش، ولا تتملكني أي نزعة للندم أو الأسف على أي شيء، ليس هناك ما يثقل كاهلي من أعباء، وليست هناك أية مشاعر حادة بالضغينة تجاه أي شخص مما ظل العديد من الناس يحملونه معهم في مسيرة حياتهم. ما زالت تراودني أمزجة الظلام أو «الكلاب السوداء» كما سمعت عبدالله العوير يوماً يطلق عليها حينما كان يقتبس شيئاً لونسون تشيرشل. وإلى حد ما، عن طريق العمل الشاق المتصل والاستغراق فيه، أمكنني أن اضع تلك الأوهام جانباً وكان لوجود والدتي الملهمة الشجاعة بجانبني الفضل الكبير في التخلص من تلك المخاوف عن مخيلتي.

ما يزال عبد الله يدبر لي المكائد، إنه قاموس يمشي على قدم رغم أنه لم يحدث أبداً أن تباهي بمعرفته وعلمه، وكنا بانتظام نستمع معاً إلى راديو هيئة الإذاعة البريطانية الخدمة العالمية. كنا نجد متعة كبيرة في استخدام جهاز الراديو الضخم من طراز «غروندي» ذي الممسكات الكبيرة والذي يسمح لنا بالبحث عبر محطات العالم المتعددة وكان عبدالله يسعد كثيراً في استعمالها للتجوال عشوائياً علّه يشفي غليله من إثراء ذخيرته اللغوية، وقد اعتاد على ذلك ولكن في نهاية المطاف كان يستقر به المقام في هيئة الإذاعة البريطانية الخدمة العالمية وقد أتيح لي من خلال أحد برامجها التعرف على سيرة ونستون تشيرشل.

وكان عبد الله يحتفظ للرجل بكثير من التوقير باعتباره «رجلاً عظيماً ساعد في إنقاذ البشرية مما كان يحيق بها من شرور....».

أشرت إليه يوماً إلى أنني كنت على اتصال مع بعض القادة الشيوعيين. أطرق ملياً ورفع رأسه إلى السماء كمن بدأ يفكر في قول شيء ما ولكنه ظل صامتاً.

لم يكن صمته معبراً عن التزامه بذلك، ولكنني أحسست أن حديثي لم يرقه.

و ذات يوم حكى لي عنه الهادي آدم قصة غريبة. قال لي بينما كان يسير بالقرب من ضفة النهر شاهد رجلاً يجلس على صخرة على مسافة مائة وخمسين متراً تقريباً من ضفة النهر الذي كان ضحلاً إلى حد كبير، وقد أثاره الفضول للإسراع للتحديث مع ذلك الشخص ومعرفة ما إذا كان بخير، وكان الرجل يعطيه ظهره وما أن اقترب منه حتى علم أنه عبدالله وقد كان يقرأ لنفسه بعض الملاحظات بصوت مرتفع.

وما أن استفسره الهادي عن حاله وما إذا كان بخير حتى التفت عبد الله وراءه مذعوراً بعد أن أخفى في عجالة واضحة كل أوراقه داخل جيبه وانتفض قائلاً: «لقد نسيت كل ما لدي من اللغة الفرنسية والإسبانية...».

ثم أضاف: «لقد كنت أمزح.. أمزح فقط...».

كان وجوده يشكل غموضاً بالنسبة لنا. وتعمق الأمر بشكل أكبر في المدرسة حينما أعلن لنا مدرس مادة التاريخ، الأستاذ صديق، أننا سوف نستقبل في ذلك الصباح زائراً مهماً. وبدلاً من أن نتلقى حصة الدراسة العادية ذات الخمس والأربعين دقيقة فسوف يكون الأمر محاضرة عن تاريخ السودان.

غادر الأستاذ قاعة الفصل، ولدهشتي عاد لنا مرة أخرى مصطحباً معه عبد الله العوير. كان يرتدي جلابية جديدة ناصعة البياض وعلى رأسه عمامة وشال. كان ينتعل حذاء غالي الثمن مصنوعاً من جلد النمر، وكان مظهره عموماً يبدو عليه الوقار والتماسك. في تلك اللحظة كان على جميع التلاميذ الوقوف باحترام تحية للضيف. وعقب أن أخذ الأستاذ صديق يقدم زائره لنا حتى أخذ الضيف طريقه إلى المنصة لإلقاء محاضרתه.

كنت أدرك أنه عرفني من بين التلاميذ ولكنه تظاهر بعدم معرفته لي. كان يمتلك صوتاً قوياً مدعماً بطريقة جيدة في الإلقاء والحضور مما يضعه في مراتب العلماء المحترمين والمحاضرين المتمرسين، وقد تحدث إلينا من دون الاستعانة بمذكرات مكتوبة حول فترة محددة من تاريخ السودان هي فترة «حكم الفونج». وأشار إلى كتاب شهير كتبه رجل يدعى الفقيه محمد النور دفع الله. وأخذ يحثنا في إصرار ملحوظ أنه إذا أردنا أن نفهم تاريخ بلادنا فمن الضروري أن نقرأ ذلك الكتاب. كان الكتاب يشكل مجموعة غير عادية من مائتين وثمانين من القصص تشمل جذوراً ومعجزات وقصص حياة للأولياء والطرق الصوفية. في بداية الأمر كانت تلك القصص تروى شفاهة كجزء من موروث ثقافي ولكنها الآن متوفرة في صيغة مكتوبة.

ساد الصمت قاعة الفصل حينما أنهى محاضרתه ونفض يديه ونظر إلى أسفل قدميه.

ثم قال: هل من سؤال لأي منكم...؟

لم يستجب أحد من الطلاب فرفعت يدي، ومرة أخرى تظاهر عبدالله بعدم معرفته لي.

قلت «نعم»

بادرته بسؤال ولكن باللغة الإنجليزية قاصداً اختباره، فقلت له هل كل تلك القصص التي ذكرتها صحيحة؟

بلا تردد أجاب وباللغة نفسها.

«نعم جميعها بلا استثناء».

وقبل مغادرته قاعة الفصل فعل شيئاً غير عادي.

قال إذ رغب أي من الطلاب في الحصول على مزيد من المعلومات، أو يود استشارته لاحقاً فإن لديه رقم هاتف. وأعطى رقم هاتف منزلنا وهو 53791، الذي بطبيعة الحال يعرفه بعض أصدقائي. ثم خرج من القاعة برفقة الأستاذ صديق... فيما ساد الصمت قاعة الفصل.

حينما أخبرت أسرتي في ذلك النهار بما حدث، أصيبوا بالذهول. وكان عليه أن يحضر لسماع نشرة أخبار السادسة والنصف مساءً، ولكنه تأخر عن أداء طقوسه العادية التي تكمن في تلميع جهاز الراديو والمنضدة التي وضع فيها. وكنا متشوقين لاستفساره وكشف ما يمكن عن ماضيه الغامض ولكنه لم يحضر بعد. انتظرنا حضوره كثيراً، وفي اليوم التالي ذهبت للبحث عنه. وكان أحد الجيران ممن حضر لتوه من السوق قد نقل إلينا أخباراً حزينة بقوله إن عبدالله الرجل العالم والأكثر حكمة وتهذيباً بين الرجال والفيلسوف ملك التجوال قد لقي حتفه مساء الأمس نتيجة حادث مرور مؤسف. وما هو أكثر سوءاً ومرارة أن لا أقارب لديه حتى يمكنهم المطالبة بجثمانه ما سيجعل جثته غنيمة لكلية الطب في الجامعة لإجراء الاختبارات عليها.

لقد افتقدناه كثيراً، فقد كان رجلاً مبهماً يكتنفه الغموض مما جعله مدعاة للتسلية لدى الآخرين. لم يكن ينتمي إلى عالمنا هذا بل كان عملاقاً من عالم آخر. لم يكن بوسعي مطلقاً معرفة أي العوالم، كما لم يمكنني البتة تحديد من أين أتى، ولكن إحساسي يدعوني إلى كونه شخصاً مدهشاً.

لم يكن هو الشخص الوحيد الذي زار منزلنا.

من بين الآخرين كما أذكر كان صلاح كرار ذلك الرجل النحيف طويل القامة الذي امتهن الحلاقة حرفة من دكانه الصغير في السوق،

وكان حينما لم يجد من يخلق له رأسه أو لحيته يغلق دكانه ويبدأ المسير في منطقتنا يلقي بالتحية بقدر ما وسعه على أكبر عدد من الناس.

وكان قد علّم نفسه خارج إطار المدرسة، وهو يمتلك عقلاً متقدماً يتطلع إلى حب الاستطلاع والتقصي. كان دائماً يستفسر الناس عن آرائهم في كل مناحي الحياة، عن السياسة وعن أحلامهم وتاريخهم ورفاهيتهم الاجتماعية وما شابه. واستمر على هذا المنوال طيلة الوقت حتى بعد أن أصيب بالعمى في مراحل حياته الأخيرة. كان هناك أيضاً وليد وهو رجل أصم وأبكم. كان ينتمي إلى عائلة طيبة، وشأنه شأن صلاح كرار كان كثير السؤال والتقصي عن شؤون الحياة متابعاً

الأخبار المحلية والعالمية كافة في اهتمام شديد. وكان يتواصل مع الآخرين مستخدماً إشارات ورسومات ابتدعها بنفسه. ومن الشخصيات الأخرى أيضاً الجد قرشي، وهو رجل ذو نزعة صوفية نزيهة تجعله غارقاً في غيبوبة روحية محبة إلى النفس. جاء مرة لتناول إفطار رمضان وهو يحمل معه لوحاً من الثلج وكان قد تركه خارج المنزل تحت هجير الشمس حتى ذاب تماماً! وكان يبدو كمن يعيش في عالم روحي أكثر ثراء، أما عالمنا الذي نعيش فيه فكان يمثل له صعوبة كبيرة في التعامل معه. كان دائم الابتسام، وتامماً مثل جدتي زينب، كثيراً ما ظل يروي الحكاوى الصوفية اللطيفة. وقد سمعت المئات منها ولكن واحدة فقط بقيت عالقة في ذهني، وهي تقول:

«كان هناك رجل فقير في ثياب رثة حضر لمأدبة عشاء فخمة في أحد القصور. وأمر الملك بالسماح له بالجلوس في قلب المائدة مع المدعوين ولكن لم يكن أي منهم موافقاً للجلوس بجانبه مما حدا بهم إلى وضعه بعيداً في أسفل المائدة بمفرده.

غادر الرجل الفقير القاعة ولبس ملابس جديدة تسلفها من أحد أصدقائه وزينها بالحلي والمجوهرات ثم عاد راجعاً للوليمة بعد بضع ساعات. وحينها تم استقباله بحفاوة واحترام من قبل الحاضرين وأجلسوه في صدر المائدة مع عليّة القوم.

«هذا الطعام لذيذ للغاية ويجب علي أن أمسح به ملابسي أيضاً»، هكذا قال. وكان كلما تناول لقمة من الأكل وضع جزءاً منها على أكمام ملابسه ومسح بها على صدره. فكان تصرفه مثار دهشة أحد كبار الضيوف الذي كان جالساً بجانبه. فبادره متسائلاً:

«يا سيدي، لماذا تضع الطعام على ملابسك الجميلة التي ترتديها؟»

«ياه»، رد عليه بابتسامة خفيفة، «إنها الملابس التي قدمت لي الطعام في المقام الأول، ومن حقها أن تنال حظها منه أولاً».

وهناك أيضاً العديد من الشخصيات الأخرى إضافة إلى ممن أشرنا إليهم في هذا الحيز: أذكر بائع السمك أحمد الذي كان يبيع كل ما لديه من غلة على ظهر حماره، ثم يحيى بائع اللبن الذي يتميز بقرع أدواته المصنوعة من الألمنيوم كل صباح. وكان يقدم اللبن لزبائنه يومياً ويحفظ عن ظهر قلب حساباتهم جميعاً ثم يعمل على تسوية فواتيره في نهاية كل شهر، من دون أن يرتكب أي خطأ في هذا الشأن. وهناك عبدالله بائع الرغيف الذي كان يجوب الشوارع حاملاً طاولة تحمل أنواعاً متعددة من الأرغفة على ظهر دراجته المرتجفة، ولنذكر أيضاً أبو الروس العملاق المتطوع لحفر المقابر بجسمه الضخم بما يجعله شبيهاً لأبطال حمل الأثقال الأولمبيين، والذي سقط صريعاً وهو في نهاية الثلاثين من عمره من دون سبب ظاهر. كل هؤلاء الأشخاص قد اختفوا الآن وإني لأشعر بالأسى تجاههم فقد كانوا أكثر من مجرد بائعين لسلعهم إذ كانوا يعرفون كل فرد في الحي ويتبادلون الحديث وتمضية الوقت مع السكان اثناء تجوالهم كنماذج حية شكلت بوتقة جميلة من التلون واختلاف التوجهات المهنية في الحي.

في هذا الموقع من مذكراتي أود أن أعبر عن تقديري وعرفاني لجيراننا وخاصة الأكثر قرباً

لنا في مدينة أمدرمان. هناك مثل يتداوله الأميركيون الأصليون يقول إن قرية بأكملها تنشغل في تربية طفل، وأنا أعلم تماماً ماذا يقصدون بذلك المثل. لقد كان منزلنا محاطاً بأصدقاء «انعكست» عليهم تلك القرية والذين أصبحوا كالأسرة الممتدة. كانت الأبواب دائماً مفتوحة، وإذا حدث أن حضر شخص غريب أو زائر إلى منزل ما سرعان ما تنهال موائد الطعام والشراب على المنزل كأنما تم بفعل ساحر. وفي أوقات الشدة والعسر كانت الأمور تقضى بالمشاركة من دون حرج لأي من الأطراف أو تساؤل منهم. كانت الوفیات تقابل بموجة من الحزن والمؤازرة تعم الجميع، كما أن «القرية» بأكملها كانت تسودها موجة من الفرح والحبور لمولد طفل جديد... كم هو مدهش أن تضع ثقة كاملة في عدد كبير من الناس مثل هذا، ويسعدني الاعتقاد بأنه أمكنني الاحتفاظ بتلك الثقة والسير بها في حياتي الراشدة وقد جعلتها منصة انطلاق في تعاملتي مع العالم الخارجي. اعتز كثيراً بذكرى هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يسكنون قريباً جداً من منزلنا، وأود أن أذكر أكبر عدد ممكن من أسمائهم:

كان هناك قرشي، الرجل ذو القلب الطيب، وهو موظف كبير في الخدمة المدنية يتميز بالورع والدقة والإنصاف مع كل من يتعامل معهم. وعباس، عمي الودود، وهو موظف كبير في مصلحة البريد الذي كان يحب الجلوس أمام منزله في الأمسيات لمراقبة الحياة وسيرها... كان دائماً يضع بجانبه كراسي إضافية وراديو ترانزستور، فضلاً عن احتفاظه بثيرمس من الشاي أو القهوة لمن يأتي من الناس للجلوس وقضاء

وقت طيب معه. وأيضاً هناك عمر الرجل الزاهد المتدين الذي غالباً ما يصطف الناس أمام منزله شاكرين له ما يوجد عليهم به من الصدقات. المادح أيضاً كان رجلاً تقياً كثير التصديق على المحتاجين، وكان راعياً طيباً لأسرته ويتمتع بقدر كبير من النزاهة والصدق. كان يعمل في صناعة الزيوت أما زوجته وأبناؤه فنادرا ما تشاهد البسمة على وجوههم.

وكان معنا محمد عثمان وهو رجل أعمال، نشأ أبناؤه نشأة طيبة ونجحوا كفنانين موهوبين ومعلمين، وكذلك جمعة الذي كان موظفاً في الخدمة المدنية أيضاً. هذان الرجلان في تعاملهما مع الآخرين كانا مثالين طيبين للكرم أسوة بغيرهما من الجيران.

ثم نذكر حسون وهو إمام مسجد وشخص محترم وذو معرفة عميقة بما أهله للإلقاء دروس ومواعظ في الأمور الدينية. وقد اشتهر هو وعائلته بمساعدتهم لكل من يلجأ اليهم طلباً للمساعدة.

وأخيراً من كان يسكن ملاصقاً لمنزلنا مباشرة هما الأخوان أحمد دارصليح وهو الآخر موظف كبير في الخدمة المدنية، وشقيقه عبدالله دارصليح وهو ضابط عسكري مرموق، وكانا أُمير ما يمكن للمرء أن يتوقعه من جيران. ولا تسعفني الكلمات إذا حاولت أن أصف مدى كرمهما ونخوتهما. ومن المؤسف أن أحمد كان قد توفي لرحمة مولاه في ذات الفترة التي توفي فيها والدي تقريباً، وكُم ساد الحزن عميقاً بين أسرتهما للحد الذي تم تدمير الحائط الفاصل بيننا تعبيراً عن المشاركة الوجدانية كأسرة واحدة. كان أبناؤهم عبارة عن إخوة وأخوات إضافيين لنا. أما

الوالدتان فكانتا تساعد إحداهما الأخرى كتوأمتين. أما الرجل الرائع عبدالله العوير فكان يجد ترحيباً في أي من المنزلين... أحياناً يدخل بلا ميعاد وأحياناً يستلقي نائماً على أية مرتبة في فناء المنزل، وكان دائماً غاية في الأدب والتهذيب والخلق الرفيع. وكنا جميعاً نحبّه.

ما أحمله من ذاكرة لهؤلاء الناس تعود بعقلي أيضاً إلى أساتذتي. الكثير من جهودهم المقدرة ذهبت غير مرئية من قبل الآباء، ولكن التلاميذ يدركون ذلك وبسرعة شديدة يظلون مقدّرين مدى التزام أساتذتهم وإخلاصهم في عملهم، وبخاصة حينما يظلون لساعات طوال عقب ساعات العمل لمساعدة تلاميذهم وإرشاد كل من هو بحاجة لذلك. لقد تعلمت منهم وبالطبع من أسرتي ومن جيراني بل حتى مما تحمله الذكريات من أحداث غريبة وقعت لي في مسيرة حياتي بأن الوصول إلى أو البحث عن الجديد والمجهول، وعن الحقيقة أو التوثيق والعمل الأخلاقي الملزم بقوة، هو عمليات متداخلة عصية على التحمل من أجل الوصول إلى النجاح والسعادة المنشودة. لقد أصبحوا مراسي ومرتكزات لكل ما هو طيب في حياتي، بل نماذج للمعونات والأعمال الخيرة مما أمكنني الحفاظ بها في ذاكرتي ومحاولتي لئن أعيش من أجلها. لقد كانوا تنمة قوية لذلك الصديق الأبدى الآخر عندي، نهر النيل. أسأل الله أن يبارك فيهم جميعاً.



## الفصل السادس

### شمالاً إلى الجزر الباردة، محطة فيكتوريا وجيمس وإلينا

التزام بالمشاركة نحو فترة دراسية مثالية ونزيهة، مكرس للنهوض  
بتطوير حضارة ونقلها، ليستظل بها مجتمع خال من أسباب الترهيب العقائدي  
(روجر كيمبال، ناقد أدبي أميركي ويحمل تعريف المعلق الاجتماعي للجامعة)

حينما يتحدث الرجال عنك بسوء، تدثر ملتفاً بفضائك ونزاهتك  
(كامل إدريس)

◀ «سوف لن تغادر!» صاحت الوالدة في وجهي حينما أخبرتها برغبتي في السفر إلى أوروبا  
في عطلة المدرسة التي تمتد إلى شهرين. كانت تجلس على كرسيها المفضل في المطبخ حينما  
اعتدلت وبدأت تحقق في جسمي من أعلى إلى أسفل: «أنت لم تزل صغيراً»، قالتها بحزم،  
«يمكنك السفر إلى القاهرة ولكن ليس إلى أوروبا، إنها بعيدة وأياً كان الأمر فهي رحلة مكلفة  
ثم إنك سوف تضيع هناك».

«لن أضيع»، رددت عليها، «أمتلك خريطة وأنا أعرف طريقي جيداً».

كنت أعلم مسبقاً كيف ستكون ردة فعلها لذا فقد أعددت العدة اللازمة لذلك بأدق تفاصيلها،  
فقلت لها: «إنني ادخرت المال اللازم لهذه الرحلة من دخلي حينما كنت أعمل في القاهرة. كما  
أن صديقي العزيز سالم يود السفر معي علماً بأن شقيقه يعمل طبيباً في مدينة إسمها مانشستر

كما أن زوجته أيضاً تعمل ممرضة، وسوف يشرفان علينا... سيكون الأمر في منتهى السهولة».

ليس الأمر بهذه السهولة كما تتصور، وهل تعلم كم هي بعيدة المملكة المتحدة من لبنان.. ربما يتم اختطافكما معاً ثم قتلكما. أنت ما زلت صغيراً. وسوف لن تسافر. كما أن الطائرة نفسها ربما تنفجر... أين هي مانشستر؟

«شعرت بأني في ورطة حقيقية، وهنا لاحظت أن شقيقي الكبير فريد كان يتحرك في المطبخ، ويستمتع باهتمام لما كان يدور بيننا ويتسم لنفسه. كنت أدرك أن والدتي تعدّه رب الأسرة عقب وفاة والدنا وكانت تهتم بكل ما يقوله لها، «سيكون بخير» قال لها.

« لا لن يكون بخير» صاحت الوالدة»، «إنه ما يزال في الرابعة عشرة».

«إنه يقترب من الخامسة عشرة من عمره وبذلك فهو كبير إلى حد أن يهتم بنفسه. لقد سافر إلى القاهرة من قبل أليس كذلك؟» رد عليها فريد. وفي تلك اللحظة كدت أن أقفز فرحاً واحتضان فريد. أما الوالدة فقد كانت في حالة من الحيرة والتهديج.

«دعيه يسافر. إنهما إثنان وإذا اتحدا معاً سوف لن يحدث لهما مكروه. بجانب أنه حان الوقت لئن يكبر أكثر. إن ابنك الصغير قد أصبح شاباً الآن». غرقت الوالدة عميقاً داخل كرسيها المفضل. ورأيت أن كلمات فريد أصابت هدفاً وألقت بتأثيرها الشديد على الوالدة. الآن يجاهد العصفور الصغير للخروج من العش العائلي. وفي العمق كنت أعلم أنها تود بذل أكبر جهد لحماية أصغر أبنائها وتحاول إطالة دورها الشخصي كأم حنون حامية ومدافعة عن أبنائها. ولكنها الآن تواجه ما ليس منه بد - إذ أن الرغبة الغريزية لنسلها تحته لفرد جناحيه تطلعاً للقاء العالم الخارجي.

يبدو لي أنني أتذكر مجاهدتها البكاء تحسراً، وكانت تنظر تارة إلى فريدة وأخرى إلي. كانت تزفر بأنفها وتعاني صعوبة في البلع ثم تضع يديها على حجرها وتحقق إليهما ملياً وكأنها تنتظر منهما نجدتها برأي سريع لهذه العضلة.

«سوف أسمح لك بالسفر، ولكن بشرطين إثنين» قالت، «أولهما أن تكتب لي كل أسبوع موضعاً لي أين أنت وماذا تفعل، وثانيهما ألا تذهب إلى أي مكان أو تقم بأي عمل بمفردك. إذ لا بد أن تكون برفقة سالم في كل الأوقات».

في هذا الوقت تحرك فريد من المطبخ في استرخاء، تاركاً إيانا بمفردنا. وفيما كانت عيناها الدامعتان تنضحان حباً وشفقة لم أجد بداً من الارتواء في أحضانها. «أرجو أن تهتم بنفسك، أنت إبني الأصغر ولا أود أن يصيبك أي مكروه... يلزمك أن تكتب إلي؟!» قالت ذلك.

«أعدك بالكتابة إليك»، أجبتها سريعاً، ولكن هناك شيء واحد.

- «ما هو؟» سألتني.

«ليس لدي المال الكافي للرحلة بالطائرة».

«لدي تقريباً ما يكفي ولكني أريد فقط المزيد من المال».

كنت أعتقد أنها ستغير رأيها بشأن السفر، لقد كانت في دوامة عاطفية قوية من شأنها أن تقلب كل الأمور.

كم كانت تلك لحظة عصبية. تمهلت بكامل جسدها على كرسيها ثم أخذت نفساً عميقاً وطويلاً وهي تنظر إلى أعلى كأنما كانت تقرأ إجابة من سقف الغرفة.

لم يمكنها النظر إلي مباشرة وإنما همست إلى نفسها بالقول: «هناك قليل من المال. وأنا...». ثم توقفت عن الحديث. لم أعرف أبداً من أين جاء ذلك المال ولكنه كان كافياً لي لشراء تذكرة الطائرة من القاهرة إلى بيروت، ثم جزء يسير منه أيضاً لتكلفة السفر بالقطارات. خلال الأيام القليلة اللاحقة أعدنا كل الخطط اللازمة للسفر... ولم أعد أستطيع النوم من فرط الإثارة على نفسي. أما والدتي فكانت لا تزال تعاني من الصدمة جزئياً ولكنها استسلمت أخيراً لأمر السفر، وبعد وداع مثير ذرفت فيه الوالدة دموعاً غزيرة توجهت برفقة صديقي سالم إلى محطة السكة الحديد في الخرطوم لأخذ القطار صوب القاهرة.

كان بإمكانني كتابة قصة منفصلة تحكي تفاصيل رحلتي الأولى إلى أوروبا وما تبعها من مغامرات عديدة صاحبتي في الرحلة. وكنت أحتفظ بتأشيرة الدخول مع جواز سفري في حُرز أمين داخل قميصي طوال الوقت، فيما كنت أتلهف بشغف إلى رحلة الطائرة إلى بيروت. وما أن تحرك القطار صوب القاهرة حتى أمكنني رؤية نهر النيل وهو يتلوى كالأفعى متجهاً صوب مصر، وقد كانت لحظات سجلت لقطة فوتوغرافية بديعة استقرت في أعماق ذاكرتي. النيل هو سندي الروحي وقد آليت على نفسي ونذرت حياتي أن ألقى عليه النظرة الأخيرة وأقول وداعاً.

ما لبثنا أنا وسالم أن تعلمنا بأن مبدأ المشاركة هو الأنسب لنا في تعاملنا أثناء السفر. وبذا أمكن لما لدينا من مال أن يظل فترة أطول، فكنا نشارك الآخرين في التنقل بالتاكسيات، وعادة كانوا ممن هم أكبر سنّاً منّا، توفيراً للمال. وكان الآخرون أيضاً يتشاركون في ما بينهم في الخبز وحبّات الزيتون فيما كنا نتجه شمالاً من بيروت إلى دمشق وصولاً إلى تركيا. ومن بعدها بدأنا في استخدام طريقة الأوتوستوب للسفر بالشاحنات الكبيرة.

كنا أحياناً نعمل على مساعدة السائق في تعبئة العربة وشحنها قبل التحرك من مستودعات البضائع، وفي أحيان أخرى كان يسمح لنا بالصعود والبقاء على ظهر المركبة تحت أشعة الشمس التي تركت أثرها المباشر على لون أجسادنا فضلاً عن الغبار الكثيف الذي التف حولنا... وأخيراً وصلنا إلى تركيا. وأتذكر أن أحد سائقي الشاحنات كان يتكرم علينا بإمدادنا بحبات من فاكهة البرتقال أثناء سير العربة وبينما كان يخرج إحدى يديه عبر النافذة لإمدادنا بالبرتقال كان يتحكم بيده الأخرى في قيادة الشاحنة باذلاً أقصى جهده ألا تنحرف السيارة عن خط سيرها المحدد لها.

وكنت قد أوفيت بوعدى لوالدتي بالكتابة إليها في شكل بطاقات بريدية ولكنى لم أذكر لها هذا الجزء من الرحلة تحديداً.

كنا نقضى الليل في الفنادق الرخيصة السعر، كانت وجبات الطعام عادية أما المراتب فهي صلبة وغير مستوية، ولكننا كنا من الحيوية والنشاط بمكان. مدفوعين بحبوية الشباب وعنفوان الفتوة لم نكن نأبه للمتاعب كثيراً. ثم وصلنا إلى سكوبجي وهي إحدى مدن يوغسلافيا السابقة، وهناك سخر لنا الحظ فرصة طيبة فقد التقينا في أحد بيوت الشباب مع شاب سوداني اسمه جعفر في الثامنة عشرة من عمره وكان يرتدي ملابس جيدة، وفي نظر أعيننا الصغيرة كنا نعددها قمة في الأناقة. كان ينوي السفر إلى باريس ورغم أن لديه رخصة قيادة دولية لم يكن لديه المال الكافي لشراء سيارة للسفر بها، فاقترح علينا أن بإمكاننا جميعاً المساهمة بما لدينا من موارد مالية حتى يمكننا شراء سيارة قديمة للسفر بها ومن ثم بيعها في باريس.

كانت تلك مغامرة غير محسوبة العواقب بالنسبة لنا إذ من شأنها أن تستنزف كل ما لدينا من مال. وكان صوت والدتي يرن في أذني وقتذاك. «ماذا سيكون الحال إذا تعطلت العربى في الطريق؟ وماذا أيضاً إذا وقع حادث أثناء الرحلة؟ بل ماذا إذا كان جعفر محتالاً مثلاً...؟ وكانت هناك أيضاً زينب، التى ظلت تناديني كعادتها: «استمر في ما ترى... ستكون بخير... ثق في حكمك للأشياء!».

أخيراً كان النصر حليفاً لزينب فاكتملت الصفقة. كانت العربى صغيرة الحجم زرقاء اللون من طراز أوبل.. نالت حظها من الضربات المتعددة في جسمها الخارجى وداخلها يبدو عليه عدم العناية كذلك، ولكن ماكنتها استدارت من اللحظة الأولى. صاحب الجراج كان يبدو داهية مرواغاً ولكنه في النهاية رضى بتسليم ما يعادل مبلغ 58 جنيهاً استرلينياً مقابل العربى. وبدأنا رحلتنا. اتضح أن جعفر كان سائقاً ماهراً وقد مثل لنا دور الرئيس أو الأخ الأكبر سناً، وكان لا يخفى امتعاضه في حال عدم تمكننا من قراءة جيدة للخريطة القديمة التى كانت تعيننا على السفر. ولكي نتمكن من توفير المال فقد أمضينا ليلتين داخل العربى نفسها إذ كنا نستقر في مواقف السيارات لمحطات الوقود المنتشرة على طول الطريق ونقضى ليلتنا داخل السيارة... وأخيراً وصلنا باريس وبعنا العربى محققين ربحاً ضئيلاً!

قلنا وداعاً لجعفر، وقد أصبحنا الآن على مرمى حجر من انجلترا، ولدينا من المال فقط ما يكفي لأجرة الباخرة عبر القنال الإنجليزي. وما زلت أتذكر مبتسماً المواجهة التى جرت بينى وبين ضباط الهجرة في ميناء دوفر. ليس بسبب جواز سفرى وتأشيرة الدخول فقد كانت أوراقى منتظمة، ولكن بسبب تساؤلهم لي عن زيارتي لبريطانيا وماهو الغرض من ورائها. وكنت أعرف بالضرورة أنني بصدد الحصول على عمل لجمع بعض المال، فقررت أن أكون أميناً معهم فقلت: «ربما لأعمل في غسل الصحون»، فانفجر الرجل ضاحكاً بقوة، ثم نادى على أحد زملائه معلقاً: «استمع إلى هذا الشاب الذى قطع كل تلك المسافة من السودان ليعمل في أحد المطاعم هنا!».

واستمر في عدم كبح جماح ضحكهما الخافت بينما سمحا لي بالدخول إلى إنجلترا... وأعتقد أن إجابتي قد سجلت متعة خاصة لديهما في ذلك اليوم.

أما سالم قد أخبرهما بأنه بصدد زيارة لأقاربه في مدينة مانشستر. ومن ثم ركبنا القطار المتجه إلى محطة فيكتوريا في قلب لندن. ومن نافذة القطار كنت طيلة الوقت أشاهد الطبيعة. لقد بدت أوروبا أكثر خضرة منذ غادرنا تركيا متجهين شمالاً ولكني لم أشاهد أبداً ماهو أكثر إبداعاً وثراء من رؤية الغابات الممتدة والطبيعة التي تزين جنوب إنجلترا. كنت قد شاهدت صوراً عادية لتلك المشاهد أما رؤيتها على الطبيعة فكانت أمراً مذهلاً بحق. المدن الصغيرة والقرى المنتشرة على الخط كانت مما يسحر الأبواب فعلاً، وطيلة الرحلة حينما كان القطار يمر عبر بضعة صفوف من المنازل عن قرب كنت مأخوذاً بمشاهدة حدائق الزهور المزروعة بشكل يثير الإعجاب حول المنازل وكذا المساحات الشاسعة من الحشائش الخضراء التي اعتني بها بدقة فائقة. وكنت أشاهد أنواعاً متعددة من الملابس التي تم غسلها وقد نشرت لتتعم بالجفاف تحت وهج الشمس والرياح. كانت تلك المشاهد قد أعطتني انطباعاً بأن هؤلاء القوم من التحضر والنظام والترتيب العالي بمكان، وقد صدق حدسي فعلاً حينما عشت وتفاعلت معهم.

كانت محطة فكتوريا موقعاً يعج بالضوء والصخب المتصل وتشكل مكاناً مخيفاً لشابين صغيرين من خارج الحدود. محطة قطارات القاهرة هي الأخرى من الصخب بمكان، غير أن الناس هنا في خطوات متسارعة ويبدو عليهم القلق ويتملكهم الاهتمام بدقائق الأمور. تراهم في صراع مع الزمن على الدوام... يحملون المظلات التي تقيهم هطول الأمطار أثناء تحركاتهم إلى اجتماعات مهمة أو لمقابلة آخرين، وينظرون إلى ساعاتهم باهتمام مع تفحص جاد لجداول سير القطارات.

وكان خبير الأسفار حول العالم، جعفر، قد حذرنا من قبل أن محطات القطارات العالمية غالباً ما تكون مرتعاً خصباً للصوص والنشالين بصفة خاصة ونصحنا بأن نكون حذرين ومتقاربين من بعضنا وأن نحافظ على ممتلكاتنا وأن نراقب ما حولنا بحذر شديد. ولم يكن هناك ما يقلقنا كثيراً - حينما تعثر سالم مصادفة بإحدى السيدات المسنات تلقى منها اعتذاراً سريعاً في الحال كأنما كانت هي المخطئة! وكان يعلم أن عليه التحرك إلى محطة هيوستن لكي يمكنه السفر منها إلى مدينة مانشستر في الشمال، وهنا قلنا وداعاً لبعضنا على أمل أن نتقابل في ذات المكان تقريباً بعد فترة شهرين من اليوم. أما أنا، وقد أصبحت بمفردي الآن، فقد أصابني بعض التخوف والقلق وربما اعتراني نوع من الصدمة الحضرية إلى حد ما ولكنني شجعت نفسي بالقول إنني بمثل ما صمدت في القاهرة فما يمنعي من الصمود هنا؟ لقد اعتدت كفاية على ضوء المدن الكبيرة وفوضويتها وإخفاء الهوية وغير ذلك. وقد تملكنتي الشجاعة للمضي في هذه الرحلة الطويلة حتى النهاية من دون مشكلات تذكر. كما أنني اعتدت على ممارسة العمل الشاق، لذا حملت حقيبتي على ظهري وتوجهت إلى بوفيه المحطة المركزي.

كان ذلك جزءاً من خطتي. وبمثل ما وجدت عملاً في القاهرة بالكيفية ذاتها تماماً فقد كنت واثقاً من حصولي على عمل هنا... وبالنظر إلى الخلف بعد أن كبرت وتجاوزت الأربعين من عمري كانت تصيبي الدهشة والغربة كلما تذكرت مما كنت عليه من البراءة أو حتى السذاجة في مرحلة الصبا. كنت غريباً بكل معنى الكلمة في بلد لا صلة لي به، ليس لي فيه أصدقاء أو أقارب، بلا مأوى يضميني أو عمل أعتد عليه في معيشتي. فقط دريهمات في جيبتي من الممكن أن تساعدني على البقاء ليومين أو ثلاثة على الأكثر... كان ذلك هو كل شيء.

«هل يمكنني التحدث للمدير، من فضلك».

«أنا المدير، هل يمكنني مساعدتك» رد علي الرجل.

كان شكله يبعث على التخوف منه، ممتلئ الجسم كثيراً، محمر الوجه ولكنه يتحدث بنبرات لطيفة من صوته.

«إنني أبحث عن عمل يا سيدي، بإمكانني أن أغسل الأطباق».

«هل يمكنك العمل الآن؟ أنظر يا بني، نحن الآن مشغولون بشدة ولا توجد لدينا وظائف متاحة في هذا الوقت. دعني أخبرك ماذا تفعل. هناك في أسفل الشارع يوجد بوفيه آخر. إذهب إليه وأسأل عن جيمس، وقل له إنك موفد من قبل ديف. ربما أمكنه مساعدتك. أتمنى لك حظاً طيباً».

«لك جزيل شكري» رددت عليه.

أصابتنني الحيرة. كنت ممتناً كثيراً للرجل على محاولته مساعدتي، ولكن لماذا ناداني «إبنة»؟ لقد كانت تلك اللهجة مستغربة أيضاً. ليست مما كنت أسمعته في «هيئة الإذاعة البريطانية الخدمة العالمية»! هذا بلد غريب.

تعرفت على جيمس من الوهلة الأولى. كان رجلاً متوسط العمر تبدو على رأسه آثار الصلح، كان مشغولاً بتعاركه مع آلة صنع القهوة الضخمة أمامه وهو يعد الطلبات لإحدى الجرسونات الشابات. كان البوفيه تقريباً ممتلئاً إلى النصف بحوالي عشرة زبائن تقريباً موزعين في أرجائه. متشجعاً بما لقيته من مساعدة من ديف، توجهت مباشرة إلى الطاولة الرئيسة.

«نعم؟» نظر إلي بعينه الزرقاوين الضيقتين.

ليس مألوفاً أن الشبان الصغار في مثل سني ممن يلفون لتناول القهوة.

«أنا قادم إليك من ديفيد»، قلت له.

«ديفيد، ديفيد من؟» سألني.

«ديفيد. من بوفيه المحطة».

«آه، ديف! حسناً. ماذا تطلب؟»

«وظيفة» رددت عليه.

بدا كمن يضحك مع نفسه، فيما كان يتفرسني من أعلى إلى أسفل.  
«وظيفة! هكذا فقط! حسناً سنرى ما سيحدث. وعليك ألا تؤمل كثيراً في الأمر. لدينا ما يكفي من العاملين حالياً. من أي بلد أنت؟  
«من السودان» أجبته.

«السودان، أنت تبعد كثيراً جداً عن موطنك، يا بني. وأين تسكن؟»  
«لا سكن لي»، مؤكداً. «لقد وصلت للتو».

هنا وضع فنجان القهوة من يده على الطاولة بعناية شديدة ومال بجسمه قليلاً ليلقي علي نظرة أكثر قرباً. «حسناً، حسناً، حسناً. قطعت كل المسافة من السودان. «إلينا! لدينا زائر». هنا خرجت من داخل المطبخ سيدة شقراء طويلة القامة ترتدي مريلة بيضاء نظيفة. كانت أطول قامة من زوجها وترسم على وجهها تعابير الترحيب والانفتاح على الآخرين. أعجبت بها على الفور وسادني شعور بأنها ربما تعاطفت معي.

«هذا هو؟ ما اسمك يا إبنني؟»

«كامل»، أخبرتها.

«وصل كامل من السودان للبحث عن عمل. ألا يثير ذلك شيئاً؟ المشكلة في أنه، ليست لدينا وظائف في الوقت الحاضر».

كانت إلينا تتفحصني بعناية لبعض الوقت قبل أن تنطق بكلمة واحدة.  
بالنسبة لي كانت لغتها الإنجليزية أكثر وضوحاً وسلاسة من زوجها، وكانت كمن فتنت بوصولي الفجائي لهم.

«ليس لديك أي عمل يا عزيزي؟» سألتني.

«لا».

«وليس لديك أي مأوى لسكنك؟»

«ليس بعد».

«وهل عملت في أي مهنة من قبل؟»

«لا، ولكنني كنت أغسل الأطباق في المنزل، وأعرف جيداً كيف أرتب الكتب بشكلها الصحيح. اشتغلت في تعبئة زجاجات الزيت في بعض مصانع الزيوت، وبإمكاني عمل أجود أنواع الشاي بالنعناع في العالم. أنا معتاد على العمل الشاق».

كانت تبسم الآن في تلك اللحظات أما جيمس فقد قطب حاجبيه. أعتقد أنها كان مما يجب عليها أن تشاهدني وأنا أهدق النظر في وجهها لحوالي نصف دقيقة من الوقت. كان المقهى



يبدو منتعشاً بشكل معقول، ولكنني في اعتقادي أنها ربما ارتكبت مقامرة إذا اختارتني للعمل معها. «هل لديك أي نوع من التأثيرات يا عزيزي؟ وكمن من الزمن ستبقى هنا؟». «شهرين»، اعتقدت أن فترة شهر واحد لم تكن ذات فائدة بالنسبة لهم. نظرت إلى جيمس واتخذت قراراً سريعاً.

«يمكنه العمل من اليوم، إذ أن جيليان مسافرة في عطلة لمدة أسبوعين، كما أن فرانك أيضاً سوف يغادر عقب عودتها. ويمكنه أن يملأ هذا الفراغ». حاول جيمس أن يبدي احتجاجة على هذا القرار، إلا أن كلمات إلينا تتابعت متحدية إياه عدم موافقته على قرارها. وكان ذلك دليلاً واضحاً لتحديد من هو الرئيس الفعلي في المقهى!

ومرة أخرى تبرز إمراة لمساعدتي في طريقي. وفي محاولة لاسترجاع الذاكرة للوراء أعتقد أنها الغريزة الأمومية الفطرية تلك التي لعبت ذلك الدور، فبينما كنت ساعياً لتكوين شخصيتي كشاب يشق طريقه للحياة، كانت إلينا تنظر إلي كصبي صغير يبعد آلاف الأميال عن موطنه باحثاً عن عمل... ثم تطورت الأمور أكثر فقد وفرت لي إلينا غرفة صغيرة في الجزء الخلفي من المقهى، ليست مهيأة تماماً ولكن على الأقل كان هناك سرير للنوم وكرسي ثم غرفة حمام صغيرة مجاورة لها.

«يمكنك النوم هنا يا عزيزي ولن نقاضي عليها أجراً، كما أن هناك المزيد من الطعام بما يكفي لشاب صغير مثلك. نحن نسكن على الناصية القريبة من هنا، وسيأتي جيمس لفتح المحل عند السابعة صباحاً من كل يوم. ونذهب للكنيسة صباح يوم الأحد وهذا يعني بقاءك أنت وجيف للعناية بالمقهى لفترة ساعة.. وسيخبرك هو بما عليك أن تفعله».

لم اقابل جيف بعد، ولكن اتضح في النهاية أنه ابنهما ذو العشرين ربيعاً. لقد كان لطيفاً ودوداً كوالديه، واستمرت علاقتنا الودية مع بعضنا بشكل طيب، فكلما حانت لنا سائحة من الوقت كنا نمارس تسلية لعب الورق ونلعب كرة تنس الطاولة في الجزء الخلفي من المقهى. وفي كل المرات لم يكن يخفي دهشته من وجودي غير المتوقع في لندن عبر آلاف الأميال من بلادي بحثاً عن عمل! كانت ساعات العمل في المقهى طويلة، ولكنني تعلمت الكثير أثناء خدمة الزبائن. كان المقهى يغلق أبوابه بعد التاسعة مساءً بقليل، وكنا نعمل طوال تلك الفترة ونمنح فترة ساعة واحدة للغداء، ثم فترتي راحة لحوالي عشرين دقيقة لكل فترة.

مقارنة بما اعتدت أن أؤديه من أعمال في كل من الخرطوم والقاهرة، أعتقد أن الأمر هنا كان أكثر سهولة بالنسبة لي. لقد كان الأجر مجزياً، وبما أنني كنت أتلقى وجباتي بالمجان وكذلك السكن الذي توفر لي بلا مقابل فقد أمكنني أن أوفر كل مدخولاتي تقريباً. كان غرضي الأساس أن أبين لكل من جيمس وإلينا أن بإمكانني العمل بكل طاقتي وبلا أية شكوى، كما يمكنهم التأكد بأنني سأكون مصدر ثقتهم. وكنت في كل الأوقات أستمع إلى كلمات والدتي وزينب، تدور في رأسي، وهما تطلبان مني أن أعمل بجد وعزيمة وأن أكون أميناً ما استطعت. وأعتقد أن كلاً من

جيمس وإلينا قد بدا عليهما الإعجاب بأسلوبني في تضيئة أوقات فراغي. كنت أحياناً أمارس لعبة تنس الطاولة مع جيف، كما أمضي ساعات من وقتي داخل غرفتي الصغيرة... أكتب الكثير من الأشياء في مفكرتي. وفي أحيان أخرى كنت أتردد على المتحف البريطاني وأتجه مباشرة إلى قسم الآثار والمتحف ذات الصلة بالنيل في كل من السودان ومصر.

كنت أتجول في ردهات المتحف بشيء من النشوة وبأعين متيقظة فاحصة أتمعن في التماثيل المنتشرة والعروض المدهشة للكنوز والمقتنيات التي تم العثور عليها داخل الأهرامات. لم أكن وحيداً أيضاً فقد سادت كل من جيمس وإلينا قناعة بأن الحنين إلى وطني يساورني أحياناً فكانا يدعوانني لزيارة منزلهما لمشاركتهما تناول الوجبة المسائية المتأخرة في أمسيات يوم الأحد، إذ كانا يعدانني بمثابة إبنهما الأصغر. ومنهما تعلمت تقدير أهمية وجبة الأحد المسائية التقليدية لديهم، وهي وجبة تتكون غالباً من لحم البقر المشوي والبطاطا والبطاطا المقرمشة والحلوى المصنعة في يوركشير.

طيلة فترة عملي في المقهى كنت ألتقي دروساً مكثفة عن ثقافة الشعب البريطاني وتعلمت أشياء كثيرة عن كيفية التعامل مع هؤلاء الناس. أتذكر حادثة وقعت حين حضر شاب وشابة إلى المقهى وجلسا على المقاعد الموجودة خارج المقهى ثم طلبا قهوة، ثم طلب الشاب نوعاً من الحلوى. وعند إحضاري لطلبتهما نفى الشاب أن يكون قد طلب الحلوى فأنبرت له الشابة مؤكدة أنه طلبها! ومن قبل كان جيمس قد أخبرني بأن القاعدة الذهبية في التعامل التجاري في إنجلترا أن «الزبون دائماً على حق»، لذا أخبرت الشابين أن ليست هناك أية مشكلة في استرجاع الحلوى. وهنا ظهر الغضب على الشابة واحتدمت مع صديقها بالصراخ وحينما ارتفعت إحدى الأيدي كانت الطلبات التي كنت أحملها في يدي على وشك أن تتدلق عليها مباشرة لولا حرصني الشديد لتفادي ذلك بمسافة ضئيلة للغاية مبتعداً عنها في الوقت المناسب، وأعتقد أن ذلك التصرف قد ترك أثره عليهما فهدأت تأثرتهما وتوقفا عن العراك معتذرين لي عما حدث. وعقب ذلك أصبحا زبوين منتظمين في المقهى وكانا كريمين معي في ما يقدمانه لي من البقشيش الذي كنت أضعه بدوري في الحافظة العامة للمقهى لكي يتم توزيعه بالتساوي بين العاملين. وكانا يستفسران دائماً عن كم أبلغ من العمر ومن أي بلد أتيت، ولكن جيمس كان قد حذرني بالأقدم الكثير من المعلومات للزبائن وذلك لدواع أمنية. لقد مثلت تلك الحادثة الصغيرة درساً ذا قيمة كبيرة بالنسبة لي، إذ تبين أن أكون لطيفاً ومؤدباً مع الزبائن ملتزماً الهدوء الذي من شأنه أن يساعد في تهدئة وإطفاء الكثير من الحوادث التي كان ممكناً أن تكون نتائجها كارثية.

في نهاية المطاف سعدت كثيراً بإقامتي مع تلك الأسرة والتي امتدت لحوالي شهرين ونصف الشهر، وذلك معناه أنني سوف أتأخر عن موعد الدراسة في الخرطوم إذا بقيت أكثر من ذلك، فكان لزاماً علي أن أغادر إلى البلاد من دون مرافقة سالم، وعلي أية حال لم أكن قلقاً هذه المرة لأن بحوزتي ما يكفي من المال للسفر براً وجواً. حينما حان وقت السفر تجمع كل من جيمس

وإلينا وجيف وأربعة من زملاء العمل أيضاً في محطة فيكتوريا، وأهداني جيمس معطفاً من الجلد وبعض المأكولات داخل حقيبة صغيرة. وما أزال أحتفظ لهم بصورة ذهنية رائعة ظلت مستقرة في أعماق ذاكرتي حينما كانوا على الرصيف يلوحون لي بأيديهم مودعين والابتسامة على شفاههم جميعاً وقد بدأ القطار يعلن انسحابه بهدوء من محطة فيكتوريا... ولم يحدث أبداً أن نسيت مدى الدفء والمودة اللذين أبدياهما تجاه مسافر صبي جاء إليهم من دولة أجنبية بشكل غير متوقع.

عدت الآن إلى بلادي وأنا في السادسة عشرة من عمري، ورغم أنني ما زلت «الإن» المدلل في الأسرة، فإنني أحسب نفسي شخصاً تزود بمعرفة مناسبة لما يدور حول العالم بما تجمع لدي من ذخيرة كافية من المعلومات في هذا الصدد. لقد كنت مجتهداً بشدة في دراستي وكابدت مرات عدة قاسية في عمالة الأطفال بغية مساعدة أسرتي، وأخيراً سافرت في رحلة عمل ناجحة إلى أوروبا. وربما أمكنني الآن وبشكل معتدل القول إنني أصبحت راشداً وأمتلك من مفاتيح الثقة ما يفوق سني تقريباً، ولكن الدروس التي تعلمتها من تلك التجارب الحياتية كانت بحق سبباً في تولين نظرتي للحياة وشخصيتي على السواء. بما أنني جازفت بالسفر على أسطح القطارات وهي تتلوى وتتأرجح في سيرها، وقمت بإعداد وجبات الأكل والشاي لطاقم الباخرة نظير إعفائي من رسوم السفر، وكذلك القبض علي من قبل بعض «القراصنة»، ثم العيش لأسبوع كامل في معسكر للعرب البدو، فضلاً عن معاناتي في العديد من المآسي العائلية التي ألمت بي منذ صغري، كان كل ذلك قد سبب لي عائقاً كبيراً لمواجهة الحياة ومعاناتها، ولكنني تمكنت من البقاء والصمود.

ولاحقاً كان قد تم القبض علي من قبل جهاز الأمن في عهد النميري! كنت في سنتي الدراسية النهائية في المدرسة حينما طرق شخصان بملابسهما الأنيقة باب الفصل وتوجها للمدرس بسؤالهما «نحن نبحت عن كامل إدريس، أين هو؟»، هنا وقفت على الفور مرتجفة الركبتين. الرجلان لم يقدموا أنفسهما ولكن الجميع كان على علم بهويتهما! كانا يملكان ذلك الحس من الثقة وروح التهديد مما لا تخطئه العين.

«تعال معنا من فضلك». لم يكن ذلك رجاء بل أمر، ولم أشاهد في حياتي صفّاً من التلاميذ أطبق عليهم الصمت كما شاهدته وأنا في طريقي خارجاً مع هذين الرجلين. أخذاني بسيارتهما إلى معسكرهما الذي يبعد بضعة كيلومترات حيث تم حجزني هناك لمدة يومين. كرئيس لاتحاد الطلاب كنت دائماً أعتقد أن شيئاً كهذا متوقع الحدوث وظللت ذهنيّاً مهياً لذلك بشكل أو بآخر. وفي النهاية لم أكن قد فعلت شيئاً خطأ أو ما يمكن وصفه بالتخريب سوى إشرافي على ندوات النقاش والاجتماعات السياسية التي كانت تعقد في المدرسة. رفضت أن أتناول أكلاً أو شرباً خلال اليومين اللذين كنت محتجزاً خلالهما للتحريات، وأخيراً أطلق سراحي وغادرت إلى المنزل. كان لتلك الحادثة تأثير حاد على معنوياتي ولكن من دون أي تهديد بدني، وأعتقد أن ذلك ربما كان

تحذيراً موجهاً لي منهم. ولكن أكثر ما أغضبني هو أنهم تمكنوا من دخول منزلي وصادروا العديد من كتيبي ومستنداتي التي لم أحصل عليها أبداً.

عقب ذلك أصبحت مهياً للمرحلة المقبلة... مرحلة الجامعة. كان يتملكني تفهم غريزي بأن يكون لدي هدف واضح في مسيرة حياتي، وأن الإحساس بالغرض المطلوب من شأنه أن يساعد كثيراً في إنجاز النجاح الأكاديمي. وكنت ملماً بشكل جيد بمصير الطلاب الذين تستغرقهم الحياة الجامعية وبفلسفتهم التي تنادي بـ «دعنا نرى ما سيحدث لاحقاً»، وهي نظرة تخلو من أي طموح واضح أو توقعات مهنية محددة. وكما بدا لي أنهم كانوا سوف يقبلون بما تسفر عنه الأيام في مستقبل حياتهم. أما بالنسبة لي فقد كنت أود التحكم في مصيري ومستقبلي، وقد تبدو تلك خطوة تحفها الغطرسة أو المجازفة، ولكني آليت على نفسي بارتكاب المقامرة. كان لدي طموحان محددان أولهما أن أكون أستاذاً جامعياً مرموقاً بدرجة الأستاذية على المستوى الدولي، وثانيهما أن انضم لهيئة الأمم المتحدة في وظيفة قانونية قيادية أو ذات وزن دبلوماسي رفيع.

وكالعادة فإن الأسرة هي دائماً من يحفز خطواتي ويجعلها أكثر وضوحاً. وكنت دائماً عميق الثقة بوالدتي وجدتي زينب. أشعر بالراحة والاطمئنان في حضرتهما وأثمن عالياً حدة تفكيرهما ونصائجهما. أعتقد أن جدتي كانت حكيمة في مجاملتها لوالدتي، ولكن أيضاً كانت تمتلك الوعي الذكوري الذي يمكنها من إدراك ما يحدث في العالم الخارجي وما يعتوره من طبيعة تنافسية ومتناقضة. كانت قد استمعت بهدوء شديد إلى جميع أحلامي حول المستقبل فنصحتني بأن أدرس الفلسفة والعلوم والقانون.

«يمكنك أن تفتersh الغبراء وتلتحف السماء، ولكن لا يمكنك أن تحجب أشعة الشمس بقطعة بطانية»، تلك كانت خلاصة تجربتها الشخصية. لا أدري بالضبط ما كانت تقصده بتلك المقولة ولكن في اعتقادي أنها محاولة منها لتخبرني: إذا أردت أن تكون ناجحاً في حياتك عليك أن تتملك مؤهلات في صلابة الفولاذ وأن تعمل باجتهاد وقوة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

لاحقاً، وبعد أن صرت أكثر رشداً علمت أن هناك تفسيراً أكثر قوة لكلماتها. لقد كانت دائماً تحاول أن تجعلني أبحث عن الحقيقة بنفسني من دون الدخول في مجادلة مع الله. ومنذ تلك اللحظات التي استوعبت فيها ذلك المعنى حاولت أن أضعه في ميزان تعاملني في كل أوجه حياتي.

بودي التفكير بأن ذلك كان قد ساعدني كثيراً في إضافة درجة من التواضع على شخصيتي، وذلك بالنظر إلى ما هو خلف المراثيات والقبول بأن البشر كافة يعترهم الضعف ومحدودية الإمكانيات، وعلياً أن نقدم المزيد من الدعم الخيري وتفهم حاجات الآخرين بصرف النظر عن أعراقهم وأديانهم وأنواعهم.

ما زالت والدتي وزينب تشكّلان حضوراً ذهنياً متصلاً في مخيلتي، وحتى الآن وقد بلغت من الرشد مبلغاً أجد نفسي غالباً ما استدعي روجيهما في مخيلتي طالباً النصح منهما. ولا أجد أي

حرج في أن أقر بهذا الأمر - للملحد أن يسخر كما يشاء، أما إذا كنت تؤمن بحياة ما بعد الموت، كإيماني أنا، فإن ذلك يبدو كلاماً عاقلاً متزنًا.

أعتقد أنهما كانتا ستشعران بالفخر بما كنت أؤديه من إنجاز لأنني كنت أدرس في جامعتين في الوقت ذاته. وكنت أدرك أن ذلك كان عملاً محفوفاً بالمخاطر إذ أن مجرد الحصول على شهادة واحدة كان يتطلب مشقة وجهداً. في جامعة الخرطوم كنت أدرس القانون وفي جامعة القاهرة فرع الخرطوم كنت أدرس الفلسفة وعلم النفس، إضافة إلى بعض الدراسات من العلوم السياسية. كما شرعت أيضاً في تعلم اللغة الإغريقية القديمة (حتى يتسنى لي قراءة أرسطو وأفلاطون من مصدرهما الأساس)، وكذلك اللغة الفرنسية.

تعرفت على بعض الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أن ذلك لم يكن من الحصافة بمكان لأنني حتماً كنت سأقع بين مدرستين، ولكنني كنت امتلك مفاتيح الثقة الكاملة والدوافع اللازمة لتأكيد أنني إذا التزمت بأدق التفاصيل يومياً فسأصل إلى النجاح المنشود. ولتمكنيني من إجراء التوازن المطلوب بين الدراستين كان يتطلب مني أن أقلل من علاقاتي الاجتماعية إلى حدها الأدنى، وأن أفرض برنامجاً تقشفياً صارماً من الانضباط خلال السنوات الخمس المقبلة. ابتدعت نظاماً صارماً شبيهاً بما كنت أفعله اثناء دراستي قبل الجامعة، وهو مبني على أساس مواصلة التحصيل لفترات طويلة مع فترات قصيرة للراحة. وكنت أعلم أن بإمكانني القيام بذلك إذ أن الساعات المملة التعسة التي أمضيها عاملاً في المصانع قد عجمت عودي وتركت أثرها في تحملي للمكاره والشدائد. فضلاً عن ذلك فأنا في هذه المرحلة من حياتي إنما أعمل لمصلحتي ومستقبلي الشخصي، وليس من أجل فتات من الأجور. وعملاً بقاعدة إذا كانت العبقرية تمثل واحداً بالمائة وأن الإلهام والكبح الدؤوب يكملان نسبة التسعة والتسعين بالمائة، فقد نذرت نفسي بالتمسك ببرنامجي.

كانت دراستي في كلية الحقوق تتلقى دعماً من حليف سري! كان العم عبدالوهاب هو كبير الحراس في كلية الحقوق بجامعة الخرطوم. كان رجلاً طويلاً ذا شخصية مهابة، ويهتم بمظهره لحد كبير فكثيراً ما كنا نراه بجلبابه ناصع البياض وعمامته، وكنا نعلم أن احترامه مطلوب منا جميعاً إذ كان وبكل المقاييس شخصية قوية ومؤثرة. أعتقد أنه كان يرى نفسه في شكل ناظر المدرسة فكثيراً ما كان يبحث عن الطلاب المشاغبين، فكنا أنا وأصدقائي نتطلع دائماً لئن نكون عند حسن ظنه بنا. وأنا شخصياً كنت أمنحه اعتباراً خاصاً. سبق أن أخبرني والدي في الماضي عن دليل لكشف شخصية الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، يمكن معرفته أحياناً من طريقة مشيته في الطريق. العم عبدالوهاب اعتاد المشي في الطريق بخطى متسارعة وهو مرفوع الرأس ممشوق القوام، وكان قد أكد بوضوح شديد في الماضي أن لا وقت لديه البتة مع الطلاب الكسالي أو عديمي الإحترام.

حدث صباح ذات يوم وعلى حين غرة أن استدعاني. وكنت أعتقد أنه سيخرجني من دائرته.

كان حديثه أكثر سرعة من وقع خطواته في الطريق وكان علي أن أستمع باهتمام شديد. ماذا عساي فعلت؟ اتضح أخيراً أنه كان يراقب بقاءنا أنا وزملائي داخل المكتبة حتى بعد موعد إغلاقها بفترة طويلة في تلك الأمسية، وقال لي إنه يود مساعدتنا في هذا المنحى. كان هناك مطبخ كبير مجاور لغرفة العمال بينما كان مسكنه الخاص أيضاً مجاوراً لذلك المطبخ. وكانت لديه غرفة خالية وعرض علينا أن نستغلها للمذاكرة إذا أردنا، وحتى بإمكاننا المبيت فيها من دون تعرضنا لأي نوع من الإزعاج. اتضح أن الغرفة ذات مساحة كبيرة وتقع مباشرة خلف حجرة العمال.

من هناك كان العم عبدالوهاب يعد الشاي واطباق البسكويت للمعلمين ويغسل الصحون. وكنا كلما أتيح لنا البقاء في الغرفة يأتينا بصرامته المعهودة حاملاً حزمة مفاتيح بيده واضحاً أصبع يده الأخرى على شفتيه دليل السكوت المطبق، قائلاً: «تذكروا أنني أقدم لكم خدمة كبيرة». كنا نستغل الغرفة بقدر حاجتنا إليها ثم نغادر في النهاية بهدوء شديد. ولاحقاً، بعد بضع سنوات من تخرجي عبرت له عن شكري كثيراً بإرسال أطفاله بعض الهدايا من نيويورك، مع نظارات شمسية وأخرى طيبة للقراءة والتي أعلم أنه يحتاجها.

لم أجعل دراستي قاصرة فقط على القانون بل كنت نهماً في تناول العديد من الدراسات. كنت بصدد البحث والتقصي واكتشاف المجهول، بدلاً من التوقع في نطاق التقليدية الجامدة. كان أحد المرشدين بالنسبة لي هو الفيلسوف الفرنسي مونتيني الذي يملك نظرة مباشرة أكثر تطوراً وحدثة للحياة إذ يقول:

«إذا درست، فإن الشيء الوحيد الذي سأتعلمه هو ذلك الذي يتيح لي كيف أعرف نفسي ويعلمني كيف أعيش جيداً وأموت بشكل طيب».

كنت أعتقد أن تلك نصيحة وجدت صدى في نفسي، وعليها اعتمدت متمسكاً بنهجي في الحياة. إن إتاحة الفرصة للدراسة في الوقت الذي يكون كل الناس قد توجهوا إلى منازلهم هو مكسب كبير، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن أكون منعزلاً عن الآخرين أو ناسكاً نذر نفسه للعبادة فقط، لذا واصلت أيضاً متابعتي لما يجري من أحداث سياسية يومية. لم أكن أتبع لحزب سياسي محدد، وكنت أتطلع إلى التفكير بأن لي وجهات نظري وأفكاري المستقلة، حتى أجد متعة في النقاش وتبادل الأفكار والآراء الحرة في أوساط الجامعات. وبالنظر للوراء كانت تلك فترة ثرة بالنقاش تسودها العصبية المحمومة. بدأت في تكوين نظرتي الخاصة الدينية والسياسية عن الحياة، وعن الفلاسفة القدماء خاصة بلاتو وأرسطو، وكذلك حول الحكمة في التصوف، كلها أفكار كانت تتراقص في آفاق عقلي.

الخلفية التي كنت أحملها كانت سياسية. كانت البلاد قد نالت استقلالها من ربة الحكم الثنائي البريطاني - المصري في العام 1956 قريباً من العام الذي ولدت فيه، ومع الزمن وكبر سني وعقلي بدأت أسمع عن الثورات التي انفجرت وعن الحكومات التي تعاقبت على الحكم خلال السنوات التي تلت ذلك. وكشاب في العقد الثاني من عمري أمكنني معرفة أن ما يحدث



من توتر بين الشمال والجنوب في بلادي هو المشكلة الأساس. أصبحت الآن كبيراً بما يكفي لتقدير أهمية ما كان يحدث في البلاد، وحينما استولى جعفر نميري على السلطة في العام 1969 وقدم وعده بوقف الحرب الأهلية، تنفست الصعداء.

كان النميري قد واجه معارضة شديدة في بداية حكمه، وفي العام 1971 تم القبض عليه في انقلاب عسكري شيوعي، ولكنه تمكن من الهرب عبر حائط القصر، وفي نهاية الأمر قام بإعدام قادة الانقلاب. أعتقد أنه لقي نوعاً من السند الشعبي في ذلك الزمان لأنه وعد الناس بالتصدي لما يجري من توتر ونزاع بين شمال البلاد وجنوبها، فضلاً عن وعده بإجراء إصلاحات جذرية.

بما أن والده كان موظفاً في البريد، وكان هو يعشق رياضة كرة القدم ولا يميل لمظاهر البهجة والاستعلاء (كان يصر على قيادة سيارته بنفسه أثناء فترة حكمه) فقد شكل ذلك إضافة لمعرفة شخصيته. بدأ باتخاذ أجنداث وتوجهات اشتراكية مماثلة للخط الذي كان يتبناه عبدالناصر في مصر، إذ عمل على إعادة تشكيل الاقتصاد بدءاً بتأميم البنوك والشركات الصناعية، واتجه إلى تشجيع الاستثمار السوفيتي في البلاد وما يلي ذلك من مساعدات يقدمها الروس.

خلال السنوات العشر الأولى من حكمه سادت البلاد حالة استقرار نسبي، ولكنه سرعان ما اصطدم بعنف مع الرئيس الليبي معمر القذافي الذي حاول الإطاحة به. وحدث مرة أن وصف الرئيس الليبي بأنه «شخصية مزدوجة وكلا جانبيها شرير!». ومع أن القذافي كان رجلاً مهووساً بالاشتراكية إلا أنه لجأ إلى الأميركيان متحالفاً وقد أغدقوا عليه الكثير من المساعدات والأسلحة نظير مساندته لمصر في مساعيها لتحقيق السلام مع إسرائيل. لا شك أن النميري كان قد ارتكب العديد من الأخطاء، إذ كانت بعض مبادراته الأخيرة سبباً في إشعال نار الحرب من جديد - وربما لم يمكنه الأمر من دراسة القضية بشكل حصيف كفاية. ليس من شك في أن النميري كان ديكتاتوراً ولكن لا يمكن نكران أنه وضع بصمات طيبة له على البلاد مقارنة بالآخرين، وكنت أنا وغالبية زملائي ممن عاصرتهم قد حاولنا فتح بعض قنوات للحوار والنقاش بشكل واضح ومكشوف. كنا نعيش في مجتمع متعدد الطوائف والتوجهات السياسية بحيث أن كل الآراء على اختلاف توجهاتها كانت مقبولة غالباً، وكان التركيز دائماً على منتصف الطريق، الوسطية في كل الأمور.

كنت قادراً على التمسك بما وضعته من جدول مكثف لبرنامجي الدراسي والبحث الفكري، بينما سمحت لنفسني أيضاً بفترات متقطعة من الفراغ بغية التواصل الاجتماعي والراحة الذهنية. كنت قد غادرت منزلي وسكنت في داخلات الجامعة وأسكن بشكل مريح مع إثنين من زملائي المقربين في غرفة طيبة تسمح لنا بالنوم والاستذكار معاً. وكانت رفقة ممتعة بالنسبة لي ولكني كنت أقضي معظم يومي الدراسي بين المحاضرات أو في المكتبة أو في غرفة عم عبدالوهاب حيث يمكنني الاستذكار بهدوء شديد مع بعض الزيارات العائلية المتقطعة في عطلات نهاية الأسبوع. وكانت والدتي دائماً مهتاجة وتحدث ضجة كبيرة في كل مرة بشأن حالتي الصحية



وعادات الأكل التي اعتدت عليها أثناء الدراسة الجامعية. وكنت عادة ما يزداد وزني في المنزل نتيجة المأكولات التي كانت تعدّها لي، أما الآن فهي ثائرة لاعتقادها بأنني لا أهتم بغذائي بالشكل المطلوب في الجامعة. أما حقيقة أنني أدعم نفسي بنفسي فقد كانت على الدوام مصدر فخر بالنسبة لي. لم أعد بعد أمارس عمالة الأطفال، ولكنني الآن أنقاضي أجراً لأبأس به نسبياً نظير كوني صحافياً غير متفرغ، فقد كنت أعد المقالات حول الأحداث السياسية الجارية والموضوعات ذات الأهمية لبعض الجرائد والمجلات في البلاد. وكنت حريصاً على ألا تكون مقالاتي مثيرة للجدل أو ذات طابع قاس. واعتقد أنها ساعدتني كثيراً في تبيان نظرتي وفلسفتي للحياة.

كنت قد ولدت مسلماً واثناء دراستي المكثفة لمادة الفلسفة كان حتماً علي الإقرار بأن كبار الفلاسفة في العصور القديمة كانوا قد تركوا أثرهم في نظرتي للحياة. ما يعتقدّه ارسطو بأن الفكرة أو المنطق هما أعظم أنواع السعي والهمة لدى الإنسان، هو قول مثير للاهتمام والتأمل. تماماً على عكس فكرته حول النسبية الأخلاقية ومعتقدّه بأن الحقيقة أياً كان اعتقاد الفرد حولها هي كما هي. وعلى أية حال فإن أفلاطون هو من أثار اهتمامي أكثر. إن نظريته حول المطلق التي تنادي بأن كل شيء على الأرض هو انعكاس غير كامل لجوهره الذاتي وأن الحياة ليست أكثر من سجن للروح داخل الجسم، قد وجدت صدى عميقاً في جنباتي متجانساً مع معتقداتي الدينية. فإذا قمنا بمتابعة هذه الفكرة حتى خلاصتها المنطقية، إذن فالروح موجودة قبل الجسم وبالتالي فإن كل المعرفة ببساطة ليست أكثر من حالة تذكّر. ومثال لذلك حينما تم توضيح نظرية فيثاغورس كانت ردة الفعل الطبيعية هي القول: «بالطبع». أحببت أيضاً الطريقة التي أوضح بها أفلاطون غالبية أفكاره الأساسية باستخدامه للصور والاستعارات، وخاصة في قصة الكهف، والنار، والظلال، والعالم غير المرئي من وراء ظهر المراقبين.

وهناك منتج جانبي أيضاً استفدته من دراستي المكثفة للفلسفة هو اكتشاف عالم التصوف، ذلك العنصر الروحاني في الإسلام والذي قدم إلى السودان في القرن السادس عشر. وكنت معجباً بما يحمله الأكاديميون المتصوفون من سمات التأدب والتواضع والتسامح، أمثال الشيخ العركي الريح العليش (الذي كان صديقاً حميماً لي، وقد تم تعيينه لاحقاً في وظيفة كبير القضاة في محافظة الجزيرة في السودان). وتحديداً أعجبت كثيراً بالشيخ الوقور ذي التأثير القوي دفع الله الصايم ديمه. هؤلاء الرجال وآخرون من شاكلتهم أيضاً كانوا يتحلّون بالوقار والهيبة وراحة النفس والتوازن الخلقي مما جعلهم ينادون بأنفسهم عن الآخرين، ومع ذلك لا تجد في تصرفاتهم ذرة من الغرور أو الكبر. يسودهم التواضع والانكسار وحب الخير وطيب العلاقة مع الآخرين، لذلك أتيح لهم أن يجدوا القبول المقنع من المحيطين بهم كافة.

كان الشيخ دفع الله رجلاً طويل القامة تسوده الهيبة ودوداً في تصرفه مع الناس، وذا حُلُقٍ قمة في الرفعة والسمو. كان لديه الآلاف من المريدين وكانت دياره دائماً مفتوحة ومرحبة بالجميع. وكنت معجباً كثيراً بما يملكه من انفتاح على الآخرين وتسامح شديدين. في اعتقادي

أنه لا يوجد أي أمر استثنائي بشأن تلك النظرة في الدين عقب أن تم قبول المسيحيين واليهود كإخوة نتشارك جميعنا في الجذور الإبراهيمية العظيمة في العقائد التوحيدية الثلاث. ذات مرة وفيما كنت في زيارة للشيخ دفع الله في «المسيد» كان هناك رجل ثمل يكثر من السقوط على الأرض. وحينما رأى الحاضرون في ذلك المشهد عدم وقار لمجلس الشيخ وطالبوا بإخراجه من الدار، تدخل الشيخ وطالبهم بالهدوء وأن يأخذوا الرجل إلى سرير في غرفة مجاورة. لقد أذهلني كثيراً أن أرى في ذلك التصرف المشوب بالرحمة الإلهية ووددت أن أعرف المزيد من تلك الخصال الحميدة.

اتضح لي أن الصوفية ذات أعماق ضاربة في عمق الإسلام. عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بحوالي مائة عام تقريباً انتشرت في أرجاء المعمورة مجموعات من المسلمين ممن يسمّون أنفسهم «العاشقين في الذات الإلهية». وكان يطلق عليهم «الرخالة» أو «المسافرون» أو «قاطعو المسافات من أجل الطريق الروحاني». (البعض يسمونه «الخروج في سبيل العودة إلى الله» - المترجم). كانوا يحترمون القوانين الخارجة عن شريعة الله ولكنهم دائماً يؤكدون على تقارب أكثر التصاقاً مع الذات الإلهية، ذلك الهيام السري الذي يحتاج القلب شوقاً إلى الخالق. وقد أطلق لاحقاً على هؤلاء لفظ «الصوفية» ربما لنقاء قلوبهم وسريتهم (الصفاء) أو نسبة لملابسهم الصوفية البيضاء (الصوف) دليل التقشف. وكانت خلاصة دعوتهم هي العشق والاستغراق وفتح القلوب تقرباً إلى الله. وظلت هذه الجماعات تعنى بتشييد الجسور بين الثقافات المتعددة والأديان، مع اعتبار أن كل البشر رجالاً ونساء هم إخوة في الله. وكان فقدانها للعقيدة والتفكير الوسطي في رأيي هو ترياق ممتاز للمتطرفين العنفيين في الشرائع السماوية الأخرى. واتضح لي أن التشديد في عمليات التبشير والعدوانية القوية في عدم التسامح لدى بعض المنتسبين إلى الديانات الأخرى أمر غير مقبول ويعد لعنة للشخص المفكر.

بعض تعاليم الصوفيين مبنية على روح الدعابة والحس العام، ولديهم المئات من القصص التي تشير إلى تكملة الحقائق العميقة لمعتقدهم. ظلوا يؤكدون على الدوام على مبدأ التوازن، ينتهجون الوسطية من دون ميل إلى التشدد الحاد. وهذا مثال لحكاية صوفية:

حضر امرأة ورجل ذات يوم إلى غرفة القاضي نصرالدين.

تقدمت المرأة بشكوى للقاضي قائلة: «أثناء مروري في الطريق العام، فإذا بهذا الرجل، الذي لا أعرفه ولا يعرفني، هجم علي وقبطني عنوة! وبهذا أطالب بالقصاص».

«أتفق معك في أنك تستحقين القصاص»، رد عليها نصر الدين

بقوله: «إذن فأنا أمرك الآن بتقبيله لأخذ حقه منه».

هذا الحشد من الحكاوي والقفشات المرحية إنما يستخدمها الصوفيون لنشر رسالتهم الفكرية الواضحة وتميرير الحكمة نحو الأجيال المقبلة، والمساعدة في تناغم التوتر وتهدة الخواطر بين

مختلف الثقافات. وهذا ما جعلني أحترم معتقداتهم. إنه «أكليشيه»، القول إن القرن الواحد والعشرين الآن يستصرخ الحصول على نظرة مثل تلك، حيث يبرز التواضع والتسامح بأنهما الأعمدة القوية للعقيدة.

بالنسبة لي فإن قناعتني أن الصوفية هي التي تحمل دليل طوق الأمل للمستقبل. وبما أنها معتقدات ضاربة في القدم، فلديها سجل حافل بالفخار لمن ظلوا يتبنونها من المفكرين الأحرار عبر كل مشارب الحياة وأوجهها.

ومن كوكبة القدماء الذين احتوتهم الصوفية في العالم العربي كان كل من الشاعر الكبير ابن الرومي، والغزالي، والعربي، وعمر الخيام، وفريد الدين عطار (الذين لاحقاً وجدت قصصهم تكيفاً مع ما كتبه شوسر في كتابه حكايات كانتبري). وفي الغرب وجد الفكر الصوفي حظه من الإعجاب والتبني، أمثال سيرفانتيس ووينستون تشرشل وسانت فرانسيس أوف أسيسي وسكرتير الأمم المتحدة الراحل داج همرشولد. وما أزال على قناعة بأن أولئك الذين يودون فرض افكارهم ومعتقداتهم على الناس الذين يسعون إلى الحوار بالوسائل السلمية، فإن الصوفية ستكون إحدى الحلول الكبرى للتفاهم.

البوابات الفكرية ظلت مفتوحة وكنت أستمتع بتلك الساحة التي تسمح لي بعرض بضاعتي على أساس من التجربة وليس فقط على أساس من عقيدة جوفاء. الاعتقاد الصوفي الجازم لدى الفرد منهم بأن الله ليس بعيد المنال أو مما لا يمكن الوصول إليه، وأن تلك التجربة التي تمر بداخله يمكن إنجازها في حياته، كان ذا أهمية كبيرة. إضافة إلى ذلك فإن تعاليم سانت أوغستين في مبادئ العقيدة قبل السبب وتوضيحه لكيفية أن الروح تتهافت إلى رجوعها إلى موطنها في السماء مما يأتي متسقاً مع هذا التوجه. في كل الزمن كان عقلي متحركاً نحو الخلاصة الحتمية، وحتى أنني عشت لحظات مع نظرية إسحاق نيوتن في حديقة منزلنا الصغيرة. كنت أكل بعض التمر ثم أرمي النوى على الأرض بلا مبالاة. وبعد أشهر بسيطة رأيت شجرة نخيل تطل برأسها إلى أعلى في الحديقة.

لم أكن بحاجة إلى كتب الفلسفة لكي أعرف منها أن هناك قوة في الطبيعة تبقى مستقلة عن تدخل البشر. ماذا وراء معجزة النمو هذه؟

من أو ما هي القوة التي جعلت هذا الكون في حركة دائمة؟ كيف يتسنى له إمكانية أن يكون مفهوماً باعتباره مجموعة من الذرات التي تمر في بعضها موراً. كان يجب أن يكون هناك خالق، محرك، راع، وقوة غير مرئية لما وراء إدراك البشر وتصورهم. كنت أتجه إلى بعض الأجوبة، بينما أتذكر في الوقت ذاته أن قواعد فلسفة سوفوكليس كانت ترمي إلى إلقاء الأسئلة.

أعتقد أن السنوات الخمس التي أمضيتها في الجامعة قد ساعدتني في النهاية إلى تشكيل رؤيتي حول كيف ينبغي لي تحديد علاقاتي مع البشر على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم. وأمكنني أيضاً رؤية أخطار الطائفية الضيقة، وما ينتج من خواء وضجيج في الاعتماد الكلي على

الالتزام الخارجي لقواعد وشعائر الواجب الديني. كانت كل تلك الجوانب من الأهمية بالطبع، ولكن العقيدة إذا لم تكن مدعومة بالصدقات والأخلاق الفاضلة فهي بالنسبة لي غير مكتملة. أما الرسالة الحيوية التي وجدت تلاؤماً في عقلي قد تلخصت في أن أعظم الفضائل هي الإحسان والتسامح وحرية التعبير والحوار والحقوق الأساسية للإنسان وقبول من يحيط بي من الناس رجالاً ونساء طالما بقينا بشكل مؤقت على هذا الكوكب.

في هذا الأثناء تخرجت بدرجة الشرف والامتياز في كل من جامعة الخرطوم والقاهرة على التوالي، وبذا ذقت متعة التحدي للعمل الشاق الذي قمت به. ولكي أرتاح قليلاً كان يتطلب مني أن مضي أمسيات من الهدوء والعزلة بعيداً عن صخب المدينة، على ضفاف محبوبي نهر النيل حيث متعة الروائح الساحرة للخشب المحترق والتوابل الأخرى وسريان المياه الهادئة المتلألئة ليلاً التي تهدئ نفسي المنهكة وتعيد إليها حيويتها. كان هو ملاذي السري وهروبي المؤقت إلى عالمي السرمدي اللامتغير الذي يمكنني أن أجد فيه الطمأنينة والحفاظ على طاقاتي.

## الفصل السابع

### لقد أصبح البدوي دبلوماسياً

الإنجاز هو نتاج للتصميم ومعرفة النفس  
(كامل إدريس)

◀ هل كان لزاماً عليّ أن أرتدي ربطة عنق؟ هل كان خطأ أن ألبس جاكته بمفردها؟ هل كانت حلاقة شعري الآفرو غير مناسبة؟ اختبارات المعاينة الأربعة التي أجريت لي في وزارة الخارجية السودانية ووزارات أخرى كان يبدو لي أنها ستأتي بالرفض. في الساحة الخارجية للوزارة وتحت أشعة الشمس البهية تجمع العديد من المتقدمين للوظائف وكانوا يتجولون تملؤهم الثقة انتظاراً لدورهم لحضور المعاينة. عرفت أن أحد الأشخاص الجالسين المنوط بهم إجراء المعاينة خلف الطاولة هو طبيب نفسي. هل يا ترى قام مسبقاً بتحليل شخصيتي؟ لقد كانوا مجموعة من كبار موظفي الخدمة المدنية وسبق لهم أن أجروا مئات المعاينات للمتقدمين لاختيار دفعات جديدة من الدبلوماسيين. كانت الفرص المتاحة لملئها حوالي 15 وظيفة وقد عقدت العزم على أن أحظى بواحدة منها. ومع ذلك هل ما زلت أعاني من بداية كارثية؟ إنه لأمر غريب. لقد حصلت على واحدة من أعلى الدرجات في الامتحان، وإزاء ذلك كنت مملوءاً بالثقة، ولكن منظر الجاكثات وربطات العنق الأنيقة من خلف الطاولة كانت تشي بالقول لي: «ليس لديك حظ... ألا تعلم القواعد الأولية لللبس الصحيح؟». ولكن نظرة خاطفة خارج القاعة أكدت لي أن جميع المتقدمين للوظائف كانوا بلا ربطات عنق.

كنت وقتها ما زلت في مرحلة الدراسة، كما كنت أدرس بشكل غير متفرغ في الجامعات،

ولكني الآن أواجه أكثر المعايينات قسوة حيث أن كلمة واحدة خطأ من شأنها أن تؤثر على حياتي للأبد. كانت الأسئلة التي واجهتها قد كشفت لي أن لجنة المعاينة قد أدت واجبها الخارجي بشكل جيد إذ بحثوا وتمعنوا جيداً في خلفيتي وتصدّوا لي في مناورة شديدة حول الأمور الواضحة في مسيرة حياتي. ما سبب ميلي للتصوف؟ ولماذا أخذت درجتين علميتين في وقت واحد؟ وماذا كانت أفكارى السياسية؟ ولماذا درست كلاً من الحقوق والفلسفة في آن؟ وهكذا...

هل كانوا يعلمون أنني هجرت الشيوعية؟ وكيف جاز لي أن أوفق بين تلك الأفكار المتطرفة، ورؤيتي متجهاً للعمل في الخدمة المدنية؟ لذا قررت أن الشيء الوحيد الذي يجب علي فعله هو أن أكون أميناً بقدر استطاعتي في إجابتي عن كل الأسئلة. في مرحلة ما كانت المعاينة أقرب إلى النقاش العادي وتبادل الآراء، وخاصة حول الجوانب السياسية، لدرجة أنني سألت الطبيب النفساني حول ماهية وجهة نظره.

ولكن بدأت الشكوك تساورني. ربما لأنني تقدمت للوظيفة مبكراً حسب ظني، ولماذا ظل الطبيب النفساني يكتب العديد من الملاحظات حولي أكثر مما كان يفعله زملاؤه الآخرون؟ عقب ذلك أصبت بحالة من القلق والهياج النفساني. وعانيت صعوبة في النوم وفكرت أن أنجه إلى العمل العام، ولكن ما زال عقلي يشوبه الشرود والتوهان. بقيت في منزلي منتظراً وصول الخطاب الفصل. إذا كان بضعة أسطر فذلك يعني أن كل شيء قد انتهى. أما إذا كان أكثر ثقلًا ويحمل المزيد من الأرائك فهو دليل النجاح.

«كلنك!» بعد أسبوعين بالتمام من موعد المعاينة سقط ذلك الظرف الثقيل على أرض منزلنا في أمدرمان وعرفت فوراً أنني اجتزت الاختبارات بنجاح بمجرد سماعي لصوته وهو يسقط. تم كل شيء... وبالتالي قبولي في ما كان واحداً من أكثر مواقع العمل الخارجي في السودان رفعة وأهمية، وكنت فخوراً للغاية بما حدث لي.

ومن الطريف، أن أحد أوائل الناس الذين قابلتهم في مناسبة اجتماعية لاحقة كان ذلك الطبيب النفساني، بروفيسور حسبو سليمان ذلك الذي كان يدون كل النقاط أثناء المعاينة.

ابتسم لي وصافحني، وهنأني بقوله إنه كان معجباً بالطريقة المحترمة التي تبنيها في الوقوف بصلاية من غير ضعف حيال الأسئلة الصعبة التي كان يمطرنى بها أعضاء اللجنة.

ومن ثم بدأت أولى خطواتي في الحياة الدبلوماسية... وإذا كنت أعتقد أن الأمور كانت ستضي بسهولة عقب كل تلك الدراسة فحالما تبينت خلاف ذلك. كان العمل الدبلوماسي يسير وفق مستويات عالية من التنظيم والدقة. عليك الحضور على أن تكون في موقع العمل في الساعة السابعة والنصف صباحاً يومياً، وفي حال التأخير ستغلق الأبواب وسيطلب منه رئيسك المباشر توضيح أسباب تأخيرك أو تغييرك عن العمل.

ويلزمك أيضاً أن ترتدي جاكete أنيقة مع ربطة عنق، أو لبسة سفاري رسمية ذات الأكمام الطويلة، كما تمنع الزيارات بشكل صارم ما لم يصدر لك ترخيص من رؤسائك بذلك. كنت سعيداً

بكل تلك القواعد والقيود ووجدت نفسي غارقاً في العمل الذي كانت بداية البحث في قسم الإدارة العامة عن الموضوعات المطلوب أداؤها، ثم تمضية بعض الوقت في إدارتي البحوث العربية والقانونية.

وبالنظر للوراء فإنني أعتبر الآن أن تلك الحقبة كان الأكثر سعادة في حياتي، إذ لم أكن فقط دبلوماسياً كاملاً في وزارة الخارجية بل تم قبولي أيضاً في معهد الإدارة العامة. وإضافة لذلك فقد سمح لي بالعمل محاضراً بشكل غير متفرغ. كان ذلك يشكل برنامجاً مكثفاً بالنسبة لي ولكنه الواحة، أو الملاذ، وكان يعني حقيقة أنني عدت للعيش مرة أخرى في منزلنا... في كل أمسية كانت والدتي وشقيقتي تكرمانني بكوب كبير من الحليب الساخن، وفي صباح يوم الجمعة تجتمع كل العائلة لتناول الإفطار الأسري ثم نتبادل الأحاديث المختلفة حول أحداث الأسبوع. في بعض الأحيان يكاد الخجل أن يكسر قيوده، فتذهب أفكاره بعيداً إلى عهد الطفولة الذي عشته جحيماً في مختلف المصانع المظلمة التي عملت فيها. حاولت أن أنتزع خيالي انتزاعاً من تلك الذكريات، ولكنها لا تزال متجذرة في أعماق عقلي حتى يومنا هذا، وبقي لزاماً علي إجبار نفسي على التفكير في الأيام السعيدة وأن أمحو كل الخلفيات الأخرى.

أمضيت سنة طيبة مثيرة في عملي، ولكنني بدأت أحس بأن حصولي على المزيد من المؤهلات قد يساعد في تعضيد طموحاتي نحو الترقى في المجالين الدبلوماسي والأكاديمي. كان قد تم اختياري للحصول على بعثة دراسية في جامعة أوهايو، أثينا، أوهايو وهي أقدم جامعة في الوسط الغربي في الولايات المتحدة الأميركية. كانت فترة الدراسة لفترة عام ومن شأنها أن تقود للحصول على درجة الماجستير في العلاقات الدولية مع تأكيدات في القانون الدولي. في سبتمبر من العام 1977 سافرت من الخرطوم إلى واشنطن عبر لندن، وأخذت سفريّة داخلية إلى أوهايو. كانت تلك زيارتي الأولى للولايات المتحدة وقد تلقيت شحنة من الترحاب التلقائي والمودة والانفتاح من الزملاء والأساتذة على السواء. لك يكن هناك ما يشير إلى أية صعاب في الأفق، وقد زج بي سريعاً داخل سيارة حافلة صغيرة من قبل لجنة طلابية لطيفة، نحو المعسكر الذي سأعيش فيه. كان الوقت هو بواكير الخريف وبدأت ألياف جميع الأشجار تقريباً تتشكل بألوان الألوان بين الأصفر والذهبي والبرتقالي. كانت غرفتي رغم صغرها بالمعايير الأميركية إلا أنها حوت كل شيء تقريباً واشتملت على سرير وخزانة صغيرة للملابس وأرفف للكتب وطاولة للقراءة وكروسي مريح. تقع الجامعة التي يبلغ عمرها مائتي عام في معسكر فسيح، وأعجبت منذ البداية بما لدى الطلاب من أريحية وثقة في التعامل، كما ذهلت بأناقة الشوارع المزدانة بصفوف الأشجار على جانبيها والمنظر البديع لمباني الطوب الجميلة.

سادني شعور بأنني «وصلت» إلى المسرح الدولي، وأن الخبرات التي اكتسبتها من العمل والسفر إلى أوروبا أثناء الدراسة قد أعدتني إعداداً طيباً للإقامة لمدة سنة في الولايات المتحدة. ممارستي لعمالة الأطفال في مرحلة الطفولة، ثم عملي صيباً في الشوارع الخلفية في القاهرة،



وبعدها في بوفية بجوار محطة فكتوريا في لندن، وفي ويتني بالقرب من أكسفورد، وفي مصانع صغيرة وكثيرة في الخرطوم، كل ذلك كان بمثابة تأمين لي بأن أي شيء آخر كان يمثل نوعاً من النعيم. أما تجربة عملي في مصنع مسك الدفاتر فكانت أكثر التجارب التي لم تحدث استقراراً في نفسي. وكنت قد تذكرت أن جدتي زينب كانت تحذرنني بشأن حقوق النشر، وقد بدأت الفكرة تتشكل في ذهني حول امكانية الحفاظ عليها عالمياً. ربما يمكنني أن أؤدي عملاً حول هذا الشأن حينما أكون أكثر تأهيلاً. أما في الوقت الحالي فكان يلزمني أن أعمل بكل جد حتى أحصل على درجة الماجستير.

كانت البداية غير طيبة. لقد تأخرت عن حضور الدروس الأولية في الكلية نسبة لبعض التعقيدات الإدارية في السودان، وكنت قد وجدت استقبلاً فاتراً من أكثر الأساتذة احتراماً وأعلامهم رتبة. «لعلك تعلم أنك قد فقدت بعض المحاضرات الأولية ذات الأهمية الكبيرة»، قال ذلك. «أنا آسف بحق، أنا...» بقي الطلاب الثلاثة الآخرون في القاعة صامتين، وبقيت صامتاً لا تسعفني الكلمات.

«سوف لن تنضم إلى هذه المجموعة. هناك مجموعة أخرى سيتم تكوينها خلال الأشهر القليلة المقبلة. لو تكرمت غادر الغرفة وأغلق الباب من ورائك». في لحظة من اليأس غادرت القاعة واستقبلت الحائط في الممر الخارجي... لم يكن في حسابني أبداً أن ألتقى هذه النكسة غير المتوقعة.

تحطمت نفسياتي وأصبت بحسرة شديدة واكتنفتني تشوش عقلي، إلى حد أنني قررت الالتحاق بجامعة أخرى. ولكن ماذا كان سيؤول إليه مصير بعثتي الدراسية؟ كيف يمكنني أن أستعيد عافيتي جراء هذا الحرج الذي وقعت فيه؟ وقررت أن الشيء الوحيد الذي يجب علي فعله هو مقابلة ذلك البروفيسور لأكشف له بأن تأخيري عن الوصول ليس خطأ شخصياً. ولدهشتي فقد سمح لي بالعودة للدراسة على أساس التجربة. كنت أول من حضر للفصل صبيحة يوم الاثنين، وتم استقبالي بابتسامات مختلفة وترحاب خافت من الطلاب الثلاثة الآخرين معي. حضر البروفيسور وألقى محاضرة عن مادة بعينها كنت قد كتبت عنها بحثاً مكثفاً أثناء فترة دراستي طالباً. كانت موضوعاً يشوبه بعض التعقيد، وسأل البروفيسور الطلاب إذا كان أيّاً منهم قد عرف أي شيء. صمت مطبق.

ليس من أحد لديه أي دليل. وكان بصدد الاستمرار في الدرس قبل أن أرفع يدي. شعرت بقلّة صبره بل حتى بضيق صدره نوعاً، ولكنه طرح سؤالاً وعرفت أنه سمح لي بالإجابة.

وقفت، وسادني شعور فائض بالزهو، مكتنفاً بالاثارة بدأت أتجول حول تفاصيل المادة لحوالي سبع دقائق... معجباً بما حققته من نصر، جلست في هدوء شديد كان يسود القاعة. نظرت حولي متوقفاً المزيد من ابتسامات الإعجاب، ولكن أحد الطلاب كان قد كفا وجهه على الدرج الذي يجلس عليه. ما هو الخطأ الذي وقعت فيه؟ لقد أجبت عن سؤاله بأكمله. أما البروفيسور فقد

أصابني في مقتل، حين قال لي إن إجابتي كانت غير صحيحة.

كان أول شخص أخبرته بالتلفون هو والدتي في السودان. كانت متعاطفة معي بالطبع وأخبرتني بحكمة تقول: إذا كانت واحدة من درجات السلم معطوبة سببت السقوط، فيجب علي أن أتحرّك للدرجة التي تليها فوراً. طلبت مني أن أتحدّى بالشجاعة، وذكرتني بأن الله إذا قفل باباً فسيفتح آخر، وأنها ستواصل صلواتها ودعواتها من أجلي.

بعد فترة قصيرة من هذه الحادثة استدعيت إلى مكتب الأستاذ المشرف على دراستي. إنها البروفيسور الفخري لمادة التاريخ وأكاديمية مرموق. وكانت قد نشرت كتباً وافية عن تجارة الرق. كانت سيدة ممشوقة القامة، تتحدث بأدب ولطف، ذات شعر أشقر في عقدها السادس من العمر، تنضح رباطة في الجاش ورحمة بالآخرين. وسرعان ما وجدت نفسي أرتاح لما تحمله من طيب في التعامل واطمئنان للآخرين.

انتهى الأمر سريعاً. أقر البروفيسور بأنني كنت على حق في تقييمي وتحليلي للموضوع. وأصبح بإمكانني مواصلة دراستي في البعثة الدراسية بل حتى طُلب مني أن أشارك ببعض المساهمات المستقلة في مجال التدريس الحقيقي للمادة. سعدت كثيراً وقدمت شكري عن هذا التدخل، ولما اتصف به البروفيسور من نزاهة حينما أقر أنه كان مخطئاً، ثم أنشأت علاقة مهنية وودية مع كليهما. في وقت لاحق حدث أن زارت تلك السيدة أسرتي في أمدرمان وقد أمكنني أن أكشف لها بعضاً من عالمي المفضل عن طريق النيل. لم يحدث لها زيارة البلاد من قبل، وكمؤرخة أصيبت بالدهشة من كمية الآثار التي عفا عليها الزمن وما حوته من التحف النادرة التي شاهدها.

استمتعت كثيراً بالفترة الدراسية، وبما أنني كنت ملتزماً بقوة بعملتي الروتينية الذي تم تمحيصه جيداً، فقد كنت قادراً على تحصيل درجة الماجستير قبل موعدها المقرر وبدرجة الامتياز.

كانت فترة إقامتي في أميركا قد تركت في نفسي أثراً عميقاً. وبما تم تخصيصه لي من مال للدراسة فقد أمكنني أن أعيش حياة اجتماعية طيبة هائلة وما زلت أتبسم كلما تذكرت الأمسيات التي كنا نقضيها في مكان لطيف أعتقد أن اسمه «مطعم الواحة». وقد ظل كذلك متناسباً تماماً مع اسمه، فقد كان مقراً لتجمع الطلاب والأساتذة على السواء حيث كانت وجبة الطعام الفاخرة يتم تركيزها عن طريق نقاش مباشر ومفتوح من الجميع. وحينما ينتهي وقت الوجبة نعود إلى الجامعة لنلتقي في الغرفة العامة ونتسامر إلى وقت متأخر من الليل. وتكون عادة الآراء مختلفة في النقاش حينما يتجه الحديث نحو السياسة أو الأديان، ولكن حتى الأفكار المتشددة للغاية كان يتم للاستماع إليها ومناقشتها بالتسامح وروح الدعابة. وما كنا نفعله هو استعراض مواهبنا وأفكارنا وفلسفتنا نحو المستقبل، بينما في الوقت ذاته نتقبل العديد من من الأفكار الثرة على اختلاف توجهاتها في مجتمع يسمح بحرية التعبير. وكان بادياً أن هناك نوعاً من التفاهم المشترك

بين الطلاب والأساتذة بأن إلقاء الأسئلة المكشوفة وإبداء المقاطعات أثناء الحديث والمواجهات المباشرة جميعها تشكل جزءاً مقبولاً في سبيل البحث عن الحقيقة. لم يكن الطلاب يظهرون أي مستوى من التصرفات غير الحميدة، ولكن أيضاً ظهر جلياً أن هذا الجيل من الشباب كان جاهزاً لمعرفة المزيد من البحث عن الروح، وكنت أحياناً أصاب بصدمة قوية حول ما أظهره من ابتعاد عن المعتقدات والأخلاق المتجذرة للدولة. لم يكن ذلك نوعاً مما حدث من تمرد صريح في ختام حقبة الستينات، ولكن التغيير كان يبدو على الأفق بكل تأكيد.

أما حقبة السبعينات فينظر إليها أحياناً باعتبارها فترة استرجاع من ذلك الدور الذي حدث في حقبة الستينات الهائجة. كانت تلك فترة شهدت أحداث شغب متكررة للطلاب، وتحدي السلطات ووصل فيها التمرد الشبابي ذروته غضباً.

النظام القديم كان قد تمت مواجهته بكثرة الإنجاب، وموسيقى الروك، والتكنولوجيا الحديثة، وروح تأثير الزهور التي تنادي بتغيير العالم، والاحتجاجات الراديكالية، والمزيد من ثقافة المخدرات. أما الآن فإن مرحلة الوعي قد بدأت تنتشر، هناك إعادة تقييم لكل التركيبات السياسية، وتهدة لحدة التوتر الثوري.

بعض أصدقائي الأميركيين شعروا أن حقبة الستينات كانت قد اتسمت بالعنف وإعادة تنشيط للزمن، حين يمكن لمجموعات من الشباب أن تساهم بكل رشد ووعي في إنماء مجتمع كبير ذي فائدة خال من آثار الماضي المحافظ - ولكن لدي تحفظاتي في هذا الصدد. كنت أعتقد أنه من السخف بمكان أن نفتك بالتركيبات القائمة وأن نلقي في سلة المهملات كل الأخلاقيات التقليدية بينما هناك شك وغموض حول من سيكون البديل. أعجبت بمثالية حركات الشباب ولكنني كنت قلقاً من إزالتهم ورفضهم لأية مجادلات مناوئة لأفكارهم، وفي بعض الحالات أخشى من عدوانية عدم تسامحهم للأفكار المعارضة لتوجهاتهم.

وعلى أية حال فإن حقبة السبعينات لم تكن أقل ثورية وعنفاً من سابقتها الستينات. وكان المشهد العالمي كالعهد به من الضعف بمكان إزاء التدخل الأميركي الذي كان سائداً في فيتنام، رغم المناشدات والاحتجاجات المتصلة التي كانت تنادي بإعادة الجيوش إلى أميركا. ولم يحدث ذلك إلا في العام 1973 حين غادرت آخر مجموعة من الجنود في تلك الصورة الرمزية لآخر طائرة هليكوبتر وهي تغادر سايجون، مع مجموعة من المدنيين وهم متشبثين بقوة بعمود العجل الأمامي للطائرة في محاولة يائسة لمنعها من المغادرة. في ذلك العام واجه الرئيس الأميركي نيكسون فضيحة داوية سميت بفضيحة «ووترغيت» وعلى إثرها استقال من الحكم في العام 1974 بعد أن تم تهديده بالعزل السياسي.

وكنْتُ وقتها على علم تام بأن قوة الحرس الوطني في ذلك العام تحديداً كانت قد قتلت أربعة طلاب من المناوئين للحرب، في جامعة كنت إستيت يونيفيرستي المجاورة القرية منا. كانت تلك أوقات عصيبة مع المزيد من حالات عدم الاستقرار التي تصدع لها العالم بقوة.

في العام 1973 كانت منظمة أوبك، بقيادة السعودي المذهب الشيخ يمانى، قد أحدثت انقلاباً اقتصادياً كبيراً حينما رفعت أسعار النفط. في عام واحد كان برميل النفط قد ارتفع من ثلاثة دولارات إلى إثني عشر دولاراً، مما تسبب في خروج العديد من الدول من سوق النفط تماماً. وبشكل لا يصدق فقد امتصت اليابان الصدمة وشهد اقتصادها ازدهاراً غير مسبوق وقد تخطت اقتصاد ألمانيا الغربية لتصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم. ولكنها لاحقاً عانت من ركود اقتصادي كبير حينما ساد التضخم المالي الذي تحول إلى كساد أدى إلى هبوط مريع في الأسعار وبالتالي تدهور ملموس في مجال الاستثمار. وكانت تلك واحدة من أولى الحالات التي حدث فيها التغيير من نظرية كينسيان الاقتصادية إلى النظرية الاقتصادية النيوليبرالية، وهناك دول أخرى أخذت بأسباب الحيطة والحذر.

في العام نفسه وقعت الحرب بين إسرائيل والعرب، وكان نشطاء (أيلول الأسود) قد اجتاحتوا السفارة السعودية في الخرطوم. وفي كمبوديا كان بول بوت وأعدائه من الخمير الحمر قد سيطروا على الحكم وبدأوا في اتخاذ إصلاحات جذرية في البلاد. وفي سبيل توطيد دعائم التوجه الزراعي القائم على النظرية الماركسية فقد أمروا مئات الآلاف من المدنيين بالسير على أقدامهم في الأرياف، فاستباحوا المدن واعتقلوا وعذبوا وقتلوا البوذيين والقساوسة والرهبان، وكل من اعتقدوا أنه «مفكر». وقد قدر العدد الكلي للقتلى بثلاثة ملايين نسمة.

ما زال ذلك العقد من السنوات مفعماً بالتوتر بين قطبي العالم النويين الولايات المتحدة وروسيا، وفي محاولة لنزع فتيل التوتر وعمل هدنة من شأنها أن تهدئ من سباق التسلح النووي الخطير وتكدس كميات مهولة من الأسلحة بين الجانبين، فقد عقد مؤتمر دولي في هلسنكي. نتج عن ذلك أن وقّعت خمسة وثلاثون دولة واتفقت، من بين أشياء أخرى، على ضرورة صيانة حدود ما بعد الحرب العالمية الثانية لجميع الدول وتأمينها، واحترام حقوق الإنسان كافة. ولكن، لم يكن «ميثاق هلسنكي» ملزماً لأنه لم يتخذ قوة المعاهدة، وكان عرّاب الدبلوماسية الأميركية هنري كسنجر قد رفض كل ما نتج عن ذلك الميثاق جملة وتفصيلاً، في «لعبة مناوئة لجناح اليساريين». حدثت أيضاً خطوة أخرى لتحقيق السلام إسمها اتفاقات كامب ديفيد، وهي معاهدة تم توقيعها في العام 1978 بين مصر وإسرائيل. وكان أن دعا الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر كلاً من أنور السادات ومناحيم بيغين لمحادثات سرية في منتجعه الرئاسي.

كان توقيع السادات لتلك المعاهدة مع إسرائيل قد فتح عليه أبواب جهنم من قبل المتشددین في بلاده مما أدى في النهاية لاغتياله أثناء عرض عسكري.

انتشرت حالات الإرهاب في أوروبا كالتابعون، مجموعة بادير ماينهوف والألوية الحمراء في كل من ألمانيا وإيطاليا كانتا قد اختطفتا وقتلتا العديد من الشخصيات السياسية البارزة. وفي المملكة المتحدة واصل الجيش الجيش الجمهوري الإيرلندي حملة تفجيرات المدمرة، في محاولة لفرض قبول جمهورية إيرلندا متحدة. ووقع انقلاب عسكري في إثيوبيا قاد إلى عزل الإمبراطور

هيلاسيلاسي كأحد أطول السلالات الملكية حكماً في تاريخ العالم. وفي لبنان وقعت واحدة من أكثر الحروب الأهلية شراسة وعنفاً مع إسرائيل وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية وقوات المسيحيين الدروز مستخدمين بلدهم ساحة للصراع من أجل مصالحهم الخاصة.

تستمر قائمة الصدامات والنزاعات إلى المزيد... قبل نهاية عقد السبعينات حدثت المجازر البشرية البشعة في سويتو بجنوب إفريقيا، واندلعت الثورة الإيرانية في العام 1979 حينما أطيح بشاه إيران وحكمه بواسطة آية الله الخميني. وكان ذلك إيذاناً بتأسيس الجمهورية الإسلامية في إيران وقيام حكم ثيوقراطي.

كل ما سبق من أحداث رسم صورة قاتمة نوعاً ما، ولكنها لم تكن مظلمة وكئيبة لحد كبير، إذ بدأت أيضاً موضوعات تنموية على نطاق العالم تطل برأسها. في العديد من دول العالم النامي كانت حركة الخضر قد تمكنت من تأسيس نفسها، ارتفعت مستويات الاستثمار وتضاءلت معدلات الفقر والعوز. كانت حقبة الستينات تدور حول نفسها بلا هدف تقريباً، ولكن أيضاً كان جزءاً من تراثها يحمل الثمار في ثناياه - منظمات حقوق الإنسان المدنية، وازدهار حركات تحرر المرأة، والوعي المتنامي لمخاطر التلوث البيئي، والتحكم في الزراعة ووسائل تنميتها كانت جميعها وبشكل مكثف موضوعة على الأجندة انتظاراً للتنفيذ.

كأي شخص آخر، تأثرت بقوة بتلك الأحداث ولكنني كنت على وعي أيضاً وبما نلتته حديثاً من مؤهلات أن بإمكانني لعب دور ما فيها. مستقبلي القريب لم يتضح بعد، ولكنني استوعبت العديد من الدروس عن حياة رجال الدولة المؤثرين. وكنت بصفة خاصة معجباً بموقف أنور السادات الذي عرف عنه أنه اتخذ خطوة مثيرة للجدل حينما وقّع على اتفاقية سلام مع إسرائيل. في هذا الموقف لا أثنى عليه كما لا أدينه أيضاً - أنا ببساطة أقر بأن تلك المشكلة قد تم حلها بتلك الطريقة الصعبة، التي من وجهة نظري، وأنا لا أبالغ القول هنا، إن الصراع الإسرائيلي العربي، متزامناً مع صراعات أخرى، كان من شأنه أن يقود إلى حرب عالمية ثالثة.

بعث اغتيال السادات موجات صدمة للناس حول العالم وأثقل كاهلي وإيماني الثابت بمبدأ الحوار، بحمولة مهولة بأن العنف لا يولد إلا المزيد منه، لذا لا بد من كسر هذه الحلقة بأية وسيلة كانت. أعتقد أن التاريخ سوف يثبت في نهاية المطاف أن الحوار هو التركيبة الضرورية في التحرك نحو السلام. في الوقت الذي لم تكن لدي أدنى فكرة بأنني مستقبلاً سوف أكون قادراً على لعب دور ما، بشكل أساسي عن طريق القنوات الدبلوماسية، في إعادة مسار بعض الشخصيات السياسية نحو هذا الطريق.

في هذ الأثناء كانت إقامتي الأكاديمية في الولايات المتحدة قد شارفت على الانتهاء. تخرجت بتقديرات أقرب إلى الدرجات الكاملة، متسلحاً بمزيد متنامٍ من الثقة بالنفس، وقد حان الوقت للعودة إلى محبوبتي نهر النيل والسودان.

## الفصل الثامن

### العودة إلى النيلين.. تأملات على النيل

جدارة الرجل تقاس بمدى ضبطه لغضبه  
(كامل إدريس)

◀ كانت فترة إقامتي في أميركا قد فتحت بصيرتي للفوائد التي يمكن جنيها من العيش في مناخ من الديمقراطية الديناميكية، وما يسود أولئك الناس غير العاديين من عظمة وطاقمة جبارة. كانت البلاد تعاني مشكلاتها الداخلية مع وجود أعداد كبيرة من الناقمين على الأوضاع والأمور التي تبعث على الشقاق، كأى بلد آخر، ولكنني أعجبت بما كان يسودهم من روح المبادرة في العمل ثم فلسفة «يمكن أدائه».

في نهاية السبعينات الماضية كانت أميركا ما تزال تتعافي من كوارث حرب فيتنام المزلزلة التي سببت لها جروحاً روحانية غائرة ودمرت كيان ثققتها بنفسها، ولكن غريزتها المتأصلة من أجل التغيير والتقدم كانت تعني مرة أخرى تطلعها إلى مصاف العالمية. كان التنافس النووي مع الاتحاد السوفيتي ما يزال على أشده، ولكن التفاؤل القديم المغروس في داخلها وإيمانها بما تكتنزه من قيمها الأساسية كانا يطلان برأسيهما من ضباب الشك والاستبطان.

كنت ممتناً بشدة بحرارة الطريقة التي تم اختياري بموجبها لأنضم للحلقات الأكاديمية، كما وجدت ترحيباً لكوني الزميل المتجول بشأن الاستفسارات الفكرية. حصولي على وظيفة أكاديمي بكل جاذبيتها، أتاح لي فرصة إمكانية تحقيق رغبتني في متابعة درجة الماجستير في العلاقات

الدولية والقانون الدولي إلى درجة الدكتوراه. ولكن في الوقت ذاته كان ذلك الصوت الداخلي يحثني على تقوية أواصر هيامي العميق الجذور نحو السودان وعائلتي.

كان ذلك في العام 1978. وكنت مندهشاً بحق بما شهدته من حريات قوية وطاقات متفجرة للأميركا وشعبها. ولكن ما أن حطت طائرتي في مطار الخرطوم حتى أيقنت أنني مرة أخرى في أحضان وطني الروحاني. كنت أتشوق للعمل مجدداً في وزارة الخارجية، وأن أتهياً لأداء بعض المحاضرات، كما أنني أكملت حيزاً كبيراً من رسالتي وبحثي الخاص لدرجة الدكتوراه. عمل شاق ينتظرني في الأفق، ولكن لتكن البداية بترحيب حار من العائلة تتبعه بالضرورة ولائم ضخمة احتفالاً بعودة البدوي المنهك. وبعد أيام قليلة تحركت من المنزل.

ربما قدر لي أن أعيش داخل المدن لفترة طويلة، ولربما أيضاً يأتي وقت محدد في حياة كل شخص حينما يشعر بأن هذا العالم المنفتح بما يحويه من ضواء وصخب يتعين على المرء أن يبحث عن موقع يجد فيه شيئاً من العزلة والسلوى لنفسه. ما زلت أكتنز الكثير من الطاقة والطموح، ولكن جزءاً مني كان قد أنهكه الأخذ والبذل والسعي اللامنتهي واللهات نحو الأهداف المنقسمة على نفسها في الحياة العصرية، ثم البحث الدؤوب عن الوضع الاجتماعي. أصبت بالأسى مما يجري في هذا العالم من وحشية وقسوة. الحروب، حوادث القتل المتكررة، ارتفاع أعداد الحكام الديكتاتوريين في العالم، ثقافة انتشار المخدرات، وهو ما عنى لي بأنه فراغ أخلاقي يجتاح العالم. كنت قد تحصلت على نجاح حقيقي في وقت قصير، ولكن ما يزال هناك جزء مني يعاني فراغاً ومن عدم الوفاء بمتطلباته.

الاجتماعات الرسمية والصلات الاجتماعية، والالتزام بالزمن المحدد في كل شيء، وأعمال السياسة والتعامل، كلها أمور ألفت بسحابة ثقيلة على نفسي، وكنت بدوري أريد لهذا العالم أن يبطئ من هيجانه، بل حتى التوقف عنه. احتجت لبعض الوقت لنفسي، وفي إحدى الأمسيات إذعانا لغريزة قوية عنيدة، تحركت لأميال عدة بعيداً عن همهمة الخرطوم وخفقانها المتصل إلى ضفة وادعة على النيل. جلست على شاطئ رملي وتركت المياه المظلمة بوهج الشمس والتيارات الهامسة تنسج من السحر ما شاء لها.

أثناء مرحلة طفولتي كنت قد تمتعت كثيراً لعباً ولهواً بمياه النيل وأطلقت لخيالي العنان وقتذاك ليسرح بعيداً في ذلك السحر المدهش. لقد كان يمثل أكثر من رمز بالنسبة لي، كان بمثابة حلقة حية للوصل مع ماضٍ أخذ بالبابي وكياني. كنت أشاهد منظراً لم يتغير منذ آلاف السنين.

كم يبلغ عدد بلايين الأطنان من المياه التي مرت عبر هذه النقطة التي أقف أمامها الآن؟ ماذا كان قد حدث للأجناس الصامته المنقرضة من العصور القديمة؟ الإنسان الأول، آباء وأمهات البشرية، النوبيون، المصريون، الرومان، العرب، والبريطانيون؟ لقد كنت موقناً بأن أشباحهم ورموزهم ما تزال تراوح مكانها.



كانت الطبيعة تتلأأ جذلة بحضورهم القديم، واعتراني شعور بالعبقريّة في الهواء الطلق. ومن خلال ضبابية الزمن أمكنني تقريباً أشعر بمدى قربهم. ياله من عالم غريب ذلك الذي نعيش فيه. سواء أكنّا من وَرثة الماضي أو حُدّام الحاضر، فقد قدر لنا جميعنا أن نعيش بين عالمين سرمديين. تنتابني الحيرة والعفوية، أعلم أننا جننا لهذا العالم لفترة قصيرة ومن ثم نمضي في طريقنا المُعد لنا. لو كان للنيل روح أو شخصية لكان قد خَصّني بأسراره. كان ربما تحدث إلي. وربما قال لي إن كل الإمبراطوريات العظيمة التي سادت في الماضي، وذلك التاريخ الحافل بتعدد ألوانه وأشكاله، وأولئك الأباطرة الذين اكتنفهم الغرور والاستعلاء على وجه البسيطة لم يكونوا يساوون شيئاً مقارنة بثباته الأبدي وروحه الخالدة.

ألقيت نظرة إلى الشمال البعيد، وفي مخيلتي سرحت بعيداً نحو الصحراء القاحلة التي ظلت تجرفها الرياح منذ القدم وتجولت بذهني حول ما تبقى من إهرامات مروي التي عفا عليها الزمن وظلت متناثرة في صحرائها، شاهدة على عبث الإنسانية في بحثها عن الدوام والخلود. كنت صغيراً للحد الذي لم يمكنني من استيعاب وتقدير أهميتها في قصة السودان، ولكن بطريقة غريبة أعادت الذاكرة ربطني بمرحلة طفولتي الباكّة.

أعتقد جميعنا، مهما طال بنا العمر، ما نزال نحمل في شخصيتنا الولد الصغير أو البنت ونتمتع بذكريات أيام الطفولة الجميلة ونعيمها. والآن أجلس هادئاً تحت أسر النيل وكنفه أحس مرة أخرى بأنني ذلك الولد الصغير بالشكل الذي قدر لي فيه أن أنام على سطح ذلك القطار القديم المتهالك وأرتمي بكل دعة على أكتاف والدتي.

كنت سالماً ومحمياً كأنني في السماء. ثم لاحقاً جاءت الأحلام والكوابيس. من أين أتت؟ لا علم لي بذلك، ولكن الرجال الحكماء كانوا غالباً يتحدثون عن «الجن»، و«شياطين منتصف النهار»، و«الأرواح الشريرة». وكنت قد أحسست من دراستي في الفلسفة وما وراء الطبيعة أنه ربما هناك أشياء بين السماء والأرض أكثر مما يدور بخيالنا. ربما يسخر العالم الحديث المتمدين من مثل هذه الأفكار ولكني أؤمن بأنها عنصر من الحقيقة. لقد ظللت طيلة حياتي منافحاً صلباً لتلك الأصوات المدمرة التي توطد للانتشار، والآن حينما أنجزت الكثير، وما زلت ساعياً للمزيد من النجاح، تصيبني حالة من الاسترجاع لما عانته طفولتي من مخاوف.

كانت الأصوات تحثني على الاستسلام. لم تكن عنفية أو قاسية، بل كانت هادئة ولطيفة، تتحدث إلي كأنني مجرد طفل صغير غبي أصابه من الضلال ما أصابه.

ألم تكن حياتي وإنجازاتي من الهوان وعدم الأهمية بالقدر الذي يحدث في مخطط الإنجازات والمشروعات العظيمة؟ ألم أكن شخصاً غير ذي صلة حالما يمكن نسيانه كما ينسى الحطام، والأشياء المهجورة في الصحارى، وعظماء الإنجازات؟

ما هو المبرر لوجودي؟ لماذا لا أنزوي في عالم اللاشيء وأتوقف عن محاولة إثبات نفسي؟ إن عملي الكادح وما تبعه من نجاحات لم تكن ذات أهمية بالقدر المهم، كما لم تكن مؤثرة

لجعل العالم أكثر رفاة. إذن فيما الاستمرار؟

كانت تلك كلها هواجس خطيرة، خبيثة، منذرة بوقف الحياة، ومثبطة لازدهار الطموح. ظلت تحثني دوماً أن أهرب بجلدي من ذلك العنف والقسوة اللذين يمزقان العالم، الحروب والقتل وارتفاع أعداد الطغاة والمتشددين. ماهو الفرق الذي كان بإمكانني فعله حين أواجه نوعاً من البشر اعتادوا قتل الآخرين عن قناعة بأنهم يؤدون واجباً طيباً من واجبات الله عليهم؟ أولئك المتعصبون ظلوا يذبحون الأبرياء على مدار تاريخ البشرية، إذن لم القلق سعيّاً للتصدي لهم؟ مثل هذه الأفكار كان من شأنها أن تدفع بأي رجل إلى حافة اليأس، وكنت أصلي مبتهلاً من أجل الإجابة عليها. في الوقت ذاته كان النهر العظيم يمارس جريانه بهدوء شديد، غير عابئ بما أعانيه من تشردم داخلي. ويبدو أن استغراقه في ذاته متقدماً للأمام كان يشكل لي نوعاً من الراحة لنفسي المنهكة.

ثم حدث شيء غريب. خلال فترة تأملاتي على ضفة النيل كنت قد نفضت الرمل من أرجلي وسمحت لهما بلامسة المياه برفق. وفجأة بدأت موجات خفيفة من المياه تسري نحوهما بلا توقف، بثبات وبشكل توضيحي بيّن وهي تحاول في ما يبدو غسل أرجلي مما لحق بهما من رمال الضفة. في تلك اللحظات تملكني إحساس قوي بالمشهد وأنا أراقب الأمر بما يكشف لي أن جميع ما كان يغض مضجعي ويقلقني قد ذهب إلى غير رجعة. تلاشت الأصوات المتخابثة نحو الشر وشعرت بأن طاقة قوية من الراحة والإنعاش قد اعترتني مجدداً. أحسست بأن الطبيعة بدأت تذكرني بحقيقة مسلية - وهي أنه رغم النكبات والأعاصير والمآسي وتجارب الحياة، فإن فجراً عميقاً سيبزغ وأن طاقة جبارة لا هواده فيها قد بنيت داخل الحمض النووي للأرض، وذلك من شأنه في نهاية المطاف إصلاح كل الأمور وأن كل معادلات الأمور ستسوى بأحسن ما يمكن التسوية... وربما استجاب الله لدعائي الذي توصلت به في خلوة مع النفس. ظل هذا النهر العجيب يطوي صفحاته على مر الدهر تماماً كالأغنية التي طافت شهرتها الآفاق، وبكل ما احتواه من غموض، فقد كان أكثر إلحاحاً لي بأنني يجب أن أقف منتصباً لمواجهة المستقبل وألا أتخوف من لعب دوري فيه، أيّاً كان مغموراً ذلك الدور ربما.

ظللت أهدق عميقاً في المياه المتدفقة بينما شاهدت ظلاً يرتسم على الرمال بالقرب مني. نظرت إلى أعلى ومن حولي فوجدت رجلاً مسناً يقف وقد وضع يديه خلف ظهره. كان يرتدي ملابس الزراعة وقد بدت بائسة ملطخة بالطين في بعض جوانبها. لم يقل شيئاً، كأنما كان يفكر مثلي تماماً، ثم بدت على شفتيه بسمّة كشفت عن أسنان اصفرّ لونها ولم تجد ما تستحقه من الرعاية العناية اللازمة.

«الله معك».

«أنت أيضاً الله معاك»، رددت عليه.

«أخي، خذ هذه»، ناولني بضع تمرات ناضجة.

«شكراً جزيلاً لك، ولكن لماذا أعطيتني إياها؟»

«لأنك تبدو حزينا إلى حد ما»، أجابني، «كنت تضع رأسك بين يديك. واعتقدت أنها ربما تفرحك قليلاً. وبالمناسبة، إنها سبع تمرات، الأكل للروح...»

نظرت للتمرّات في يدي. إنها بالفعل سبع تمرّات. سبعة، الرقم المقدس. حينما رفعت رأسي مرة أخرى لأشكره، كان الرجل العجوز قد اختفي بين التلال الرملية.

كانت تلك لقاءات روحانية شبيهة بتلك الحالات الرهبانية السريعة التي تدعو للانسحاب من العالم، مما ساعدني على الحفاظ على شعوري بالانسجام والترابط. وبمعنى آخر فقد كان هناك انصهار في حياتي. لقد كنت قادراً على إحداث التوازن بين المتطلبات المحمومة للمهنة مع حاجات الحياة المتشعبة. الأسئلة الكبيرة، تعقيدات الحياة وألغازها مجتمعة مع الاتزان ورباطة الجأش. كان الأمر بالنسبة لي كمن تحول من شخص إلى آخر من دون فقدان لنظرتي للحياة. وكنت حقاً بحاجة إلى هذا النوع من التوازن السايكولوجي، إذ أن مسؤوليات جديدة تبدو ثقيلة وسريعة أمامي على الطريق.

إعادة انضمام إلى العالم، أنا الآن أعمل في وزارة الخارجية وضمن طاقم الإدارة القانونية بالوزارة. وبعد فترة تم انتخابي للعمل مع لجنة خبراء القانون في منظمة الوحدة الأفريقية، وتسمى الآن الاتحاد الإفريقي. وكشاب، كانت تلك خطوة مهمة للغاية بالنسبة لي لأنها جمعتني مع نخبة من كبار اللاعبين على المستوى القاري.

في الوقت ذاته، ومن خلال تدبر فائق العناية لمسؤولياتي المتعددة، أمكنني أن أجتاز امتحان المعادلة وصرّح لي بالعمل كمحام وموثق للعقود. كما كنت قادراً أيضاً على مواصلة التزامي كمحاضر غير متفرغ في القانون والفلسفة.

ثم في العام 1979 منحت فرصة للعمل في بعثة السودان الدائمة في الأمم المتحدة في نيويورك. وكنت أنحسب إلى هذه السانحة التي لم تكن في الحسبان، ولعلها كانت فرصة مواتية لزيارة أصدقائي القدامى في أميركا. انتظرت طويلاً لتأكيد التحرك لمقر عملي الجديد، ولكن عجلات دوران الخدمة العامة كانت تدور ببطء شديد أحياناً، أو حتى للوراء، إذ غيرت الجهات الإدارية رأيها في الأمر وقرروا منح الوظيفة لشخص متزوج.

وبدلاً عنها منحت وظيفة للعمل في جنيف دبلوماسياً ضمن البعثة الدائمة للسودان في مقر الأمم المتحدة هناك. كنت محظوظاً بقدر كبير أن عملت مع مجموعة رائعة تحت إشراف السفير عمر بريدو، وهو رجل دبلوماسي مؤهل عميق المعرفة وذو ثقافة عالية ودراية كبيرة بالمهنة، وسوف لن أنسى له أبداً حسن خلقه وتعامله الساحر مع مرؤوسيه. كنت نسبياً حديث عهد بالعمل الدبلوماسي ولكن ما لقيته من ترحاب كبير ومؤثر وإشارات التشجيع الطيبة التي أتحفني بها كان لها الأثر في أن أنسجم بهدوء وبساطة في عملي. أما نائبه السفير إبراهيم حمرا فقد كان بالمثل مثلاً لاحترام والتقدير وشكل مزجاً من العطاء والخبرة والتفاني في الوظيفة.

وكان هناك أيضاً المدير أمير ميرغني رئيس قسم الأقطان، وهو رجل آخر يتميز بلطف فطري، ومستوى مشرف من التقدير والنزاهة. وكان الفريق يضم أيضاً دبلوماسيين مرموقين على مستوى رفيع من الأداء والمهنية، مثل عبدالله عباس ويوسف ومحمد صلاح وميرغني وهاشم.

كنت حديث عهد بسويسرا، ولكنني كنت أعلم أنها دولة أوروبية صغيرة منغلقة على نفسها، وأنها نأت بنفسها عن الحروب بأشكالها المختلفة منذ مئات السنين، وأن نظامها البنكي هو الأكثر سرية وصوناً في العالم. وجدتها دولة ساحرة هادئة تدعو لالتقاط الأنفاس والتأمل فيها، لم تتأثر مطلقاً بما حدث لجيرانها من دمار وضرب بالقنابل. بينما تعرضت كل من برلين ولندن وفيينا وبودابست لضرب مكثف بالقنابل خلال الحرب العالمية الثانية، نجت كل من زيوريخ وجنيف وبازل من ذلك الدمار وقد حفظت مساكنها التاريخية وشوارعها بشكلها الطبيعي التي لا تزال قائمة. اعتدت في الأمسيات أن أخرج بمفردي من شقتي الصغيرة المخصصة لأمثالي من غير المتزوجين، وأتجول في الشوارع القديمة والمساكن ذات الطابع الغريب، وأستنشق هواءها ذا الديمة السليمة. وفي أوقات أخرى حينما لا أكون مشغولاً أنتهز فرصة السير على شاطئ بحيرة ليمان لاستنشاق الهواء الرطب وربما لبعض التمارين الرياضية. إنها واحدة من أكبر البحيرات في أوروبا، ومع ذلك لم تأخذ حظها من الدراما العنيفة للنيل. ولكن ما كانت تتميز به من سكون زجاجي ترك أثراً عميقاً في مخيلتي ووجداني.

في ذلك الوقت كنت غارقاً بشدة في ما كلفت به من أعمال، وكان أول اجتماع شاركت فيه في جنيف ما سمي بـ «مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية»، ويعرف أيضاً بـ «ينكتاد»، وكان قد طلب مني تقديم ورقة للمؤتمرين بشأن قواعد السلوك في حال نقل التكنولوجيا، ولا بد أنها قد أنت بنتائج باهرة للغاية لأنني عُينت لاحقاً منسقاً والمتحدث الرسمي باسم إفريقيا وجميع الدول النامية. ما زلت أذكر تلك الفترة بشكل جيد للغاية إذ أتيح لي اثناءها مقابلة وقيادة العديد من الشخصيات المهمة وكبار الدبلوماسيين.

كذلك نما إلى علمي أن الدكتور أرباد بوقش المدير العام لمنظمة حماية حقوق الملكية الفكرية حينها، كان مهتماً بالموضوعات التي كنا قد ناقشناها. في ذلك الوقت كانت بعثتنا وبعثة المملكة العربية السعودية وبعثة نيجيريا ومكتب البنك الدولي جميعهم يستأجرون مساحة محددة في مباني المنظمة الدولية للملكية الفكرية. خلال اجتماع مختلف آخر لدى تلك المنظمة كنت استمع باهتمام شديد إلى الموضوعات المذكورة في جدول الأعمال وإلى ما كان يقوله الدكتور بوقش بشكل محدد. وما كان يرد على لسانه من قول قد ترك أثراً فاعلاً في أعماقي. وفي وقت لاحق من ذلك المساء عدت بذاكرتي إلى عهد الطفولة، وكيف أنني كنت أعمل في المصانع البدائية لصناعة الورق. أحسست بأنني إذا كنت قادراً على لعب دور ما في حماية عمل المؤلفين والمخترعين من السطو عليها وسرقتها، ربما ساعد ذلك بطريقة ما الدول النامية في تقوية اقتصاداتها.

كان ذلك ربما هو الانعكاس المبكر الذي استقيته، غير أنه وطّد لي خططي المستقبلية. كان واضحاً من خلال الاجتماع أن السيد بوقش كان ينوي تغيير نائبه السيده لوبوي من ساحل العاج ليحل محلها السيد مارينو بورزيو من شيلي. مرة أخرى كنت أراقب السيد بوقش عن قرب. بشعره الأبيض وملابسه صارخة الأناقة، وهو يجلس معتدلاً على كرسي مكتبه بعيونه الزرقاء التي يشع منها الذكاء. قوي الشكيمة ينضح سلطة وتحكماً على المواقف. كان يمتلك الشيء الذي يعرف فوراً بـ «الحضور». كان حازماً لبقاً وصارماً في إدارة الاجتماعات. أما السيد بورزيو فقد تمت المصادقة عليه بالإجماع ليصبح نائباً عاماً له. لم يحن لي وقتها مقابلة أو التعامل مع الدكتور بوقش، ولكنني كنت قد تحصلت على مقدمة معرفية عميقة الجذور لأعمال المنظمة الدولية للملكية الفكرية وما تقدمه من فوائد ضخمة للإنسانية في حماية أصول ممتلكاتهم الفكرية.

لاحقاً قررت المنظمة الدولية للملكية الفكرية زيادة أعداد موظفيها، وبالتالي كان لزاماً علينا البحث عن مبنى آخر. عقب تحركنا مباشرة طلب مني بإلحاح أن أواصل عملي كمتحدث رسمي لمجموعة الدول النامية في كل الأمور مثل تحويل التكنولوجيا، وممارسات العمل التجاري، وتنمية الاقتصاد وحقوق الملكية الفكرية. لقد كانت فرصة ممتازة بالنسبة لي للتحدث مع السفراء وكبار المسؤولين. أتاح لي وضعي آنذاك أن أتحرك ضمن الدوائر المؤثرة في جنيف. وتدرجاً أصبحت أكثر تعريفاً لدى المجتمع الدولي. وفي ذلك العمر الصغير نسبياً، صارت مسؤولياتي وواجباتي من الثقل بمكان وتحملت أعباء كبيرة بشكل غير مسبوق، وكنت أحياناً أتحدث إلى نفسي كيف أن ذلك البدوي القادم من أرض النيلين والذي تمرغ في عمالة الأطفال من قبل، قد قاده التجوال إلى هذا الحد.

كذلك عرفت أن مركزي الوظيفي وأعمالني مع «مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية» «ينكتاد» تعد مكملةً لنظرة التقييم الشاملة لأولئك الذين تضعهم المنظمة الدولية للملكية الفكرية في أجندتها للعمل معها، ذلك أن كلا المنظميتين كانتا تنويان إزالة الغموض الذي اكتنف الملكية الفكرية وتبرزان فوائدها لكل دول العالم - بدءاً من أشد الدول ثراء وتقدماً إلى أكثرها تخلفاً وفقراً.

ثم حدثت فترة انقطاع. لقد تم اختياري في العام 1980 للعمل، ضمن بعثة السودان الدائمة لدى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، في مؤتمر قانون البحار، حيث انتخبت مقررًا للجنة الثالثة لأعمال البحار والبحوث العلمية. بقيت هناك لبضعة أشهر وكل الاجتماعات كانت تنتهي تقريباً بالنجاح التام، مما أدى في مرحلة لاحقة إلى تكوين هيئة أعماق البحار.

بالعودة إلى جنيف لم أكن على دراية بأن نشاطي كان مراقباً بشكل لصيق من قبل المنظمة الدولية للملكية الفكرية، وفي العام 1982 دعيت للاجتماع مع نائب مدير المنظمة السيد مارينو بورزيو وهو رجل حضري مهذب أنيق الملبس ومحام من صفوة مجتمع شيلي، وقد كان يعمل

تحت إمرة رئيسه دكتور بوقش. كان اجتماعاً ودياً مفيداً في مقر بعثتنا، ولدهشتي علمت منه أن لديهم الرغبة في توظيفي معهم. ولاحقاً قدم لي السيد بورزيو عرضاً للعمل مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية، ولكن كان علي أن أرفض العرض لأنني وقتها كنت سعيداً بلعب دور كبير في وظيفة مرموقة عليا كمتحدث رسمي حر ومنسق لمجموعة مهمة من الدول. ولم أود أن أكون سبباً في خذلانهم. بعد ستة أشهر أخرى اتصل بي مجدداً، ولكنني أيضاً رفضت طلبه تلك المرة. وأخيراً دعاني الدكتور بوقش شخصياً للاجتماع معه وحينما عرض علي طلبه بالعمل معهم، علمت في تلك السانحة أنه يجب علي إعادة النظر في قراري.

لم أكن متأكداً من كيفية استجابتي لطلبه فقلت لهم إنني سوف أفكر بالأمر، ولكنه أخيراً طلب مني أن أتقدم لوظيفة ضابط برامج أول في ما كان يعرف بأنه قسم التعاون الفني. كان التنافس حاداً على الوظيفة وتم اختيار الكشف القصير للمتقدمين ولكن تم قبول طلبي بنجاح وبدأت العمل مع المنظمة الدولية للحقوق الفكرية في 31 ديسمبر 1982. كان القسم الفني ينقسم إلى ثلاث إدارات: أفريقيا، آسيا والباسيفيكي، ثم أميركا اللاتينية والكاربيبي. تم وضعي في الإدارة الأولى مما كان يعني أن أسافر بكثرة إلى دول القارة الأم، وكنت أعمل تحت إشراف المرحوم السيد إبراهيم ثيام الذي أنذره بحرارة كرجل لطيف المعشر، متدين وعلى خُلُق ونزاهة عالية. وبعد حوالي سنتين أو أكثر قليلاً تقرر إنشاء إدارة أخرى هي الإدارة العربية، وأجريت منافسة حول من سيكون مديرها الأول. وقد كنت سعيداً بالفوز بقيادة هذه المجموعة وترقيت إلى رتبة موظف خدمة مدنية دولي من ب - 4 (ضابط برامج) إلى دي - 1 (مستوى المديرين)، وكانت ترقية غير مسبقة.

أصبحت الآن أعمل في مناخ مألوف تماماً بالنسبة لي، وكانت طبيعة عملي الاستشاري تتطلب مني زيارة كل الدول العربية. وبذلك المستوى كان علي أيضاً أن أعقد اجتماعات مع قيادات جامعة الدول العربية، والوزراء المهمين وسفراء الدول المختلفة. وما أن تفهمت جيداً طبيعة عملي ومتطلباته بدأت في تنفيذ جدول أعمالي بشكل لصيق، تماماً كما كنت أفعل في بداية حياتي، وقد تعلمت أنني كلما حرصت على أداء خططي اليومية وتنفيذها بتفاصيلها فبإمكانني المضي في دراساتي الأكاديمية. التحقت بجامعة جنيف للدراسة لدرجة الدكتوراه في القانون الدولي، وتخرجت بتقدير امتياز في معهد الدراسات الدولية العليا المحترم في العام 1984. وكنت فخوراً بهذا المؤهل الرفيع، وأكثر منه حينما هنأني الدكتور بوقش خلال اجتماع العمل اليومي العادي. وكان قد بدأ بتلويح أطروحتي في الهواء أثناء الاجتماع، في نشوة طاغية كمثال على ما يمكن أن يكون مكافأة للعمل الجاد المكثف!

## الفصل التاسع

### الزواج والصعود إلى أعلى السلم

«العقول الهادئة لا يمكن أن يعترىها القلق أو الخوف  
بل تسعى، بما قدر لها من حظ أو سوء طالع وفقاً لمخططها  
الخاص في الحياة، تماماً كساعة الحائط التي تواصل  
دقاتها أثناء زوبعة رعدية».

(آر إل ستيفنسون. روائي اسكتلندي وشاعر. 1850 - 1894)

«حسد الآخرين يسمم الروح»

(كامل إدريس)

◀ كانت طويلة القامة بشعرها الأسود الذي يتدلى على كتفيها وعينيها العسليتين الداكنتين ولون جسمها الذهبي المشع. كنا نعرف بعضها منذ الطفولة، وكانت كلما امتد بها العمر اكتنزت حلاوة. كانت في سنها الواحدة والعشرين وما تزال حينها تدرس التجارة والأعمال التجارية. كانت صغيرة السن حين توفيت والدتها، وبما أنها أكبر أخواتها فقد آلت على نفسها أن تشرف على تربية أشقائها من البنين والبنات على السواء. كبرت ونضجت كشابة زاخرة بالجمال وطيب الخلق، وأعتقد أنها أحست بميلي نحوها.

كنت آنذاك في حوالي الثلاثين من عمري، وكانت الإشارات التي تأتي من أسرتي بأن «فلانة فتاة



لطيفة وفلانة أيضاً» و«أليست تلك وتلك قد بلغن من الجمال مبلغاً؟ كلها موجهة إلى إنهاء حالة عزوبيتي. كنت أعلم جيداً أن عادات الزواج في السودان ذات جذور عميقة في الثقافة السودانية وكان علي أن أتبع بروتوكولاً صارماً إذا كنت محظوظاً بحق في الظفر بعزة كزوجة لي. وكنت أعلم جيداً أنها تشاركني الأحاسيس ذاتها إذ كنا نلتقي كثيراً، عادة تحت مرأى وسمع واحدة أو اثنتين من العمات. كان والد عازة محي الدين مبروك قد تزوج ثانية عقب وفاة زوجته الأولى. كان ضابطاً عسكرياً محترماً يشغل وظيفة رئيس هيئة أركان القوات الجوية السودانية والقبطان الموثوق به لقيادة طائرة رئاسة الجمهورية، بجانب كونه محامياً مؤهلاً. كان له حضور مشرف في المجتمع المحلي، وبما أن العائلتين تمان لبعضهما بصلة قرابة فكنا على معرفة وطيدة بين طرفينا. وكان الأمر يتطلب مني أن أكتب له رسالة مبدئية مستندناً إذا كان بإمكانني الزواج من عازة.

من ناحية عامة، في السودان كان يتوقع من الرجل قبل أن يخطو نحو الزواج، أن يكون ذا وضع اقتصادي جيد وقادراً على إعالة أسرته. إضافة إلى أن العروس أيضاً تتوقع منه أن يقدم لها من الحلي والملابس ما يشرفها كزوجة. ويتطلب الأمر بالضرورة أن تتفق الأسرتان على بعض الترتيبات الضرورية المبنية على التقاليد السائدة، وما أن تكتمل هذه الترتيبات حتى يصبح بالإمكان أن تبدأ مراسم الزواج. حدث ذلك في العام 1986 وكان السودان كغيره من دول متعددة أخرى يتمسك بقوة بتقاليده المستندة إلى عادات ضاربة في القدم.

تم عقد القرآن والاحتفال الأساسي بالزواج في مسجد مجاور حوالي الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين الموافق الخامس من شهر مايو عام 1986. لم نكن أنا وعزة حضوراً. كنا في منازلنا فيما تولى ممثلو عائلتي الإجراءات الرسمية إنابة عنا. كان ذلك هو الجزء الأساسي الأكثر أهمية في عملية الزواج، بحضور الشهود والمراقبين والضيوف الذين شهدوا الجوانب الشرعية والسماع لخطبة دينية قصيرة. تبع ذلك تقديم الأطعمة والمشروبات في ساحة المسجد الخارجية، ولكي يتم إشهار الأمر وإخبار الجيران كافة جرت العادة أن يقوم أحد الحاضرين بإطلاق أعيرة نارية في الهواء.

كان ذلك الحدث هو الإشارة لما هو قادم من أفراح ستبدأ مباشرة. أقيمت حفلة زفافنا في فناء كبير داخل منزل عازة وقد نصبت خيمة ضخمة لاستقبال آلاف الضيوف الذين حضروا داخل الخيمة وخارجها، والبعض جلوساً وكثير وقوفاً، فضلاً عن الكثيرين دخولاً وخروجاً.

كنت قد منحت إجازة بالتغيب عن العمل لهذه المناسبة، وبعد قضاء شهر عسل قصير في القاهرة عدت برفقة عازة إلى جنيف. كان الضغط علي في الوظيفة يزداد باستمرار، وبحكم منصبتي كرئيس لإدارة العربية عدت فوراً للتعامل مع كل الدول العربية والمنظمات الإقليمية بما فيها الإيسيسكو واليونسكو، وجامعة الدول العربية واتحاد مجالس البحوث العلمية العربية، وآخرين من شاكلتهم. كانت تلك الأعباء تتطلب ضرورة سفري في فترات منتظمة، وفي البداية لم أكن متأكداً من بقاء عازة بمفردها في هذه المدينة المزدحمة أثناء غيابي. ولكني لم أكن في

حاجة كبيرة للقلق عليها فقد كان لها من الهوايات العديدة ما جعلها مشغولة بشكل يَبِّن، كما أمكنها أن تختار عدداً من الأصدقاء بكل سهولة. وكانت إمكانياتها الأساسية تنحصر في التصميم الداخلي والديكور، وزيارة المعارض والمتاحف في المنطقة. كما أسعدها أن تقود سيارتها بنفسها وهي سيارة جيب ذات دفع رباعي، مما جعلها في مأمن من مشكلات الصقيع والجليد المتساقط شتاءً. وأمكننا أن نشترى منزلاً صغيراً في أطراف المدينة يقع وسط مزرعة من العنب. وكانت عازة سعيدة بإجراء الديكور المطلوب عليه وجعله قابلاً للسكن بشكل طيب، كما استطاعت أن تجعل لغتها الفرنسية أكثر جودة.

كنت في ذلك الحين أعمل بشكل لصيق مع رئيسي المباشر الدكتور بوقش. لقد كان رجلاً رائعاً في العديد من الجوانب وقد أسعدني كثيراً أن أعمل معه. كان مهتماً بإصرار بالدقة في العمل والكفاءة في الأداء، وأكثر حرصاً على مناقشة أدق التفاصيل، وعليك أن تكون دائماً على استعداد للاجتماع معه، وكان أستاذاً في كتابة المسودات والمذكرات، ويتلخص أسلوبه في طرح الأسئلة للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات قبل أن يتخذ قراره، وكانت مشكلتي تكمن غالباً في عدم معرفتي مسبقاً بما ينطوي عليه الاجتماع من أجندة قبل انعقاده. وفي كل الحالات كان لا يجدي معه أن تمارس «الفهولة» أو تتوقع أفضل النتائج! لقد سافرت معه في رحلات خارجية متعددة، وكان يتوقع مني دائماً معرفة من الذين حضروا معنا الاجتماعات والمؤتمرات التي عقدناها. وكان ذلك يعني أن أبذل جهداً في البحث السريع عن معرفة أسماء المسؤولين الذين نجتمع معهم مع تذكر مراكزهم الوظيفية، وذلك بغرض إذا حدث أن طلب منه الحديث في أي اجتماع لكي يكون عالماً بمن سيخاطبهم. اكتسب الرجل سمعة محترمة في مجال العمل، ولكن في بعض الأحيان كانت اجتماعاته مع موظفيه مما يثير التوجس والضجر.

وفي مناسبة ما أصبح الجو مكفهرًا حينما وجهت له سؤالاً مباشراً. لقد كان ذلك أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولا أبالغ إذا قلت إن حياتي العملية بأكملها كانت سوف تتأثر إذا صدرت منه ردة فعل مغايرة. كان ذلك في وقت متأخر من النهار في مكتبه بجنيف، وكنت أنا وأربعة آخرون في مناقشة لمشكلة حدثت في ما كانت وقتها تسمى «منظمة الملكية الصناعية الإفريقية». كان يوماً ساخناً ومملاً وكنا جميعاً متعبين للغاية. وكعادته أطلق الدكتور بوقش العديد من الأسئلة الساخنة طالباً البحث عن حل سريع للمشكلة.

كان واضحاً لنا شعوره بالضيق والتملل من عدم اهتمامنا بالأمر، وفوراً بدأ يتداخل مع كل فرد منا بشكل مباشر، بمن فيهم شخصي. وأظن أنه اعتقد أن عجرفة أكثر من اللازم قد أصابتنا، ولكننا عرفنا على الفور أنه كان يتجاهل محاذيرنا بشأن بعض المشكلات السياسية وما يتبعها من حساسية لدى إحدى الدول الأعضاء في المنظمة.

حينما تداخل معي للمرة الرابعة أو الخامسة نهضت واقفاً وقلت له إنني على استعداد لمغادرة الحجرة كمبدأ احتجاجي. قلت له أن الأوان لئن تستمع لنا بدلاً من مقاطعتنا، وأن هناك

تعقيدات حادة لابد من مراعاتها والتصدي لها قبل اتخاذ القرار المناسب. ساد الحجرة صمت مطبق فيما اعتدل الدكتور بوقش في جلسته، رمقني بنظرة صارمة في وجهي مباشرة ثم نظّف حلقه توطئة للحديث. اعتقدت حينها أنها النهاية. اعتقدت أنني سوف أفقد وظيفتي. وكنت قادراً على رؤيته وهو يفكر في ما كان سيقول من ردة فعله.

«لا أعتقد أن أحداً تحدث معي بتلك الطريقة من قبل»، ثم اتكأ مرة أخرى على الكرسي.

وبدلاً من أن يطلب مني مغادرة الغرفة، بدأ صوته أكثر هدوءاً، وأقر بأنه كان من الأفضل لو أمضينا المزيد من الوقت حول اتخاذ القرار المناسب. لم يحدث اعتذار مباشر ولكنني أعتقد أنه قد توصل إلى حقيقة أنه كان متسرعاً أكثر من اللازم. فرجت الأزمة، وانطلقت الأسارير ممزوجة ببعض الآهات المعبرة عن الارتياح من زملائي... وانتهى الأمر بسلام.

كان ذلك هو الجانب المهني للرجل، ولكن بمرور الأيام أمكنني رؤية جانب آخر لهذه الشخصية. كان رجلاً ذا خصوصية واضحة ولكن أحيانا كان القناع الرسمي يسقط من وجهه ليبدو الجانب الإنساني مكشوفاً. أتذكر مرة أن إبني الأكبر الحالي كان في صغره مرافقاً لوالدته في زيارة للسودان وهناك أصابه المرض، وقد علم الدكتور بوقش بذلك. كنا معاً أنا وهو في زيارة رسمية لسوريا، وكنت قلقاً من أن إبني لن يتحصل على العلاج اللازم له في السودان.

هنا أصر الدكتور بوقش على المساعدة، وقبل أن أفعل أي شيء كان قد اتخذ قراره بإرسال الدواء اللازم جواً وبالبريد المستعجل للسودان. هناك قلة من الناس من يعرفون هذا الجانب من شخصيته وطبيعته، وذلك أمر محزن، إذ أن معرفة ذلك الجانب من حياته كان من شأنها إضافة المزيد لرصيده الطيب من الإرث. كان يتمتع باحترام وافر من الناس ولكن الجانب الإنساني منه كان لا يزال مخفياً. ولا أتردد أبداً في القول إنه كان واحداً من أكثر الناس تأثيراً وإعجاباً لدي ممن عملت معهم وقابلتهم في حياتي، بل في أحيان أخرى كانت تشع منه لمحة من العبقورية والنبوغ. استمر عملي بشكل جيد. واستقر بنا المقام في جنيف تماماً، وبدأت عازة تكرمني بالذرية. بإمكانني تكبير الصورة التي توضح كيف أن الحياة في أسرة مستقرة تشكل أساساً متيناً للسعادة والرفاهية، والآن، في هذا الوقت، وأنا أكتب هذه المذكرات، لدينا ستة من الأبناء والبنات: محمد (27)، دينا (24)، داهليا (22)، دعد (20)، مؤمن (15)، ومنيب (5 سنوات). باستثناء منيب الذي يدرس حالياً في إحدى المدارس الصغرى في بريطانيا، فإن البقية كانوا قد تلقوا غالبية تعليمهم في المدارس العالمية في جنيف حيث أمكنهم تكوين العديد من الصداقات مع زملائهم التلاميذ المتحدرين من مختلف الأعراق والديانات، وأعتقد أن ذلك ساعدهم كثيراً في توسيع مداركهم وتفهمهم للحياة بشكل أكثر وضوحاً، وقد أحسنا بالرضا حين تأكدنا بأنهم جمعوا بين تمسكهم بالعقيدة الدينية الرحيمة وإيمانهم بطيب الخلق والعمل الشاق والأمانة في تعاملاتهم مع الآخرين. وكنت بصفة خاصة أكثر سعادة حينما دعت داليا زميلتها اليهودية للزيارة في المنزل. لقد ظلتا صديقتين طيبتين لفترة طويلة من الزمن. ماذا يضير إذا ترك الآخرون خلافاتهم وتعصبهم

وما يحملونه من تصورات وتحاملات مسبقة، وراء ظهرهم كما يفعل الصغار في سهولة وعفوية...؟ في العام 1991 تم انتخابي بواسطة الجمعية العامة للأمم المتحدة للعمل في عضوية لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي، وهي وظيفة خدمت فيها حتى العام 2000. في البداية كان كل من الدكتور بوقش والسكرتارية العامة في نيويورك غير موافقين على هذا الاختيار بحجة إمكانية تضارب المصالح. وسمح لي كُرهاً بالتنافس على الوظيفة شريطة أنه في حال نجاحي في الحصول عليها أن أتقدم بإخطار التخلي عن المنظمة الدولية للملكية الفكرية فوراً. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تواجه فيها الأمم المتحدة عملية مثل هذه، كما أنهم كانوا غير متأكدين من كيفية الاستمرار فيها. قبلت ذلك الشرط وتم إجراء الانتخابات في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. ويسعدني القول إنه رغم وجود قائمة طويلة من المتقدمين الأكفاء، فقد تم اختياري بنجاح. وعند عودتي إلى جنيف حررت خطاب استقالي التي كانوا يتوقعونها. أعددت نفسي للرحيل من جنيف، وكانت عازة كالعهد بها في مستوى لامحدود من الدعم والمساندة. كان مقررنا أن نقيم في منطقة أخرى لا دراية لنا بها، ولكن نداءها الذي كانت ترفعه «دعنا نتحرك للأمام»، كان زاداً لي في كسب المزيد من الثقة للمضي قدماً.

ما حدث عقب ذلك كان قد ألجم لساني عن الحديث، فقد رفض الدكتور بوقش إخلاء سبيلي ولكنه أعطاني ذريعة للهرب، وتلخص في أن أوصل عملي مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية على أن أعمل مع لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي أثناء غيابي في أي من عطلاتي السنوية. كان منصب الأمم المتحدة ذا طبيعة ملحة، ولكن العمل فيه يتطلب أن يكون بشكل غير متفرغ فقط. أعتقد أن الدكتور بوقش كان كريماً معي في عرضه لهذه التسوية المناسبة، وقد أظهر لي بعض المرونة والمعقولة في هذا الدور الذي لعبه، مما رفع احترامي له بشكل كبير. أصبحت بعد ذلك أرتدي قبعتين في آن واحد وارتفعت طاقتي للعمل نظير ذلك التحدي. وكجزء من عملي أُنْتُخِبْتُ نائباً لرئيس مجلس الإدارة في العام 1993، كما عملت أيضاً ضمن لجنة مجموعة العمل في وضع مسودة قانون لتشكيل محكمة الجنايات الدولية.

تم إعادة تعييني للعمل فترة إضافية مع لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي من عام 1996 إلى 2000. وتلك كانت قصة مثيرة بحد ذاتها. نافست في انتخابات نظمها الجمعية العامة في الأمم المتحدة لفترة ثانية في عضوية لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي. تسلمت تأكيدات من عدد كبير من الوفود الأعضاء بتصويتهم لصالحني كما فعلوا في الفترة الأولى. ثم غادرت نيويورك قبل أسبوع من إجراء الانتخابات.

وفي وقت متأخر من الأمسية التي سبقت إجراء الانتخابات، كانت هناك مذكرة متداولة بكثرة في أوساط الأمم المتحدة (صدق أو لا تصدق) أصدرتها البعثة الدائمة للسودان في نيويورك، بسحب انتخابي من قائمة الكشف العام للمرشحين. لم يكن هناك أحد كان يعتقد أن تلك المذكرة مزورة. وكانت النتيجة من البساطة بمكان: لم أحظ بالعضوية هذه المرة إذ تم سحب

إسمي من القائمة. كان العديد من الناس غير راضين عن هذا التصرف، ولكنني فوضت أمري إلى الله ومارست أعمالتي بشكل عادي.

قبل أن يكتمل انتخاب العضوية الجديدة للجنة كان أحد المرشحين قد توفي. وفي مثل هذه الحالات ينبغي على أعضاء اللجنة أنفسهم إجراء التصويت لملأ ذلك الفراغ. وكان ترشيحي قد لقي تشجيعاً واسعاً في أوساط الأمم المتحدة... وتم قبول الترشيح. ولاحقاً تم انتخابي من بين قائمة المرشحين الطويلة وأصبحت عضواً مرة أخرى بعد أسابيع قليلة فقط من تلك المحاولة الخبيثة التي استهدفتني. الله أكبر!

في تلك الفترة كان عملي مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية يسير بصورة طيبة، وحدث في عام 1993 أن قرر الدكتور بوقش ترفيع منصبي من دي - 1 إلى دي - 2 أي من الوضع الإداري الأصغر إلى وضع كبار المديرين. اعتراني شعور بالإطراء والزهو حينما سئلت، ولكنني اعتقدت أيضاً إذا وافقت على ذلك الترفي ربما تكون تلك فرصتي الأخيرة في الصعود إلى أعلى، وللأمانة أشير إلى أنني كنت أسعى بدلاً من ذلك إلى شغل منصب نائب المدير العام للمنظمة. وفي فترة من تلك السنة كان الدكتور بوقش قد قدم إلى لجنة التنسيق أسماء شخصين، مقترحاً أن يملأ أحدهما وظيفة نائب المدير العام للمنظمة، ولكن أياً منهما لم يتم التوافق عليه.

عقب فشل اختيار أي من المرشحين المذكورين، طلب مني الدكتور بوقش أن أتقدم بترشيح نفسي لمنصب نائب المدير العام للمنظمة.

كانت تلك أخبار سارة بالنسبة لي، ولكنني كنت أعلم قبل إبداء موافقتي على الترشيح يلزماني بعض الوقت ريثما اتصل مع ممثلي الدول الأعضاء في المنظمة للإطمئنان على حصولي على دعم قوي ومؤثر. ولم أكن بحاجة كبيرة للقلق إذ بعد أسبوعين فقط تم اختياري بالإجماع نائباً للمدير العام للمنظمة، وكان يوم 29 من يوليو 1994 هو اليوم الأول الذي شهد منصبي الجديد. كانت مسؤوليتي الأساسية تتلخص في تطوير دول المنظمة على نطاق العالم، وكان ذلك يعني أنه خلال السنوات المقبلة يلزماني السفر بصورة مستمرة للاجتماع مع قطاع كبير من رؤساء الدول والوزراء وكبار الدبلوماسيين.

وفي العام 1997 أعلن الدكتور بوقش أن منصب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية سيكون شاغراً، طالباً من الدول الأعضاء أن تتقدم بأسماء مندوبيها لشغل الوظيفة. وبما أنني كنت نائبه، فقد دخلت حلبة السباق أيضاً. وأياً كان الأمر فقد كنت موقناً بأنني لم أكن مرشحه المفضل، إذ كان يفضل أن يخلفه السيد فرانسوا كورشود، وهو رجل كان قد أسس معه علاقة ودية ومهنية طويلة الأمد. وكان السيد كورشود رجلاً متمرساً وخبيراً مهنيّاً بامتياز، وهو حاصل على الجنسية المزدوجة لكل من فرنسا وسويسرا. كما كان هناك مرشح داخلي أيضاً هو السيد كارلوس فيرنانديز باليسترورس، أوروغواني محبوب ومنفتح على الآخرين ومتحدث لبق، يدخن السيكار ومن المقربين للدكتور بوقش.

جرت الانتخابات تحت إشراف السفير السابق لألمانيا لدى الأمم المتحدة السيد ويلهيلم هونيك، وكانت نزيهة للغاية وشفافة. كنت متأثراً كثيراً بحضور الرجل وما يملكه من سلطة فطرية متأصلة، وأحسست أنه مهما حدث فإنه ولجنته التنسيقية التي تعمل معه لن يألوا جهداً ما وسعهم ذلك للتأكد من اختيار المرشح الأفضل. كنا إثني عشر مرشحاً للوظيفة بمن فيهم أربعة مرشحين من الداخل، وعقب جولة استطلاعية سريعة وغير رسمية بغية تحديد أفضل المرشحين، بدأت العملية الرسمية للفرز. كنت في مقدمة المرشحين خلال الجولات المبدئية، ويellini المرشح الفرنسي السيد جاك ميشيل. وبفضل الله أمكنني أن أظل على رأس القائمة في الجولة النهائية وفزت في الاختيار بغالبية مريحة. ويا لها من جولات كانت قاسية بحق.

أصبحت المدير العام وكنت فخوراً للغاية بحقيقة أنني أول مرشح من دولة نامية يتولى رئاسة هذا المنصب المرموق. بقي لي الآن أن أختار مكتب الرئاسة أو فريق المستشارين الاستراتيجيين. قررت أن جميع المرشحين الداخليين الذين تنافسوا على الوظيفة يجب أن يبقوا في مواقع عملهم الأصلية، وفي اليوم التالي للانتخابات مباشرة أعلنت الوضع الجديد بحضور الدكتور بوقش. كان هناك بالطبع إكليشيه يشير إلى أن الرجال الأقوياء عادة ما يختار أحدهم فريقاً ضعيفاً من معاونين حتى يمكنه احتواءهم. وهذا النوع من الناس لا يود مواجهة التحديات من أحد وأن تبقى دائرته الضعيفة من «الرجال الخنوعين» تؤدي واجب التملق والمداهنة لكي تعيش بسلام. وعلى المدى الطويل، على أية حال، سيحدث ما هو متوقع وسوف يتخطاهم الزمن ويفقدوا اتصالهم بالواقع المعاش، وأخيراً يتم عزلهم عن الحقيقة الماثلة.

بعض السياسيين وقادة الدول الذين كنت قد تعاملت معهم كانوا من الذكاء بمكان حيث اختاروا بطانتهم من خبراء يتمتعون ببعد النظر والفطنة. كنت أود أن أعمل الشيء نفسه، وبالتأكيد لم يكن بوسعي أن يبقى معي أولئك «الإمعات». وكبادرة ولمحة تقدير للمدير الذي غادرنا للتو، فقد أطلقت إسم الدكتور بوقش على المبنى الرئيس للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

كذلك أردت أن أعرف على المجموعة التي تعمل معي على كل المستويات بدءاً من أعلى الهرم وحتى الموظفين العاديين في أسفل الهرم.

لم تفارقني أبداً تجاربي السابقة التي مارستها في عمالة الأطفال، ورغم أنني الآن في القمة، فأني أتفهم محن وعذابات الساعات الطويلة من العمل المرهق وما ينتج عنه من أجر قليل أو حتى عرفان بالجهد الذي بذل، وحينما يكتنفك الخوف من فقدان الوظيفة في أية لحظة، أو الوقوع في براثن رئيس لئيم قاس بإمكانه أن يحيل حياتك جحيماً. أنشأت نظاماً داخلياً لتلقي المظالم حتى يجد العاملون فرصتهم العادلة في السماع لهم إذا كانت لديهم شكاوى من سوء استغلالهم أو إحساس بسوء معاملتهم، كما بدأت في تنفيذ شروط جديدة للخدمة والفوائد بشكل أفضل مما كانت عليه.

أما وقد اكتملت تلك التعديلات الداخلية، فقد آن الأوان للتحرك قدماً. شعرت بأنني كنت



في موقف يمكنني من تنظيم مصالح القارة الإفريقية ورفعها، وكذا للدول النامية كافة من دون التطرق بشكل مكشوف لمواجهة الأسس المتبعة لتنفيذ الأعباء. كنت متحمساً وشغوفاً حول الحاجة لحماية الملكية الفكرية وبراءات الاختراع حتى يطمئن المستثمرون والباحثون بكل ثقة أن اكتشافاتهم وأفكارهم سوف تحظى بالرعاية والتنمية الأصلية. وكمثال لذلك في الحقل الصحي مثلاً، ما يتصل بالأودية والعقاقير الجديدة الأفضل نوعية، المخصصة لمكافحة الأمراض، ينبغي ألا تقدم للسوق من دون الإشارة إلى الطريقة التي صدرت بها براءة الاختراع، والسبب أن هناك حاجة للسرية تم التفاهم عليها. وهناك مناح أخرى في حاجة للحماية وتشمل التكنولوجيا، وعلامات التصنيف، والاختراعات، والتعليم، والقانون الدولي، والماركات التجارية، والأعمال الأدبية والفنية. كانت تلك الأمور تبدو معقدة، ولكنها حيوية بالضرورة لأي دولة نامية في سعيها للتحديث والنمو. وباختصار، كنت أود إعادة تشكيل المنظمة الدولية للملكية الفكرية بانتشارها وتمتين دورها ومكانتها وسمعتها عبر العالم وامتدادها كذراع عالمية مساعدة.

كان الواجب الملقى على عاتقي من الثقل بمكان. ولكنني أؤمن بأن الأشياء الصغيرة من شأنها أن تترك أثراً معتبراً. ليس هناك أناس كثيرون يتقاضون راتبين معاً، ولكنني كمدير عام للمنظمة كنت أيضاً أتقاضى راتباً عن اختياري أميناً عاماً لما يسمى (اتحاد حماية الأنواع الجديدة من النباتات).

خصصت ذلك الراتب الثانوي لإرساله للبلدان التي تستحقه، وبدلاً من السفر على مقاعد الدرجة الأولى قررت السفر على درجة رجال الأعمال أو الدرجة السياحية مع بقية زملائي. وكنت أؤمن قاطعاً بأنني كلما كنت أكثر انفتاحاً وأكثر التصاقاً كرئيس للمنظمة كلما سارت أعمالها في سلاسة ويسر أكثر.

ولقناعتي بأن اللمسة الإنسانية من الأهمية بمكان، فقد كنت في حال الاجتماعات مع وفود من دول أخرى، أحاول منحهم فرصة ومساحة للتشاور والتفاكر في ما بينهم قبل انعقاد الاجتماعات الكبيرة، مؤكداً لهم أن أصواتهم سوف تسمع. وأعتقد أن ذلك كان يمنحهم الإحساس بالمشاركة الفاعلة، وأن مساهمتهم لها وزنها من الأهمية، كما ساعد هذا الإجراء في تقليل نسبة الخلافات غير الضرورية خلال الاجتماعات الرسمية. إضافة لذلك، ورغم أنني أتجه غريزياً إلى مساعدة الدول النامية، كنت أحاول جاهداً ألا أبدي أي نوع من المحاباة تجاه أي دولة أو منطقة بعينها.

في تلك الفترة كانت الملكية الفكرية لا تحظى بتأثير كبير إلا في الدول المتقدمة اقتصادياً أو تكنولوجياً. أما الآخرون وبكل بساطة لم يكونوا يملكون الموارد والخبرات اللازمة لإعداد أنفسهم، أو الوعي والإدراك حول كيفية ما يمكن أن تقدمه لهم من فوائد. وكبداية قررت إعداد خطة ثلاثية متشعبة للتصدي لهذه المشكلة: أولاً، ينبغي علينا إعلام الدول النامية بما تقدمه لهم الملكية الفكرية من فوائد. وحتى تعم الفائدة فقد ألفت كتاباً يبين فوائد وقيم الملكية الفكرية باعتبارها «معولاً جباراً» للنمو الاقتصادي. ثانياً، كان يلزمنا توفير كل المساعدات التقنية الضرورية لهم



حتى يمكنهم بواسطتها إجراء التسجيل الرقمي وبراءات الاختراع وحماية كل ما ظهر من المعرفة أو «الفنون والآداب» التي سبق لهم امتلاكها حتى لا تكون عرضة للاستنزاف والتسويات. ثالثاً، القوانين المحلية تتفاوت في تناولها لمسألة الملكية الفكرية، فأردنا أن نعمل على انسجامها لكي يمكننا إنشاء معيار دولي موحد.

في هذا السياق أود أن أحيي ذكرى إثنين من الزملاء الأعزاء، كلاهما وهب نفسه وموهبته للعمل، وكانا يعملان تحت إمرتي في جنيف. هما لودويج باكومر وجواكيم بيلقر. وحدث أن هاتفني جواكيم من نيويورك طالباً مني أن أسمح له بتغيير رحلته ليعود إلى جنيف مع زميله لودويج، أي بتأخير يوم واحد من رحلته الأصلية إذ ذكر لي أن مهمته تحتاج ليوم آخر لإكمالها مع الأمم المتحدة في نيويورك. فكرت بأن هذا التصرف ليس مقبولاً منه وكنت مصمماً فعلاً وودت أن يعود في السفيرة الأولى المقررة له. ولكن كان علي أن أتخذ قراراً سريعاً إزاء ذلك، وفي خضم اجتماع مهم وافقت مكرهاً على أن يتأخر ليوم واحد ليعوداً معاً في سفيرة واحدة.

نتيجة لذلك استغل الرجلان السفيرة رقم 111 الطيران السويسري من مطار جون كينيدي في نيويورك في اليوم الثاني من شهر سبتمبر 1998. وكانت تلك هي السفيرة التي تحطمت في الساعة العاشرة والنصف مساءً ذلك اليوم في المياه الباردة للمحيط الأطلسي على حافة ساحل نونافا سكوتيا، وراح ضحيتها 229 شخصاً هم جملة من كانوا على متنها.

تركت هذه الكارثة أثراً مدمرة عميقة في نفوسنا، ولفترة طويلة كان الجو السائد في المكاتب غريباً موحشاً إذ أن كل الزملاء كانوا قد صدموا وأصابهم الذهول ولم يعد بمقدورهم العودة إلى طبيعة العمل العادي. لقد كانوا فقط غير مصدقين بما حدث.

كان حادثاً صادمًا أثار الحزن في قلوبنا جميعاً. وكنت من وقت لآخر أسأل نفسي عما كان سيكون عليه الأمر إذا كنت قد أصرت على أن يستغل جواكيم سفيرته الأصلية! وفي لمحة وفاء لهما فقد أطلقت إسميهما على قاعتين للإجتماعات تخليداً لذكراهما. وكان ذلك أقل ما أمكنني فعله لهما.

وقبل أن نفقد التركيز حول الدول الصناعية، حاولت أيضاً أن أوجه أجندة اجتماعات المنظمة الدولية للملكية الفكرية لكي تعكس بعض مصالح واهتمامات الدول النامية، وفي عام 2000 كانت لجنة الحكومات الدولية حول الملكية الفكرية التي تعنى بالموارد الوراثية ونشر المعرفة التقليدية والشعبية، قد تأسست، وكان لها تأثير قوي عبر العالم وأفرزت نتائج ملموسة.

عقب انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، سنحت لي فرصة مناسبة بحكم وضعي القيادي في الأمم المتحدة، أن أزور كل الدول الوليدة الناتجة عن هذا التفكك، لدعم مطالبهم القانونية والمشروعة. وكانت التغيرات التي حدثت خلال الفترة الوجيزة من استقلالها مدهشة للغاية إذ سرعان ما بدأوا في استعادة ثقتهم بأنفسهم وهوياتهم الوطنية. وكان مما يثير الاهتمام اتخاذهم بعض الإجراءات الأولية السريعة المتعلقة بالحفاظ على عملتهم الوطنية وعلاماتهم التجارية

ورموز سلطتهم حول أعلامهم وأناشيدهم الوطنية.

خلال فترة عملي في جنيف كان واحداً من أكثر أعمالي فخراً به هو دعوتي لمجموعتين من الشباب الفلسطينيين والإسرائيليين إلى سويسرا في إطار خلق فرص تدريب لهم هناك. ولم تكن المجموعتان على علم بأنها ستعملان معاً، لذا كان مفهوماً أن تكون البداية مشوبة بالتوتر والحذر. ولكن مع مرور الوقت بدأت الشكوك والهواجس تذوب تدرجاً إذ أخذوا يفتحون على بعضهم شيئاً فشيئاً ومناقشة مشكلاتهم المشتركة. ومع قرب نهاية فترة التدريب كان وعدهم بأن يكونوا رواداً في معالجة المشكلات الدولية.

قريباً وعلى أرض الوطن، في علم 1999 كان التوتر على أشده بين فصيلين سياسيين خصمين. حسن الترابي الزعيم القوي لجماعة الإخوان المسلمين، والصادق المهدي رئيس الوزراء السابق، لم يكونا متفقين على وسيلة محددة لقيادة البلاد، وكانت مخاطر الصدام العنيف تنمو باضطراد. قررت أن أجمعهما معاً، فدبرت لاجتماع سري لهما في جنيف في اليوم الأول من شهر مايو من تلك السنة. بداية كانت الشكوك تساور كليهما حول أفكار الآخر، ولكن في النهاية كان اجتماعاً ناجحاً وكل من الرجلين أنهى اللقاء بمصافحة حارة ووعد منهما بتعاون مشترك من أجل مصلحة الوطن ونهضته. ثم عادا إلى السودان ليطلع كل منهما أفرع حزبه وجماعته بنتائج الاجتماع. ومن وجهة نظري أمكن بذلك تجنب أزمة حادة كانت وشيكة الوقوع: نيران قوية، إذا جاز لنا استخدام هذه الاستعارة، أمكن إطفائها جزئياً.

قبل النهو من هذا الفصل أود الإشارة إلى أن خطأ مكتيباً كان قد سبب بعض الخلط. حينما التحقت بالمنظمة الدولية للملكية الفكرية في عام 1982 كانت هناك طلبات استمارة من الضروري تعبئتها، وفي بند تاريخ ميلادي وهو (1954/8/26) كان قد تم تدوينه (1945/8/26). كان ذلك خطأ مطبعياً بسيطاً، وكنت أعرف كما هو مسموح لأي موظف عضو في الأمم المتحدة بتعديل أي تاريخ ميلاد، فقد كان متاحاً لي تصحيح ذلك الخطأ قبل مغادرة الدائرة الالكترونية. وحينما علمت بوقوع ذلك الخطأ أخبرت المدير العام آنذاك وإدارة شؤون المستخدمين، ولكن الأمر لم يكن ذا أهمية كبيرة كما يبدو.

أخبرت بالألقى كثيراً للموضوع وأن التغيير سوف يحدث في وقت مناسب، وأنني لن أمنح أية فوائد غير مستحقة.

وباختصار تم تصحيح الخطأ وبالتالي تعديل سجلاتي. ومن المؤسف أن ظهرت محاولات لتخلق من هذا الخطأ زوبعة، بادعاء أنني تعمدت إجراء تزوير في المعلومات. أقولها الآن وبلا تحفظ مؤكداً أن الأمر ليس كذلك. خلاصة الموضوع هو أن كل ما حدث كان خطأ بشرياً ليس إلا. وأن سبب وجودي بأكمله كان ولا يزال هو العيش في شفافية كاملة خلال حياتي المهنية، وأعتقد أن بعض الناس يحاولون فقط إثارة زوبعة في فنجان. نهاية القصة! (أنظر الملحق رقم 4 للاطلاع على المستندات ذات العلاقة بهذا الموضوع).



تمساح النيل



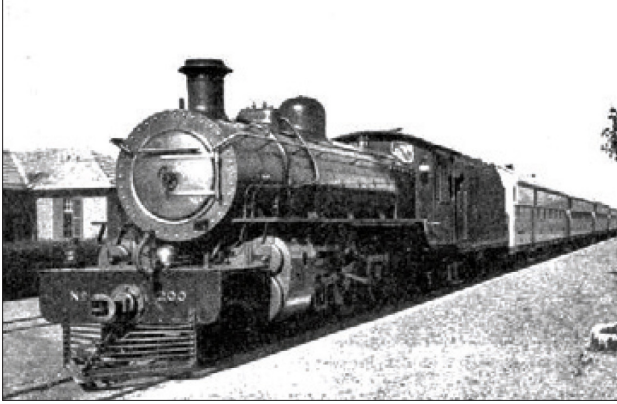
الانتخابات العامة في السودان لعام 2010 قبل أن أخطب الجموع المحتشدة



بطاقتي الشخصية كطالب في جامعة أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية يعود تاريخها الى 1978/2/26 - لاحظ تاريخ الميلاد الصحيح في الأعلى، وصورتي بالشعر الأفريقي الذي كان موضة سائدة آنذاك



رخصة قيادة سيارتي في أوهايو



القطار القديم ذو الصافرة شبيه بالذي كنت أمتطي على سطح احدى عرباته والذي تركني مرة وحيداً في الصحراء



الباحرة المكتظة بالمسافرين التي كانت تُبحر من وادي حلفا الى أسوان وربما يستغرب الرجال وجود الصبي كامل وهو يعد أكواب الشاي بالنعناع





ترحاب دافى وفياض من الملك فيليب السادس، ملك اسبانيا خلال زيارتي الرسمية لبلاده



نموذج لأحد الاحتفالات الرسمية التي منحتني درجة الدكتوراه الفخرية

كش

أخى الحبيب الى نفسى والقرين الى فؤادى فريد  
مع غيمة شحابة ينفاء ولشيم هادئ عليل أشل اليك شالما  
جارا وأحواثا شاختة وأصينات طيبة لك وللأهل جميعا وأتمنى  
أن تكون بخير .  
... وصلنى خطابك الثالث وذى اللونين الأحمر والأخضر فى مساء  
الثبة ٧/١٩ على ما أعتقد فقد نشيت التنازع وكان ذلك بعد رحلة  
شاقة فتعبه فقد خبل الطريق وكاد أن يتوه لولا غياية الله وحسن الخطة  
والحكاية رأت كاتب العنوان خطا وهذا كش - مكتب الأراضى والصحى  
كش - المديرية - مكتب الأراضى وبذلك ذهب الخطاب الى الأراضى وهو  
صلىة الإستثمار ومن حسن الخطة فقد جهازت وجود الأراضى على ميراثه لقد  
أمر موظف فى الإستثمار وجازا فى نفس الوقت وقد قام مشورا  
بصله الى ٢ وعندها تسامته كانت الكفاءة منتفحة الليل ونحن يادون  
شيت لينا على عقله وبعد أن عدنا وعندها بدأت فى قراءته كانت  
الكتابة صياحا وبعد ذلك صممت على أن آتيت لك الرقيب أن أنا  
أخى كبت الحال بعد هذه الغيبة الطويلة (٩) !! أتمنى أن  
تكونوا كما أشققت القدر فى أتم حمة وأكل غافيه وخصوصها الوالدة  
العزيزة ومريضتى الثانية فؤادى عتزا جار وتحياتى لأمر  
ولذلك الأخت العزيزة شماسه والعممة المحببة (هيم) والأخ صديق  
والأخوان كامل وعز الدين مع شمس لهم على خطا أتم الرقيقة والنق  
تعب شذاجة غير فتكفهم خدمهم المداقده وجميع العموم  
... البلد هادئة الى حد بعيد وقال لذلك أنك تسع غير مياه  
القاسم وأنت على بعد شاسع أوليت هذا هودا يهت على  
الشام وياد يعمل الواحد يزحف على حوته ونحن المتفردون على  
صحتى العاصمة وصحى جوا الفطيم ....

خطاب يعود تاريخه الى منتصف ستينات القرن الماضي من كسلا

مرسل من ابن عمي فيصل الى شقيقي فريد

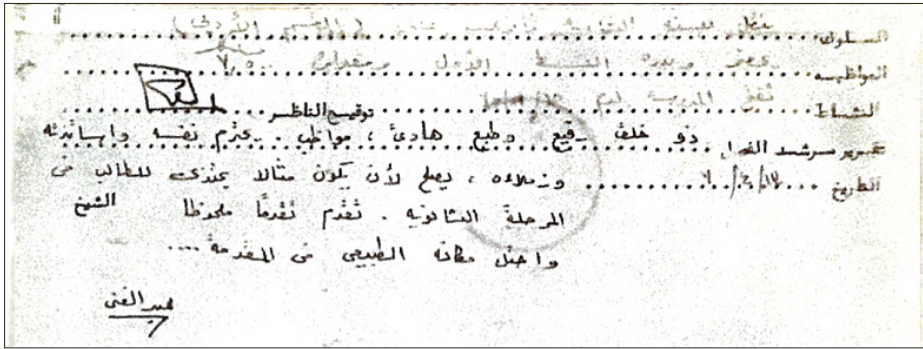


• في خطابك ذكرت أن المظاهرات والمظاهرات وحالة الطوارئ  
والعربات الثقيلة أصبحت الطابع المميز للمدينة وهذه مع أنباء  
همراء وقلنتول والأحمر كذلك للتأكيد ألا أنزل في نظري بالرغم من ذلك  
أحسن من كشل كثير والى أصبحت جماعات الرصدرة (نات ديايو)  
ذوى الشعر الكثيف المشبك والمنزل بأحجام كبيرة من السود مما يترك  
جماعات الإنسان الأول شائن الكروم وكذلك فظواهرات نبات البرف  
وهن يجمعن العجين فوق رؤسهن ونشوان الحلقة الخردة وهن  
لفسات والواحدة منهم تشبه شيتا مع المتذاري السيد لرا...  
وكذلك لا تنسى عربة السمكة والمطابخ والقوى والصعوط  
والجمال والحديد كل هذه الأشياء هي الطابع المميز لك وأترك  
لك الحكم بعد ذلك وإن كانت الحشنة فيها لهذه الأيا هي فقط  
الجبل وسمواؤها المنعشة ..

... ذكرت في خطابك لي أنك لاحظت في خطابي ما مات (١) (؟)  
وهي إن كانت ما تعجبك فمعهرة وهذا الخطاب كما يدل على أنها  
أما من البص الأفضل فلا أفهم أن صدق صادق إلى الآن ولعله  
أفنى الشر - وأرجو أن لا يكون كذلك (وفي خطاب كامل يلمح  
بلى أن أحسن له القصة وأنا أقول له كل أياك وبهدين  
أجن أقول له ..

... وفي خطاب صدق ذكر لي أن لها قد شطاطت المنزل وشرق  
ولا بشم وشامتك الجوقياك وبلغ من المال ولتلك في خطابك لم  
تذكر شيئا من هذا القبيل ولعلها كانت فاجبة من صدق  
أما إن كان قد حدث بالفعل - وأتخمن أن لا يكون - فمضائي لم  
وصيرا على الفجيرة والحالات التي من الراجحات...  
أرجو أن تبلغ شرف النار إلى السم الضرب ليد وقد حاولنا  
مراراً أن نتصل بهم في المنزل وفي كل مرة يكون الرد بأن الخط لم





تقرير مدرسي صدر في منتصف السبعينات يحوي ملاحظات  
إيجابية عني من ناظر المدرسة

## حديث الهدية

عثمان ميرغني

### إلى كامل إدريس..!!

في مصر: أعلن الدكتور محمد البرادعي، المدير العام لوكالة الطاقة الذرية السابق ترشيح نفسه في انتخابات الرئاسة في مصر. وبعض النظر عن قدرته على ملفسة الرئيس مبارك أو برشح الحزب الوطني الديمقراطي فإن المثال عندنا في السودان جب أن يدخل إلى حيز النظر السياسي..

في السودان لدينا مقفلة الديبلوماسية السودانية الأستاذ الدكتور كامل إدريس المدير العام السابق للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.. إحدى أكبر منظمات الأمم المتحدة.. وهو بما نظير البرادعي عندنا هنا مع الفارق.. فالبرادعي عاب عليه بعض العراقيين أنه بعيد شينا ما عن السياسة، وأن شأخ خبرته فيها ربما لا تجعله مناسباً للرئاسة.. لكن كامل إدريس لعب دوراً مؤثراً في السياسة السودانية ربما أبرزها عندما تولى الوساطة بين الحكومة ممثلة في د. حسن الترابي والمعارضة الخارجية ممثلة في السيد الصادق المهدي في جنيف.. والتي أفضت في النهاية إلى المصالحة السياسية التي أخذت العمل المسلح من قاموس المعارضة، وأفضت إلى الأوضاع التي لا زلنا نتابع حلقات تحولاتها..

في تقديري أن الدكتور كامل إدريس مرشح مناسب لخوض انتخابات الرئاسة بجانب مرشح حزب المؤتمر الوطني المشير الركن عمر حسن أحمد البشير رئيس الجمهورية.. والمرشح الآخر البروفيسور عبد الله علي إبراهيم.. وهي الأسماء التي على الأقل أعلنت رسمياً حتى الآن..

دخول كامل إدريس إلى حلبة المنافسة الرئاسية سيرفع من درجة التنافس.. وسيكسب الانتخابات حيوية مهمة للغاية حتى تنال الشرعية المطلوبة.. لأن إدريس مسنود بخبرة سياسية وتنفيذية علاوة على البعد الدولي الذي يخف بهذه الخبرة.. وعلى أقل تقدير فإن دخول كامل للمنافسة يمنع الانتخابات مضائقية دولية مهمة للغاية لحفز التعاون الدولي مع السودان خلال فترة الانتخابات وللاعتزاز الدولي بنتائج الانتخابات مهما كانت هذه النتائج محدودة أو سعيدة للمجتمع الدولي..

ولا أقصد من هذه الكلمات ابتداء حملة انتخابية لصالح كامل إدريس.. بل لأحفزه هو للانطلاق في مضمار هذه المسابقة المصيرية في السودان.. وحتى تأخذ الانتخابات جدية ومفاسدة أكثر جاذبية للشعب لتشجعه على الاهتمام والمثابرة على تثبيت حقه في قول كلمته في اختيار من يفوضهم لإدارة الحكم والشأن العام خلال الفترة القادمة..

أول من ستواجهه هذه الكلمات هو الدكتور كامل إدريس نفسه.. لكن للضرورة أحكام ليس مطلوباً ممن يتصدى للعمل العام أن يخلط حياته لنفسه بنفسه.. فكثير من مجربات القدر ترسم أحياناً للبعض طريقاً حتماً لا بد من سلوكه في مرحلة ما..

أتمنى أن يوافق الدكتور كامل إدريس على النزول لحلبة الانتخابات.. وأتمنى بعد ذلك أن يأخذ الجميع الانتخابات بجدية.. لأنها عملية مصيرية إذا لم تتم في موعدها.. فالكثيرون يذكرون كيف تحولت الانتخابات الرئاسية في أواخر التسعينيات إلى مزحة.. بسبب الطارق النوعي الكبير بين المرشح الرئيسي وعشرات المرشحين الآخرين الذين نزلوا في الحلبة.. للدرجة التي أطلق فيها الشارع السوداني بكثرة نقول (التدبوا بطل السباحة.. يتنقذ البلاد من الغرق).. ولا يزال سباحنا الدولي كجداً.. يؤكد في مجالسه الخاصة أنه كان الفائز الحقيقي بتلك الانتخابات.. ليتني أسمع من الدكتور كامل إدريس رأي.. بالمواقة..!!

osman mirghani@yahoo.com



(الأزيار) أو الأوعية التقليدية لحفظ الماء في السودان. وعادة ما توضع خارج المنازل لتكون متاحة للمارة والمسافرين.. وقد كانت وسيلتي الوحيدة للحصول على الماء حينما تقطعت بي السبل في الصحراء في طريقي الى اسوان

## تكریم الدكتور كامل ادريس

من عودتيه و من رقرق سلسله  
من رافدييه و قد جاء على قدر  
من عريبات نجوم فوق صفحته  
و من اريج رياض عند شاطئه  
من شجو طير طير غريب فوق رابية  
و من حضاراته السماء بازخه  
تمضي اللالي عليها و هي ماثله  
تنبير عقل رهيب في تصويره  
و من مشاعر جيل انت نابغه  
من كل هذا جمعت السحر قافيه

و من دلال تدي في ثنويه  
الى لقاء حميم الوصل دانويه  
و من تله بدر في لياليه  
تهدهد الليل اذ يسجو و تغويه  
بيث لحن حزين الوقع باكيه  
تختال في صلف جم و في نيه  
تحدث الناس عن امجاد ماضيه  
و صنع كف تعالى الله باريه  
جيل العطاء بلا من و تمويه  
حيه تنوارى حين تاتي

يا من حمى الفكر في الامصار مقتدرا  
و من رعى قيم الابداع فلزدهرت  
قد بايعتك شعوب الارض قاطبة  
و من ينل نقه الدنيا باجمعها

و صان حرمة من كل تشويه  
منها الحضارة في شتى مجاليه  
و ابدتك باعجاب و تنويه  
تسبح المجد في اعلى مراقيه

عشقت موطنك الغالي و همت به  
انا عشقناه حتى قد اضر بنا

و انبل الحب ما يزجي لاهليه  
ما يعتريه و ما بتنا نقاسيه

توافد الصحب للتكريم يدفعهم  
فاهنا بتكريمهم اياك انهمو

ود وصدق وفاء انت راعيهم  
اخوان صدق نبيل القصد ساميه

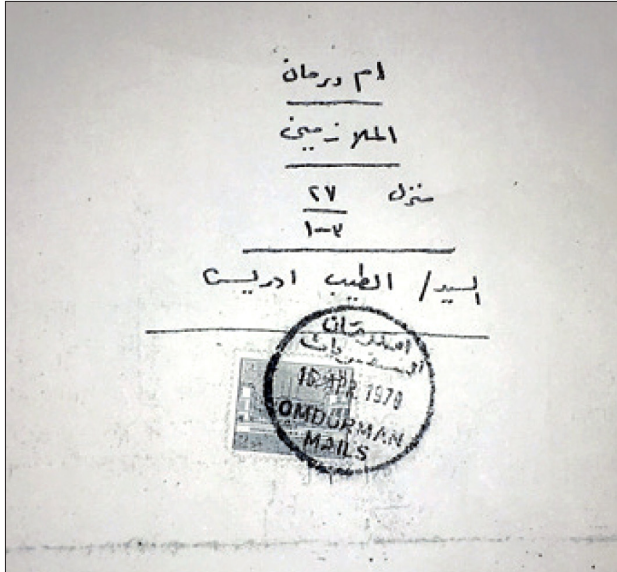
دفع الله الحاج يوسف مننى

ديسمبر ٢٠٠٣

قصيدة شعرية صيغت مدحاً لشخصي كتبها رجل دولة مرموق ومحام ضليع هو الأستاذ دفع الله الحاج يوسف في ديسمبر 2003



قطعة مخطوطة أثرية من مقتنيات والدي



مظروف بريدي يحتوي على خطاب مهم معنون الى منزلنا القديم في حي الملازمين بأمان درمان،

رقم 1 - 3/27





**Carte d'étudiant des Universités suisses** **DUPLICATA**  
**Studenten-Legitimationskarte der Schweizerischen Hochschulen**

Sect./Fac. **S.E.S.** N° d'étud. **8030001.5**  
 Abt./Fak. Stud. Nr.

Nom et prénoms/Name und Vornamen **IDRIS KAMIL**

Date de naissance/Geburtsdatum **26.08.1954** Etat civil **C**  
 Zivilstand

Origine/von **SUDAN**

Domicile de l'étudiant/ Wohnort des Studierenden / Domicile des parents/ Wohnort der Eltern /

Inmatriculé, le/ immatrikuliert, den **Hiver 1980** **Université de Genève**  
 Le secrétaire *[Signature]*

Madame/Mademoiselle/Monsieur **KAMIL IDRIS** est inscrit(e) à l'Université de Genève au semestre **HIVER 1983/84** **DR**

Madame/Mademoiselle/Monsieur **KAMIL IDRIS** est inscrit(e) à l'Université de Genève au semestre **ETE 1984** **DR**

**Signature de l'étudiant**  
 Unterschrift des Studenten

بطاقتي كطالب دكتوراه في معهد تخرج الدراسات الدولية

**INSTITUT UNIVERSITAIRE DE  
 HAUTES ÉTUDES INTERNATIONALES**

**GRADUATE INSTITUTE OF  
 INTERNATIONAL STUDIES**

**Carte d'étudiant**

**132, rue de Lausanne 1211 Genève 21**

بطاقتي الطلابية في معهد تخرج الدراسات الدولية في جنيف - سويسرا

|                                                                                            |  |                                                                                                                                                                                                                            |  |
|--------------------------------------------------------------------------------------------|--|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--|
| IDIRIS<br>KAMIL EL TAYEB<br>N° de l'autorisation: 1733761                                  |  | KATEGORIEN - CATEGORIES - CATEGORIE<br>A: SE 01.06.78<br>A2: SE 01.06.78<br>B: SE 01.06.78<br>C: SE 01.06.78<br>D: SE 01.06.78<br>D1: SE 01.06.78<br>D2: SE 01.06.78<br>E: SE 01.06.78<br>F: SE 18.09.79<br>G: SE 18.09.79 |  |
| CHEMIN DES LIMITES 8<br>1293 BELLEVUE<br>26.08.1954<br>SOUDAN<br>1733761<br>22.03.2002 90B |  | Permis valable jusqu'au<br>20 JAN. 2005<br>SERVICES DES AUTOMOBILES                                                                                                                                                        |  |

رخصة قيادة سويسرية قديمة بالرقم 1733761 صادرة في 1978/6/1

ENGLISH PAGE آخر الاخبار

Nov 24, 2007, 08:36

أفريقيا تصف كامل إدريس  
 بأفكاره الفريدة والقائد الخليل، والسياسي الجسور  
 نبيه يوم تمس رئاسة الاتحاد الأفريقي نجيب،  
 احتشداً تاريخياً وأماماً لسفراء الدول الأفريقية  
 حصة الدكتور كمال إدريس سير نعام بنسمة  
 الجمعية لتسوية النزاعات و الأمن بعد الاتحاد  
 إدريس حطاً فوق قطع بالتصديق الحار أكثر من مرة.  
 شدة فيه على أهمية دور الصناعات الثقافية وأثرها  
 في الاقتصاد العالمي، الذي استفادت منه الدول  
 العربية والأمريكية كمنصهر أساسي من  
 مصادر الدخل القومي يفوق إجمالي دخل دول  
 أمريكا مجتمعة. كما أوضح أن الصناعات الثقافية  
 تساهم في بناء الاقتصاد القومي وزيادة الناتج المحلي، وفرص العمل، بل تعد أداة ربط  
 بين الشعوب والمجتمعات. وأوضح أن أفريقيا غنية وما زالت بكر في هذا المجال. ويمتد إدريس  
 أن هذا المجال هو المنفذ الرئيس لاقتصاد القارة الأفريقية. كما بين في رسالته بأن الواو هي  
 منظمة المستقبل، وعلى أفريقيا أن تنظر للمستقبل من خلال ترقية مصادرها وتراثها وموروثاتها  
 ومهاراتها الحالية.

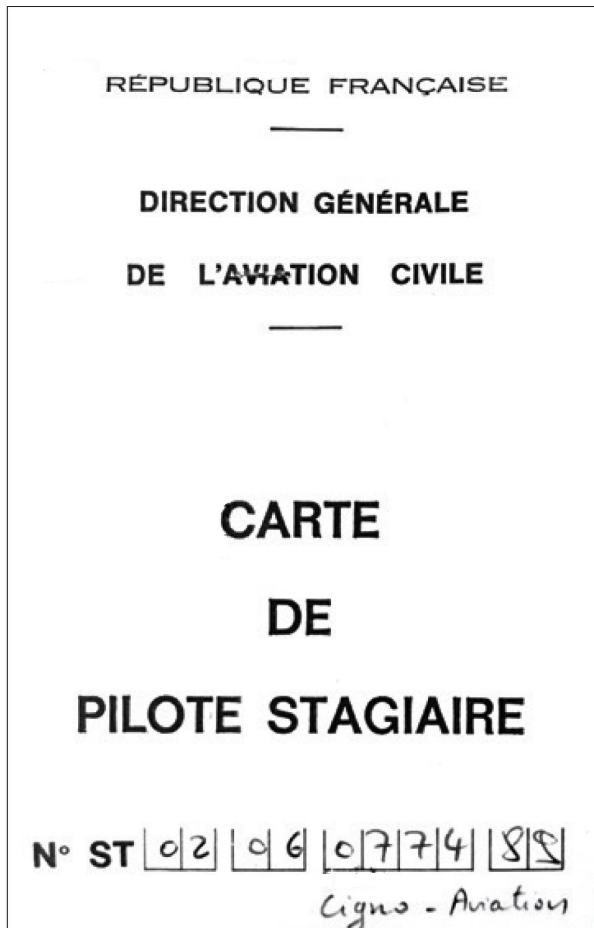
وصفت المجموعة الأفريقية الدكتور إدريس بأمين أفريقيا وأمين النيل، والقائد الخليل

منشور صحافي يتضمن أقصى درجات الدعم والمساندة للمجموعة الافريقية في جنيف 2007





واحد من جوازات سفري الدبلوماسية بالرقم 00790 نهاية السبعينات



بطاقتي كطيار خاص بالرقم 0206077485



شهادة الجنسية السودانية بالميلاد رقم 474173 وتاريخها 1970/7/19

UNITED STATES OF AMERICA

INTERNATIONAL MOTOR TRAFFIC

PERMIT  
FEE  
\$3.00

INTERNATIONAL DRIVING PERMIT

Convention on International Road Traffic of 19 September 1949  
(United Nations)

FALLS CHURCH, VIRGINIA 22042, U.S.A.

Issued at \_\_\_\_\_

Valid For One Year From:

Date JUNE 02, 1978

**IMPORTANT — This permit is not valid  
for driving in the United States**



*J. B. Creal*

Authorized signature of the empowered authority

**Nº 943463**

رخصة قيادة عالمية تاريخها 1978/6/2 كنت أستعملها أثناء جولاتي الأوروبية



بطاقة عضويتي كمحامٍ وموثق  
عقود في السودان (بالرقم  
1989/1/31 تاريخها 84/490

بطاقة عضويتي في نقابة  
المحامين السودانيين  
بالرقم 1855 وتاريخها  
1991/1/7



بطاقة تعريف هويتي  
كممثل في المسرح  
القومي، تاريخها  
1972/10/13

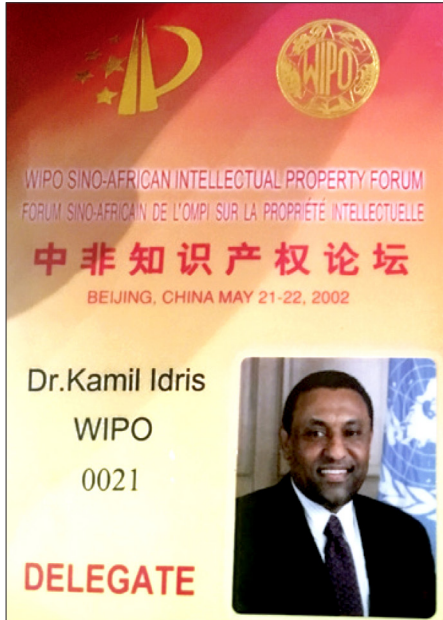




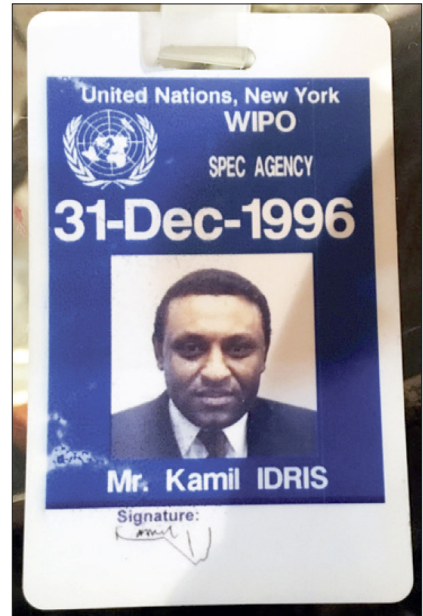
بطاقة تعريف كطالب فلسفة في جامعة القاهرة  
عام 1974 (كنت أدرس في جامعتين في وقت واحد..  
حقوق في جامعة الخرطوم، وفلسفة في جامعة القاهرة



بطاقة هويتي كسكرتير ثالث في الادارة العربية  
بوزارة الخارجية



بطاقة هويتي بصفتي المتحدث الرئيس في  
المؤتمر الأفريقي - الصيني العالمي - بيجين،  
تاريخها 2002/5/22-21



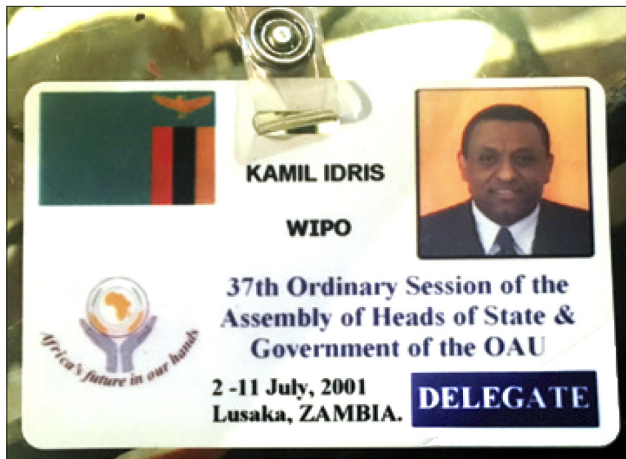
بطاقة هويتي في الأمم المتحدة - نيويورك  
كممثل لوكالة متخصصة، تاريخها 1996/12/31



بطاقة هويتي بالأمم المتحدة (كبار المسؤولين) كمدير عام، رقمها 304، وتاريخها 1997/11/10



بطاقة هويتي كعضو في منظمة القانونيين الأفارقة رقم 002475، تاريخها 1985



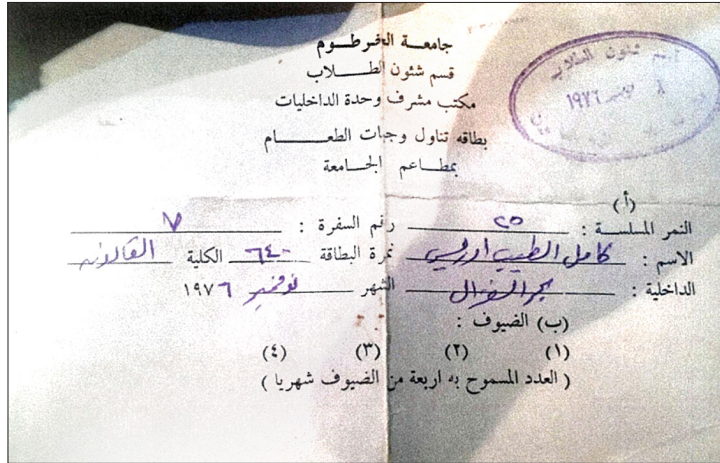
بطاقة هويتي في اجتماع قادة الدول والحكومات في ما كان يُعرف سابقاً بمنظمة الوحدة الأفريقية (الآن

الاتحاد الأفريقي) تاريخها 2001/7/11-2





بطاقة هويتي كطالب فلسفة بالرقم 772064 وتاريخها 1975/11/15



بطاقة تعريف رقم 64 تاريخها 1976 مخصصة للسكن في داخلية (بحر الغزال) بكلية الحقوق - جامعة الخرطوم



شهادة تقدير من مركز راشد دياب الثقافي في الخرطوم





50 ЛЕТ

Федеральной службой по интеллектуальной  
собственности, патентам и товарным знакам

НАГРАЖДАЕТСЯ

**Доктор Камил ИДРИС**  
Генеральный директор ВОИС

Памятным знаком в честь 50-летия образования  
Комитета по делам изобретений и открытий  
при Совете Министров СССР (Госкомизобретений),  
правопреемником которого является  
Федеральная служба по интеллектуальной  
собственности, патентам и товарным знакам  
(Роспатент)



г. Москва  
29 сентября 2005 г.

Руководитель Федеральной службы  
по интеллектуальной собственности,  
патентам и товарным знакам

Б.П. Сидоренко

لوحة شرف في 2005 من جمهورية الاتحاد السوفيتي سابقاً



OHIO UNIVERSITY  
DEPARTMENT OF SOCIOLOGY AND ANTHROPOLOGY  
CARNEGIE MALL  
ATHENS, OHIO 45701

June 12, 1978

To Whom it May Concern:

This is in regard to Kamil Eltayeb Idris who has asked me to write a letter of recommendation in his behalf. I have known Mr. Idris during the Spring Quarter 1978 as a student in my Sociology of Organization course and in independent readings. I also served as a member of his qualifying committee for the Masters Degree. In the course of my contacts with Mr. Idris, I have found him to be a very knowledgeable student with a truly remarkable verbal facility. The oral report in my organization class was well presented and displayed his knowledge of detail about an organization in the Sudan. In his oral presentation to the qualifying committee, he demonstrated a great ability to recall and relate the assigned readings to the questions asked.

In short, Mr. Idris is an intelligent and informed student whose ability to pursue advanced graduate training is beyond question. I can recommend him for a course of study leading to the Ph.D. degree without reservation.

Yours truly,



Orville R. Gurslian  
Professor of Sociology

OG/dl

OHIO UNIVERSITY  
DEPARTMENT OF SOCIOLOGY AND ANTHROPOLOGY  
CARNEGIE MALL  
ATHENS, OHIO 45701

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/6/12

DEPARTMENT OF POLITICAL SCIENCE  
BENTLEY HALL

OHIO UNIVERSITY  
ATHENS, OHIO 45701

June 8, 1978

To Whom It May Concern:

It is my pleasure to recommend Mr. Kamil Idris to you. Mr. Idris recently completed the Masters of International Affairs degree from Ohio University. An interdisciplinary degree, Mr. Idris pursued course work in the disciplines of Philosophy, Sociology, and Political Science. Mr. Idris completed two courses under my supervision and I was, as well, the chairman of his oral comprehensive exam for the M.I.A. degree.

My opinion of Mr. Idris is very favorable. The coursework which he did with me included "Technology and Politics" (Political Science 613), a regularly scheduled graduate seminar, and "Law and Society" (Political Science 598), an independent study. I greatly appreciated Mr. Idris' participation in the graduate seminar. His attendance was regular, and his oral comments were always pertinent and thoughtful. His written work was equally good. His paper demonstrated an ability to do high quality academic research and it was well written. He has an effective command of the English language. These impressions of Mr. Idris were only confirmed during my conversations with him concerning his independent study. He was thoroughly prepared for our weekly discussions, his oral remarks were cogent, and he showed independence of judgment in the execution of the project.

Mr. Idris passed his oral comprehensive exams on May 26, 1978. The examination committee was composed of myself, Dr. Corrado (Philosophy), and Dr. Gurslin (Sociology). In preparation for his oral exam, Mr. Idris studied "Philosophy of Law" with Dr. Corrado and "Organizational Theory" with Dr. Gurslin, in addition to the coursework which he did with me. Based on Mr. Idris' performance in his coursework and his oral exam, the committee was unanimous in recommending that he be awarded the Masters of International Affairs degree.

It is my opinion that Mr. Idris possesses the scholarly attributes for further graduate work leading toward the Ph. D. I have a very high regard for him both as an individual and as a promising student. I feel that he would be a most effective teacher.

Sincerely,

*Ronald J. Hunt*  
Ronald J. Hunt  
Assistant Professor

RJH/su

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/6/8



OHIO UNIVERSITY  
CENTER FOR INTERNATIONAL STUDIES  
ATHENS, OHIO 45701

Assistant Dean of Faculties  
for International Studies  
614-594-4211



June 12, 1978

TO WHOM IT MAY CONCERN:

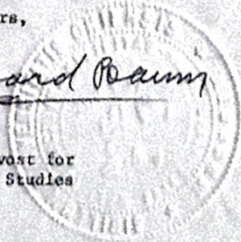
During the past year, Mr. Kamil Idris has been enrolled in a program of study leading to the Master of Arts in International Affairs. He completed satisfactorily all of the requirements for the degree which was awarded on June 10, 1978. Mr. Idris focussed his work on law and society.

Reports from his instructors indicate that Mr. Idris is an intelligent, hard-working student with a deep commitment to educational advancement. His overall grade point average attests to his ability.

On the basis of his record at Ohio University, I recommend him to you without reservation or hesitation.

Sincerely yours,

Edward Baum  
Assistant Provost for  
International Studies



EB/mf

OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
WISDOM HALL  
ATHENS, OHIO 45701

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/6/12

**OHIO UNIVERSITY  
CENTER FOR INTERNATIONAL STUDIES  
ATHENS, OHIO 45701**

*African Studies Program  
Office of the Director  
614-394-3562*



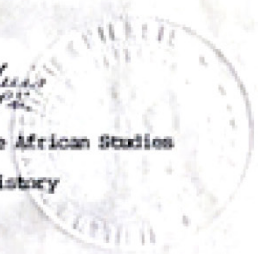
June 12, 1978

TO WHOM IT MAY CONCERN:

Mr. Kamil Eltayeb Idris has just completed his M.A. in International Affairs at Ohio University. As his grades will show, he did extremely well in our program and I feel that he is the type of person who should be encouraged to go on to take further degrees, either in law, philosophy, or political science. He is exceptionally able, intelligent and motivated and has all the personal qualities necessary for a successful academic career. I sincerely hope that he will be given the opportunity to continue his education; particularly as young scholars of his calibre are hard to find.

Sincerely,

Suzanne Miers  
Director of the African Studies  
Program  
Professor of History



SM:pe

OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
WILSON HALL  
ATHENS, OHIO 45708

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/6/12



OHIO UNIVERSITY

ATHENS, OHIO 45701

DEPARTMENT OF POLITICAL SCIENCE  
TLEY HALL

May 18, 1978

To Whom It May Concern:

I am writing to recommend Mr. Kamil Idris for further graduate work, particularly at the Ph.D. level. This recommendation is based upon his work in an independent study course on "Problems in Legal Theory." The course was divided into two parts. The first focused on the relationship between law and the Islamic religion in non-western political systems. The second was a comparative analysis of selected works by St. Thomas Aquinas and John Rawls. He demonstrated a superior ability to analyze both western and non-western legal theorists and it appears that he enjoys learning.

Sincerely yours,

*J. F. Henderson, Jr.*

James Franklin Henderson  
Assistant Professor

JFH/su



OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
WILSON HALL  
ATHENS, OHIO 45701

OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
WILSON HALL  
ATHENS, OHIO 45701

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/5/18



OHIO UNIVERSITY

ATHENS, OHIO 45701

DEPARTMENT OF POLITICAL SCIENCE  
BENTLEY HALL

May 16, 1978

To Whom It May Concern:

I am responding most enthusiastically to a request for a letter of recommendation by Mr. Kamil Eltayeb Idris. This is unusual in view of the fact that I have known Mr. Idris only for a year, not long enough for anyone to hazard a judgment of any other person. That I am willing to do this in the case of Mr. Idris bespeaks of his very outstanding quality as a student and human person.

Mr. Idris is a very intelligent, industrious, and self-reliant person. As a student in independent study (Research in Political Science) with me, he wrote two superior papers dealing with State Responsibility and the Doctrine of Jurisdiction in International Law. The papers were a model of clear thought, sophisticated analysis, and balanced judgment. It was quite remarkable that Mr. Idris required minimum supervision in that intellectual venture, revealing clearly his highly developed research and writing capability.

It is my conviction that Mr. Idris is a person of high moral standards and refined personality. He is always courteous and tolerant of others' faults, including the sins of absentminded professors. And yet, Mr. Idris is assertive and would not compromise his integrity as a person. It has been a rare pleasure for me to have had an opportunity to meet with such a fine young man from Sudan.

Sincerely yours,



Sung Ho Kim,  
Assist. Prof. of Political Science

SHK/su



OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
BENTLEY HALL  
ATHENS, OHIO 45701

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/5/16

OHIO UNIVERSITY  
DEPARTMENT OF PHILOSOPHY  
GORDY HALL  
ATHENS, OHIO 45701

June 7, 1978

To Whom It May Concern:

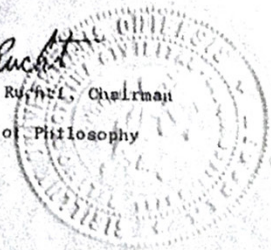
KAMIL ELTAYEB IDRIS worked with me during the Winter Quarter 1978. He presented to me in weekly recitations the philosophy of Islam. I learned a great deal. Mr. Idris literally prepared ten lectures of at least one hour's length. His understanding of the material is very mature and insightful. In particular his ability to draw appropriate parallels between Islamic positions and Western philosophy displayed a deep grasp of philosophical issues of both traditions. In addition his application, especially of jurisprudential and legal philosophy, to contemporary social issues and positions showed an ability to apply abstract concepts to concrete instances.

Mr. Idris knows the history of Islam and of philosophy in the West. He is an original and outstanding scholar.

Sincerely,

*Warren Rucht*  
Dr. Warren Rucht, Chairman  
Department of Philosophy

WR/lb



OHIO UNIVERSITY  
GRADUATE COLLEGE  
OFFICE OF THE DEAN  
WILSON HALL  
ATHENS, OHIO 45701

خطاب توصية من جامعة أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية، تاريخه 1978/6/7

## الفصل العاشر

### السباحة عكس التيار

«شلل القلب يقود إلى شلل العقل»

(كامل إدريس)

◀ في صيف عام 2003 عقدت اجتماعاً مغلقاً بيني وبين الرئيس السوداني عمر البشير في مقر رئاسته بالخرطوم. كنا نناقش ما حدث من قلاقل وعدم استقرار في إقليم دارفور حيث اصطدمت مجموعات من الثوار والمتمردين بالقوات الحكومية مما نتج عنه فقد مئات الأرواح من الجانبين. لقد كان تسارع الأحداث مدعاة للقلق بحق، واقترحت عليه أن تتم معالجة الأمر بحرص شديد، رغم ما يحدث من عمليات استفزازية، وإلا ستكون العواقب وخيمة وكارثية. وأمكنني مشاهدته وهو يستمع إلي باهتمام شديد، إذ كان منحنياً في جلسته إلى الأمام معطياً كل كلمة بما تستحقه من وزن، ولكن ما إن شرعت في طرح أفكارٍ عليه حتى غير جلسته وانكأ على ظهر الكرسي مطبقاً ذراعيه على جسده. من خلال تحركات جسده اعتراني شعور باعتقاده أنني أولي مشكلة دارفور بما هو أكبر من وزنها وأني أبالغ في تحديد حجمها. حاولت أن أبين وجهة نظري بشكل أكثر قرباً، ولكن للأمانة علمت أنه كان في حاجة للمزيد من الوقت ليتمكن من تحديد وجهته للأمام.

نأى بنفسه على مسافة محترمة في ما تبقى من نقاش بيننا، وأخيراً اقترح علي أن يعقد لقاء آخر في وقت متأخر من ذلك المساء يضم نائبه وقتها علي عثمان طه ورئيس الاستخبارات آنذاك صلاح قوش. أخبرته بأنني مرتبط مسبقاً في ذلك المساء في دعوة عشاء خاصة دعاني لها أحد



كبار رجال الأعمال المحترمين واسمه حسن كمبال. وكنت ضيف الشرف في الدعوة وسيكون من الحرج الشديد لدى الحاضرين أن أتخلف عن تلبية الدعوة. أجرى البشير مكاملة هاتفية على عجل وأخيراً تم الاتفاق على أن يكون الاجتماع عقب دعوة العشاء في الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً. وكان مقررًا أن يعقد الاجتماع في منزل علي عثمان طه الذي يقع في منطقة شمال الخرطوم وسيكون ثلاثياً فقط من دون حضور البشير.

كانت حياة علي طه مكتنزة بالعديد من الأحداث السياسية، وقد سبق أن قبض عليه وحوكم بالسجن إبان عهد الرئيس النميري في العام 1985. أما الآن فهو شخصية قيادية موثوقاً بها وقادرة على تحمل تبعات منصب نائب الرئيس عمر البشير. كان يبدو رقيق الحاشية، نحيف الجسم، دمث الخلق. استقبلني بحرارة وهو يلبس بذلة أنيقة كاملة زرقاء اللون حين قدمت إلى مسكنه الأنيق المجاور للنيل في حوالي الساعة الحادية عشرة والدقيقة 27 مساءً. بعد ذلك حضر صلاح قوش رئيس لجهاز الاستخبارات، وكان يبدو شخصاً قوياً بحق وذا تأثير ملموس. وبنيتة الممتلئة وحضوره الصاخب كانا يوحيان بأنه شخصية لا يمكن الاستهانة بها. جاء محملاً بصناديق من المستندات والملفات، وبما أن الوقت كان متأخراً كم تمنيت ألا ندخل في دوامة من البحث ومناقشة محتوياتها.

بعد النهو من عملية التعارف وتقديم بعضنا بعضاً كان لزاماً علي أن أنقل لهم ما دار بيني وبين الرئيس عمر البشير، وهم ينصتون إلي باحترام واضح. كان تركيزي القوي حول إن القرون الماضية ظلت شاهداً على أن دارفور كانت مملكة مستقلة، مما أتاح لها أن تنعم لاحقاً بفوائد جمّة أثناء الحقبة الاستعمارية، بمعنى أن سكانها متعددي الإثنيات والأعراق كانوا يعيشون في تسامح وسلام، وكيف كانت لديها طريقتها الخاصة في حسم الأمور وإنهاء النزاعات بما يطلق عليه نظام «الأجاويد». كان كل ما يقع مثلاً من نزاعات أو خصومات تحديداً بين المزارعين والرعاة يتم حسمها بهذه الطريقة التقليدية غير الرسمية بين الفرقاء، مع مراعاة الالتزام بما تصدره السلطات المحلية من قرارات تكون واجبة الاحترام من الجميع. وعموماً فإن ما حدث من نقص للطعام خلال ثمانينات القرن الماضي وما نتج عنه من مجاعة طاحنة، ثم إلى سنوات عدة من التوتر والتطاحن حول الأرض وما تبعه من حقوق الرعي للقبائل الرعوية غالباً التي تقطن في الشمال الأكثر جفافاً، في مواجهة مجموعات المزارعين المستقرة نسبياً في الجزء الجنوبي، الأمر الذي أنشأ بيئة قاسية للتطاحن من أجل البقاء.

وكان أيضاً من التبسيط بمكان أن توصف المشكلة بأنها مجرد صراع بين العرب والأفارقة، إذ شهدت المنطقة أجيالاً من حالات التعايش والمصاهرة نتج عنها نسج جميل من القبائل التي كانت الحدود بينها دائماً في حالة من الانسيابية والتداخل. وإذا كان هناك إصرار من الحكم المركزي للتدخل وفرض مواقع للاختصاص القضائي، فذلك لن يكون إلا سبباً في المزيد من التعقيد والتشوش. وكان حرياً القول إنه وعقب الاستقلال مباشرة أخذ الإداريون ينظرون إلى تلك

الإدارات الأهلية باعتبارها من مخلفات الحقبة الاستعمارية لذا بدأوا في إزالتها تدرجاً. كان في تصوري أن ذلك ربما كان من العوامل المحتملة لاندلاع النزاع. كما أتيح لي أن أجادل بأن هناك حالات من الاستياء والامتعاض متجذرة بعمق في نفوس سكان دارفور والمناطق الخارجية الأخرى من البلاد نظير عدم إنصافهم في الأمور الاقتصادية والسياسية بما يشير إلى تجاهلهم وتهميش قدراتهم من الحكومات المركزية. كما أشرت أيضاً إلى أنه إذا تطلب الأمر تدخلاً من الحكومات المركزية، فينبغي أن يكون تدخلاً خفيفاً سلمياً وسريعاً، وبالتأكيد ليس عنيفاً ذا طابع وحشي، وأن أي عمل خارج هذا الإطار من شأنه أن يكون مدمراً وغير مقبول.

شعرت بارتياح وأنا أشاهد كلا مستمعي وقد اعتراهما الهدوء وهما يراقبانني بشكل لصيق مع إيماءات طيبة برأسيهما. لذا استعدت أنفاسي وتقدمت باقتراح درامي. اقترحت عليهما بأنه يجب علينا محاولة استدعاء الالعيين الأساسيين في النزاع إلى اجتماع في موقع محايد.

وأن يعقد ذلك الاجتماع في جنيف بحضور شاهدين هما - شخصي ورئيس وزراء السودان السابق الصادق المهدي الذي كان يعيش حينذاك في القاهرة، وأن تكون الحكومة ممثلة في شخص صلاح قوش. وبكل سرور وافق الجميع على عقد الاجتماع، ولكن كان يتطلب مني ابتداء التواصل مع المهدي لإقناعه بحضور الاجتماع. وأيضاً آليت على نفسي أن أتصل بالراحل حسن الترابي وهو الزعيم المؤثر للفكر الإسلامي (وفي رأبي أنه كان موعوداً ليصبح أميز داعية إسلامي معاصر في تاريخ الإسلام وتعاليمه)، للحصول على نصائحه وأملاً في حسن نيته. وبلا أية مفاجآت، كان الرجل على وفاق تام بما أرمي إليه من مهمة تهدف إلى حل سلمي، وبالتالي فقد حصلت على مباركته.

عقب ذلك بفترة بسيطة سافرت إلى القاهرة فاستقبلني في المطار سفير السودان آنذاك أحمد عبد الحليم، وهو رجل ودود محترم من الطراز الأول تعليمياً وثقافياً، بزيه القومي المميز، الجلباب الأبيض الناصع والعمامة الوقورة التي رتبت بعناية كبيرة، وقد أخذني لمقابلة الصادق. أثناء سيرنا كان قد أبدى سعادته إذا أتيح له تقديم أي نوع من المساعدة، ولكن نسبة لما يشوب الاجتماع من حساسية وسرية فهو يفضل عدم التدخل في الأمر.

بالنسبة لي كانت الأمور تسير بشكل طيب إذ كنت موقناً بقدرتي على إقناع الصادق بالسفر إلى جنيف لمجرد علمه وتفهمه بأهمية ذلك الاجتماع. كان الصادق من المفوضين المتمرسين ذوي الخبرة ويمتلك تفهماً عميقاً لتاريخ السودان وأقاليمه في العالم المتمدين. كان رجلاً متفرداً جمع بين تلقي تعليمه في الغرب لدى جامعة أكسفورد مدعوماً بمعتقداته وتعاليمه الإسلامية المتأصلة، مما أتاح له بوتقة من الفلسفة السياسية المتأججة بروح التسامح ووضوح الرؤيا والمرونة والتواضع وعلو المبدأ.

سافرت إلى جنيف قبل الآخرين، باستثناء صلاح قوش الذي، ربما لخطأ ليس من جانبه

فشل في الحضور. اتصلت هاتفياً بمنزله وعلى هاتفه الجوال أيضاً فلم ألتق رداً، وكل محاولاتي المتكررة باءت بالفشل. وكانت هناك إجابة واحدة فقط - فشلت المبادرة! فاتصلت بالمهدي ثم بممثلي الفصائل المتمردة لأنقل لهم الأخبار الحزينة. في رأيي أن ما حدث شكل فقداناً لفرصة حيوية نادرة كان من شأنها أن تمنع القسوة الشديدة وما تبعها من المذابح المريعة التي كان محتملاً وقوعها لاحقاً. فظائع الحرب في دارفور وأهوالها عملية موثقة بالكامل منذ وقوعها وحتى يومنا هذا، ولعلني لا أبالغ إذا قلت أنني أصبت بالكوابيس الرهيبة لتلك المجازر التي أهدرت فيها أرواح مئات الآلاف من الأبرياء، فضلاً عن تشوهات أجسادهم وتقطعت أوصالهم ومن ظلوا بلا مأوى وظلوا عرضة للمجاعات والعوز نتيجة ما ارتكب من فظائع في تلك الحرب. وبالقِطع كان يمكن تجنب كل ذلك. إذا أُتيح لذلك الاجتماع أن يعقد فقد كان ممكناً أن يكون ذا تأثير مباشر على استقرار البلاد: ربما كان للسودان أن يصل إلى آفاق أرحب في ضوء الشمس الساطع بدلاً مما قدر له الآن أن يعيش خلال أشد المراحل قتامة في تاريخه.

يحتل إقليم دارفور رقعة ضخمة من الأرض تعادل مساحة فرنسا تقريباً يقطنها حوالي سبعة ملايين ونصف المليون نسمة، ووفقاً لإحصاءات موثقة فإن عدد القتلى وصل إلى مئات الآلاف وما يقدر بحوالي مليونين ونصف المليون فقدوا مأواهم تماماً. انطلقت العديد من الصيحات الخارجية في هذا الصدد، وبشكل مثير للجدل كان قد سمح لوكالات حفظ السلام العالمية بالدخول للمنطقة.

في الفترة من 2003 إلى 2008 كنت مشغولاً بكثافة في العديد من المبادرات التي أرمي من ورائها حلاً للمشكلة، وإعادة التأكيد للمجتمع الدولي بأن السلام وحل المشكلة هما الأولوية القصوى، ولكن ما أن أصدرت محكمة الجنايات الدولية أمرها بالقبض على المتسببين في الحرب، حتى تغير المشهد. كان الرئيس البشير قد طلب مني إمكانية المساعدة بالتدخل في ذلك الأمر، ولكن قبل أن أقبل طلبه كنت قد أوضحت له أنني في موقع القيادة الدولية، ودبلوماسي قيادي وبالتالي علي أن أتصرف بمعيّار من الاستقلالية.

كان وقتها المدعي العام لمحكمة الجنايات الدولية رجلاً أرجنتيني الجنسية طويل القامة ذا لحية إسمه لويس مورينو أوكامبو، كان لا يعرف الخوف ويتمتع بعقلية حيادية... ظهر إلى اهتمام العالم للمرة الأولى في عام 1985 حينما كان المدعي الأرجنتيني في محاكمة المجلس العسكري الأرجنتيني (جونا). وكانت تلك المحاكمة هي الأولى منذ محاكمات نورنبرج، حينما حوكم قادة عسكريون في الأرجنتين بسبب جرائم القتل الجماعي التي ارتكبوها، وكان هو المايسترو الذي قاد إلى حصول الإدانة لخمسة من تسعة عسكريين متهمين.

وكان دافعي لقبول طلب البشير هو محاولتي التأثير إلى حد ما لوضع حد للحرب. وكانت سمعة السودان في ذلك الحين متدنية بما فيه الكفاية ولم أكن أود لها أن تصل إلى مراحل أسوأ مما كانت عليه. كما كان يساورني شك مقلق بأن الأقاويل والشائعات أحياناً تكون أقوى من



الواقع، بمعنى أن البشير قد لا يكون مسيطراً بالكامل على من يساندونه في السلطة العسكرية بالشكل الذي يظنه الناس.

أبدى أوكامبو ترحيباً وتعاطفاً معنا، وتم عقد سلسلة من الاجتماعات في كل من لاهاي وجنيف بكامل هيئة المحكمة وبمشاركة وفد مرموق يمثل حكومة السودان. تفهم أوكامبو تعقيدات الوضع في السودان وكان جو النقاش ودياً ومتقبلاً من الجميع. داومت من جانبي على التركيز له وكذا للمعارضة القوية في السودان، بأننا في حاجة لكي نبرهن بداية أن القضاء السوداني على استعداد بل هو مؤهل لتولي مهمة هذه المحاكمة تحديداً، داخل البلاد. وإذا كانت هناك أية شكوك في الأمر فإن محكمة الجنايات الدولية سيصبح في مقدورها إكمال وضبط نطاق اختصاصها القانوني وفقاً لما تراه مناسباً. وإذا وجدت وسيلة موضوعية وسطية بين الطرفين فستكون هي الحل الأمثل، لذا كان قد طلب مني أن أعد توصيات تتلخص في نقطتين أساسيتين. أولاً، يجب السماح لمحاكمة الجنايات الدولية بإجراء التحريات المطلوبة حول أسباب المشكلة من جوانبها كافة داخل السودان، وثانياً، على أساس تلك التوصيات وخلاصتها أن يمثل كلا المتهمين للمحاكمة بشكل مستقل من قبل محكمة الجنايات الدولية داخل السودان مع تمثيل كامل لهيئتي الاتهام والدفاع.

كان تأسيس محكمة الجنايات الدولية قد حدث من خلال اقتراح أصدرته لجنة القانون الدولي، وكنت أحد الأعضاء الأساسيين في تحرير المسودة. وخلال ما ساد ذلك الاقتراح من نقاش في أوساط لجنة القانون الدولي كنت قد اعترضت على نقطة مهمة، وهي ما أطلق عليه تسمية: «إحالة مجلس الأمن لحالات محددة إلى محكمة الجنايات الدولية». لماذا؟ لأن مثل تلك الحالات قد تكون استثنائية وربما تصبح عرضة لحق النقض «الفيتو» من أي من الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن. أرسلت لجنة القانون الدولي مسودة القرار إلى مؤتمر روما الدبلوماسي بما فيه النقطة التي لم تكن قد حسمت بعد. وفي نهاية الأمر حسم مؤتمر روما الدبلوماسي الأمر لصالح مجلس الأمن بما يمكنه من إحالة أية حالات يراها إلى محكمة العدل الدولية. وأعتقد أن ذلك كان خطأ فاحشاً إذ أن العدالة لن تأخذ مجراها بالصورة المطلوبة إذا كانت هناك حالات بعينها ودون غيرها تتم إحالتها من مجلس الأمن مما يترتب عليه فقدان الثقة حتماً. ومن وجهة نظري كان ذلك أحد الأسباب التي تجعل دول الاتحاد الإفريقي وغيرها من حكومات العالم الآن تشكك كثيراً في نيات محكمة الجنايات الدولية وأهدافها. أما توصياتي بشأن حل مشكلة السودان فلم يتح لها أن ترى النور بعد. ولم تكن لي أية صلة بما يحدث من نقاشات محلية ذات علاقة بهذا الأمر، وأخيراً رفض السودان أي شكل من أشكال التعاون مع محكمة الجنايات الدولية.

رأيت بعد ذلك أن أمارس حقي في الترشيح لرئاسة الجمهورية. وكنت أعلم أن ليس بإمكانني الفوز ولكنني اعتقدت أنه قد يكون من المفيد ارتفاع حظوظي في المساعدة في حل بعض مشكلات بلادي. غادرت المنظمة الدولية للملكية الفكرية عام 2008 قبل عام كامل من انقضاء

فترة تعاقدية المقررة، وكانت بمثابة فرصة لالتقاط أنفاسي لكي أعد نفسي لحملة انتخابات الرئاسة. خلال فترة إقامتي في جنيف كنت لصيق الصلة بما يجري من أحداث في السودان، أقدم النصائح بشكل غير رسمي ومساهماً في العديد من الأمور الداخلية المختلفة ذات الأهمية الوطنية. اتضح لي أن التحدث من منطلق أفضلية الانتماء للأمم المتحدة كان يمكنني من إزالة الغموض عن العديد من نقاط سوء الفهم التي يحملونها عن طبيعة بلادهم. هذا ليس فقط بغرض الدعاية الشاملة أو حتى الإنكار التام لنشاطي. وكنت منفتح الذهن وعلى استعداد لتقبل النقد حول مشكلة الجنوب أو عن الأوضاع في دارفور وبعض المواقع الأخرى الملتهبة في السودان. حاولت تبين أن واحدة من المشكلات العويصة التي واجهت السلطات في السودان كانت تتمثل في اتساع رقعة البلاد المهولة. قبل انفصال الجنوب في عام 2011 كان السودان في حجم قارة أكثر منه قطراً، بما يقارب أربعين مليوناً من البشر يتناثرون بين مساحته البالغة حوالي مليوني كيلومتر مربع. لقد كانت مساحة شاسعة يصعب السيطرة عليها، وما زاد الأمر سوءاً رداءة الطرق البرية فضلاً عن محدودية خطوط السكك الحديدية. كانت البلاد خارجة من عقود من الحكم الاستعماري، ولم يكن مستغرباً أن المناطق النائية من العاصمة الخرطوم كانت في حاجة إلى ما يشبه الحكم الذاتي لإمكان التحكم في إدارتها والسيطرة عليها.

كانت الإجراءات الخاصة بالمتنافسين الأحد عشر في الانتخابات الرئاسية كثيرة التعقيد، وكنت في حاجة إلى الحصول على أعتراف عددي بالأسماء من كل الولايات الإقليمية في حملتي الانتخابية. كذلك جازفت بالمخاطرة حينما طالبت السلطات بإعلان اعتذار علني لما وقع من فظائع وانتهاكات في إقليم دارفور. ورغم كونها خطوة محفوفة بالمخاطر إلا أنني أحسست بالإعزاز إذ تلقيت دعماً قوياً من فئات مختلفة من الشباب والنساء والمسنين، ومن أكثر المناطق تهميشاً في البلاد، بل حتى من أعضاء في الأحزاب السياسية التاريخية. وحين نأخذ في حسابنا الفترة الطويلة التي غبت فيها عن السودان فقد أخجل تواضعي ذلك الدعم والمساندة اللذين وجدتهما من الناس.

ثم يأتي التهديد بالقتل. قبل ثمانية أشهر من موعد الانتخابات كان أحد الصحفيين المحليين الذي كان غالباً ما يجري معي حوارات صحافية، طلب مني أن التقيه ذات أمسية في إحدى المقاهي في الخرطوم. كان متوتراً بشدة وبدأ يتحدث معي بهدوء وبصوت خفيض للغاية فيما كان يتلفت يمنة ويسرة للتأكد من نوعية الزبائن المحيطين بنا. وقال لي وقتها إنه سمع بعض الشائعات تتردد بأنني إذا واصلت مسيرة حملتي الانتخابية فإن حياتي ستكون في خطر، مضيفاً أن ما وجدته من شعبية مقدرة أصبح مثار قلق لبعض الدوائر. لم يذكر اسماء لدوائر بعينها ولكن كان واضحاً لي أن مجموعات محددة ممن يهمها أن يستمر ذلك الوضع كالمعتاد، أصبح وجودي يشكل تهديداً لها. وكان يجب علي أن أكون أكثر حرصاً وربما كان من الأفضل لي ولعائلتي أن انسحب من المنافسة الرئاسية. حتى تلك اللحظة كنت أمارس حملتي علناً من دون حماية أو

حراسة، وطراً لي في لحظة ما أن أستعين بتأجير بعض رجال الحراسة الشخصية ولكنني صرفت النظر نهائياً عن تلك الفكرة. وجال بداخلي خاطر عميق بأن أرفض فكرة التنازل ووعدت نفسي بألا أكون عرضة للتخويف. أما ذلك الصحافي الذي ربما كان قد عرض حياته للخطر في تكبده مشاق مقابلي تلك فقد شكرته على شجاعته. في نهاية الأمر لم يحدث شيء ولكن طيلة ما تبقى لي من حملتي الانتخابية فقد كنت على وعي متحسباً بأن طلبة نارياً أو سكيناً قد تظهر لي من حيث لا أدري.

انتهت الانتخابات واتضح على نطاق واسع أنها لم تكن نزيهة، ولكنني لم أكن منزعجاً كثيراً لعدم الفوز، إذ أن الهدف الحقيقي من ترشيح نفسي كان هو مساعدة الأمة والوقوف بجانبها كمرشح معتدل إصلاحى يسعى للتغيير.

وكنت ممتناً علي أية حال بتعييني نائباً لرئيس المنظمة السودانية للدفاع عن حقوق الإنسان والحريات. وهي مؤسسة مستقلة ذات وزن قانوني يخولها البقاء على مسافة بعيدة من تأثير الحكومة. كان ممكناً وأكثر سهولة قيادة تلك المنظمة باعتبارها مؤسسة مؤمنة لا تمارس التسبيح بحمد أية سياسات موصى بها، وإصدار قرارات غير ملزمة لا وزن لها، ولكنني كنت مصمماً على رفد الهيئة بأعداد من الناس المتميزين من جميع الفصائل المتاحة، لعلمي بأنها ستكون شوكة في خصرة جهاز الاستخبارات والأجهزة الأمنية الأخرى. وكان غاية ما نهدف إليه من دور هو محاولة إلقاء الضوء على الحاجة الماسة لاحترام حقوق الإنسان وحرية التعبير، وإصدار توصيات مهمة لإنهاء النزاعات، وإصلاح صورة السودان لدى المجتمع الدولي.

خلال جلسات السماع كانت الهيئة تنصت باهتمام شديد لجميع طلباتي التي قدمتها. كانت الهيئة برئاسة البروفيسور فاروق محمد إبراهيم، وهو رجل يتميز بالنزاهة التامة، وأحد أكثر الناس احتراماً ممن قابلتهم في حياتي.

كانت النقاشات تلامس حتماً أموراً ذات حساسية أمنية، وكانت مساهماتي النشطة فيها تعني أن أكون تلقائياً قد وضعت في دائرة المراقبة الأمنية ثم يلي ذلك الاعتقال.

## الفصل الحادي عشر

### اعتيال وتحقيق.. إزم الصخرة

«إطرح خطاياك جانباً، تنجو من الاكتئاب»

(كامل إدريس)

◀ الرجلان اللذان كانا يلبسان الزي الأفرنجي الأنيق، البنطلون والقميص الذي اعتني بكوائه، حضرا إلى منزل جاري، طرعا الباب، وبادراه بالسؤال: هل تعرف أين يقيم كامل إدريس؟  
«لا أعرف. من أنتما؟»

«لا عليك، هل تعرف أين يسكن؟»

«لا أعرف. لقد سبق أن أجبتكما»، لم تبد على الرجل المسن أية ملامح للخوف، «وحتى لو كنت أعرف لما أخبرتكما»، أضاف لهما.

قفل الباب في وجهيهما وتحرك الرجلان سائرين على غير هدي. ولم يكن في نيتهما إرجاء الأمر.

ذلك التاريخ سيظل ملتصقاً في عقلي إلى الأبد. اليوم التالي كان يوم 15 يونيو 2012 حينما استقبل أحد أقربائي مكالمة هاتفية من ذات الرجلين المذكورين. أعطياه موعداً محدداً وطلباً منه توصيل رسالة إلي. بدعوى أنهما يودان التحدث معي بصفة عاجلة بشأن أمور حكومية مهمة. فهل أتفضل بالحديث معهما في رقم هاتف تم تحديده؟ كان قريبي من الذكاء بمكان حيث شعر من خلال نبرات حديثهما أن صفة التهديد واضحة في المكالمة فاتصل بي مباشرة.

لم يكن يساورني أي نوع من القلق تجاههما. ولم يكن لدي شيء حتى أخفيه فاتصلت مباشرة بالرقم المطلوب. ليس من رد. عرفت من هما ولماذا يبحثان عني. كان معروفاً عن وكالات أجهزة الاستخبارات والأمن في الدولة حرصها الشديد على مراقبة أية دلائل أو إشارات للمنشقين السياسيين أو ما يهدف إلى نقد الحكومة. كانت هناك شائعات وأقاويل بأن أعداداً من الناس اختفوا قسراً ولم يتلقوا معاملة كريمة. وكنت على قناعة إلى حد معقول، رغم أن ذلك وارد الحدوث بأي شكل، إلا أن مركزي الدولي ووضعي الدبلوماسي كانا كفيلين بإبداء حماية كافية لي. وبالنظر للوراء ربما كنت أفترض ما هو أكثر من اللازم.

في اليوم التالي كنت خارج المنزل لحضور اجتماع يتعلق بالأوضاع في دارفور وجبال النوبة. وفيما كانت زوجتي عازة تعد وجبة الغداء في المطبخ كان هناك قرع عنيف على باب المنزل الخارجي. لقد كانا ذات الرجلين وقد هددا بكسر الباب إذا لم تفتح لهما. رفضت أن تفتح لهما الباب فأخذا يصيحان بأن شخصاً مهماً للغاية يود التحدث معي. التقت عازة أنفاسها ولم تقل شيئاً. فترة من الصمت. وكانت قد أخبرتني لاحقاً بأنها نظرت إليهما من خلف الستارة وبينما كانا يبتعدان قليلاً شاهدت رجالاً آخرين يلقون بنظراتهم إلى المنزل ويكتبون بعض النقاط مع التقاط صور للمنزل.

بعد مضي أربعة وعشرين ساعة كنت أقود سيارة إبنني الزرقاء من طراز بي إم دبليو فشاهدت سيارة كريسيда بيضاء اللون تسير خلفي بشكل لصيق. ثم جاءت سيارتان إحداهما من اليمين والأخرى من اليسار وأشارت إحداهما لي بإبطاء السرعة ثم الوقوف على جانب الطريق. تنحيت على الجانب الشمالي من الطريق وكنت متجهاً شمالاً عبر شارع الستين، ثم اتجهت شمالاً مرة أخرى إلى شارع أوماك. لم أكن أتعمد حقيقة مجاراتهم في السباق معي ولكنني كنت أود معرفة إلى أي مدى من المرجح أن ينتهي بهما المطاف. وقد علمت جديتهم في متابعتي حينما اخترقت السيارة الكريسيدا الإشارة الحمراء منطلقة للحاق بي.

دلفت بعد ذلك إلى محطة غسيل السيارات، ترجلت من السيارة وقدم لي عمال الغسيل كرسيّاً للجلوس عليه ريثما يتم غسل السيارة وتجهيزها. إن أفضل طريق للتعامل مع تلك المواقف هو أن تلزم الهدوء الشديد بقدر الإمكان. هنا نزل من سيارة الكريسيدا رجل طويل القامة يرتدي لبسة السفاري ويبدو في منتصف خمسينياته، وتقدم نحوي بتمهل. ابتسم وبطريقة محترمة حياني بإيماءة من رأسه وقدم نفسه بأنه عقيد في جهاز الاستخبارات. وطلب مني إمكانية التحدث في أمر عاجل.

«قبل أن تسألني أي سؤال هل لي أن أرى بطاقتك الشخصية؟»، سألته.

«بالطبع» إنها حقيقية.

«هل هذا اعتقال أم استجواب رسمي؟»

«نحن فقط نود التحدث معك»، قال لي ذلك.

«عن ماذا؟»

«عن هذا وذاك...»

«حسناً، لكن لن نتحدث في هذا المكان. سوف أتحدث معك في منزلي.»

«هذا أمر طيب، إذ أن مساعدي هو الآن ينتظر خارج منزلك.

«حقاً؟ وسيارتي توشك على أن تكون جاهزة و...»

«لن تحتاج إليها»، قاطعني. «من الأفضل أن تترك سيارتك هنا وتحضر معي». كانت تلك لحظة قاسية... تبادلنا حواراً سريعاً ثم ذهبت معه في سيارته صوب منزلي. أتذكر أنه أجرى محادثة أو اثنتين من هاتفه. لم يشر فيهما إلى إسمي، ولكنني علمت أنه قد أخبر رؤساءه بأنه نجح في القبض علي. وكان يبدو سعيداً بما حققه.

«إذن، من هو رئيسك المباشر؟»، سألته.

«سوف تعرف كل شيء.»

«إذا كان هذا اعتقالاً رسمياً أود أن أعرف ذلك، إذ يتوجب علي أن ألغي موعداً مهماً. كما أحتاج للاتصال مع زوجتي لإخطارها بما يحدث.»

«حسناً، تفضل بما تنوي عمله»، قال لي.

رغم ما كان يعتريها من قلق، فإن عازة كانت على قدر التحدي من خلال حديثها معي، والسبب أنه كانت هناك ثلاث أو أربع سيارات لجهاز الاستخبارات مرابطة تحت الأشجار قريباً من المنزل، مما دفع الجيران للشعور بأن شيئاً غير عادي كان يحدث.

وكنت مصمماً حين وصولي للمنزل أن ألقن أولئك الرجال درساً صارماً. تراجلت من السيارة أولاً، وتلقاني رئيس المجموعة وهو رجل ممتلئ الجسم محمّر الوجه، وقدم نفسه لي بأنه صديق حمزة. ويمكنني القول إنه ربما ابتدع ذلك الإسم آنياً في تلك اللحظة تحديداً. كان يبدو ودوداً وجذاباً ولكنني لم أكن لأثق فيه ولو للحظة واحدة، تحركنا سريعاً إلى بوابة منزلي فيما كان نائبه يتبعنا. وحتى ألعب معهم دور المضيف الكبير كانت هي الحيلة التالية. هلا تفضلتما بالجلوس؟ هل بوسعي أن أقدم لكما شيئاً من القهوة والبسكوت؟ ويبدو أن ما أبديته من بادرة نحوهما لم تجد هوى في نفوسهما وظلا جالسين صامتين بما يشبه الخنوع على إحدى الأرائك، فيما بدأت أوجه أسألتي لهما.

«بداية، هل توافقان على ألا نستعمل هواتفنا أثناء هذا «الحوار»، وهل لديكما ما يمنع أن أكتب بعض النقاط أثناء الحديث؟» سألتهما. قمنا جميعاً بوضع أجهزة تلفوناتنا على الطاولة، وتأكدت جيداً أن بإمكانهما رؤيتي وأنا أنوي كتابة جرد كامل لما يدور من محادثة بيننا.

كنت مصمماً على أخذ زمام المبادرة في النقاش متخذاً الطابع الهجومي. «قبل أن نبدأ حديثنا أشير إلى أن زوجتي في حالة من الغضب والاستياء نتيجة السلوك العدواني الذي وقع من



إثنين من رجالكما بالأمس. لم تكن هناك إية حاجة للتهديد بكسر باب المنزل! كذلك لستما في حاجة لتذكيري بأن البلاد تمر بمرحلة حرجة ومن دون إجراء نقاشات بناءة ومفتوحة فإن الأمور سوف تسير إلى الانهيار. وآمل أن تكون هذه النقطة واضحة لكما. وقبل أن تبدأ حديثكما أود أن أفيدكما بأنني أحب هذه الأمة أكثر منكما. إضافة إلى ذلك، ليس من تهديد يمكن أن يطالني منكما أكثر سوءاً من التجارب والمخاطر التي واجهتها في حياتي حتى الآن.

ويشمل ذلك كوني مارست عمالة الأطفال في حياتي، وبقيت متوازناً على أسطح قطارات تتلوى في سيرها، وكدت أموت في الصحراء، سواء بسبب الوحوش الكاسرة من حولي، أو بسكين حادة وضعت على رقبتني من القرصان وقطاع الطرق. الآن ماذا يمكنني أن أقدمه لكما؟

تنحج المسؤول الأول لنظافة حنجرته واعتدل في جلسته إلى الأمام واضعاً يديه على ركبتيه. «دكتور كامل» قال، «أولاً يلزمي أن أعتذر إنابة عن ضباطي للتصرف الذي أساء لزوجتك. ولكن لدينا رسالة مهمة من مسؤول حكومي كبير في الدولة. نحن على علم بأنك شخص محترم على النطاق الدولي، ونقدر جهودك التي قمت بها حتى الآن لمساعدة هذا الوطن. وسأحدث مباشرة عن مهمتي. علينا أن نخطرك بأن قلقاً كبيراً يساورنا تجاه علاقاتك ولقاءاتك حتى اللحظة مع الترابي وأبوعيسى والمهدي وفاروق محمد إبراهيم...» بمعنى آخر، مع المعارضة.

آثرت الصمت لبرهة، ومحاكاة لتحركات جسمه عدلت جلستي إلى الأمام، وتحدثت بهدوء شديد. «أنا لا عرف هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم. فقط أعرف الشيخ حسن الترابي أو الدكتور الترابي، والأستاذ فاروق أبوعيسى، والإمام الصادق المهدي والبروفيسور فاروق محمد إبراهيم. فمن فضلك حينما تتحدث عن هؤلاء السادة أرجو أن تمنحهم بعض الاحترام بالإشارة إلى أسمائهم كاملة وألقابهم».

سادت فترة صمت قصيرة إذ أخذ الرجلان يقيمان الناحية الرسمية في استجابتي لمهمتهما. ثم واصلا حديثهما. «حسناً، لعلنا نكون ممتنين لك إذا أوقفت تعاملك مع هؤلاء الرجال. هل تعلم أنهم قد يلوثون سمعتك باعتبارك شخصية وطنية وعالمية؟» صمت لحظة ثم مال بجسمه ناحيتي، قائلاً: «إنهم شياطين لا فائدة ترجى من ورائهم». بقيت تلك الكلمات الأخيرة معلقة في الهواء كالسهم الزعاف وكانا في انتظار ردة الفعل مني.

«إنهم وطنيون، وجميعهم ولدوا تحت هذا السماء، ويشرفني أن أكون في معييتهم! هل انتهت أسئلتكما إلى هذا الحد»، سألتهما.

لم ترد منهما أية إجابة، لذا واصلت هذه المره وقد ارتفع صوتي، «ليس لأحد الحق في كبح جماح تحركاتي أو الحد من حريتي، أو أن يقرر لي من الذي أقابله. وبالتحديد أنتما لستما في موقع يجعلكما تنصحاني أو تحذراني، أو تطلبا مني وجوب مقابلة أي شخص من عدمه. وبدلاً من ذلك عليكما أن تركزا طاقتكما في حل المشكلات الحقيقية التي تعاني منها بلادنا. أرجو أن تخبرا الجهة التي أرسلتكما بأنه إذا كان ذلك هو فحوى رسالتهم، فهي مرفوضة». وبينما كنت

أتحدث، ظللت أيضاً أوصل كتابة نقاط شاملة عن الاجتماع. كان تصرفي ذاك في حد ذاته هو رسالة مشفرة بأن تسجيلاً متكاملًا لما دار من نقاش ظل محفوظاً.

لم يكن لأي من الرجلين ما يقولانه أكثر من ذلك. رفضا تناول المزيد من القهوة ثم خرجا من المنزل وشيعتهما حتى الباب الخارجي. وقبل مغادرتهما تماماً، نظر إلي في عيني أكبرهما رتبة قائلاً، «سوف نكون على اتصال....».

وقد كانا صادقين في قولهما، فبعد حوالي ستة أسابيع تقريباً حوالي الساعة الخامسة والنصف مساءً، وفي وقت كنت أعتقد أن كل الزوبعة قد انتهت، حضر إلى المنزل شابان آخران. صافحاني وطلبا مني على شكل اعتذار أن أرافقهما إلى رئاسة هيئة الاستخبارات. «هل هذا اعتقال أم مجرد استجواب» سألتهما.

« كلا الأمرين، بكل أسف. رؤسائي سيوضحون لك أكثر»، أجاب أحدهما.

«حسناً، أولاً يجب أن أخبر أسرتي».

«لا يا سيدي. ليس لدينا وقت. يجب أن تذهب معنا الآن فوراً». أصرّ على ذلك.

كان أصغر أبنائي مؤمن يقف بجانبني فهمست إليه بأنهم «رجال استخبارات»، وكانت نظراته المملوءة بالرعب قد أوحى إلي بأنه سيخبر عازة بالمكان الذي سأوجه إليه.

في الطريق تم استبدال السيارة الأتوس الصغيرة بسيارة كرسيدا أكبر حجماً وتم وضعي في المقعد الأمامي فيما جلس رجال الأمن الاثنين في المقعد الخلفي. أحد مكاتب رئاسة الاستخبارات في السودان عمارة غير محددة الهوية من خمسة طوابق في منطقة بالخرطوم بحري تسمى «مواقف شندي»، وهو الموقع الذي تنطلق منه البصات المغادرة إلى شندي في شمال السودان. قد يبدو الأمر هزلياً بما يكفي، ولكن بالنسبة لأولئك التعساء الذين يساقون إلى ذلك المكان فإن الأمر يختلف تماماً.

إنه مكان خطير بكل معنى الكلمة، وذو سمعة سيئة.

قادوني إلى غرفة رمادية اللون خالية من أية ملامح محددة، وفي مواجهتي جلس على طاولة طويلة خمسة من ضباط السجون. خلال الساعات الأربع والعشرين اللاحقة وطوال الليل ظلوا يستجوبونني في شكل مجموعات من واحد إلى اثنين. لم يمارس أي عنف في مواجهتي ولكنهم سلبوني هاتفي الجوال، وكانت جلسات الاستجواب قاسية بلا هوادة. لم يكن يفصل عنها إلا بفترات قليلة من الوقت كانوا يتركونني خلاله بمفردي افتراضاً منهم بأنني سيعتريني القلق حول ما سيؤول إليه حالي: لماذا أسعى للترشح لانتخابات رئاسة الجمهورية؟ من هم الذين كانوا سيدعمونني في الانتخابات؟ ماذا كان دوري في محكمة الجنايات الدولية؟ لماذا كانت اتصالاتي مع مجموعات المنشقين المعارضين للحكم؟

كانت هناك أسئلة أخرى ولكنهم ظلوا يدورون حول هذه الأسئلة الأساسية. كنت مستغرباً

لأنني كنت أعرف أنهم حصلوا على كل المعلومات التي كانوا قد طلبوها. إذن هل كانت تلك لعبة قصد منها فقط توتر أعصابي وإثارتي؟ أو ربما كانت رسالة تحذير؟ أياً كان الوضع فقد صممت على ألا أمنحهم أي كسب. ظللت مذكراً إياهم بالرسالة التي أعطيتها لزملائهم في وقت سابق حول همّتي نحو هذا البلد، ولاحظت أنه مع مرور ساعات الليل كان يصابون بالإعياء والنعاس. حاولت أن أستجمع قواي نوعاً ما بأخذ فترة نوم خفيفة حينما كانوا يتركونني لوحدي. وكان لدي أيضاً سلاح آخر. كنت أعرف أنهم مهما فعلوا بي فقد كان لدي مخبئي السري وهو مكان يمكنني التوجه إليه في مخيلتي حيث لن يقدروا على المساس به. أثناء فترة النوم الخفيفة التي تتابني كنت أذهب في رحلة إلى ضفة النيل. وإذا كان العالم من الكثرة بمكان فقد كنت قادراً على إغلاقه بمجرد أن أغمض عيني وجعلهما مرتاحتين على منظر المياه الجارية مستمعاً إلى الحفيف الناعم للتيارات الجارية. هنا كان السلام وهنا كان التاريخ. ماذا كانت تعني حياتي أنا مقارنة مع ملايين الجنود والمزارعين والصيادين والمكتشفين وعمالقة المؤرخين الذين مروا قبلي؟ منذ مئات السنين كانت هناك أجيال من البشر سبق لهم أن ألقوا بنظرهم على ذات المشهد تماماً وجميعهم وقعوا أسرى من فرط ما أحتوهم من إلهام حول هدوء وعظمة هذا النيل، والآن هم في عداد الخالدين. حاولت أن أستذكر بعض الأسطر لشكسبير مما كنت قد تعلمته أيام الدراسة:

نحن مجرد أدوات كما الأحلام قد خلقت

وحياتنا الصغيرة مكتنفة بنومة مفردة.

نحن نعيش على كوكب الأرض لفترة قصيرة، إذن علينا التحلي بالشجاعة والتمسك بالحقيقة أو، بشكل أكثر بساطة، الأرض مزرعة أما الحصاد فسيأتي لاحقاً. بهذه الأفكار التي تسلح بها عقلي كان المأزق الذي احتواني قد تقلص إلى العدم، وصرت قادراً على التبسم أحياناً في وجه من يحققون معي كلما استمرت جلسات التحقيق عبر الليل. وأعتقد أن ذلك قد لخبط أوراقيهم وأمكنني أخذ زمام المبادرة.

بعد بضع ساعات استطعت أن أتبين ما كان يحدث من صياح وضوء خارج المبنى. لم تكن في شكل المظاهرات العنيفة ولكن أمكنني أن ألتقط كلمة تشير إلى اعتقال والإعلام، وكان البعض من مناصري حملتي قد أثبتوا حضورهم وجعلوا صوته مسموعاً. كان لذلك وقع كبير في قلبي وواصلت محاولاتي في إرهاب ضباط التحقيق. كذلك قررت أن أتحدث إليهم كما لو كنت أخطب مؤتمراً صحافياً أو متحدثاً إلى الوسائط الاجتماعية. وكان ذلك بمثابة تذكير لهم بأنهم ارتكبوا خطأ فاحشاً. كلا الطرفين الآن في وضع من الإرهاق لا يحسد عليه، ومن دون أية توقعات على أوراق رسمية أو غيرها، تم إطلاق سراحي في النهاية في الساعة الثامنة والنصف من صبيحة اليوم التالي.

ولكن استمرت المضايقات... فقد سبق لي أن رتبت عشاء عمل واجتماع ذات مساء لحوالي

خمسة وعشرين شخصية بارزة من بينهم الترابي والمهدي وأبو عيسى، وجميعهم من الذين يبحثون عن حل جذري ناجح لمشكلات الوطن. خلال يوم الاجتماع كان رجال الاستخبارات يراقبون المنزل من داخل سياراتهم التي أوقفوها وسط الأشجار، وعند الساعة الخامسة والنصف مساء سمعت رنين جرس المنزل. حضر إثنان من رجال الأمن للمرة الثانية وأصراً على أن أذهب معهما لمزيد من التحريات وربما اعتقال أيضاً. وفيما قدما لي بطاقت هويتهما سألتهما إن كان ممكناً أن أصدق إلى الطابق العلوي لتغيير قميصي. بدا الضيق على محياهما وطلبا مني أن أكون سريعاً.

في هذه المرة كان الاستجواب أشد عدوانية. لم يحدث أي عنف بدني ولكن الضباط وللمرة الثانية كانوا يتناوبون التحري معي في شكل مجموعات من إثنين إلى ثلاثة، كانوا عدوانيين ورافضين لأجوبتي، وأخذوا يحركونني من غرفة إلى أخرى، ربما بغرض مضايقتي وإلقاء المزيد من التهريب على نفسي. «لماذا تتواصل مع قادة المعارضة؟» سألونني، «لماذا تحاول التقليل من شأن الحكومة؟ ماهو الخلل الذي حدث بين محكمة الجنايات الدولية والسودان؟ من هم الذين أثّرت عليهم خلال نقاشاتك معهم؟ ما هي خططك للمستقبل؟».

كانت استجابتي لهم في غاية الأمانة والوضوح، ولكنهم اعتقدوا بأنني أراوغهم عمداً. «لا تسألوني. بل أسألو رؤساءكم وكبار المسؤولين في الدولة. إنهم يعرفون الأجوبة الحقيقية. يمكنهم نصحكم وإفادتكم أكثر مني». واستمر اللغط خلال ذلك المساء، ولكن حوالي الساعة التاسعة والنصف مساء أخذني أحد كبار الضباط عائداً بي إلى المنزل. كنا بمفردنا في السيارة من دون أي مرافق آخر، وبعد فترة صمت طويلة، أخذ يكح بقلق ملحوظ، «دكتور كامل، أتساءل إن أمكن أن تقدم لي خدمة»، قال لي.

وليست لدي أدنى فكرة عما سيأتي بعد، قلت له: «محتمل».

«كما ترى، فأنا مصاب بارتفاع ضغط الدم وارتفاع الكوليسترول، وأتساءل إذا كان ممكناً أن تحضر لي معك بعض الأدوية اللازمة حين تسافر إلى أوروبا في المرة القادمة». وكان علي أن أخفي ابتسامة ارتسمت على وجهي. هذا هو الرجل الذي كان قبل ساعات قليلة فقط يوجه لي أسئلته المبطنة بالتهديد والوعيد. إنه كشف للبصيرة. بعيداً عن زملائه اختفت تماماً كل معالم السطوة والعجرفة التي كان يبيدها أمامهم. وظهر في النهاية، كأى واحد منا، إنسان عادي ويمكن أن يكون هو نفسه غير آمن من المتاعب والخطر. ولكنني في نهاية الأمر قررت أن أوفي بوعدني وأحضرت له الأدوية التي طلبها واتصلت عليه في رقم الهاتف الذي أعطاني إياه ولم أتلّق رداً، وبالتالي فلم يصل إليه الدواء.

أثناء ذلك ظلت المراقبة مستمرة، وكانت أحيانا تتخذ أشكالاً تدعو للسخرية والضحك. وظلت هناك عربتان على الأقل تتفان بشكل دائم خارج المنزل، وبقيت متابعاً أينما سرت.

أصبح الأمر هزلياً بما يكفي إذ منحت رجال الاستخبارات معرفة برنامجي اليومي، حتى إذا لم

يمكنهم اقتفاء أثري سيكون بمقدورهم العثور علي في أي موقع.

أثناء ملاحقتهم لي في الشارع كنت أنصحهم بالقيادة بتمهل وعناية إذ كنت أراقبهم جيداً باستخدام مرآة سيارتي وهم يتابعونني. في إحدى المرات وقد كان لدي اجتماع في أحد المطاعم، دخلوا معي حتى أنني قدمتهم لضيوفي بل طلبت لهم بعض الأكل والمشروبات!

وعموماً فقد أصبح الأمر غير محتمل. لذا قررت السفر إلى المملكة المتحدة للتعامل مع إحدى قضايا النزاعات القانونية ولمشاهدة ابنائي الثلاثة الذين نشأوا هناك، وهم محمد وديناس وداليا الذين كانوا وقتها أطباء جدد. ورأيت ربما لو ابتعدت فترة طويلة عن السودان من المرجح أن تخمد حدة التوتر. ولكن لا يزال هاجس رجال الاستخبارات ينتابني، وما هو السبيل للإفلات منهم؟ طلبت إحدى سيارات التاكسي للحضور للمنزل من البوابة الخلفية في الساعة الواحدة ظهراً وذهبت إلى المطار مغادراً بالخطوط الجوية التركية إلى اسطنبول ومن ثم إلى مانشستر.

وفي حوالي الساعة السابعة صباحاً بتوقيت اسطنبول اتصلت هاتفياً مع عازة. لقد كانت في حالة من الصدمة. أخبرتني بأن «المراقبين» قد لاحظوا فترة غيابي وأخذوا في استجواب الحارس المنزلي عبدالقادر وإهانته، طالبين منه أن يحدد لهم مكان وجودي. ولوفائه الشديد معنا رفض أن يعطهم أية معلومات عني لذا ضربوه بشدة وتحديداً على وجهه. وحتى بعد أن هددوه بالقتل رفض أن يخبرهم بأي شيء.

ولكن، ازداد الأمر سوءاً. لقد سمعهم يناقشون إمكانية خطف أحد أبنائي الصغار. كان ذلك تطوراً مدمراً في الأمر ويبدو أن الأوضاع بدأت تأخذ منحى أكثر خطورة. وأصبح الشيء الوحيد الذي بإمكانني فعله هو العودة للسودان فوراً لحماية أسرتي وبالفعل غادرت أسطنبول عائداً إلى الخرطوم من دون أن يعلم أحد ذلك، وأجريت اتصالات وترتيبات عاجلة بما يمكنني من مغادرة السودان نهائياً مصطحباً معي بقية أفراد أسرتي.

كان علينا أن نتحرك بحرص شديد وسرية لأن «المراقبين» الآن في قمة يقظتهم وتوترهم، وشعرت بأنني ربما ألقى علي القبض مرة أخرى في أي لحظة. تبقت لنا بضع ساعات فقط قبل أن تقلع طائرنا إلى أسطنبول وبعدها إلى مانشستر لنأخذ معنا بعض الملابس مع جوازات سفرنا وشهادات الميلاد، فضلاً عن إلغاء العديد من الارتباطات المهنية والعائلية. وكان علي أن أترك خلفي بعض ممتلكاتي القيمة ومن بينها مفكراتي وأوراق المهمة التي كانت محفوظة بدقة وعناية منذ أيام الدراسة. كان وداعاً حزيناً للغاية وبخاصة لعبد القادر. فقد انهمرت دموع الرجل حينما شكرته على شجاعته ووفائه للأسرة، وحينما قلت له أمل أن نراك قريباً هز رأسه باكياً في حزن بالغ كأنما عرف أن ذلك لن يحدث أبداً.

مرة أخرى وصلت سيارة التاكسي من الباب الخلفي، وفي الطريق إلى المطار كنت أراقب الشارع لمعرفة إذا كان هناك من يتبعنا. وبشكل لا يصدق كنا في أمان من المراقبة رغم أنه ما يزال علينا المرور عبر أجهزة الأمن في المطار. وكان اعتقال المسافرين في آخر لحظة ظاهرة

مألوفة في المطار، ولم يكن يهدأ لي بال إلا عقب إقلاع الطائرة تماماً. كان بجواري أبنائي الصغار وقد غرقوا في النوم فيما ظلت عازة بصوت خفيض تردد تبعاً كلمة «منفى». لم يكن لدينا وقت للتفكير حول نتائج ذلك الهروب ولكن على أية حال ذلك هو ما حدث. وفي تلك اللحظات كنت قد تأكدت أنني لن أكون في مأمن البتة إذا فكرت في العودة لسوداني الحبيب. وحينما دخلت الطائرة أطراف السحاب نظرت عبر النافذة وأمكنني بالكاد رؤية ذلك الشريط المظلم للنيل والطائرة تغادر سماء الخرطوم. كان كل من عقلي وروحي قد أصيبا بالتشوش. هل كنت ألقى نظرة أخيرة إلى موطني، مكان ميلادي ومرساة حياتي؟ ثم ماذا عن المستقبل...؟ أما العزاء الوحيد فقد تمثل في أن أبنائي الكبار الثلاثة قد استقر بهم المقام كأطباء في المملكة المتحدة. وأياً كان ما حدث لنا فقد التحمنا جميعاً في أمان كأ أسرة متكاملة.

لم يكن ذلك ينطبق تماماً على عبدالقادر. فقد علمت لاحقاً من أحد أقاربه أنه تعرض للتهديد بالموت جراء ما لحقه من التعذيب والإهانة مما كلفه رحلة ملؤها الخطورة حتى نجا بجلده. سار على قدميه تقريباً عبر السودان إلى إثيوبيا حتى وصل أخيراً إلى شواطئ البحر الأحمر. أمضى أسابيع متخفياً وكان قد تجنب المدن الكبيرة خوفاً من احتمال مشاهدته واستجوابه. ثم أمكنه إقناع بعض الصيادين المحليين أن ينقلوه بمراكبهم عبر البحر الأحمر إلى الأراضي السعودية، وكان عليه أن يصبح حتى وصل إلى الشاطئ. دعوت له الله في خلوتي أن يستر عليه ويمنحه السلامة والنجاة، ولكنني لم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

طارت بنا الطائرة حتى تبشير الفجر. وكان نومي متقطعاً، ومرة أخرى سمعت صدى أصوات تنطلق منذ أيام طفولتي: «إلزم الصخرة! إلزم الصخرة!»



## الفصل الثاني عشر

### فلسفتي في الحياة.. عقول عظيمة وقدرات غير مرئية

القليل من الفلسفة يهوي بالإنسان إلى مزالق الإلحاد،  
ولكن التعمق في الفلسفة يسمو بالإنسان إلى آفاق التدين.  
(إف بيكون. فيلسوف إنجليزي، ورجل دولة، وعالم)  
(1561 - 1626)

واصل عطاءك في حسن التعامل وأعمال البر  
حتى لو لم يهتم أحد بذلك  
(كامل إدريس)

◀ من أين تأتي الكوابيس؟ لماذا، رغم الأمان الذي توفره أسرة متماسكة تسودها المحبة والألفة، يهرع الأطفال ليلاً إلى مضاجع آبائهم ترتعد أوصالهم من الخوف؟ لدي ذاكرة ثرة مختزنة من الطفولة المرحّة، ولكن الذئاب بدأت تحيط بي منذ وقت مبكر. ليست لدي أية فكرة عن مصدر قدومها أو لماذا، ولكن موجات من القلق والخوف كانت تقض مضجعي، أحياناً في وضوح النهار تحت ضوء الشمس، ولكن معظمها كان يحدث خلال الليالي العاصفة حينما كانت أعاصير الصحراء الكبرى تزمجر حول منزلنا. حتى حينما كنت في مأمن مستلقياً على الأريكة بجوار والدتي، كنت أتخيل أن تلك الرياح القوية تكاد تهدف إلى تحطيم جدران الغرفة والإطاحة بنا

إلى أتون الجحيم وأعماقه. فهل كانت تلك الأعاصير عبارة عن شياطين متخفية وعفاريت وأرتال من الجن؟ من أين كان لتلك الشياطين الوحشية أن تأتي؟ دين الإسلام كان قد أجاب على هذه التساؤلات: إنهم رسل إبليس الشيطان الأكبر وخدمه، ذلك الذي تم طرده من الجنة ووعد بالتالي بتدمير الخليفة البشرية. وفي وقت ما، أثناء طفولتي الباكّة، كان هذا التوضيح المتأصل في نفسي من شأنه أن يجعل الشياطين يسرحون في الساحة، ولكن ما أن كبرت مع الزمن حتى تطلعت إلى معرفة المزيد. التفسيرات الإلهية معتقد بها لا جدال في ذلك، ولكنني كنت أمل أن يجد بحثي عن الحقيقة وأرض القناعة المفقودة دعماً متنامياً من الأفكار والرؤى المتطورة من قبل المنطق والعقل.

وهناك أمور غامضة أخرى، أقل تهديداً، كانت جميعها تحيط بي.

رحلاتي إلى أهرامات مروي، والقصص الرائعة التي كان والدي يحكيها لي عن بداية البشرية، وما قام به أجدادنا السابقون من رحلاتهم الأولى إلى خارج إفريقيا، ثم ظهور الإنسان العاقل، كلها أشياء جعلت خيالي في دوامة من التفكير. ثم هناك ما أضفى للنيل من سحر أجلي خالد، والعروض الدرامية للأبهة الرائعة التي تستعرض الملوك والملكات والإمبراطوريات، والمعارك والعمارة الضخمة التي ما تزال حتى يومنا هذا تذهل البصر بعظمتها. كنت شغوفاً ومندهشاً ومرتبكاً بتلك الظواهر النادرة. حضارة معمارية من صنع الإنسان تحكي عن نفسها، ورغم أن الأهرامات تعد معجزة في حد ذاتها، ولكن من أو ماذا صنع كل ذلك المعمار الأثري؟ أية يد خالدة أو عين فاحصة تلك التي صممت ذلك التناسق بين النجوم والكواكب؟

من أين أتى كل ذلك السحر الغامض والعظمة والعبقرية والتلون في الإبداع... ولماذا؟ ماذا كان قد حدث لبلايين البشر الذين سبقونا في هذه الحياة؟

أيضاً، إذا كان كل من الجن والشياطين حقيقة ماثلة، كما كانت الشكوك تساورني بوجودهما، فلا بد إذن من وجود توازن إلهي. إذا كان الشر حاضراً، فلا بد من وجود افتراض لنقيضه، وهو الخير. إذا كان هناك خالق للنمر فهل ذلك الخالق هو من خلق له الحمل؟

تلك الأنواع من الأفكار، حتى في خضم تمتعي بمسرات الطفولة، لم تكن أبداً بمنأى عن معتقداتي... واستمر ذلك الحال حتى بلوغي العقد الثاني من عمري. تكثفت لدي تلك الرؤى جراء ما أصابني من تمزق مؤلم حين فقدت والدي، وجدتي زينب، وعمتي فهيمة، وشقيقتي عواطف، وعبدالله العوير، وما تبع من تشخيص للمرض الخطير الذي أصاب والدتي. أتفهم الآن أننا جميعاً وقد قدر لنا أن نبتي بفقد أحبائنا وأعزائنا، ولكن تلك الكوارث كانت قد جاءت متتابعة علي بما كاد يدفعني إلى مهاوي اليأس والقنوط. لماذا قدر لهم أن يموتوا وهم مقتبل العمر؟ لماذا قدر لفهيمة أن تتحمل وفاة زوجها وما تبعه من حياة بائسة حرمتها من نعمة الأمومة؟ ولماذا قدر لزينب قوة الشكيمة، وهي التي كانت قد أضفت علينا مسحات من المرح والضحك والقوة المعنوية، أن تخطف من بيننا ذات مساء؟ الإجابة الوحيدة التي أمكنني العثور

عليها كانت تكمن في الإيمان الديني.

لا أزال وحتى يومنا هذا أحمل في قلبي ذكريات غالية عطرة عن هؤلاء الناس وغيرهم. إنها زينب التي كانت تحتنا على الاستماع لنشرة الأخبار المسائية من راديو هيئة الإذاعة البريطانية. أتذكر في نهاية حقبة الستينات أننا كنا نتحلق حول جهاز الراديو من طراز «جروندق» لسماع ضربات ساعة بيج بن الشهيرة من لندن. إزاء ذلك بقيت أحمل صورة مدهشة في عقلي عن تلك البلاد البعيدة التي تتميز بالبصات الحمراء ذات الطابقين، وشوارعها المكتنفة بالضباب، وحشود بشرية يعبرون نهر التايمز في عجلة من أمرهم، ومملكة شابة جذابة، ومنازل صغيرة من الطوب الأحمر، وحدائق منزلية متقنة الإعداد، وصناديق البريد ذات اللون الأحمر، وأناس مهذبون يعتمرون قبعاتهم المستديرة بلونها الأسود، وإجراءات تغيير الحرس في قصر بكنجهام الملكي، ثم رجال الشرطة المؤدبون ذوو البسمة الدائمة تميزهم قبعاتهم السوداء الطويلة. ربما كانت تلك صورة مثالية، ولكني حينما سافرت لاحقاً إلى لندن لم تصبني خيبة أمل في ما اختزنته ذاكرتي. وإذا كان النيل هو الحليف في الحياة، فقد كان ذلك حال دقائق ساعة بيج بن.

وفيما كنا نستمتع إلى كم هائل من أخبار الكوارث والحوادث، وحرب إسرائيل مع العرب، وهبوط أول إنسان على سطح القمر، وتهديدات الحرب النووية، كان عبدالله لا ينفك يطالب الجميع بالإنصات التام، واضعاً أصبعه على شفثيه وأحياناً لا يتردد في خلع نظارتيه بطريقة عصبية تنم عن الضيق الشديد حتى إذا كنا في حالة همس مع بعضنا. وعند نهاية نشرة الأخبار كانت زينب تضيف تعليقها الخاص بها:

تذكروا دائماً أننا جميعاً خليفة الله تعالى. مسلمون ويهود  
ومسيحيون وهندوس، كل واحد هو ابن أو ابنة، أو أخ، أو أخت،  
أو أم، أو أب لشخص ما. لا فرق بيننا وعلينا أن نتسامح مع بعضنا  
بعضاً.

هذه الأحداث الحزينة يجب أن تذكرنا بأننا في حاجة إلى مساعدة كل منا للآخر، وليس لكي نحارب أو نقاتل بعضنا بعضاً.

كانت هي ووالدتي على السواء قد تميزتا بالشجاعة ولم يكن ليرمش لهما جفن في إبداء معتقداتهن، وقد أحببت كثيراً طريقتهن في إبداء التعاطف والشفقة بما يتجاوز إملاءات المطالب الدينية. نحن كنا عائلة مسلمة تقليدية، ولكن والدتي تحديداً كانت تبدي إصراراً على أن نقابل ونكوّن صداقات مع أبناء من معتقدات أخرى. ولم تكن لدينا مشكلة في هذا النحو فقد لعبنا وضحكنا وأكلنا وغنينا مع مسيحيين ويهود، ولم تحدث أبداً أية مقارنات أو تساؤلات حول معتقداتنا. وكانت تلك الأفكار بكل بساطة أمراً سخيلاً للتحدث بشأنها.

وهناك شخص آخر كان مصدر إلهام بالنسبة لي وقد ساعدني كثيراً في تخفيف أحزان الطفولة

التي اعترتني هو صديقي الهادي آدم. اتخذ هو وعائلته من ضفة النهر مكاناً لكسب عيشهم، كانوا يزرعون الخضروات ويحترفون صيد الأسماك لبيعها في الأسواق. لقد كانوا فقراء إلى حد كبير ويعلمون أن النيل قد يزمجر بفيضانه القوي عليهم في أية لحظة فيمحو منازلهم الخشبية الهزيلة من على الخريطة، ولكنه لم يكن يضج بالشكوى من حاله. لم يكن يبدو عليه أنه يعبأ بأي شيء حوله بل يظل مبتسماً يحكي النكات على طريقة «كلما سيكون سيكون». وحينما قابلت أناساً ممعنين في الشراء في مستقبل أيامي صدمت بأن العديد منهم كانوا يعانون التعاسة والقلق. ولم يكن ثراؤهم الفاحش ليمنحهم السعادة المنشودة، حينها كنت أفكر في حاله وأتعجب كم يظل الوضع الاجتماعي والثراء مجرد نوع من السراب.

ما زلت أبحث عن أجوبة وأنا الآن في العقد الثاني من عمري، وجدت في نفسي ميلاً نحو الاشتراكية. لم يكن في اعتقادي أن ذلك كان شيئاً غير معتاد إذ ربما كنت في خضم موجة عارمة تضم الملايين من الشباب أمثالي حول العالم. عصر «الإنجاب المزهري»، وأجيال ما بعد الحرب العالمية الثانية في أميركا وأوروبا يتحولون بحشود كبيرة نحو أصوات صفارات الإنذار الاشتراكية. كانت سياساتهم مزيجاً متهوراً من الماركسية والماوية والوجودية، وموسيقى الروك، ومساءلة صارمة حول ماهية الوضع الراهن. وجدت في عبد الخالق محبوب مرشداً وناصحاً لي، باعتباره اختصاصياً متفرداً وزعيماً للحزب الشيوعي السوداني. كان يعيش قريباً من دارنا، وأثناء زيارتي له كان يبين لي معتقداته السياسية بوضوح شديد وعبارات مباشرة. كان يبدو مقنعاً ولكنه أيضاً لم يمارس تجاهي أية ضغوط للانضمام للحزب الشيوعي. كان يحثني على قراءة كتاب «رأس المال» الذي وجدته سمجاً لتعدد صفحاته وغزارتها المملة. كما طلب مني أن أتجاوز عن بعض سني دراستي داخل المدرسة مؤكداً لي أنني كنت أحمل صفات القيادة السياسية. وكانت ثناءاته لي محل إبطاء وتقدير، ولكن الشكوك كانت تساورني في أن الشيوعية هي الحل لما يعترني العالم من أزمات. كنت أرى أن لها رؤى وأفكاراً في التاريخ ومشكلات الاقتصاد ولكنني وجدت أيضاً أن إنكارها للأمور الروحانية مخيب للآمال.

بشكل أو بآخر لم يمكنني أيضاً قبول رأيهم بأن «الدين أفيون الشعوب»، كما أن عدم رغبة الماركسية في اكتشاف الأمور التساؤلية الكاملة عن الحياة قد أصابني بالفتور. كان يساورني سبب بالوقوف بجانب الاشتراكية، ولكن «للقلب أسبابه التي لا يعرفها العقل»، وكنت أود المزيد. «المزيد» أتاني في الطريق خلال تجربة محددة لا أزال غير مصدق بحدوثها. حدث أن زرت شخصاً استثنائياً في مدينة الخرطوم بحري إسمه كمال حسنين. كان يدعي بأن له صلة بالتواصل مع الأرواح. كنت متشككاً بقوة حول هذا الإدعاء وكنت مستعداً لإزالة هذه الفكرة الشيطانية من رأسه، ولتوضيح أن كمال حسنين مجرد ساحر، ولكنني لم أستطع. كان هناك حوالي سبعة رجال يتحلقون حول مائدة يترأسها كمال. كان رجلاً ودوداً لطيفاً في بداية الخمسينات من عمره. ظل يتمتم ببعض التلاوات التي لم أفهمها - ربما كانت نوعاً من الصلوات أو الأشعار، ثم وضع حقيبة

أو سلة كبيرة على الطاولة. وكانت الغرفة يكتنفها عبق كثيف من البخور مما أضفى عليها نكهة غريبة استثنائية.

عقب ذلك أحضر قلماً وأدخله في أحد الثقوب الصغيرة من السلة، وسأل إذا كان أي من الحاضرين يود مخاطبة أحد الموتى من أصدقائه أو أقربائه. وحين تم اختيار أحد الحاضرين جلس للخلف وأبعد جسمه من حيث وضع القلم، في ذات الوقت الذي ظل واضعاً يده على السلة.

أخذ بعد ذلك ورقة في حجم الورق العادي A4 وزج بها تحت القلم. وكل ما طُرح سؤال كان القلم يتحرك بسرعة شديدة ويكتب على الورقة كلمات خفيفة باهتة كأجوبة على ما يطرح من أسئلة.

أعرف ما يجول بخاطر القارئ الآن - بأن هذه خدعة متطورة وقد مرت على أذهان الجميع. يلزمي هنا ان أقرر بأنني فحصت كل ما يمكن أن يكون قد أثار الشك. التقت السلة ورفعتها وتمعنت النظر أسفل الطاولة عسى أن يكون هناك أجهزة مغناطيسية أو ما شابه، ولكني لم أعرثر على أية تفسير عقلاني لتلك المسألة. أما كمال فلم يلمس أي شيء منذ أن وضع القلم جانباً وكذا الحال بالنسبة لكل الحاضرين حول الطاولة.

ثم حدث شيء أكثر غرابة حقاً، فقد صعدت السلة إلى أعلى بمسافة مترين أو ثلاثة من المنضدة متجهة قريباً من السقف. ومرة أخرى لم أشاهد أي تدخل بشري في هذا التحرك. في تلك المرحلة كان كمال جالساً بعيداً عن الطاولة وطلب من جميع الحاضرين أن ينهضوا لإرجاع السلة إلى مكانها الطبيعي. نهضنا جميعاً وحاولنا جذب السلة إلى أسفل نحو الطاولة ولكنها قاومت بعنف ملحوظ كأنما كانت تمتلك عقلاً يديرها. أخيراً وبعد محاولات متعددة أمكننا أن نعيدها إلى المنضدة كما كانت سابقاً، ولكن كان بعضنا يلهث بقوة محاولاً التقاط أنفاسه من التعب.

أصبت بالذهول تماماً لما شاهدته من حدث، وحين وصلت إلى المنزل أخبرت زوجتي عازة ووالدها بما جرى، فاندeshمت متسائلة: «كيف لرجل تعمق في دراسة الفلسفة ومنطق الرياضيات أن يقبل مثل هذه الأشياء؟».

أجبتها بقولي: «حسناً، اتفهم ما تقولين. إذن لماذا لا ندعوه هنا للقيام بتجربة مماثلة؟ لقد أكد لي أنه سيرحب بالحضور للمنزل».

بعد أيام قلائل حضر كمال لمنزلنا وأعاد التجربة مرة أخرى. لم يصدق أفراد عائلتي ما شاهدوه بأعينهم، وقد أجمعتنا الدهشة جميعاً في الوقت الذي ظل عبق البخور يعم أرجاء المنزل. كان صهري ضابطاً مرموقاً في الاستخبارات ومن أنصار الواقعية المتشددين، أصر علي أن نذهب إلى كمال من أجل مشاهدة جلسة نهائية. بعد يومين كنا بمنزله وشاهدنا العملية ذاتها. كان معنا زوار آخرون، وفي هذه المرة بدلاً من أن تتعلق السلة بالقرب من سقف الغرفة كانت تطير محلقة حولنا!

«هل يمكنك تصديق ذلك؟» بادرت صهري بالسؤال.

كلا، لم أشاهد شيئاً مثل هذا في حياتي» أجابني، مضيفاً: «هل ترى ان ندفع له مبلغاً من المال؟»

«لا، لقد أوضح لنا مسبقاً أنه لا يقبل المال أبداً...»

«حسناً، دعنا نعود إلى المنزل. إنني في حاجة إلى بعض الهواء المنعش...»، وعدنا إلى المنزل بسيارته والصمت يتملكنا تماماً.

ظللت أعاني من هاجس لسؤالين، لم أجد لهما إجابة بعد. إما أن تكون هناك خدعة أو نوع من السحر مما لا يمكنني إدراكه، أو ربما كان ما شاهدته تجلياً لقوة غير مرئية. ربما كان قناع الحقيقة قد تم رفعه إلى مستوى آخر... أحسست مرة ثانية بأنني داخل قارب صغير على النيل أستمع إلى حكاوى الصيادين. كان البدر مكتملاً والنجوم تكسو السماء، والحياة ملأى بالعجائب الغامضة.

كنت ما أزال أمتلك النيل. وكثيراً ما أتيح لي أن أتجول حول ضفتيه بعيداً عن صخب الناس وضوضاء الحياة. وفي هذا المكان تنأى عني شكوكي وهواجسي الماثلة وأستعيز عنها هدوءاً بما ألقاه من سمو اللامبالاة تجاه صراعاتي الروحانية. «لا تقلق»، يكاد يقولها.

«أياً كان الأمر فإن دولاب الحياة سوف يستمر في دورانه. سأظل باقياً هنا، حتى لآلاف السنين المقبلات حينما تغادرون جميعاً. أنا من العالم الذي لا نهاية له ولن أموت أبداً». لم أكن أعثر على تلك الأفكار في أدنى حالات الإحباط. وقد يبدو أمراً غريباً، أن روحانياتي قد أصابها الهدوء والانتعاش. خلود النيل وما يكتنفه من جمال مستدام كان بشكل أو آخر رمزاً للحقيقة التي كنت أنشدها، وأن رحلته اللانهائية عبر الزمان كانت بمثابة همس الأبدية.

الحديث عن الأبدية يذكرني بأنني محظوظ أن أكون على قيد الحياة، فقد تعرضت في هذه المرحلة من حياتي إلى حادثين رهيبين أحدهما في اصطدام سيارة وآخر لا يقل عنفاً يتعلق بالطعام....

في العام 1996 كنت مسافراً بالسيارة من عمان في الأردن تلبية لدعوة غداء مع بعض المسؤولين الحكوميين قبل مغادرتي بالطائرة إلى سوريا في ذلك المساء. كنا أربعة في السيارة، وسمير سائق السيارة، وزميل آخر، ورجل حراسة. بطبيعة الحال، أثناء الرحلة كنت أبادل الحديث مع زميلي في مواضيع شتى، وحينما جاء دور السياسة قرر سمير أن يشارك. وكان الأجدر به أن يصمت إذ كنا نسير في طريق جبلي وكان عليه أن يجعل كل تركيزه في القيادة خوفاً من حوادث المرور. كما كان يدخن بشراهة. وبلا مقدمات، أدخل في النقاش مسألة العطالة في العديد من الدول. «يفترض أن يبذلوا جهداً أكبر». في تلك اللحظة بالذات كنا نسير على حافة واد عميق للغاية وهنا قررت بكل أدب إسكاته عن الكلام. «سمير، أنا أقدر تعليقاتك ولكن من فضلك ضع نصب عينيك على الطريق».



«نعم، يا سيدي الدكتور. سأفعل ذلك ولكن أود لك أن تعلم أنني ظلت أمارس مهنة قيادة السيارات منذ ثلاثين عاماً ولم يحدث قط أن تعرضت لأي حادث. أنا أفضل سائق في كافة أرجاء الأردن!».»

كان يقود السيارة في منتصف الطريق وفجأة وجد نفسه في مواجهة مركبة ضخمة كانت تتجه نحونا مباشرة، حاول تفاديها ونجح بصعوبة، ولكن عقب ذلك بدأت الأمور تأخذ منحى آخر... وبالحركة البطيئة، أتذكر أن الأفق في السماء قد تغير فجأة وكنا ننظر إلى الأرض من أعلى فتأكدت أن العربة كانت مقلوبة رأساً على عقب على حافة الطريق ولحسن الحظ وبشكل لا يصدق أن أيّاً منا لم يصب بأذى، كما أتذكر أيضاً وبما أنني كنت معلقاً بواسطة حزام الأمان الذي كان ما يزال مربوطاً حول جسمي فقد كان بإمكانني مشاهدة إطار العربة وهو يدور فوق رأسي مباشرة.

كانت لدي فكرة مختصرة بأن مثل هذه الأحداث تجري فقط في الأفلام السينمائية، ولكنها حقيقة ماثلة أمامنا الآن وبالفعل كنا على مسافة بوصات قلائل من الموت.

كنت ورجال الحراسة في حالة غريبة من الهدوء، ولم نكد نصدق ما حدث لنا. ثم أمضينا ثواني قليلة من الصمت بغية تقييم الموقف عموماً. أما سمير فقد كان مضطرباً بشدة. مال نحو مقعد الراكب الأمامي، وقذف جسمه ليفتح الباب ثم حبواً حتى خرج من السيارة وجرى وهو يصرخ مستنداً حول منحني قريب على الطريق.

هنا توقفت سيارتان كانتا تمران على الطريق، وأمكن في نهاية الأمر إخراجنا من السيارة راكعين على ركبتينا مترنحين على الطريق ونتمتع بالدعاء لله لإنقاذنا من تلك الكارثة. ثم شاهدنا بضع سحب من الدخان تنبعث من الماكينة فأثرنا أن نبتعد بأنفسنا بعيداً عن السيارة في مكان آمن على الطريق.

سمعنا بداية صوت أزيز وارتجاج في السيارة أعقبه انفجار لحريق ضخّم عمّ السيارة بأكملها. إلى يومنا هذا أكاد لا أصدق بأنني نجوت من تلك الحادثة بلا أية إصابات كبيرة، وأن هذه الحادثة من شأنها أن شحذت بقوة مستوى تقديري حول كم هي ضئيلة للغاية المسافة بين الحياة والموت.

الحادثة الثانية وقعت في جمهورية سلوفاكيا في عام 2003 حينما كنت في طريقي للاجتماع مع رئيس الدولة. كان موكبنا يتكون من أربع سيارات، فاصطدمت الأولى بأحد الحواجز على إحدى دوارات المرور مما اضطرها للوقوف فجأة، وكنت في العربة الثانية التي اصطدمت بها مباشرة ثم تعرضت سيارتنا لصدمة من السيارة الثالثة خلفنا، فذهلت كثيراً مما حدث غير أنني لم أصب بأذى، ولكن إحدى زميلاتي كانت قد أصيبت بأذى كبير في ظهرها فاضطررنا إلى أخذها مباشرة إلى المستشفى. وبكل أسف لم تتمكن من العودة لمواصلة العمل بعد ذلك مما نتج عنه اعتبارها عاجزة عن العمل لدى الأمم المتحدة.

أخيراً كدت أن أموت في أحد المطاعم اليابانية، حدث هذا بوقت قصير عقب نجاحي في انتخابات لجنة القانون الدولي في نيويورك، وكنت أمتع نفسي بوجبة طيبة منفرداً حينما انحشرت داخل حلقي قطعة من الطعام فشعرت بالاختناق. وقفت على أرجلي متضايقاً من الشهيق في محاولة للحصول على التنفس. حضر شخصان من الطاولة المجاورة لإنقاذي. طلبت الشابة الصغيرة رجال الإسعاف، فوضع أحدهم إحدى يديه على صدري ثم بالثانية ضرب على ظهري بقوة. بدأ التنفس يعود إلي شيئاً فشيئاً، وذابت قطعة الأكل التي احتوتها القصة الهوائية ونجوت من تلك المأساة. وكنت ممتناً شاكراً صنيعها نحوي لدرجة أنني أردت منحها بعض المال ولكنها لم تكن تفكر في ذلك. لم أتمكن من معرفة إسمها ولكنها ظلت على الدوام ماثلة أمامي ولن أنسى أبداً استجابتها السريعة لمساعدتي.

بعد سنوات قليلة من ذلك الحادث كنت أتناول وجبة برفقة عائلتي في مطعم «الليزا هت» حينما حدث الشيء نفسه لشخص آخر هذه المرة. رب أسرة في الطاولة المجاورة شعر بالاختناق من قطعة أكل في حلقة وأصيبت زوجته بالاضطراب الشديد. أسرع لهم وبدأت في عملية ضرب الظهر. وكان يلزمني ضربه بقوة لثلاث مرات على ظهره قبل أن يستعيد عافيته تماماً. إنها دروس الحياة...

في الوقت الذي كنت أدرس فيه الحقوق في جامعة الخرطوم علمت أنني إذا أتيحت لي تنظيم وقتي بشكل سلس فبإمكانني أن التحق بجامعة القاهرة المجاورة لدراسة الفلسفة وعلم النفس. بدأت دراستي بعملقة العالم القديم: سوفوكليس، وأفلاطون، وأرسطو، والسوفسطائيون، وبغية أن أتفهم أفكارهم بعمق، فقد درست الأدب الإغريقي القديم. كان أفلاطون ملهماً بالنسبة لي. وتبين لي أن بعضاً من أفكاره ربما كانت انعكاساً في مرآة الأديان السماوية الكبرى انتظاراً لميلادها لاحقاً. نظريته عن المطلق، ذلك العدل، مثلاً، تسود الكون وتتجاوز الأجيال وأية سياقات بشرية، وفكرته بأن كل أنواع المعرفة ما هي إلا عملية تذكير فضلاً عن كونها اكتشافات، قد أرسلت موجات من المعرفة داخل عقليتي. وما أطلقه من تشبيه بأن سكان الكهوف من البشر القدماء الذين كانوا يتحلقون حول النار ولا يرون سوى ظلال من الحقيقة ترسم على الحائط، ويسودهم الجهل بما يتكون من الأشكال الكاملة بالخارج، كلها أشارت إلى وجود جسم كروي بعيد عن كنه المعرفة البشرية.

نظرية المطلق كانت بمثابة دحض للنسبية الأخلاقية، وهي الفكرة التي تنادي بأن الأخلاق هي مفهوم مائع، وأن ليس من فترة ثقافية أو تاريخية من شأنها أن تتفوق بصورة متكاملة على نظيراتها كافة. في كتابه «إغلاق العقلية الأميركية» الذي نشر في عام 1987 روى لنا البروفيسور الآن بلوم قصة ثم ألقى بسؤال لطيلة المرحلة الجامعية.

في عام 1942 تم تعيين تشارلس نابير قائداً عاماً لقوات الاستعمار البريطاني في الهند. من خلال التقارير التي كانت ترد إليه علم أن زوجة أحد زعماء القبائل البارزين سوف يتم حرقها حية

أثناء مراسم إحراق زوجها. فأرسل نابير جنوده لمنع إحراق الزوجة، وحينما وصلته الاعتراضات من زعماء القبيلة على هذا التصرف كان رده عليهم: «إن أمتي أيضاً لديها عادات وتقاليد، حين يلجأ الرجال إلى حرق النساء أحياء ودون إرادتهن سيتم إعدامهم ومصادرة ممتلكاتهم». إزاء ذلك كانت ردة الفعل لدى الطلاب مختلفة، فالبعض يرى أن تلك عادات متوارثة ولا يجب المساس بها، وأن نابير ليس من شأنه أن يتدخل في هذه الثقافات بل ليس من حقه أن يكون في هذا الموقع في الأساس حتى يأتي ليفرض عليهم قيم وثقافات بلاد أجنبية.

أما آخرون فقد رأوا أن نابير كان لديه كل الحق في التدخل لمنع ذلك التصرف.

قرأت الفلسفة بعقل مفتوح، ليس مهماً أن تكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً أو من دعاة الفلسفة القديمة. بكل بساطة كان هدفي هو الحصول على الحقيقة. أبو حامد الغزالي، ابن رشد، ابن عربي، ابن سينا، الحلاج، توماس أكويناس، سانت أوغستين، ديكارت، توماس بين، كانت، هيجل، نيتشة، جميعهم كانوا يمثلون لدي مجموعة من العقول في متناول يدي، وحاولت أن أحصل على عصارة أفكارهم إجمالاً. كنت أود معرفة ما إذا كان هناك أي خيط مشترك أو دلائل من شأنها توضيح ماهية هذا الكون وما يكتنف الحياة من غموض. وجدت علاقات واضحة بين الأديان السماوية الثلاث، وهي أن الأعمال الخيرية، والإحسان في التعامل، ونبذ العنف، وإبداء حسن النية والتسامح هي الخيوط الأساسية للتعایش بسلام، وهو ما أطلق عليه سوفوكليس عبارة «الحياة الطيبة».

ويمكن القول مجازاً «إنهم جميعاً يتغنون من النوتة نفسها»، حتى لو كانوا لا يعلمون ذلك! ربما كان هذا تبسيطاً للمسألة، ولكن ربما كانت الحقيقة نفسها هي الوسيلة للمغالطة. وفي نهاية الأمر يتضح أن الحقيقة لا يمكن رؤيتها.

أحترم الحكمة والتعمق المتأصل في القرآن الكريم، كما ورد تفسيره من العلامة الغزالي فيلسوف القرن الحادي عشر ذلك الزاهد اللاهوتي المتصوف.

كان يبحث عن الأسس المؤدية إلى السعادة، وقد شعر بأن واجبه كان يتطلب منه وضع المزيد من التأكيدات للتقارب الروحي للصيق مع الله سبحانه وتعالى، أكثر من مجرد إبداء الطاعة والإذعان لمنظومة من القواعد. كان ذلك بالنسبة له هو البعد الداخلي، وليس الخارجي، التي كان يدافع عنه. وكان بإمكانه أن يقدم إجابة جاهزة للمتشددين والمتطرفين: «الإنسان لا يُعد إنساناً لطالما كانت ميوله وغرائزه تشمل الانغماس الذاتي، ومتابعة الشهوات، وحدة الطباع، والاعتداء على الناس». كما لم يكن متزمتاً أيضاً فقد روي عنه قوله للعلماء المتشددين: «إن الذي يدعي حرمان الناس من الموسيقى لأنها مفسدة للروح، عليه أن يطالب أيضاً بأن أغاني الطيور محرمة!».

مع أنني قرأت تلك الأعمال بمزيد من النشوة، فقد كنت في تلك المرحلة من حياتي على وشك الدخول في تفكير أكثر عمقاً. كنت أود استيعاب أكثر من مجرد إملاءات لحقائق بديهية،

رغم جاذبيتها. لقد صارت لفترة طويلة من الزمن في مشكلات العقل أو المنطق والخلقية والتطور. هل المنطق وحده قادر وكفيل بالاعتقاد في الخالق؟ وإذا كان ذلك ممكناً، فأين هي القوة التي خلقت العقل في الأساس؟ وجدت بعض الإضاءات في المنطق الموروث في كتاب توماس الأكويني «خلاصة التاريخ» وبراهينه الخمسة الدالة على وجود الرب. وهي دلائل عميقة التعقيد ومنذ ذلك الحين تم التصدي لها، ولكن في اعتقادي أنها كانت مقنعة وملزمة.

أحد هذه البراهين كان الحجية من «الطوارئ».

وهذا البرهان يذهب إلى أن في العالم درجات متنوعة من الكمال. وأن وجود هذه التنوعات يشير بالضرورة إلى وجود مستوى من الكمال لا تشوبه شائبة، وهو المطلق. وبرهان آخر هو «الحجية من التصميم» الذي يناهز بأن هناك قوانين محددة يمكن ملاحظتها تتغلغل في أوصال هذا الكون، وأن تلك القوانين ما كان لها أن تنشأ من تلقاء نفسها. يجب أن يكون لها مصدر أو خالق. آمنت إذن أن الاعتقاد المنطقي في وجود الله يقودنا حتماً إلى العقل، وليس العكس، وأن السبيل الوحيد للعقل الكامل سيكون عبر أقصى حالات إخضاع الميتافيزيقية لإرادة الخالق. كانت تلك مياه عميقة من علم التوحيد والفلسفة، وأنا أقدر أن ما سبق لي ذكره كان نتيجة جمع وتركيب لأفكار قمة في الرقي. أكويناس والعديد من الفلاسفة الإسلاميين وآخرون جميعهم أسهموا في برهان وجود الخالق، وإذا كان هناك من خالق إذن فإن عقلنا يتجذر من هناك. وبمعنى آخر فإن العقل يتطلب أن يكون قد ظهر للوجود أو الكينونة ولا يمكنه أن يكون قد نشأ من فراغ. وبحسب علمي فإن هذه الفرضية لم يحدث التعامل معها من قبل. إنه من غير المفهوم أن ملكة العقل البشري من شأنها أن تسبق المادة، وبالتالي فإن العقل لا يمكنه أن يكون «البادئ الأول». وهذا بالنسبة لي افتراض ضمني يستلزم بأن وجود الخالق هو من أجل إمداد الطاقة للنمو، والتجديد، واستمرار التناسل، وتأكيد القوانين المتأصلة في الطبيعة والرياضيات. ولطالما استمرت الخليقة في النماء إذن ففوة العقل تظل سائدة، تحديداً في أوساط الكائن البشري وحده.

وكإطراء لهذه الأفكار، فقد سادت من قبل مؤشرات أخرى تدعو للاعتقاد في الملاحظات المألوفة للحياة. مثال لذلك فإن العديد من الناس يشكون من مظاهر القسوة وعدم بسط العدل في العالم وما يسوده من الانكسار والفساد، ولكن من أين أتوا بهذه الأفكار التي تنادي بالعدالة والإنصاف؟ وكما أشار سي إس لويس بقوله: «لا يجوز للمرء أن يدعي بأن الخط المستقيم يشوبه الفساد إلا إذا كانت لديه فكرة عن الخط المستقيم». وكذا الحال مع مقولة جي كي شيلسترون: «ربما كانت من أقوى علامات الألوهية للرجل الذي يتحدث عن هذا العالم باعتباره (عالمًا غريبًا) علماً بأنه لم يشاهد غيره!».

وجدت نفسي أتحرك تدرجاً نحو موقع وجد تعبيراً عنه قبل سنوات عديدة من فرانسيس بيكون: «القليل من الفلسفة تهوي بالإنسان إلى مزالق الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة يرتقي

بالإنسان إلى آفاق الدين».

بوصولي إلى هذا المستوى المتقدم، فهمت أيضاً أن قبولي أي وجهة نظر دينية لا ينبغي أن يسمح لي بأن أصبح دوغماتياً ورافضاً لقيم الآخرين ومعتقداتهم. وما قاله فولتير في حكمته المأثورة: «لا أتفق مع ما تقوله، ولكنني سأدافع حتى الممات عن حقك في طرح رأيك!» ما يزال يحمل صبغة الحقيقة. فضلاً عن ذلك فإن الإيمان بأن هناك قوة عظمي تدير هذا الكون يفترض ضمناً أن هناك عوالم كونية أخرى لا تصل إلى وعينا إلا بالكاد، أي أن أشياء كثر في السموات والأرض مما لا ندرك كنهها.

وحري بنا أن نتذكر أن الأحكام البشرية يجري تطبيقها في سياق الزمن، ولكن في نطاق المطلق أو الأبدية تصبح غير ذات صلة. لهذا السبب أنا أوّمن بأن العقل البشري محدود القدرة لذا فإن محاولته موازنة حياتنا مع الألوهية أمر لا معنى له. كلمة «الزمن» هي تركيبة بشرية، وتاماً كما ليس هناك حدود للفضاء، أيضاً ليس هناك أنماط زمنية في الأبدية. هناك إشارة رائعة وردت في القرآن الكريم، قال تعالى: «لقد كنت في غفلة فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (سورة ق، الآية 22)، وهي رؤية وجدت صدى لها في إنجيل الملك جيمس: «أما الآن فترى من خلال زجاج داكن» (كورنثياس 12، 13). وبعبارة أخرى، نحن كبشر لدينا إichات بالبلد الإلهي النبيل غير المكتشف، ولكن نظرننا يظل رمادياً قاتماً وغير محدد المعالم. والدلائل على وجوده يمكن العثور عليها في قراءة الشعر الراقي، وفي الموسيقى، وفي حياة الصالحين الكرماء، وكذلك في الغموض الذي يلف العالم من حولنا. ومن رأيي أن الغرض الحقيقي من التعليم إذن يكمن في فتح أعين التلاميذ لهذه العجائب. يتطلب الأمر منهم الشعور بالإعجاب تجاه حقيقة أن كل سحابة منذ بدء الزمن لديها شكلها الخاص بها، وأن كل إنسان، ويشمل ذلك التوائم السياميين، لديه وجهه المميز ومجموعة بصمات أصابعه كذلك، وأن أية شريحة من الجليد قدر لها أن تسقط على سطح الأرض كانت لها تركيبتها الخاصة بها.

أعتقد ان تلك الحقائق تعد معجزات في حد ذاتها، تماماً كما يحدث من غرابة في النوم والأحلام. أعجبتني قصة الفيلسوف الصيني القديم شوانغ شو حول حلمه الذي رأى فيه نفسه فراشة:

في ذات يوم من الأيام كنت فراشة، ترفرف هنا وهناك سعيدة  
غير عابئة بالعالم وغير مدركة أنني كنت شو. حينما صحت  
وهناك حيث كنت، أنا حقاً مرة أخرى. الآن لا أدري إذا كنت رجلاً  
يحلم بأنه كان فراشة، أم أنني كنت فراشة تحلم بأنها كانت رجلاً.

في وضح النهار يبدو هذا الأمر غير عقلاني وأن الفطرة السليمة لتفرض نفسها. بالطبع نحن حقائق ماثلة. أجسامنا الطبيعية تؤكد ذلك. ولكن حينما نضع في اعتبارنا أن ثلث فترة حياتنا نقضيها نوماً، فإن الفكرة لا تبدو أبداً بأنها سخيفة. يونغ وفرويد أمضيا جل وقتهم في حيرة حول

هذا العالم الشاذ كثير التضاد. وكذا فعل شكسبير.

في روايته «حلم ليلة منتصف الصيف»، عقب وليمة الزواج، يتجه البشر حديثو الزواج إلى إطفاء الشموع والصعود إلى الطابق الأعلى طلباً للنوم. وعلى خشبة المسرح تظهر الجنينة الطيبة بوك مع تحية وداع أخيرة للجمهور. من هو الحقيقي؟ أهم البشر أم الجنيات؟

طيلة حياتي ظللت محاولاً توليف هذه الأصوات التكميلية والتنافسية بين الدين والفلسفة. وكالعديد من البشر غيري أظل متأرجحاً هنا وهناك في الجدل حول الصالح أو الضد، وفي الأمثلة النبيلة لأولئك الذين يحاولون العيش لمستوى مطالبهم الرفيعة. ومع تقدم العمر، ينمو لدي الإحساس بأن خلاصة ما ربما تكون بين أطراف أصابعي. نحن نأتي من حيث نعرف أنه العدم، ونذهب إلى ما نعرف أنه العدم، أمر مبهم، وتلك نظرة إلحادية لا يمكنني قبولها. لا أستطيع أن أؤمن بأننا مجموعة عشوائية من الذرات الدائرة بعنف حول نفسها في كوكب مظلم لا معنى له. وأفضل الوقوف بجانب الحكمة الجماعية للأجيال التي تفر، بصفة أساسية، عبر الدين والموسيقى والفنون والشعر بأن هناك بُعداً آخر للحياة - إذ رغم أننا نعيش في كوكب غامض فإن هناك قوة إلهية هي من تشكل نهايتنا.

في هذا الصدد أمكن للبرت إينشتاين أن يعكس هذه الأنواع من الرؤى:

أنا لست ملحداً كما لا أحسب نفسي وجودياً. نحن في موقع لطفل صغير يدخل مكتبة ضخمة تحوي كتباً بعدد اللغات. الطفل يعرف أن شخصاً ما يجب أن يكون قد كتب تلك الكتب، ولا يعرف كيف ذلك. ولا يفهم اللغات التي كتبت بها تلك الكتب. الطفل يتشكك بعفوية تجاه أمر غامض بشأن إعداد تلك الكتب ولكنه لا يعلم ما هو. ذلك، كما يبدو لي، هو تصرف حتى أكثر البشر ذكاء تجاه الله.

هذا يشير إلى كيف أن الاعتقاد في الله بما يتم تفسيره وممارسته، هو السبيل للسلام والإخاء. الأديان السماوية الثلاثة وهي الإسلام والمسيحية واليهودية جميعها تتشارك في أب واحد هو إبراهيم عليه السلام، وكذا الإيمان بأن كل واحد منا يحظى بمباركة الله باعتبارنا خليقته ودره غالية في عينه. جميعهم يتشاركون في أن الانتحار وجرائم القتل من انتهاك حرمت الأديان، وأنه لا يحق لديانة أن تفرض عقيدتها على الآخرين.

خلال قرون من الزمان تخاصم أحفاد إبراهيم وتقاتلوا في ما بينهم، ولكن حان الوقت الآن للتصالح والغفران المتبادل من أجل خطايا الماضي. ربما لاجبة لأن نذهب بعيداً بما يكفي: وكما كتب جوناثان سويفت، مؤلف كتاب «رحلات جيليفر»: «لدينا من التدين ما يكفي فقط لكره بعضنا بعضاً وليس لدينا ما يكفي لأن نحب بعضنا بعضاً».



إزاء ذلك أضيف اللازمة الحتمية بقولي حتى إذا كان الحب غير متوفر، فإن التزامنا الأخلاقي هو أن نتغاضى ونتسامح ونحترم خلافات بعضنا. ولنتحدث مجازاً بأننا جميعاً لاعبون على آلات موسيقية منفردة، وهنا تكمن قوة الأوركسترا - ولكن يلزمنا بداية أن نستمع إلى قائد واحد للفرقة الموسيقية حتى يتكشف جمال الموسيقى ورونقها.

لنسعى لتغيير ذلك الوتر ونتخلص مما يتبعه الخلاف... نحتاج في أفضل حالاتنا أن نحتفل بحل خلافتنا، وفي أسوأها أن نتقبلها بلطف. كما جاء في القرآن الكريم:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(سورة الكافرون، الآيات: 1 - 6)

وكالعهد به دائماً فهو النيل الذي بدا أنه يعكس إشعاعاً بهيئة الاتفاقية التي اختص بها. لم تكن لها كلمات، ولا فلسفة، ولا قواعد للحياة، ولكن كانت لديها عظمتها الخاصة بها، وموسيقاها، وسحرها المتصل. أعتقد أن داخل كل فرد، وبصورة عميقة في طبيعته أو طبيعتها، شيئاً متجذراً بعمق في الذاكرة عن حياته الباكورة العذبة. بعض الأديان يطلقون عليها «جنة عدن»، وثقافات أخرى تسمها «العصر الذهبي». أياً كان أمرها، فإن بإمكانني أن أستمع إلى أصوات صفارات إنذاره وأشعر بقوة جذبه حينما ألجأ للراحة بين ضفتيه.

لدي قائمة متكاملة تحمل أسمى آيات الشكر أدرجتها في الملحق عن أولئك الذين ساعدوني على نحو ما خلال حياتي المهنية. ولكني أود هنا أن أشير بصفة خاصة إلى أعضاء لجنتي الاستشارية. كلماتهم التي اتسمت بالحكمة وآراؤهم ومساهماتهم وما تكرموا به من بذل لوقتهم خلال اجتماعاتنا المتعددة عبر الكرة الأرضية، لم تكن تقدر بثمن.

وهم:

الأمير الحسن من الأردن، الراحل جوليوس نايريري من تنزانيا، الراحل بطرس بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة سابقاً، الراحل رئيس دولة مالطا سابقاً غويدو دي ماركو، الرئيس السابق للفلبين فيدل راموس، الراحل وزير خارجية سيريلانكا السابق لاكشمان بروس ليهمان، المحامي الشيلي البارز مارينو بورزيو، وصنوه المحامي الأميركي البارز بروس ليهمان، الرئيس السابق لمنظمة الوحدة الأفريقية أمارا إيسي، وزير التجارة في مصر السيدة فائزة أبو النجا، وآخرون كثر من كبار الشخصيات.

For making a unique contribution to this noble endeavor through this book, I wish to thank the authors for their penetrating foresight and deep concern for the underprivileged sections of our society. May God bless them in all their future efforts in this direction.

Mandela

Nelson Mandela,  
Johannesburg, South Africa  
Former President of South Africa

مقدمة نيلسون مانديلا والإشادة بوصفي مؤلفاً مشاركاً لكتابي (نحو أمم متحدة أفضل من أجل الألفية الجديدة) في عام 1999 / 2000



صورة مع الإمام الصادق المهدي، رئيس وزراء سابق، اتخذت في مارس 2016

مع روبرت موغابي  
في هراري، مارس  
2000 - تبادل آراء  
صريح من أجل  
الاصلاح. وقد سُمي  
باسمي مركز التدريب  
الافريقي الاقليمي في  
زيمبابوي.



مع ياسر عرفات في يونيو 1996.  
أسديت له نصائح أمينة وقبلها  
بكل تقدير

مع إلهام علييف، رئيس  
أذربيجان عقب منحي  
شهادة الدكتوراه الفخرية  
من جامعة أذربيجان 2006





مع جورجيا باربانوف  
رئيس بلغاريا وأعضاء  
حكومته عقب منحي  
درجة الدكتوراه الفخرية  
من جامعة الاقتصاد  
القومي والعالمي في  
2002



جائزة فينيسيا للملكية  
الفكرية، قُدمت لي من  
عمدة فينيسيا باولو  
كوستا، ووزير الصناعة  
أنتونيو مارزانو في 2004

مع أليكساندر لوكاشنكوف  
رئيس بيلاروسيا، بمناسبة  
منحي درجة الدكتوراه  
الفخرية في القانون ولقب  
بروفيسور من جامعة  
الدولة البيلاروسية 2007





مع أ. ب. ج. عبد الكلام،  
رئيس الهند برفقة عدد  
من كبار المسؤولين  
والتنفيذيين، حيث مُنحتُ  
درجة الدكتوراه الفخرية  
من جامعة غاندي الوطنية  
في الهند، يوم السبت  
2005/3/5



مع العائلة الامبراطورية  
اليابانية في طوكيو 2003



مع رئيس وزراء البرتغال  
جورجي سامبايو الذي  
منحني جائزة صليب  
ايفانتي الكبير عام 2004



مع السلطان قابوس بن سعيد  
آل سعيد في عُمان، بمناسبة  
منحي جائزة عُمان (الأعلى  
في السلطنة) في 2004



مع جيانغ زيمين الرئيس  
الصيني، حيث تم منحي  
درجة الأستاذية الفخرية  
في القانون، جامعة بيجين  
1999

مع جيانغ زيمين الرئيس  
الصيني، في زيارة رسمية،  
حيث مُنحتُ درجة الدكتوراه  
الفخرية من جامعة فودان  
(شنغهاي) 1999







مع رئيس وزراء الصين جو  
رونجي خلال زيارة دولة  
عام 2000



مع الملك الحسن الثاني  
في المغرب عام 1998،  
حيث دعاني لمنحي  
وصايا حول أمر معقد.  
قابلته بمفرده ومنحته  
أفكاري وآرائي بكل أمانة  
والتي تقبلها بصدر رحب



جائزة من اتحاد المحامين  
المسلمين العالمي في  
أنقرة في 2014

## الفصل الثالث عشر

### صحوۃ حضارة تليدة ومستقبل السودان التاريخي

كل الأشياء العظيمة من البساطة بمكان، والعديد منها يمكن التعبير عنه  
بكلمة واحدة: حرية، عدالة، شرف، واجب، رحمة، أمل.  
(ونستون تشرشل، 1874 - 1965)

«كلمة الإنسان هي أساس العالم»  
(كامل إدريس)

◀ آمل أن يكون كل الذين قرأوا حتى هذه الصفحة قد تفهموا أن قلبي وروحي ينتميان إلى  
الصلات الحميمة التي تربطني بموطن الميلاد والأسرة. السودان هو موطني وحصني المتين في  
حياتي. له الفضل علي لأكون من أنا ويهمني كثيراً أن يسمو فخوراً عالياً بين الأمم في هذا العالم.  
وإذا جاز لي أن أكون أميناً بوحشية فسوف أفر بالقول إن صورته على نطاق العالم الآن لا تسر  
أحدًا. حرب أهلية في دارفور، وعدم استقرار عام شمل كل مفاصل الحياة لفترة طويلة. بإمكانني  
أن أستعرض بعض المشكلات التي تعتوره، وتحديدًا الاقتصادية منها، ولكن بالمقابل أشعر أيضاً  
أن الوقت الآن قد أزف من أجل المصالحة، وقبول السقطات الماضية، ثم تبني رؤية مشتركة  
نحو المستقبل.

بعض الساعرين قد يذهبون إلى أن ذلك من قبيل المناورة السياسية أو نوع من الانتهازية المعلبة، ولكن صدقوني فأنا أعني ما أقول.

من خلال ما قدمته من عرض في هذا الكتاب حاولت أن أنقل ما يتمتع به السودانيون العاديون من دفء ضروري في معاملاتهم وما يميزهم من حسن النيات، فضلاً عن تاريخهم المدهش وثقافتهم الضاربة جذورها في الأعماق وكرمهم الفطري الأصيل، وإلهامهم وطاقتهم وحسن ضيافتهم. وبطبيعة الحال لا بد من وجود خلافات قبلية ودينية هنا وهناك، ولكن من منطلق خبرتي في تعاملتي مع العالم الأكثر اتساعاً فقد صرت على قناعة بأن الناس متساوون بشكل مدهش في العيش في مكان آمن لتمكينهم من تنشئة أبنائهم، للانطلاق في الحياة وتكوين مجتمعات تسودها المحبة والتسامح.

الرغبات والآمال والصراعات والهواجس والمخاوف والأفراح والأتراح جميعها أمور مشتركة للكافة، بصرف النظر عن مسألة العنصر أو العقيدة. ويمكنني تلخيص أن ما شهدته في أواخر العام 2016، بشأن آلاف اللاجئين النازحين من سوريا والأقطار الأخرى التي دمرتها الصراعات وهم يسيرون على أرجلهم حشوداً في قلب القارة الأوروبية بحثاً عن ملجأ لعائلاتهم، لم يكن ذلك إلا شهادة على ذلك المثال.

أطرح وجهة نظري ليس فقط من منطلق تجاربي المتعددة كدبلوماسي عالمي، وقائد وعالم، ولكن أيضاً باعتبار الحقائق البسيطة والدروس التي تعلمتها وأنا صبي ترعرع في أمدردمان. وإذا كان حقيقة أن الأطفال يتعلمون من الأمثلة التي تمر بحياتهم إذن فإن هناك قناطر مقنطرة من الأرقام ما تزال تكتنف وجداني روحانياً. وهي بمثابة الأعضاء في ترساتي الأخلاقية، ومتى ما استبدت بي الشكوك أسعى لاستشارتها. لقد كنت صغيراً للغاية حينما توفي والدي وبالتالي فهو لم يسهم بقدر كبير في تربيته بمثل ما أنيط ذلك العبء الكبير بوالدي أمونة. ولكنني أتذكر «حضوره» الكبير وإيمانه المتجذر لمساعدته وتعاطفه مع الفقراء والمحتاجين. وكان ما أبدته والدي من شجاعة عقب وفاة والدي وكرمها اللامحدود للغرباء وحبها العنيف الصارخ لأبنائها، قد شكل صخرة أخرى في حياتي اليومية. وكانت جدتي زينب تؤكد بإصرار لا يتزعزع بأن علينا أن نعي تفاصيل تاريخنا، كما يلزمنا بالمقابل أيضاً أن نتفهم بأن العالم قد أصبح صغيراً وأنها نعيش فقط داخل قرية عالمية، ويجب علينا أن نعيش في تناغم ووثام مع من نختلط بهم رجالاً ونساء حتى الذين يتبنون عقائد وديانات مختلفة. وكانت تحمل قناعة راسخة لا تتزعزع بأننا إنما نعد أنفسنا فقط للحياة التالية، بمعنى أن ما فعلناه في الدنيا من أعمال وكيف كانت تصرفاتنا على الأرض إنما يتم الإجابة عنها في عالم الأبدية حينما تكون حيواتنا جميعها في بوتقة واحدة. إضافة لتلك القائمة كانت عمتي فاطمة أيضاً وهي التي بذلت جهداً كبيراً لتعطيني هدية غالية قبل مأساة وفاتها.

سأظل على يقين بأن غالبية المحظوظين في هذا العالم كان قد أتيج لهم بعض العمالة

المبجلين في مرحلة طفولتهم للوقوف بجانبهم، وسوف يتفهمون إذا قلت إن أولئك النسوة الثلاث وزوجتي كنَّ بالنسبة لي نساء مقدسات. أما رفيق دربي ومرشدي في مرحلة الطفولة فقد كان عبدالله، ذلك الفيلسوف الملك المبهم وأحد أكثر الناس طيبة وخُلُقاً ممن لاقيتهم في حياتي، وكان يتبنى فلسفة مماثلة لفلسفتي، وبحثنا دائماً على أن نتغاضى عن خطايا التاريخ وزلاته وننشد التسامح والتطلع إلى المستقبل. كان من السهل عليه كثيراً أن يشعر بالمرارة والسخط من نتائج مذبحة أمدرمان الدموية والافتراضات الاستعمارية للبريطانيين والمصريين، ولكنه مع ذلك اتجه إلى التسامح. ومن رأيه أن الأجيال الحالية من البشر لا يجوز تحميلها وزر أخطاء آبائهم، كما وجَّه أنظارنا إلى الدروس التي يمكن الاستفادة منها. لقد كان متمسكاً بصلاية بأن العقل البشري مما لا حدود له، إذ أن إنقاذ الأرواح وانتهاج المرونة في مواجهة المواقف الصعبة وتجنب أعمال العنف بأشكالها هي المعاول الأساسية للمستقبل. ومن رأيه أن معركة أمدرمان كان ممكناً تفاديها لو جلس الطرفان وتحدثا كأشخاص راشدين وعقلانيين. كما أشار أيضاً إلى موروثات الحكم البريطاني التي خلفها في البلاد متمثلة في خطوط السكك الحديدية والمستشفيات والنظام القضائي والجامعة، وأن السودان كان بمقدوره أن يؤسس عليها ويدعم تطوير هذا التراث بشكل أفضل في مرحلة ما بعد استقلال البلاد.

كانت تلك الخصائص السياسية وبالطبع غيرها من المرتكزات، هي ما ساعد في تكوين نظرتي إلى الحياة ومنحتني معرفة رغم أن التاريخ يكتب غالباً من قبل المنتصر، فإن النبضات الأساسية للطبيعة البشرية التي تتوق إلى الإخاء وحسن العيش هي في نهاية الأمر ما سوف ينتصر على القوات الظلامية.

لهذا السبب فإنني على قناعة تامة بأن السودان رغم أنه يسير في طريق وعرة، فما يزال الأمل معقوداً نحو مستقبل مشرق وضيء يلوح في الأفق. وما أزال على وعي كامل بمخاطر الأشياء نصف الناضجة، والمبادرات السياسية الضخمة، ومتاجر الحديث والشعارات الماكرة. مرت بنا حالات متعددة من الفجر الكاذب التي خبا بريقها لاحقاً جراء الأنانية وعوامل الفساد، وأعرف أن أفكار يمكن الحكم عليها حتى الآن باعتبارها أكثر صفات لاستراتيجيات محكوم عليها بالفشل. في العام 2011 أصبح السودان دولتين وما يزال التوتر مستمراً بين الشمال والجنوب على أشده. جفاف ونقص في الغذاء وتناحر قبلي والديون القومية تشكل كابوساً مرعباً لا قبل لأحد بالتصدي له، إذن لماذا يرفض ما أبدية من التفاؤل؟

حتى الآن فإن مذكراتي تعد لمحة من الماضي، إنها وصف عاطفي لبلد غير مفهوم بعد ومحبوب، قدر له أن ينجر في نوع من الفوضى فضلاً عن حرب مدنية ضروس. أود أن أختم بنظرة محددة، ليست تصوراً وهمياً لا فائدة منه ولكنها خطة واقعية، من شأنها توحيد كل الإمكانات البشرية المنتشرة في أصقاع الوطن وانسجامها، مع استغلال موارده المعدنية المهولة. يجدر بنا أن نتذكر أن السودان يقف على مفترق الطرق في قارة إفريقيا، وهو موقع استراتيجي

فريد، وحينما كان موحداً كان الأكبر مساحة في القارة. وتدفعني رغبة ملحة بأن ينتفض المارد معلنا عن ماضيه، لأخذ زمام القيادة والعودة مجدداً للأسرة الدولية.

كل بلد في الكرة الأرضية لديه صراعاته الخاصة وما يعانيه من عهود كالحة السواد مرت به، ولكنني على يقين لا يتزعزع حين أتنبأ للسودان بل القارة الإفريقية بأكملها أن تعيش في مستوى طيب من الرفاهية. تنبني رؤيتي على أساس من الخبرة مع تحليل أكاديمي قوي للتركيبات الاقتصادية القومية والعالمية على السواء. أنا لا أتباهى أبداً حينما أقول إنني واثق تماماً في معرفة ما أنا بصده. ويمكنني السعي حتى لأكثر من ذلك للقول إن ما أطرحه من اقتراحات هو تذكرة واعدة لأجيال المستقبل الذين نأمل أن يقطفوا ثمار ما نزرعه.

التوصيات التي أطرحها هي نتاج سنوات من الاستشارات والدراسات ومطبوعات اقتصادية معروفة بنجاحها وتحظى بتقدير الأوساط الدولية. وقد حظيت باهتمام أكثر في كتابي الذي أصدرته حديثاً «السودان 2025»: مسار واقعي للمستقبل. ولكن خططي يمكن تلخيصها في عشر نقاط أساسية.

أما الصخرة الصلبة التي سوف نبني عليها ازدهاراً للمستقبل يجب أن تكون هي الضرورة لننتعلم من أخطائنا وفشلنا في الماضي:

1. يمتلك السودان أراضي شاسعة خصبة ومساحات أخرى ضخمة، نفطاً وموارد معدنية، فضلاً عن اكتشافات حديثة للذهب والمعادن الثمينة، وهو يقع في موقع قاري استراتيجي، يربط الشمال مع الجنوب والشرق مع الغرب. كما أن لديه تاريخاً مشرفاً من الحضارة القديمة التي بلا جدال تسبق نظيرتها المصرية. وإمكاناته الكبيرة كموقع سياحي عالمي قد تم استغلالها بالكاد. لقد كان واحداً من أوائل الدول الإفريقية التي نالت استقلالها، ولكن تعطلت تنميته بسبب سوء إدارته، ولغياب النظرة الفاحصة وضعف الخطط الآنية، كما أن أدائه الاقتصادي والسياسي لا يعكس بالضرورة التطلعات المشروعة لسكانه.

2. هناك حاجة واضحة وملحة لوضع نهاية للحروب والنزاعات التي تسهم في انحراف طاقات الناس إلى الدمار. المسائل العرقية والقبلية يجب مواجهتها بالمزيد من التشديد على إعادة صوغ اللّهمة القومية. إذن فالأمر يتطلب حاجة أكثر لكتابة دستور جديد ليؤكد الحريات العامة وحقوق الإنسان للجميع بصرف النظر عن دياناتهم وأنواعهم. ومع اعتبار المواهب الكامنة في مجتمع غالبية من الشباب مترامناً مع الثروات الخاملة في البلاد، يمكن ترجيح إعمال هذه الخطط بشكل معقول نسبياً في فترة قصيرة من الوقت.

3. إنه من المهم للغاية أن نحصل على نظام حاكمي متفق عليه من الجميع، ليأخذ في اعتباره المشكلات المحتملة التي يمكنها أن تنشأ من دستور جديد. إذن فالتكوينات

- السياسية المتناحرة، وأنماط الحياة الفولكلورية العرقية والعادات القبلية كلها أمور يجب احترامها والسماح لها بالمشاركة في هذه العملية.
4. أغلى ما يملكه أي بلد من أصول هو شعبه. إن العنصر البشري متحداً مع مبدأ التعليم للجميع، هو المحور الأساس للتنمية.
5. العدالة الاجتماعية، وجهاز قضائي محترم ومستقل مع إمكان محاسبته، هما صمام الأمان للمجتمع وينبغي أن يكون حاجزاً واثقاً ضد عدم التسامح الديني والسياسي.
6. الهدف من هذه التشكيلات سيكون من أجل استقرار البلاد. ولتشجيع الاستقرار والاستثمار ينبغي على الحكومة أن تصدر اعتذارات علنية، متى كان ذلك ضرورياً، كنوع من العلاج لشفاء جراحات الماضي. الشفافية والانفتاح والمحاسبية وتجنب أي نوع وشكل من الفساد أو التمييز، أشياء حاسمة في هذه العملية.
7. من الأهمية متابعة إرشادات الأمم المتحدة بشأن التنمية. بعض تلك الإرشادات تم تصنيفه أعلاه، ولكن في ما يلي ضروري وملزم:
- أ. مكافحة الفقر والجوع هي أولى الأولويات.
- ب. التعليم الابتدائي والثانوي متاح للجميع.
- ج. المساواة في الجنس والنوع.
- د. تقليص نسبة الوفيات على مستوى القطر.
- هـ. تحسين صحة الأمهات.
- و. مكافحة الملاريا والأمراض الأخرى.
- ز. الاستثمار العالمي على مبدأ الشراكة بغرض التنمية.
8. من الأهمية القصوى بمكان لأغراض تصنيف السودان يجب أن يتم التركيز على تحسين صورته السالبة في المجتمع الدولي. ولجذب الاستثمار الأجنبي لابد من إعادة الثقة التي من شأنها أن تقدم خدمات جيدة للعالم الخارجي.
9. يتطلب من السودان أن يعي الدروس من نماذج الدول الناجحة، صغيرة كانت أم كبيرة، كمثال سنغافورة أو الولايات المتحدة، بحيث ان الأولويات القومية تتجاوز الأكثر محلية. النظام الفيدرالي يعمل بنجاح فقط إذا كانت الهوية الثقافية قومية وليست إقليمية. تثبت التجارب البشرية حقيقة أن التنوع هو مبدأ مهم وشرط مسبق لبناء الأوطان. ويجب أن يكون هذا الأمر معروفاً ومقبولاً للكافة، ولكن تُعد الأولويات القومية عاملاً ضرورياً موحدًا.
10. علاج وطن كالسودان لا يعتبر حلماً غير واقعي. وإذا وضعنا في الاعتبار كل ما ذكرناه أعلاه فبالإمكان أن يتحقق ذلك الإنجاز. تخطيط تنافسي يتميز بالوضوح، وتنسيق



للجهود ومتابعة دؤوبة كفؤة، هي عناصر النجاح. وفي هذا السياق حري بنا أن نؤكد أهمية دور الشباب. الشباب هم القوة المحتملة والمحفزة للمستقبل التي علينا أن نعمل على تنميتها وبث روح الإلهام فيها. أما دور المرأة في عملية التحول وحماية الطفولة فهو ذو أهمية قصوى.

#### خلاصة:

إنه عمل ضخم ولكنه لا يزال في حدود قدراتنا وإمكاناتنا. ويلزم لذلك أن يكون هناك إجماع قومي من شأنه أن يوحد كل الفصائل في بوتقة من الجهود الأمانة المتماسكة بغية إنجاز ليس فقط الإصلاح بل التحول الكامل. لا يمكننا الاعتماد فقط على الخطابة الهوائية، ويجب أن يكون العمل أداة ديناميكية يومية خاضعاً لمراقبة حكومة موثوق بها تتسم بالإنصاف والنزاهة في كل معاملاتها.

## الفصل الرابع عشر

### نيلسون مانديلا ووعده من أجل إفريقيا

«لا أحد يولد كارهاً شخصاً آخر بسبب لون بشرته أو خلفيته العرقية أو ديانته. الناس يلزمهم أن يتعلموا الكراهية، وإذا قدر لهم أن يتعلموا كيف يكرهون، فبإمكانهم أن يتلقوا دروساً في حب الآخرين، إذ أن الحب يأتي طبيعياً إلى قلب البشر أكثر من منائيه».

(نيلسون مانديلا، 1918 - 2013)

«ربما كانت السماء زرقاء وصافية، لأننا نحن البشر لسنا هناك».

(كامل إدريس)

«كل الرجال يحلمون، ولكن ليس بالتساوي. أولئك الذين يحلمون ليلاً في خبايا عقولهم المتربة، يصحون نهائراً ليجدوا حلمهم قد تبدد، ولكن من يحلمون نهائراً فهم رجال خطرون، إذ ربما يمثلون في أحلامهم بأعين مفتوحة لجعلها ممكنة».

(تي إي لورنس، الأعمدة السبعة للحكمة)

◀ قبل أن يكتب مقدمة لأحد مطبوعاتي، كنت قد عقدت مع نيلسون مانديلا اجتماعاً

منفرداً في منزله بجنوب إفريقيا. وكان يناديني بـ«الإبن الحقيقي لإفريقيا». وتلك كانت تلك تحية مفاجئة وثناء غير متوقع بالنسبة لي مما أخل تواضعي كثيراً. وفي الوقت ذاته كان قد شجعني لكتابة هذه المذكرات، مما دفعني لبذل جهدي لكي أكون عند حسن ظنه. سادني شعور بأن سيرتي الشخصية قد تكون مثار اهتمام ما، ولكن الرجل كان يحمل في ذهنه أجندة أكثر إلحاحاً. لقد كان يهدف إلى تحقيق حلمه الشخصي ببروز قارة يسودها السلام والازدهار تكون معروفة وربما بالإمكان أن يسمو اعتبارها أكثر من خلال الكتاب. إذن بطريقة أو أخرى كانت تلك رسالة مشتركة، إذ أن العديد من آمالي وطموحاتي حول المستقبل انعكست في مرآة نيلسون مانديلا نفسه. ولم تكن نظرتنا المشتركة مجرد أحلام فنتازية بل خرجت للعلن بأعين مفتوحة. وحقيقة أن مانديلا كان قد حقق انتصاراً شخصياً بتغلبه على كل أسباب الكراهية والمرارات المؤلمة حتى أمكنه توحيد بلاده وشعبه بأنموذج شخصي بحت، كانت قد منحني دفعة قوية وجرعة كبيرة من الثقة بأن الأشياء العظيمة يمكن إنجازها. منطلقاً من محض تصميم قوي استطاع أن يدافع عن الحرية والعدالة ويضيء نوراً باهراً تجاه المستقبل. إنه الرجل الذي يمكن الاهتداء بنهجه.

كانت لحظة من العبقرية بمكان حينما حضر مانديلا لمشاهدة المباراة الختامية في كأس العالم للركبي مرتدياً قميصاً للركبي، يرمز للغزال النافر دوماً في جنوب إفريقيا، يحمل رقم كابتن فريق بلاده والذي كان يمثل رمزاً قوياً لهيمنة عنصر الأفريكانا الأبيض. وكانت تلك إشارة مذهشة سرعان ما فهمت بأنها دلالة على إرسال يد بيضاء من المودة والمصالحة لأطراف الأمة كافة. وكم كان سهلاً وميسوراً عليه أن لو سعى وهو في رأس السلطة إلى موجة من الثأر والتشفي من خصومه وأعدائه السابقين لتقديمهم لسلسلة من المحاكمات العلنية نظير الإهانة التي تلقاها منهم حين زجوا به في السجن سنين عدداً؟ ولكن، بدلاً عن ذلك سار في طريق آخر تماماً، طريق التسامح والغفران، وقد ترك تصرفه ذلك أثراً لا ينسى. لقد أصبحت أمة «قوس قزح»، ذلك الوطن متعدد الألوان، حقيقة ماثلة.

ذكرتني تلك الحادثة بشخصية بطولية أخرى كان قد زج بها في السجن أيضاً وتعرض صاحبها للتنكيل والعذاب عقب كشفه لما كان الشعب السوفيتي يتعرض له من إذلال. من خلال رواياته ومقالاته العديدة ظهر الإكسندر سولزينتسن كناقذ قوي لحكومة بلاده، وكان مثلاً لمانديلا أيضاً، فقد رفض الخروج من السجن ما لم يتم الإفراج عن جميع السجناء السياسيين أولاً، وظل سولزينتسن في تحديه للحكومة بكتابته المقالات سراً. وبكل بساطة لم يكن يؤمن بأن يظل صوته مكبوتاً مما دفع بالدولة أخيراً إلى نفيه مرغماً خارج بلاده التي كافح وناضل من أجلها خلال الحرب العالمية الثانية.

إن كشفه لما كان يحدث من تنكيل وعذاب للعمال الجوعى الذين يساقون للعمل في معسكرات العمل الجهنمية في أصقاع سيبيريا كان قد وصل إلى مسامع العالم الحر، وكما وصفها الروائي كريستوفر هيتشنس بقوله: «لقد حدث شيء مدمر لهيئة السلطة السوفيتية». لقد بدأت

تتمزق، وفي نهاية المطاف تهاوت على أنقاض سخفها وعجفرتها.

في اعتقادي أن حياتي هذين الرجلين العظيمين قد سجلتا دليلاً ساطعاً على أن الفرد هو الأصل الأكثر غلاء للإنسانية. كانا يشكلان تجسيداً للعبارة الأكثر اقتباساً والتي تقول: «الشعراء هم مشرعو الإنسانية غير المعترف بهم».

لقد رفضا أن يخضعا للتخويف والمهانة بل أمكنهما في نهاية المطاف وصم من كانوا ينگلون بهما بالخزي والعار. لذا وجب علينا أن نحبي ذكرهما بالفخر.

هناك أيضاً العديد من الأشخاص الذين تبلورت شخصياتهم تحت رادار الاعتراف العلني حينما تحدوا سلطة القهر من السوقه والعدوانيين والاستبداديين، ولكن مانديلا وسولزيتسن كانا الأكثر بروزاً في الطليعة العظمى للإنسانية.

كانا قائمتين عملاقتين. ويظل الأمل يحدوني أن أحذو حذوهما في أي شكل يمكنني أدائه. وأشعر بأن لدي التزاماً أخلاقياً يتطلب مني المشاركة بوجهة نظري التي أساهم بها في أوساط أوسع قطاع ممكن من البشر. لذلك أعددت هذه المذكرات.

كانت إحدى الاقتباسات التي وردت في مطلع هذا الفصل من الكتاب تحمل تحذيراً رغم كل شيء. «من السهل عليك أن تحلم ثم تصحو في الفجر من دون أن تفعل شيئاً». إذا أتيح لأية نظرة أن يتم تنفيذها والعمل بها، فذلك يتطلب الأدوات العملية لضوء النهار، ثم الطاقة والتفرغ الكامل لنقلها إلى مسرح الحياة.

هنا يبدو السؤال الأكبر المتكامل في كل جوانبه: وهو مما ظل يطنّ في عقلي منذ سنوات. كيف يمكن لأفريقيا أن تتصدى لما يواجهها من تحديات وتتعرف على إمكاناتها الموهولة؟ إنه الأمر الذي أرغب في التصدي له بصورة أكثر عمقاً في كتاب آخر إذ أن هذا التساؤل واسع للغاية في نطاقه.

إنه مانديلا الذي قدم للعالم تشخيصاً أميناً لاذعاً... حينما جاء للحكم في عام 1994 كان قد خاطب اجتماع القمة في منظمة الاتحاد الإفريقي، مذكراً المؤتمرين بأنه ومنذ ألفي عام ظلت إفريقيا عرضة لاستغلال مواردها، ونهباً وتجفيفاً لخيراتهم الاقتصادية من قبل المستعمر الأجنبي. وفي الوقت ذاته ذكرهم أيضاً بأن كل القادة الأفارقة الذين تعاقبوا على حكم بلادهم لم يقدموا تنمية أو تحسينات ذات معنى، مستعيناً بعبارة كاسيوس من مسرحية «يوليوس قيصر» لشكسبير:

«يجب علينا مواجهة الأمر مباشرة حتى إذا تبين أن هناك خطأ

ما حول كيفية حكمنا لأنفسنا، فيجب أن يقال حينها «إن الخلل

ليس في أدوارنا بل في أنفسنا».

كان يصر على أنه إذا أرادت قارة إفريقيا أن تلحق بركب العالم المتقدم فعليها ان تنظر في مرآتها وتواجه الحقيقة. خمسون عاماً من الاستقلال وما تزال العديد من دولها تعاني في خط

الفقر، بينما يتكدس الثراء الفاحش في أيدي أقلية صغيرة. هناك علامات استفهام حول الوجهات النهائية للمعونات الخارجية، ويسود اعتقاد بأن حوالي خمسين بالمائة من سكان شبه الصحراء يعيشون على دولار واحد في اليوم ونتج عن ذلك انخفاض مهول في المعدلات العمرية للسكان مع ارتفاعات ملحوظة في نسبة البطالة والأمية.

إن التصدي لهذا التعقيد ليس بالأمر السهل، ولكنني لا أزال أشعر مخلصاً بأن إحداث التطور المنشود لا يزال ممكناً. سيتطلب الأمر وقتاً للتفكير المدروس بتروٍ وعناية ومن ثم اتخاذ القرارات الصعبة.

في العام 1945 كانت قارة أوروبا عبارة عن ركام. الملايين من سكانها تشردوا بلا مأوى يعانون من العوز المدقع، تحطمت كل الاقتصادات وكان شبح المجاعة يخيم على القارة العجوز. كان هتلر قد انتهى أمره ولكن ما خلفه من هوس مروع كان قد ترك أثره العنيف في نفوس البشرية. نهضت مجموعة من أعضاء الكونجرس الأميركي من ذوي الأعين الفاحصة مقترحة مشروعاً إنقاذياً. أطلقوا عليه «خطة المارشال» وكانت فكرته تهدف إلى إعطاء منح مالية وقروض ذات أرباح متدنية للغاية لدول القارة كافة حتى يمكنها الوقوف على أرجلها مرة أخرى. وكانت القروض ذات الأرباح المتدنية حيوية للغاية، بحيث أن الاقتصادات النامية كان باستطاعتها امتصاص تكلفة التسديد من دون أن تصاب بالعجز مرة أخرى.

كانت أهداف الخطة جلية وغير قابلة للغموض — إعادة تعمير المناطق والمدن التي دمرتها الحرب، وإزالة جميع العوائق والحواجز التجارية، وتحديث الصناعة، وإقصاء القوانين العقيمة التي كانت سبباً في إعاقه سريان العمل التجاري، ثم كان منع انتشار الشيوعية هدفاً رئيساً.

بدأت الخطة في العام 1948 وفي غضون أربع سنوات كانت أوروبا تشهد أسرع فترات نموها عبر تاريخها. وكانت النتائج مذهلة للغاية، ازدياد ملحوظ في معدلات إنتاج الزراعة والصناعة فاق معدلات ما قبل الحرب، خاصة في ألمانيا الغربية التي أحدثت «معجزة اقتصادية» غير عادية.

في اعتقادي أن مثلاً لهذه الخطة الملهمة من شأنه أن يكون قاعدة لنقاش جاد على أعلى المستويات، رغم أن التطبيق مما يجب أن يكون له أثر مختلف. إن أفريقيا أكبر مساحة من الولايات المتحدة وأوروبا والصين والهند مجتمعة. إنها من الاتساع بمكان بحيث أن العملية يتطلب أن تكون على المستويات شبه الإقليمية. إضافة إلى أن أية دولة تتسلم أموالاً عليها أن تكون خاضعة لتفتيش صارم من قبل طرف محايد معتمد، وأن تأكيد ذلك سيكون منصباً في التركيز على تنمية العمل التجاري، مصحوباً برفاهية المجتمع ومتطلباته كمسألة ثانوية. هذا لإيماني بأن تسخير الموارد الطبيعية الموهولة على أسس اقتصادية بحتة من الممكن أن يقود إلى

رفاهية متنامية وازدهار في الحياة الاجتماعية. وفي أكثر القواعد تبسيطاً فإن الطريقة الوحيدة لتحسين حياة الشعوب الإفريقية هي أن نعطي الأفارقة معاول البناء للعمل، بدلاً من السماح للمعونات المتقطعة التي تأتي من خلال المنح المالية بالسيطرة عليهم. اعتادت مشروعات المعونات الضخمة أن تكون ذات فوائد عاطفية للدول ولكنها تمس فقط أعراض المشكلة بدلاً من جذورها الأساسية. النقطة الأساسية لإحداث انفراجة في هذا الصدد هي التأكيد بأن الأحوال السياسية والاقتصادية قادرة على إحداث النمو المنشود. وكان ذلك هو التشخيص الدقيق الذي اعتمد عليه رجال الكونجرس الأميركي وحثهم على المخاطرة بإرسال أموال طائلة لأوروبا عقب الحرب العالمية الثانية. وكانت النتيجة الدرامية هي صحة اقتصادية مدهشة، ولا أرى أبداً ما يمنع من إجراء تجربة مماثلة في إفريقيا ورغم أن مقولة «المقاس الواحد لا يناسب الجميع» لا تجد لها موقفاً في إفريقيا. ولتأكيد نجاح هذه الخطوة يلزمنا الأمر لمكافحة الفساد، وتحسين نظرتنا للمستقبل ثم تقوية المحاسبية. كما أن متطلبات الشفافية وضرورة الالتزام والأمانة والنزاهة هي الأمور الحيوية التي لا غنى عنها.

في هذا الوقت أقدر تماماً أن هذا الأمر افتراضي بحت. إن فكرة نوع ما من «خطة مارشال» لإفريقيا كانت قد أثبتت من قبل ولكن لم يعمل بها، ولكني أبعد متحفظاً إذا قلت إنها سبق أن أثبتت على أعلى مستويات صنع القرار وانتهى الأمر بلا وعود أو أية إجراءات عملية. أما إيماني بنجاحها، أياً كان الأمر، فيكمن في عاملين أساسيين. أولهما نموذج ماندبلا نفسه. إذ لا يراودني أدنى شك في أنه لو كان على قيد الحياة إلى يومنا هذا لكان بمقدوره أن يستنفر كل جهوده لجعل تلك الخطة واقعاً ممكناً. أما العامل الثاني فهو ما حصده من معرفة وخبرة خلال ما يقارب الثلاثين عاماً من العمل كرئيس تنفيذي في الأمم المتحدة. بكل ما أملك من التواضع، أشعر أنني في موقف يمكنني من المساعدة في تحليل التحديات، مع قدرتي بجمع الموارد الأساسية، بما فيها السياسية والأكاديمية التي من شأنها القيام بذلك العمل، أياً كان مهولاً وشاقاً ربما.

استناداً إلى هذا الإيمان العميق، فإن صلابة ما لدي من صخرة التفاؤل ذلك أمر آخر. أينما سافرت حول العالم، كنت أحتفظ في غرفة سرية من القلب بصديق ثابت. وعلى صعيد هذا الكتاب بأكمله ظل هناك أمر متكرر - إن مصدر إلهامي الأبدي وما أحمله من آمال نحو إفريقيا هو نهر النيل نفسه. بقيت طيلة حياتي أستمّد المنعة والعزة من هيئته، وظل ما به من جمال يهمس في أذني صوب عالم آخر لما وراء نظرتنا البشرية.

على مدى عصور التاريخ المتعددة الأشكال والصور، كان هناك ملوك وملكات، وسلالات وطغاة، وكل ما ساد عن سببية ومن أجل أشياء متعددة، ظل يبدو في عقلي وكأنه يتبسم بهدوء في وجه كل الحماقات والتفاهات التي مرت به. هناك اعتقاد بأن الروائح تعود بك حالاً إلى مرحلة الطفولة، ومتى كان عالم السياسة قد أخذ مني الكثير فلا أجد مناصاً وقتها سوى رحلة



عقلية تأخذني إلى شواطئه الرملية.

هناك يمكنني أن أستحضر خلطاً من دخان الأخشاب المحترقة، بما لديها من غبار، مع أعواد القصب المرطبة، ومثل أي واحد من أسلافي كنت أشم الأبخرة ذاتها التي اعتادوا على شمها قبل مئات بل آلاف السنين. نهر النيل، كما هو بلا تغيير، بلا زمن محدد يستمر في جريانه. يمكنني رؤية أشعة الشمس وقد أحالت مياهه إلى وميض من الماس المترجرج. وطيور الرهو تقف معتدلة كأنها تماثيل قديمة. طيور العصافير والرفراف تتقافز هنا وهناك، وربما تغلبت على بعض الصيادين وهم يلقون شباكهم على النيل من قواربهم الصغيرة. لقد عدت إلى موطني مرة أخرى وعلى نحو ما أعلم أن كل شيء سيبدو تماماً وأن كل الأمور ستكون في أحسن حال. في نهاية المطاف.

## الفصل الخامس عشر

### اضبط الأوتار وسيتبعها اللحن.. سلام ومداواة كونية

«الحكمة ثراء الحكماء»

(كامل إدريس)

◀ المقالة التي أخرجها فرانسيس فوكوياما في العام 1989 بعنوان «نهاية التاريخ»، كانت تتحدث عن أنه بسقوط الشيوعية السوفيتية ثم هيمنة الديمقراطية الليبرالية الغربية، سيدخل العالم مرحلة الحد الأدنى من المصادمات، وأن حياة البشر سوف تبشر بمستقبل مستقر بشكل غير مسبوق. الهزيمة التي لحقت بالفاشية والشيوعية كانت قد جلبت للعالم العديد من الفوائد، وتنفس العالم الصعداء لأن الحرب الباردة، بما لها من تهديدات كانت تنذر بإبادة ذرية لم يعد لها مجال بعد. لم تكن الديمقراطية بالمستوى المطلوب، ولكن بالتزامها بحقوق الإنسان والحريات الفردية فقد اعتبرت نموذجاً للتقدم. وكان عراب الدبلوماسية الأميركية العجوز هنري كسنجر قد أعلن وقتها عن أمله في إحداث نظام تعاوني متميز ومنتشر بين الدول يراعي القواعد العامة والأعراف المتبعة، يحتضن أنظمة اقتصادية ذات طابع ليبرالي وينبذ النزاعات الحدودية ويحترم سيادة الدول ويتبنى أنظمة ديمقراطية تعددية المشاركة للحكم.

من السهل أن تبدو حكيماً بعد الحدث، ولكن يعتريني التشكك حول تقييم فوكوياما منذ البداية. لقد شهدنا ترحيباً كاملاً من الكافة بسقوط الشيوعية، ولكننا نتعلم دائماً من دروس التاريخ أنه كلما قطع أحد رؤوس الشر كلما نبت رأس آخر محله. وباستعادة أحداث الماضي

أعتقد أن الاحتفال بسقوط حائط برلين كان أكثر إثارة مما يتطلبه الحدث، وكان من قصر النظر الافتراض بأن الإنسانية سوف تسير في طريق مستقيم نحو مستقبل مضيء من دون تطبيق الفهم الضروري للحقائق.

وبدلاً من تحسن الأمور فقد سارت إلى الأسوأ. في أفغانستان مثلاً كان الافتراض بمجرد هزيمة الاتحاد السوفيتي أن الطريق سيصبح معبداً نحو ديمقراطية ليبرالية. وهذا ما لم يحدث. والشيء نفسه يمكن قوله تجاه الفترة التي أعقبت غزو العراق. في حالة حدوث أي فراغ في الحكم فمن المرجح بشدة أن يملأ من قبل الانتهازيين وليس من قبل الإرادة التلقائية للشعوب أو من القوى الأكثر منعة. وبكلمات أخرى فإن الصيانة الديناميكية لحل أي مشكلة لها أكثر أهمية من الحل نفسه. وإذا قدر أن تكون هناك خطوات واقعية ينبغي بذلها تجاه الأزمات العالمية فإن الأعمال الفاترة التي تعوزها الحماسة والمبادرات الزائفة، دائماً سيكون مآلها الفشل، وأن الأشياء لا يجب أن تؤخذ كأمر مسلم به بتاتاً.

بحلول عقد التسعينات ومع بداية الألفية الثالثة لم تكن الأحداث العالمية تسير وفق ما كان مخططاً لها: لقد تلاشى التفاؤل، كانت هناك أحداث الحادي عشر من سبتمبر، الصراع الإسرائيلي - العربي عميق الجذور استعر من جديد، اشتعلت الحرب الأهلية في سوريا، دعاة دولة الخلافة الإسلامية (داعش) بدأوا يقاتلون من أجل الخلافة، وفي إفريقيا ظهر البوكو حرام، أخذ العراق يعيش في ظل الغزو الذي تعرض له وما لحق ذلك من أزمات، ونشط الإيرانيون في أعمال الحرب النووية، أما روسيا فقد أخذت في استعراض عضلاتها في أوكرانيا. وفي الشرق الأوسط تحديداً في اليمن وتونس وليبيا ومصر كانت هناك دوامات من عدم الاستقرار والقتل. وكانت حالة «الربيع العربي» واضحة للعيان.

قارة أوروبا، بسكانها المسنين الذين عاشوا مدلين في عقود من القروض والإنفاق الزائد عن الحد، بدأت تظر بعصبية إلى دولها المترامية حيث أخذت ملامح الانهيار الاقتصادي تبشر بمقاييس عميقة من الكساد الاقتصادي. لقد أصيبت اليونان بما يطلق عليه السقوط الاقتصادي الحر. أما إسبانيا وإيرلندا والبرتغال، وحتى فرنسا وإيطاليا قد عانت جميعها من ازدياد مربع في معدلات البطالة. وفي البحر الأبيض المتوسط ظن الآلاف من اللاجئين اليائسين من شمال إفريقيا وسوريا وبعض الدول الأخرى أن مراكب الإنقاذ الإيطالية واليونانية قد تبحر بهم إلى مرفئ السلامة والحياة الجديدة. ولكن كان بالنسبة للآلاف منهم أن مراكب الإنقاذ لم تصل إلى وجهتها! وعقب الخيار الديمقراطي الذي اتخذته المملكة المتحدة بالمغادرة، كانت هناك أحداث أيضاً حول التفكك التام عن الاتحاد الأوروبي نفسه في نهاية المطاف.

اشتدت الأزمات المالية ضراوة. كانت المحادثات تجري مع إيران حول خططها النووية، وفي الوقت ذاته لم تكن الدول النامية والأدنى نمواً بعيدة عن الفقر المدقع فضلاً عن معاناتها لمعدلات البطالة المرتفعة وشبح المجاعة. المنظمات العالمية وبخاصة التابعة للأمم المتحدة

والمنظمات الإقليمية ظلت تكافح باستمرار من أجل إيجاد الحلول المناسبة، وفي عديد الحالات كانت تفقد معركتها.

في العام 2005 نشبت حالات من العنف والشغب في منطقة كليشي - سوس - بويس وهي إحدى ضواحي العاصمة الفرنسية باريس وموطن لعائلات فقيرة من المهاجرين. وكانت عوامل البطالة والاحتقان ثم التهميش هي الأسباب الرئيسة، أما التوترات الثقافية فقد كانت حاضرة أيضاً.

كانت قطاعات الشباب الساخطة قد رأت تدهوراً اقتصادياً ومعنوياً حاق بها في مجتمع ما بعد المسيحية الذي كان في حالة تقهقر مثير عن تعاليم عبادته الباكّة التي كانت تعنى بالتعددية الثقافية. وفي عام 2008 تعرض السياسيون الفرنسيون للإهانة حينما صاحبت النشيد الوطني الفرنسي صيحات الاستهجان والزعيق أثناء مباراة ودية مع الفريق التونسي. مملكة الدنمارك أصدرت منشورات تشني المهاجرين عن محاولاتهم الدخول لأراضيها. فرنسا منعت لبس الحجاب في الأماكن العامة، وفي أكسفورد قرارات مثيرة للجدل حول طلب مآذن المسلمين عدم استخدام مكبرات الصوت للنداء لأداء الصلوات. في عام 2015 وقعت هجمات شارلي إيبدو في باريس، وما حدث في نوفمبر من أحداث نتج عنها مقتل 129 مدنياً قد وضعت الأمن الأوروبي في دوامة من الانفلات. ويجدر بنا أيضاً عدم نسيان أن التفجيرات الانتحارية التي حدثت في تركيا ولبنان كانت لها تأثيرات مماثلة على الروح المعنوية، رغم أن علامات التحدي والتصميم لحماية أنفسهم وقيمهم ظلت قائمة.

هذا المشهد العالمي الذي ينذر بالشؤم كان يبعد مليون ميل عن رؤية فوكوياما حول النمو الاقتصادي وتخفيض عدد قطع الكلاشنيكوف، ولكنني رفضت أن أقبل ذلك لكونه ضاراً وكتيباً. وكانت لي ردة فعل عن تلك الأيام المليئة بالتوتر في عقد الستينات حينما كانت العناوين الرئيسة مكتظة بالمخاوف التي تتضح بها حرب فيتنام، حينما كان نيكيتا خروتشوف الغاضب يضرب بحذائه في مقر الأمم المتحدة. في وقت كانت الحرب الذرية على وشك الحدوث، وفيما كانت الأغنية السائدة وقتها تردد: «في أمسية الدمار». كنت أرى القلق يشع من أعين عبدالله، حتى وإن بدا غير مبال بالأمر. وعلى أية حال فإن الدمار لم يأت أبداً.

بفضل العزيمة والمرونة والإدراك السليم مجتمعة أمكن إطفاء العديد من البؤر المشتعلة حول العالم، واتخذت الحياة مسيرتها.

هناك دروس أكثر يمكن استنباطها من التاريخ:

في القرن السابع عشر عاشت أوروبا حرب الأعوام الثلاثين حينما مزق الكاثوليك والبروتستانت بعضهم بعضاً حرقاً وتقتيلاً وتدميراً للدرجة القصوى. ثم جاء عهد الإصلاح والتنوير حينما خفت وطأة الأفكار الإيمانية والمعتقدات الدوغماتية بشكل عقلاني. لم يحدث أي تخفيف أو مرونة للعقيدة، بل أعيد اختبارها وتنقيتها، مع بقاء كل من جوهر القيم العقائدية والأمل والعمل

الخيري على أشدها.

كما بدأت أيضاً عملية الوعظ والإرشاد بشأن نشرها مبدأ التسامح واحترام معتقدات الآخرين مع مناصرة ودعم المعتقدات كجزء من حقوق الإنسان. وما يزال الطريق طويلاً للسير فيه، خاصة في ما يتعلق بعلاقة الكنيسة بالإسلام واليهودية، ولكن على الأقل لقد بدأنا نسمع صرير باب التسوية والتصالات وهو يفتح تدرجاً. وتوج الأمر بمبادرة غير مسبوقة من البابا جون بول الثاني في عام 2000 حينما أعلن اعتذاراً قوياً عن ممارسة ألفي عام من العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحة، منادياً لقرون من الكراهية أن يستبدل بها التسامح والرحمة والتوادم. كان قد نادى بإنهاء الخلاف والتشردم في ما بين المسيحيين أنفسهم، وكذا إنهاء الشقاق والتشكك نحو من يعتنقون الديانات الأخرى. لم يشر بالإسم إلى الحملات الصليبية أو محاكم التفتيش أو الهولوكوست، ولكن إشارات وتلميحاته ضمناً كانت كافية. وكان بعض كبار رجال الكنيسة يتوجسون خيفة من أن البعض قد يفسرون ذلك بأنه ضعف، ولكن كل البابوات الذين خلفوه ساروا على نهجه من حيث ترديد تلك الاعتذارات وبأشكال أكثر تفصيلاً. لم أكن أرى في ذلك أي نوع من الضعف البتة بل رأيت فيه شكلاً من الثقة والقوة. وبالتوجه والتقارب إلى الديانات الأخرى، فإن المثال للتسامح المتبادل وقبول الخلافات بين الأديان يكون قد وضع لبنته الأولى.

ربما لم يكن معلوماً بشكل واسع أن مبادرة مشابهة للتصالح قد بدأت في العالم الإسلامي حين صدر المرسوم الملكي في العهد العثماني عامي 1839 و 1858 وبموجبهما تم إلغاء ضريبة الرؤوس التي كانت مفروضة على غير المسلمين ثم منح حقوق المواطنة للجميع بغض النظر عن معتقداتهم. وهذا العمل لا يزال في مرحلة العمل ولكن الأخبار الطيبة أن أصبح مُرحباً به على نطاق واسع. القيم العالمية لحقوق الإنسان وحرية التعبير وحرية الضمير كلها كانت متضمنة في القرآن الكريم منذ مئات السنين، وقد برزت معانيها في ميثاق مباشر مع إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان الصادر في عام 1948.

كأي إنسان عاقل رجل أو امرأة، كنت أفكر ملياً في هذه الأمور. وخلال ساعات الليل الطويلة كنت أستيقظ أحياناً وأتساءل متعجباً عن أي نوع من العالم سوف يرثه أبنائي الستة والأجيال التالية كذلك؟ إذا سمحنا لأنفسنا بالتخوف من الفوضى فإن مصيرنا إلى هاوية سحيقة من الظلام الدامس سيكون نذيراً. ثم أن صوتاً آخر انضم إلي. هذا الصوت يقول لي إنه عبر التاريخ فإن الإنسانية إلى حد ما تخرج منتصرة من ويلات الحروب والخلافات. وفي أعماق حمضها النووي هناك اعتراف بأن الحوار والتصالح والتغاضي عن الزلات وإبداء الرحمة والشفقة والتسامح هي الفضائل الأكثر سموً. ومن منطلق تلك الأفكار في رأسي، أود هنا أن أضع قائمة من الاقتراحات التي من شأنها أن تكون نواة لمواجهة ما يدور في رؤوسنا من توتر. وبكل المقاييس فهي ليست خطوات شاملة ولكنني أشعر بأنها مما يستحق الاعتبار. وفي نهاية المطاف فإن أطول الرحلات تبدأ دائماً بخطوة واحدة.

1. تأسيس مؤسسات بحوث عالمية ذات صدقية يعتمد عليها، مهمتها إجراء دراسات وتحاليل جادة وهادفة وشفافة عن أسباب العمل الإرهابي وجذوره العميقة. هذه الدراسات تتطلب منها تشريح الأبعاد التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه الظاهرة الخطيرة.
2. تصعيد إصلاح نظام الأمم المتحدة للمنظمات الدولية على النحو الذي أوردته في كتابي «نحو أمم متحدة أفضل من أجل الألفية الجديدة».
3. تأسيس منتدى للحوار العالمي، برؤية جلية ومهمة واضحة بغرض التصدي بشكل أساسي لأسباب الإرهاب العالمي ومقوماته. ومع تطور الأمور يمكن أن يشمل المنتدى ممثلين من الفصائل المتحاربة. والهدف في النهاية هو التدرج في تكوين جسم علاجي عالمي للتصالح الكوني. أما تشكيلة المنتدى وسبل تمويله يمكن مناقشتها بشكل منفصل.
4. تشجيع التسامح عبر العالم من خلال تعيين سفراء للتسامح.
5. تقديم معلومات فكرية جديدة بغرض حل الخلاف الإسرائيلي - العربي مع تشجيع التواصل والحوار في أوساط الشباب وعبر تكويناتهم من الطرفين. وهذا من شأنه تأكيد الإجماع في أوساط الأجيال المقبلة. (حاولت ذلك في الأمم المتحدة وكانت نتائجه طيبة). إسرائيل وفلسطين يحتاجان للعيش بسلام معاً وفق معاهدة سلام دائم.
6. بناء آليات دولية لمكافحة الجوع وإمداد الأمن الغذائي.
7. بناء آليات جديدة للعمل على تخفيض معدلات الفقر، وأخيراً إزالة الفقر واستئصاله.
8. تشجيع وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والمحلية لدعم هذه الرؤية، ولتأكيد أن السياسات الوطنية تتفادى المعايير المزدوجة.
9. إنشاء حملات توعوية مهمتها التركيز على المهمات النبيلة للأديان والإنسانية.
10. تأكيد ضرورة وأهمية إصلاح العقائد والأفكار وأجهزة العمل والأنظمة الحاكمة.
11. إنشاء حوافز دولية بغرض دعم الأهداف والمشاريع المذكورة هنا.



## الخاتمة

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾

سورة الكهف، الآية 23

◀ بغض النظر عن حجم المعاناة التي قاسيتها، فإن هذه المذكرات قد تطورت إلى شيء تجاوز حدود نفسه. ما بدأت به من سرد مبسط، حول قصة صبي مارس العمالة البكرة، ثم تقدمه متدرجاً نحو المراتب العالمية، قد حدد حياته الخاصة به. لقد تجولت في السياسة والتاريخ والدين والفلسفة، وكذا الحال في الأصوات الملحة المؤرقة لأجيال عفا عليها الزمن.

ربما كان هذا تحديداً ما ينبغي أن يكون. نحن جميعاً ورثة الماضي، نتائج التيارات الديناميكية المندفعة نحونا، وخصائصنا ثم الحمض النووي، مما تم تشكيله من أسلافنا القدماء. وكما يقول المثل: «حينما يولد الجنين، يكون أصلاً قد بلغ ألف سنة من عمره». لذلك أشعر بأن هذه الطرق الجانبية المتداخلة في عوالم أخرى هي جزء من حياتي أكثر من كونها حسابات واقعية في ذاتها.

هذه وقفة إضافية، موازية للسرد ومكملة لتلك التشعبات. إنها قصتي ولكنها أيضاً لوحة متعددة الألوان لوطن قوي نابض بالحياة: تحيتي الشخصية لأهلي في السودان لتراثهم الثر المثير للعجب. والافتراض العام هو أن أمة غير محظوظة قد مزقتها الطوائف، وأصبحت مرتعاً للتناحر والصراعات حيث ساد التوتر والعنف بشكل لا يطاق. ولكن ما يزال هناك معيار آخر أكثر عمقاً يسمو فوق هذه الصورة - بما يمكن العثور عليه في النفوس السعيدة. وفي التقاليد العريقة المتأصلة والمجتمعات المتضامنة لأناس التصقوا بالجذور العميقة لهذه الأرض.

أعود بكم خلفاً إلى أحد فصول هذه المذكرات حيث انقطعت بي السبل في البادية النوبية القاحلة وهي صحراء في حرارة الفرن ظللت فيها وقد تملكني الرعب انتظاراً لقطار يقلني منفرداً إلى وجهتي. تم إنفاذي بواسطة مجموعة صغيرة من البدو ممن كانوا لا يزالون يعيشون مستمسكين بأساليب أسلافهم وأخلاقهم. لقد كنت حينها الغريب الذي لاحول له ولا قوة، معتمداً كلية على ما كانوا يجودون به من عون لي، وأصبحت عضواً مؤقتاً بين افراد الأسرة. ولأيام عدة أعطيت قدراً من التميز بمشاركتهم أسلوب حياتهم ولم أنس مطلقاً طيب تعاملهم وكبريائهم وإنسانياتهم. كانت هناك لحظات غالية، أمسيات ساحرة بنيرانها الموقدة تحت وهج النجوم حينما أمكن لحكمة القرون أن تجد تعبيراً لها في خرافاتهم وقصصهم وأمثالهم العامة وحكاويهم. صمت الصحراء، والحلب اليومي للنوق، وجمع الأحطاب للنيران، ونسمات الهواء الباردة التي اعتادت أن تهب على الخيام أثناء غروب الشمس، جميعها صور استقرت في مخيلتي طيلة حياتي. كانت تلك الجماعة تعيش مرتاحة اعتماداً على ماضٍ عريق مع إحساس بالأمن في مصيرها القادم، لذلك بما لديهم من ثقة ظلوا ملتزمين بعاداتهم وكيفية ملبسهم. إنني أعرف، بعيداً من ضجيج المدن وتفكك أوصالها، هناك آلاف المجتمعات كالتّي أحاول وصفها هنا، وجميعها تشكل السودان الحقيقي.

أمل من الشباب وتحديدًا الذين قرأوا حتى الآن، أن تكون هذه الصورة القوية الشاملة مشجعة لهم. وعليهم أن يدركوا أنهم كذلك ورثة ثقافة ضاربة في أعماق القدم بما فيها من دفء وكرم وديمومة.

لقد كنت محظوظاً كفاية في حياتي الدبلوماسية أن أتاحت لي فرصة زيارة قطاع كبير من الدول. ألقى محاضرات وأدليت بأحاديث وتصريحات، ووصلتني الثناءات والإطراءات من أنحاء العالم كافة ولكني لم أفقد أبداً الإحساس، في خضم كل تلك الاحتفالات والمناسبات السارة، بأن الناس جميعهم وبصورة قاطعة سواسية أينما ذهب. بدا لي أن طيب المعاملة الكريمة والتسامح وحسن النية هي الفضائل العميقة للبشرية. وهو الحال كذلك في الديمقراطيات المستقرة حيث أن الأمن وحرية التعبير وحقوق الإنسان كانت هي الأعراف والقيم منذ قرون مضت. هناك خوف لا يكاد يذكر من حدوث الاستبداد في بلاد مثل المملكة المتحدة والولايات المتحدة أو سويسرا، على سبيل المثال لا الحصر، ولكن معدلات الأمانة والشفافية والمسؤولية الفردية في هذه الدول هو أمر أود الثناء عليه. وحقيقة أن للمملكة المتحدة ملكة ذات احترام وهيبة في القرن الواحد والعشرين لأمر يثير الإعجاب. ليس لديها صلاحيات سياسية ولكن تأثيرها في قيادة المملكة ورفع مكانتها أمر مدهش. إنها تتمتع بإعجاب على نطاق العالم وأود هنا أن أستثنيها كمثال للتفاني في أداء واجباتها، واستقرار بلادها وما تتمتع به من نزاهة شخصية على أعلى مستوى. أثناء دراستي كطالب شاب في الولايات المتحدة وجدت ترحيباً بقدر كبير من التسامح والتقدير الطيب ولم يكن باستطاعتي الرغبة في اختيار مكان أكثر رقياً لمواصلة حياتي

العملية من سويسرا.

وصلت الآن إلى مرحلة يلزمني خلالها النظر إلى أشياء كثيرة إلى الوراء وغالباً ما أبتسم مع نفسي حينما أعلم كم هي بعيدة المسافة التي قطعتها وفي ما يبدو أنها برهة قصيرة من الزمن. وحيثما أتيح لي أن أستمع إلى أحاديث من زعماء العالم الأقوياء، وأقدم بعض الجوائز لمستحقيها، أو أخطب مجموعات كبيرة من المستمعين كنت دائماً مدرّكاً لأحوال صبي صغير في مصنع مظلم لتعبئة السوائل ولتلك الأوقات التي كانت تفوح منها رائحة الزيوت، ثم السباحة في النيل، والتجوال في سوق أمدردمان المكتظ بعقب التوابل، مما يأخذني بعيداً إلى أزمان الطفولة الساحرة.

تلك الروائح العبقية التي ظلت تحرك مشاعر الحنين إلى أيام طفولتي ما زالت تدغدغ وجداني حتى يومنا هذا. سواء صافحت ملوكاً أو شخصيات ذان وزن، أو أناساً عاديّين فإن أحاسيسي تظل توظف ذاكرتي نحو أيام عمالة الأطفال في مصنع الزيوت: يداي المضمختان برائحة الزيت. الجانب العاطفي من عقلي يذكرني بتوقيع ذاكرتي. روائح زمن الطفولة من شأنها أن تسبب لي انطباعاتاً أبدياً دائماً. إنها أقوى من الأصوات والصور أو الكلمات.

رائحة الحشائش التي تنمو على ضفاف النيل تأتينا محمولة سعيدة عبر نسيم الشتاء الباكر. وليس بعيداً من ذلك هناك رائحة الأسماك المكسّسة في قفاف المزارعين. الفحم المحروق في الفجر حينما تحاول والدتي جاهدة عمل الشاي في فناء دارنا العتيق، رائحة في عز الصيف القاطظ للبطيخ المستدير البارد حلو الطعم وافر العصارة، ورائحة أجساد الجمال في وسط الصحراء. كل تلك الروائح ظلت عالقة، في ذهني تبعث لي مجدداً بذكريات ذات معنى.

ربما كانت هذه واحدة من الأسرار الكبيرة للحياة: أن تكون ملماً بإحساس مستديم من العجائب بألونها وتعدد أنواعها وغموضها المطلق.

لقد عبرت حتى الآن عن مشاعر الفخر للتحمل المهيب للنيل العظيم ولكن هناك جانب آخر لبلادي يزيده إطرأً وثراءً. فقد أشرت سابقاً إلى إهرامات مروي من خلال الفصول السابقة حينما كنت صغيراً ربما بشكل لا يعينني كثيراً على تفهم عظمتها وتقديرها.

بعد أعوام عديدة لاحقة أثبتت صور بالأقمار الاصطناعية قدرتها على كشف المدى الكامل للحضارة العظيمة التي كانت تدعمها وتحيط بها تلك الأهرامات. بعد أن ظلت مخفية لآلاف السنين جراء الرياح والرمال بدأت الآن هياكل المدن القديمة والطرق والقصور والقباب تبدو من جديد. لقد أشرت إلى العمل الضخم الذي قاده شارلس بونيه عالم الجيولوجيا الفرنسي الذي كان من بين أول من عرفوا أن للسودان تاريخاً وثقافة تنافس نظيرتها في مصر القديمة. منذ العام 2012 ارتفعت وتيرة الاكتشافات الأثرية بمجهود كريم مع «متاحف قطر» للعمل بشكل لصيق مع الهيئات السودانية المماثلة لتكوين «مشروع قطر - السودان للآثار».

تم العثور على اكتشافات مذهلة بواسطة فرق العمل في المشروع، وقد أصبح الموقع الآن

تحت رعاية هيئة اليونسكو. تم تحديد 250 هراً يعود تاريخها لحوالي 2500 عام قبل الميلاد، آنذاك ازدهرت مملكة كوش ومقرها المنطقة المحيطة بمروي في شمال السودان، وكانت مملكة ذات حضارة عظيمة الشأن. أما الأهرامات فيعتقد أنها كانت تستخدم كمدافن لحوالي ثلاثين ملكاً، وثمانى ملكات وثلاثة أمراء على الأقل. ولم يعد مستغرباً أنه حينما قال بونيه إنه حضر للسودان للعثور على أثر للحضارة المصرية، إنما حضر ليفهم أن الكوشيين أو النوبيين وقفوا بمفردهم بما كانوا يملكونه من كيان قوى مؤثر.

احتلت مملكة كوش موقعاً استراتيجياً كبيراً، وكانت تقع في حوض خصيب في مفترق طرق يربط مصر والبحر الأحمر مع قلب إفريقيا في الجنوب. وسيطرتها على تلك الطرق تعني أنها كانت قادرة على تصدير الذهب والحديد والمعادن المختلفة وسن الفيل والبخور والنحاس والحجارة الكريمة، بل حتى ريش النعام. نمت المملكة وتطورت غنية، وبسرعة أصبحت المركز الأكثر قوة وتأثيراً في الاختراعات والثقافة.

كما أنها لعبت دوراً حاسماً في تشكيل مصر ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد حينما بدأت مملكتها الوسطى في الانهيار والتحلل. وفي حوالي عام 730 قبل الميلاد كان الملك النوبي بايي قد أحس بضعفها فقاد جيوشه لغزو مصر وهزيمتها، مما أتاح له السيطرة على وادي النيل بأكمله. وكان يعرف بأنه أحد سلالة «الفراعنة السود» وقد أسس الأسرة المصرية الخامسة والعشرين التي امتدت (من 770 إلى 656) قبل الميلاد.

أما ما هو مثير للدهشة أن تلك الاكتشافات لم تكن في الواقع إلا البداية. من يدري أي الكنوز الأخرى التي ترقد تحت الرمال منذ آلاف السنين في انتظار من يكتشفها؟ أنا من الداعمين للمشروع السوداني - القطري لحماية الآثار الذي يحرص على بناء مراكز لإقامة الزوار وإنشاء متاحف للسياح، مع استمرار الحفريات لكشف المزيد من الآثار. إنها فرصة عظيمة للبلاد لاستعادة مكانتها بجوار أشقائها من بقية الأمم وللاحتفال بأمجادها التليدة. إن ذلك ما يحدث فعلاً. حديثاً أقام المتحف البريطاني في لندن معرضاً خاصاً لبعض الاكتشافات التي ظهرت، وفي ألمانيا وجدت جوهرة مروي للقرن الأول قبل الميلاد الملكة أمانيشاخيتو حظها من العرض للمعجبين من الزوار.

لذا أشعر بفخر عظيم حيال اكتشاف تلك الأمجاد السودانية القديمة. أثناء طفولتي نشأت في مروي وكان أن أخذني والدي لمشاهدة بقايا تلك الآثار. كنت أشاهد بعيون الشباب العادية، ولكنني أعلم الآن أن شيئاً ما يجب أن يستقر في روحي، بعض التواصل مع بعض الناس، صلة روحية ضاربة في أعماق الجذور مع أسلافي، وهي التي كانت خاملة حتى مرحلة النضج. أما الآن فخيالي يتسابق لمعرفة متى سيحدث المزيد من الكشف عن تلك الحضارة. لم يكن الماضي بلداً غريباً وأؤمن أن باستطاعته أن يخبر ويتحدث مع الحاضر في منهاجه الذي لا يسبر غوره. ما كان همساً عبر القرون الماضية جاء في رسائل تحكي عظمة واستقراراً ونظاماً وتجارة وقصوراً فخيمة،

وكل جمال وأبهة ممالك النوبيين وإفريقيا. هذا هو الإرث السوداني.

الرسالة التي ينبغي فهمها من وراء تلك الحضارة ذات التاريخ التليد هي أن السودان بحاجة إلى تحسين صورته التشاركية، وإعادة صدقيته وأن يتحلى بالشجاعة اللازمة والتصميم وما لديه من مهارات لكي يعيد التحامه مع المجتمع الدولي العريض.

ختاماً، أمل أن تكون مذكراتي بمثابة رسالة إعادة توكيد. هناك مثل يقول: يمكنك أن تحكم برقي أي حضاره بمقدار ما تبثه من قيم في حياة أفرادها. وأود أن أضيف إلى ذلك بالقول إن الحضارة تبنى على قاعدة صلبة، وحجر الأساس المتين للأسر المتحابه في بعضها - تلك الأسر التي تقبل كل المنتسبين إلى عقائد وشرائع وثقافات أخرى بكثير من التسامح وحسن التعامل الإنساني. وبهذا المستوى، أمل أن تكون اللوحة التي رسمتها لأسرتي الخاصة والعديد من الأشخاص - سواء أكانوا من غربيي الأطوار أو البشوشين المرحبين بالآخر، والطيبين والكرماء من المجتمعات الذين رافقتهم ووصفتهم في هذا الكتاب - بما يمكنهم من المساهمة في بعث رسالة إلى العالم العريض.

لقد قدر لي أن اشارك في الشؤون العالمية لسنوات عديدة، وأنفهم أن الآمال العراض وقوائم القرارات والحلول يمكنها أن تكون عظيمة للغاية على الورق ولكن، ما لم تتابع بالعمل، ستكون فارغة المحتوى ولا معنى لها.

إذن «إشارتي» هي أن المداواة العالمية والتصالحات، تحديداً بين الديانات والشرائع الإبراهيمية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية، والتسامح في الخلافات والتفاهم المشترك، ليست جنة الأحق أو حلم كاذب. إنه نيلسون مانديلا الذي تفهم أهمية التسامح، وعدم سعيه للانتقام جراء فترة سجنه الطويلة، لذلك فقد انتزع إعجاب العالم واهتمامه. وأمنيته الغالية أن تكون مذكراتي هذه قد ساعدت في إضافة صفحات أكثر من التوافق والأمل لنموذجه العملاق.

## عرض مسبق للكتاب القادم عن زعماء العالم

◀ لم تكن هناك مساحة في هذا الكتاب لتشمل ذكريات عن اجتماعات مع مجموعة من قادة الدول (أنظر الملحق 7 في صفحة 312 قائمة كبار الشخصيات، ورجال ونساء الدولة).

في الغالب كان أولئك القادة يتميزون بالمودة وكرم الضيافة، ولكن هناك استثناءات تطلبت مني أن أستدعي كل ما لدي من صبر وضبط للنفس. أحد هؤلاء الأشخاص، ليس مدرجاً في القائمة، كان يصّر أن يتم تكريمه بميدالية خاصة.

وما أن أشرت إليه بكل لطف أن ذلك الأمر يتطلب أن تكون الميدالية قد تم اكتسابها في الأساس، حتى رمني بلفظ بذيء «يا ابن ال...!» والقراء العرب بوسعهم أن يفهموا ذلك بأنه أساءة مقذعة للغاية.

وهناك موقف آخر حينما وصلت في زيارة إلى ملك الأردن على سيارة أجرة نسبة لأن السائق الرسمي لم يحضر في الموعد المقرر، وسائق آخر أيضاً كان في دولة أخرى في وقت كان الوجود اللصيق لرجال الحراسة من حولي قد جمّد الدم في جسدي حتى النخاع.

ربما يأخذ مني فصلاً كاملاً إذا أردت تبيان كامل انطباعاتي عن أولئك البشر، ولكن هنا لمحة سريعة لواحدة منها. في عام 2002 قابلت الرئيس الكوبي الراحل فيدل كاسترو في هافانا.

ومن عاداتي دائماً قبل القيام بمثل تلك الزيارات أن أبحث بكثافة عن تاريخ وخلفية كل



شخصية أود مقابلتها حتى أكون دائماً عالمًا بكل ما أتوقعه. ويجب أن أعلنها هنا بكل وضوح أنني لم أكن متعاطفًا بأية حال مع سياساته وفلسفته في الحكم، ولكن أيضاً يتطلب مني أن أكون منصفًا مع الرجل. فيما كان مرتدياً بزته المعروفة من «الخاكي»، وقد أمر لنا بشيء من القهوة والبسكوت، بدا فيدل كاسترو ودوداً ساحراً ويقظاً، وفيما كنا نتحدث حول مائدة خشبية بسيطة، كان يأخذ نقاطاً حول كل شيء تناقشنا حوله، ويكتب في خربشة سريعة لا تخلو من عنف كلما تم تدوينه لإحدى النقاط. وفي مرحلة ما كان قلمه البسيط من ماركة «بيك بايرو» قد نفذ ما به من حبر ولكنه لم يكن يشعر بأي حرج في ذلك.

ومباشرة دعاني أن أناديه بإسمه الأول، فيدل، وخلال ساعتين من الوقت تجولنا حول مشكلات العالم المختلفة، وناقشنا الاستراتيجيات الممكنة التي ربما ساعدت في حل المشكلات العvisية التي تعانيها كوبا، وتحديدًا الحظر الدولي وعلاقة كوبا بالأمم المتحدة والولايات المتحدة.

تحدثنا أيضاً حول موضوعات عالمية أخرى وأسس العدالة الراسخة، وكنت ملماً تماماً بسجل حقوق الإنسان في كوبا المثير للتساؤل، ولكن في نهاية الاجتماع كنت مقتنعاً بأنه كان جاداً في رغبته لحشد رأيي. وكانت إحدى المبادرات التي ناقشناها هي رغبته الأكيدة في إرسال أعداد من الأطباء الكوبيين للمساهمة في علاج شعوب الدول النامية، وبخاصة في إفريقيا. ساورني الشك بداية إذ اعتقدت أنه يهدف من ذلك إلى دوافع سياسية، ولكن حينما أضاف أن كوبا ستدفع رواتب هؤلاء الأطباء كما أن قائمة الدول المراد زيارتها ستتم عشوائياً، حينها علمت أنه كان صادقاً في ما يقول.

وكما ذكرت آنفاً، لقد كنت على علم بأن الرجل لم يكن يحظى بالثقة في أعين الساسة الغربيين. وفي نهاية الأمر فهو ذلك الرجل الذي كان يتصدر مركزاً قوياً في فترة بعينها كان محتملاً أن تكون واحدة من أكبر الفترات كارثية في تاريخ العالم، أزمة الصواريخ الكوبية في العام 1962.

رغم أنني كنت آنذاك طفلاً صغيراً، فقد كنت أتذكر الجو العام في بلادي بوضوح شديد. العالم كله كان يحبس أنفاسه بينما كانت البواخر الحربية السوفيتية التي كانت تحمل الصواريخ النووية تمخر عباب الأطلنطي متجهة نحو كوبا.

وكان الرئيس جون كينيدي الذي أخطر بوجود الصواريخ النووية وهي على مسافة حوالي تسعين ميلاً فقط من سواحل فلوريدا، قد أحاط كوبا بسفنه الحربية، بما يؤكد عزلها تماماً. كان الوقت في «عز الظهيرة» في البحار المكشوفة والحالة هي من سيبدأ أولاً. إذا لم يكن أيّاً من غورباتشوف أو كينيدي قد انسحبا من المواجهة لكانت الحرب النووية هي الخيار المحتوم.

في ذلك الوقت بدا أن غورباتشوف قد فقد أعصابه وأمر سفنه بالاستدارة مرة أخرى، ولكن بعد سنوات عديدة لاحقاً اتضح أن محادثات سرية كانت تجري وراء الكواليس ونتج عنها تسوية للأمر.

وكان غورباتشوف قد أشار إلى أن الولايات المتحدة لديها صواريخ نووية في تركيا كانت موجهة للاتحاد السوفيتي. رفض كينيدي أن ينفي تلك المعلومات ولكنه قدم وعداً بعدم غزوه كوبا. وافق غورباتشوف وتنفس العالم الصعداء مرة أخرى. وبذا كان كل طرف قد حفظ ماء وجهه، أما كاسترو، الذي ترك بعيداً عما جرى من محادثات، فقد شعر بالإهمال.

ذلك هو الرجل الذي كان يجلس في مواجهتي على الطاولة. وحينما تمت مناقشة التفاصيل النهائية لمسألة المعونات الطبية الكوبية ومسائل أخرى متعددة كان قد تم التوصل بشأنها، اعتدل كاسترو على كرسيه متكئاً، واتجه النقاش إلى الأيام الباكورة من حياته حينما كان قائداً ثورياً. وقد سمعت منه مدى عشقه لذكرات الأيام القاسية من نهاية الخمسينات الماضية وكيف كان هو وتشبي جيفارا ومجموعتهما الصغيرة من مقاتلي الغوريلا قد قادوا الثورات ضد نظام فولكينسيو باتيستا، الذي كان رئيساً للبلاد آنذاك. أخبرني أن الناس في الغرب لا يدركون مدى بشاعة نظام حكم باتيستا. لم تكن كوبا وقتها أكثر من جنة للقمار تهيأت للعصابات الأميركية ومجموعات متنوعة من المجرمين. وكمثال حول كيفية ذلك الفساد، كان صهر باتيستا يسيطر على عشرة آلاف ماكينة قمار، وكل العائدات المالية التي يتم تحصيلها من جميع مواقف السيارات في البلاد. وحينما أجبر على مغادرة موقعه طار باتيستا خارج الجزيرة ليلاً وهو يحمل 300 مليون دولار أخفاها بعيداً في أحد حسابات الأوفشور وعاش بعدها حياة الرفاهية والبذخ في ماربيلا. وتوفي في العام 1973 قبل يومين من إنفاذ خطة لاغتياله من قبل فرقة الاغتيالات.

في فترة صباه الباكر، كان كاسترو مولعاً برياضة البيسبول وكرة السلة أكثر من ولعه بالأمور الأكاديمية، ولكن ما إن بلغ مرحلة النضج حتى استبد به الغضب جراء الفرق الكبير بين حياة النخبة المرفهة وبين المسحوقين من السكان الذين كانوا يعانون شظف العيش.

نال حظاً من الذكاء والتعليم الجيد بفضل انتمائه لليسوعيين الأرثوذكس، وكان يملك حساً قوياً في الفرق بين ما هو صحيح وخطأ، وحين دخل كلية الحقوق في جامعة هافانا احتدت لديه وتيرة الحس السياسي. وللسخرية فقد كانت حياته الشخصية متميزة. إذ كان حفيداً لمهاجر إسباني لديه ابن وحيد كان قد عاش ثرياً كأحد ملاك الأراضي في البلاد. وكان ذلك مما يدعو للحرص لقائد ماركسي متمرد:

لا يبدو طيباً للغاية أن تقول إنني ابن أحد ملاك الأراضي، إذن دعنا نقول إنني حفيد الفلاحين الجالبيين المستغلين.

أسس الحزب الأرثوذكسي الذي كان متوقعاً أن يفوز بنتائج انتخابات عام 1952، ولكن كما هو معلوم فقد تم العبث بتلك الانتخابات، وفي العام 1953 بدأ برفقة 150 من مؤيديه عصياناً على الدولة. تم القبض عليه ثم سجن لفترة 15 سنة ولكن أفرج عنه في عام 1956، وبعدها هرب إلى أميركا الجنوبية حيث كانت مشكلة الفقر ضاربة أطنابها مما أوجع لديه مشاعر الإحساس

بمساعدة قطاعات الفقراء. وهنا تأكدت قناعاته بأن السبيل الوحيد لإزالة الفقر من جذوره هو عبر الطريق الماركسي الذي يؤمن بالثورات العنيفة. وما تبقى فهو تاريخ.

عاد إلى كوبا برفقة 81 من أنصاره. وألقت سلطات باتيستا القبض على معظم هؤلاء إلا أن كاسترو وشقيقه راؤول وتشي جيفارا هربوا إلى الجبال حيث واصلوا كفاحهم. بدأ باتيستا يفقد المزيد من السند الشعبي، ولما كان مستحيلاً عليه تعويض عدد المنشقين من جيشه، انهار حكمه واختفى من البلاد، وتسلم كاسترو ذو الواحد وثلاثين عاماً مقاليد البلاد.

كانت تلك أسعد لحظات حياته، إنه الآن بطل منتصر، منقذ للبلاد، رجل متقد الذهن وهدية ملتحية من السماء، وإذا كان هو نابليون القرن العشرين فإن تشي جيفارا كان نسخاً لروح اللورد بايرون، لقد كان ذلك الرمز الرومانتيكي الشاب الملهم بهي الطلعة الذي كانت صورته مثار عشق ورومانسية تزين جدران غرف النوم للملايين من معجبيه الطلاب حول العالم خاصة خلال عقد الستينات كثير الاضطراب حيث كان ضرورياً الالتزام باليسار والليبرالية، حتى ولو من باب الضرورة العصرية.

لم يتأخر كاسترو في تطبيق إصلاحات جذرية بعيدة المدى ذات خطوط اشتراكية عريضة. قام بتأميم مزارع السكر والتبغ، ومنع المزارعين من حيازة أية ممتلكات، وأسس «مجمعات» ضخمة بحيث لا أحد يمكنه امتلاك أي شيء باستثناء الدولة بالطبع. أصبح المزارعون مستخدمين لدى الدولة، وكممت أفواه الصحافة. وأصبح لزاماً عدم انتقاد سياسات كاسترو، وإذا كان هناك من لا يعجبه الحال فليغادر. تم تطهير أعداد من قادة الجيش عديمي الفاعلية، وعانت الشركات الأميركية في كوبا من فقدان الدخل المادي.

وكما كان حرياً به، فقد فتح كاسترو خطوطاً لعلاقات دبلوماسية وخطوط معونات مع الاتحاد السوفيتي، وذلك مما لم يجد هوى لدى إدارة الرئيس الأميركي أيزنهاور. وحينما كان يشتري منها النفط بأسعار متدنية كانت الشركات الأميركية في كوبا ترفض اعتماد تلك المعاملات. وفي خطوة ثأرية اتجه كاسترو بكل بساطة إلى الاستيلاء عليها.

مع شعورها بخطورة وجود الحليف السوفيتي على أعقاب البلاد، فقد ارتكبت الولايات المتحدة خطأ فادحاً حينما ساندت غزو كوبا من قبل الجماعات الكوبية المنفية في عام 1961. واشتهرت تلك العملية بـ «خليج الخنازير» وما تبعها من فوضى عارمة، كانت قد وجدت دعماً متردداً من الرئيس الجديد جون كينيدي. أما أولئك الذين تم تدريبهم بواسطة هيئة الاستخبارات الأميركية، فقد قتل منهم المئات وتم القبض على أكثر من ألف فرد منهم.

بقدر كونه ساخطاً فقد كان كاسترو يشعر بزهو النصر. وفوراً أعلن نهاية العمل بالانتخابات الديمقراطية، مع إدانته للإمبريالية الأميركية. لقد كانت تلك هدية مرسلة من السماء لعلاقات شعبية بين كوبا والاتحاد السوفيتي، ولكنها بالمقابل أدت إلى إعلان مقاطعة اقتصادية شاملة من الولايات المتحدة لم يقدر لها أن ترفع إلا حينما حدث تقارب في العام 2015.

وفي خطوة إزدرائية للأميركيين بدأ يصدر نسخته من فلسفته الماركسية للدول النامية في آسيا وأميركا الجنوبية وإفريقيا. استمر الاتحاد السوفيتي في دعم نظامه ولكن العقوبات الاقتصادية كانت ذات أثر فاعل ومدمر لتجارة التصدير الكويتية، وحالما نتج عن ذلك أفواج من المهاجرين الكويتيين إلى فلوريدا. ورغم كونه إصلاحياً وذا تعاطف أصيل مع قطاعات الفقراء، إلا أن كاسترو لم يكن يستطيع تحمل أعداد المعارضين لحكمه، كما لم يكن للحريات المدنية أثر يذكر في البلاد.

العمال ليس من حقهم ممارسة الإضراب عن العمل، وأغلقت الصحف المستقلة تماماً، ولم تسلم المؤسسات الدينية من بعث الرعب والخوف في أوصالها، وتم تنفيذ الإعدامات على أعداد من المعارضين والزج بهم في السجون.

في تلك الأثناء انتشرت الشائعات بأن وكالة الاستخبارات الأميركية تنشط كثيراً في اغتياله. حينما أخبرني كاسترو بأنه كان عرضة لحوالي 600 محاولة اغتيال أعتقدت أنه ربما كان يبالغ في الأمر، ولكن هناك العديد من التقارير الموثقة تحدثت عن أساليب غريبة وساذجة ترمي إلى الإطاحة به كان قد تم إهمالها. شملت تلك المحاولات إرسال بدلة خاصة للغوص والسباحة ملوثة بالفطريات السامة، أو إمداده بالسيكار المتفجر، وكذلك تصويب السلاح نحوه على طريقة عصابات المافيا.

وأصبح غريب الأطوار بتصرفاته الشاذة، ويحكى أنه كان يحتفظ بالدجاج الحي داخل غرفته في الفندق. وحينما دعي للحديث في الأمم المتحدة في العام 1960 تحدث لفترة أربع ساعات ونصف الساعة بلا انقطاع. ولكن تحسن ذلك التصرف خلال مؤتمر الحزب الشيوعي في عام 1986 حينما تضمنت فقرات المؤتمر فترة لتناول الغداء حتى يمكن للمؤتمرين أخذ فسحة من الراحة والتنفس.

لم يقدر لذلك الحال أن يستمر. فمع انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991 كان اقتصاد كوبا قد وصل إلى مرحلة السقوط الحر. لم تعد هناك أسواق لشراء منتجات كوبا من السكر والتبغ، كما لم تتوفر لهم واردات رخيصة الثمن من النفط. أصرت الولايات المتحدة على عدم رفع الحصار عن كوبا لذا لجأ كاسترو إلى قطع ورقة من كتاب نمو الاقتصاد الصيني وبدأ في تشجيع الأعمال التجارية الصغيرة. كذلك استدعى المستثمرين العالميين وبدأ في عملية ترويج لكوبا باعتبارها موقعاً سياحياً. زار الولايات المتحدة في عام 1996 وهناك دعا كل الكوبيين في المنفى إلى العودة لبلادهم والبدء في أعمالهم التجارية الخاصة بهم.

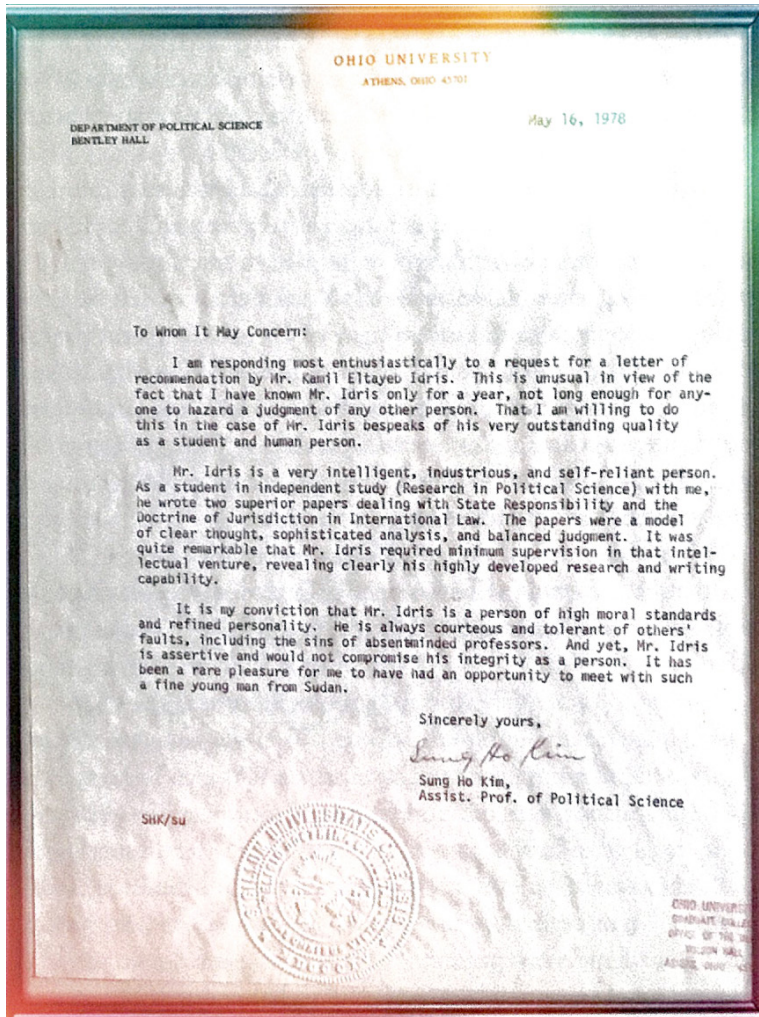
اعتقد أننا عقدنا اجتماعاً مثمراً ويجدر بي القول إنني استمتعت بمقابلة الرجل. كانت صفات الطبيعية والبساطة هي ديدن الاجتماع ولم تبد منه أية سمة من التباهي والتفاخر، وكشف لي عن جانب مهم للغاية من شخصيته. وقبل مغادرتنا أخذني جانباً مؤكداً لي ضرورة أن أتسلم رسالة خاصة من كوبا مرة في كل عام. لم أكن أفهم ما يعنيه ذلك القول، ولكن بكل تأكيد خلال

بضعة أسابيع لاحقة وصلت إلى مكتبي رسالة - عبارة عن صندوق من السيکار الکوبي الفاخر. وبما أنني شخصياً لست مدخناً فقد وجدت الرسالة حظها من التقدير لدى بعض أصدقائي وزملائي الممتنين لها!

كان قد رافقني في تلك الزيارة التاريخية ثلاثة مساعدين هم: السفير خميس سويدي (تنزانيا)، والسفير دولوريس جيمينيز - هيرنانديز (المكسيك)، والسيد روكا كامبانا (كوبا).

## الملحق الأول

### جوائز وشهادات ومطبوعات



توصيات كتبها بشأني برفيسور أمريكي مرموق





شهادة تقدير من العلماء والفنانين والمؤلفين والمفكرين إنابة عن الشعب السوداني



درجة الدكتوراه الفخرية مُنحت لي من جامعة الخرطوم





## INDIRA GANDHI NATIONAL OPEN UNIVERSITY

AWARD OF THE DEGREE OF DOCTOR OF LETTERS (HONORIS CAUSA)  
TO

**Dr KAMIL IDRIS**

Director General  
World Intellectual Property Organization

### Citation

*Vice-Chancellor, Sir, it is my privilege to present to you this citation in honour of Dr Kamil Idris, Director General, World Intellectual Property Organization who has graciously accepted our invitation to receive the award of Doctor of Letters (honoris causa) on the occasion of the Sixteenth Convocation of the Indira Gandhi National Open University.*

Dr Kamil Idris, a national of Sudan, is an erudite scholar of repute in the field of International Law. He began his association with WIPO as Senior Programme Officer, Development Cooperation and External Relations Bureau for Africa in 1982, became the Director, Development Cooperation and External Relations Bureau for Arab Countries in 1990 and Deputy Director General in 1994. He assumed charge as Director General of World Intellectual Property Organization in 1997 for a period of 6 years. During his first term as Director General of WIPO, he led the organization with a visionary zeal and aimed to highlight the central role of intellectual property as an important tool for social development, economic growth and wealth creation. His vision for WIPO has had an outward focus based on relevance, empowerment and inclusion and an inward focus based on clarity, efficiency and transparency.

In view of his dynamic leadership, Dr Idris received unanimous support from the Organization's General Assembly and member states and was formally re-appointed to a second term as Director General of the World Intellectual Property Organization in 2003. He is committed to build on his achievements of the past and to ensure that intellectual property gains its rightful place on the agenda of policy-makers at the highest level and is recognised as a powerful tool for social and cultural development in the global economy.

Dr Idris is also Secretary-General of the International Union for the Protection of New Varieties of Plants (UPOV) since 1997. Before joining WIPO, Dr Idris served in various capacities – as Attorney-at-Law, Advocate and Commissioner for Oaths, Sudan; Professor of International Law; Ambassador, Sudanese Foreign Service; Legal Adviser, Permanent Mission of Sudan to the United Nations Office, Geneva; Coordinator and Spokesman of the African Group and the Group of 77, Geneva. He was also a Member of the United Nations International Law Commission (ILC) from 1992 to 1996 and from 2000 to 2001.

Dr Idris has been decorated in recognition of his achievements by Sudan, Egypt, Senegal, Russian Federation, Saudi Arabia, Slovakia, Syrian Arab Republic, Portugal, Romania, Mexico, Republic of Moldova, Cote d'Ivoire and Poland. He has also been conferred Honorary Degrees by The State University of Moldova, Franklin Pierce Law Center, Concord, New Hampshire, Fudan University, Shanghai, University of National and World Economy, Sofia, University of Bucharest, Hannam University, Daejeon, Mongolian University of Science and Technology, Ulan Bator, Matej Bel University, Banska Bystrica, and National Technical University of Ukraine, Kyiv Polytechnic Institute, Kiev. He is Honorary Professor of Law, Peking University, China since 1999.

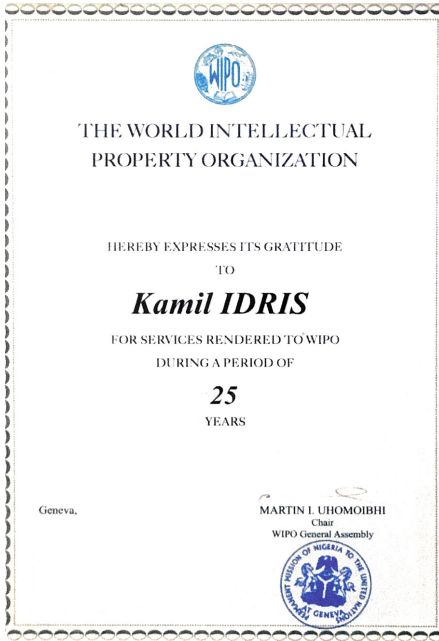
Dr Idris had his early education at Khartoum University, Sudan and Cairo University, Egypt. He did his Master's in International Law and International Affairs from Ohio University, USA and his Doctorate in International Law from the Graduate Institute of International Studies, Geneva University, Switzerland.

In his current stint as the Director General of the World Intellectual Property Organization, Dr Kamil Idris is championing the rights of indigenous peoples, and respect for their distinct cultures, communities and values and encouraging steps to respond to the needs and aspirations of the world's indigenous people, so as to enhance their effective participation in policy processes on matters that concern them. In the field of intellectual property (IP), this translates into greater respect and recognition for the cultural and intellectual framework and knowledge systems in which traditional cultural expressions, traditional knowledge and associated genetic resources are developed, maintained, and transmitted to future generations within the traditional or customary context. In this perspective, he shares the vision and mission of our university. We are indeed privileged that Dr Idris has agreed to accept our invitation to receive the Degree of Doctor of Letters (honoris causa) at the Sixteenth Convocation.

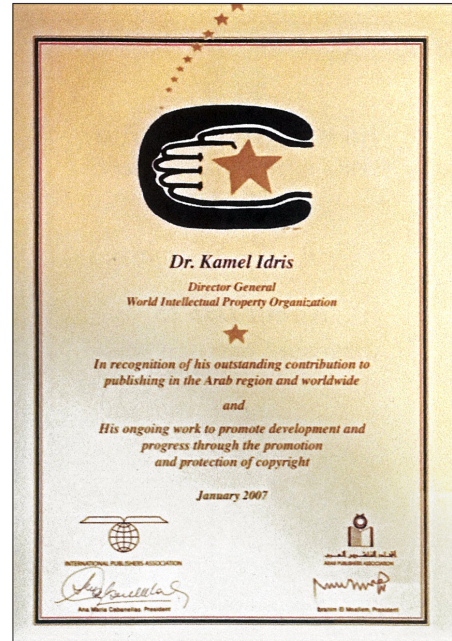
Sir, may I have the honour of presenting Dr Kamil Idris to the Sixteenth Convocation of the Indira Gandhi National Open University, and to request you to confer on him the Degree of Doctor of Letters (honoris causa).



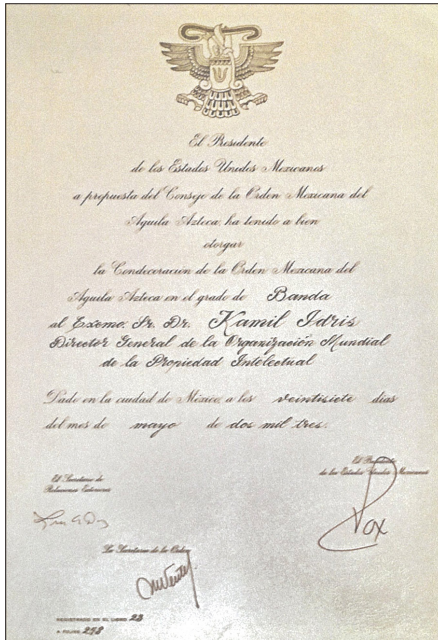
جامعة أنديرا غاندي المفتوحة، وهي الأكبر في العالم، منحتني درجة الدكتوراه الفخرية قُدمت لي من  
قبل الرئيس الهندي عبد الكلام



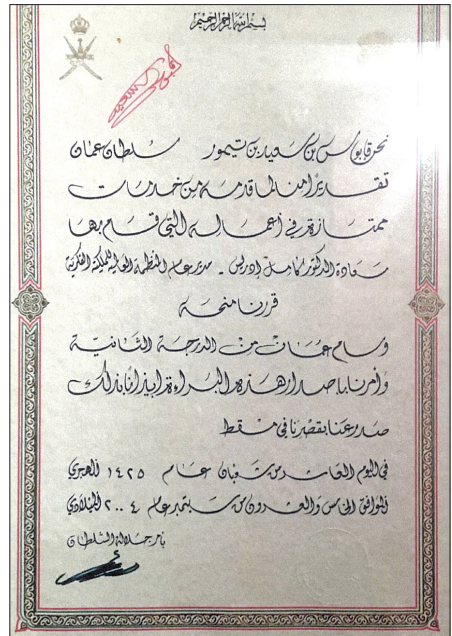
تقدير من المنظمة العالمية للملكية الفكرية



تقدير واستشهاد بالرأي من اتحاد الناشرين  
العالمي واتحاد الناشرين العرب

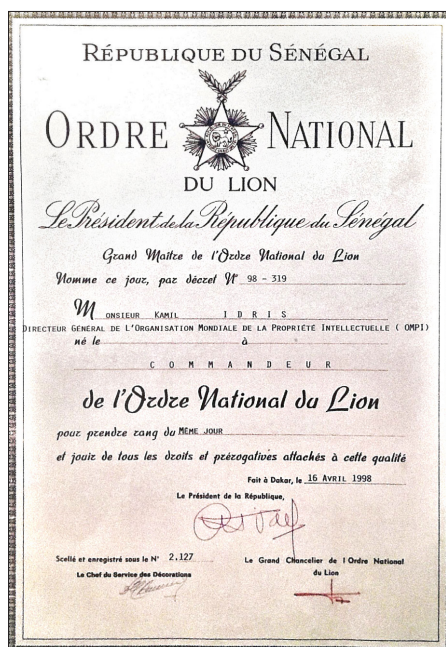


الوسام الأعلى في المكسيك  
الذي قدم لي من الدولة

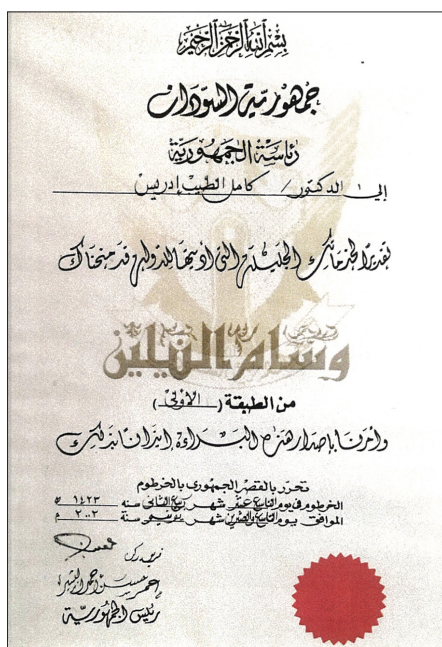


وسام سلطنة عمان الممنوح لي من  
السلطان قابوس بن سعيد

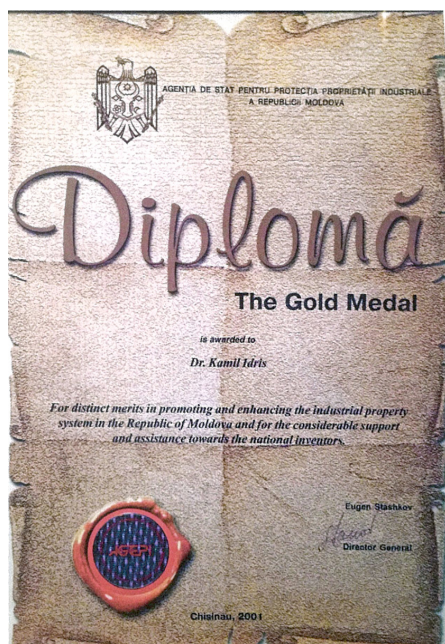




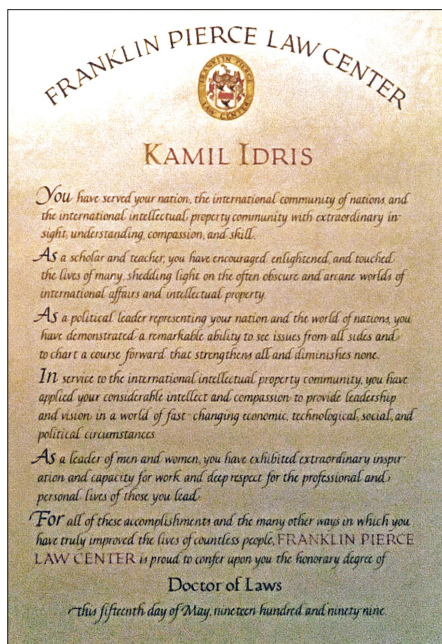
رئيس جمهورية السنغال منحني «وسام الأسد الوطني»



وسام النيلين من (الدرجة الأولى) الذي تم منحي إياه وهو أعلى وسام في السودان



جمهورية المالديف شرفتني بالميدالية الذهبية التي قدمها لي رئيس الجمهورية



مركز فرانكلين بيرس المرموق للقانون منحني درجة الدكتوراة في القانون مع شهادة التقدير أعلاه



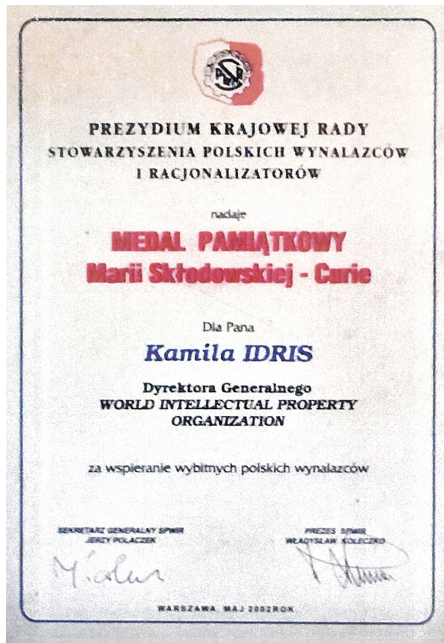


شرفنتي جامعة الإمام المهدي بدرجة الدكتوراه الفخرية في القانون



منحتني جامعة الجزيرة درجة الدكتوراه الفخرية

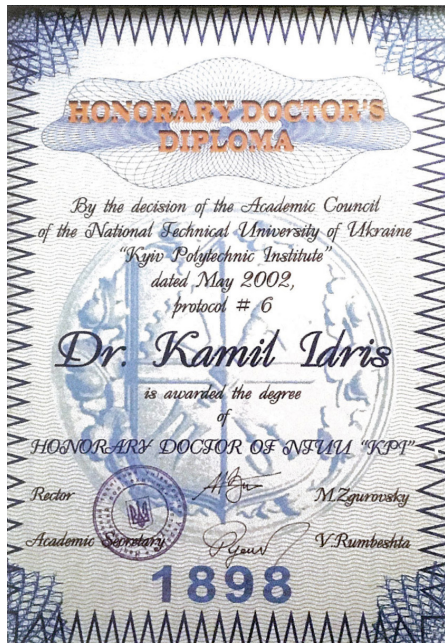




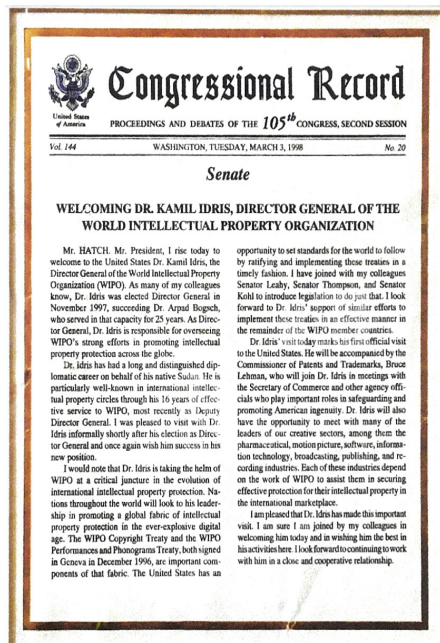
مُنحت ميدالية ماريا سكودوسكا - كوري من  
اتحاد المستثمرين البولنديين، في 2006



الشهادة أعلاه تبين لأحد أكبر منجزاتي للقارة  
الإفريقية - واعترافاً بهذا الفضل فقد أطلق إسمي  
على مركز ضخم للتدريب

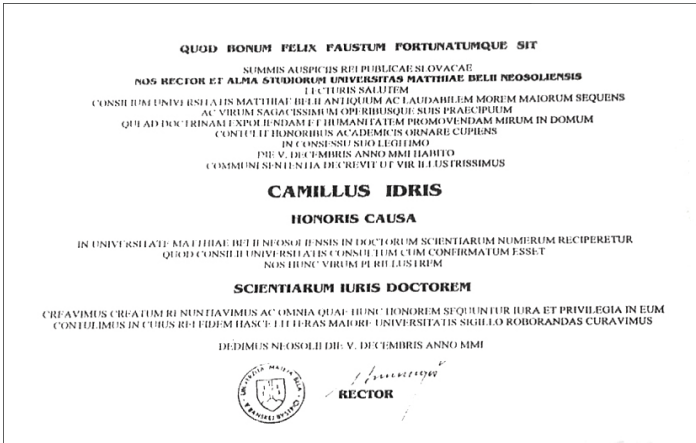
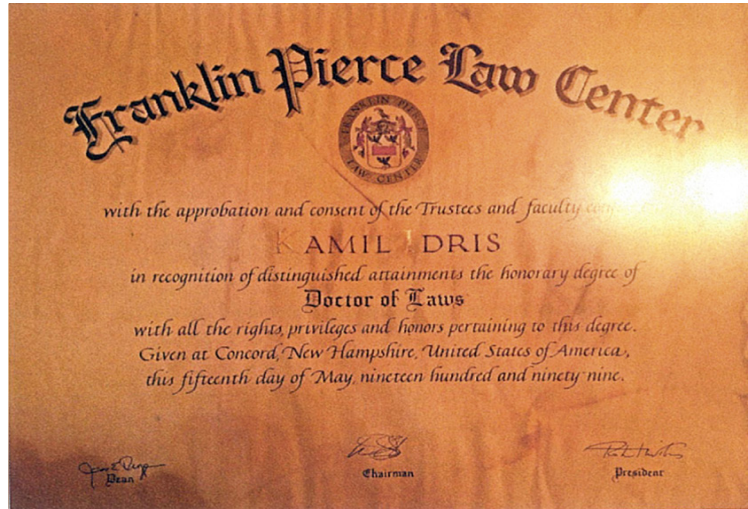


دبلوم دكتوراه فخرية من الجامعة الوطنية للتقنية  
في أوكرانيا، مايو 2002



أحد سجلات الكونجرس في الولايات المتحدة  
الأميركية يبين ترحابهم لي في زيارتي للولايات  
المتحدة الأمريكية، مارس 1998

مركز فرانكلين  
بيرس للقانون  
شرفني بدرجة  
الدكتوراه الفخرية  
كدكتور في  
القانون، في 2016



منحت دجة الدكتوراه  
الفخرية في عام 2001  
من جامعة ماتيج بيل  
في سلوفاكيا، ودرجة  
الدكتوراه الفخرية  
من الجامعة الوطنية  
للتقنية في سلوفاكيا  
في 2002

قطعة مستخرجة من  
قصيدة شعرية ذات علاقة  
بشخصي







منحت لقب بروفيصور شرف من الجامعة الوطنية للدولة غيرقز، من قبل كومان باكيف رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء إيغور شويدينوف



شهادة تقدير من منظمة العون الشعبي في السودان، أبريل 2007



دعوة من وزير الثقافة في السودان لتكريمي في حفل رئاسي، 4 سبتمبر 2008





### مذكرة

أخي وحبيبي دكتور كامل  
حفظه الله

هذه من المربعات التي ارتجلتها في أمسية تكميمكم  
بجامعة الوداد للهدى بكمسي أرحب أنه تقمصها  
منفاة :

يا للهدى الوداد جيناك نكرم كامل  
فن صرح العلم متهور وإسمك كامل  
وليبد الطيب هدا!! جايك مسرور آمل  
تفقد من رضاك بالبركة ليقو تامل

\*\*\*

من الحفل البهيج جيناك من العاصمة  
له كرسى العريقة جاناك وجولفا باسمه  
ومن قرط الجمان مردانة أيقنا راسمه  
تدق كيف الثقافة طربانة يلك متناغمة

\*\*\*

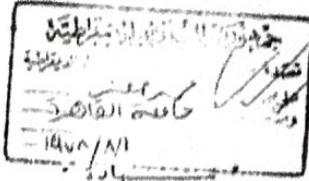
مغرة الرجال كامل مأصل ساس  
ظاهر بين عموم أهلك وكل الناس  
حقيته التثكر يا كامل الدراس  
سوداني مأصيل تشلناك قعود الراس

\*\*\*

البنابنة

الخميس ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣ م

قصيدة أخرى ذات علاقة بشخصي، تاريخها 4 سبتمبر 2008



جامعة القاهرة / فرع الخرطوم  
كلية الآداب

تشهد جامعة القاهرة فرع الخرطوم أن السيد / كامل محمد أحمد حاصل على ليسانس  
آداب من قسم الفلسفة في دورتها سنة ١٩٧٦ وكانت تلك براتة في سنوات دراسته بالكلية  
الآتية :

السنة الثانية في العام الجامعي ١٩٧٦/١٩٧٧

| المادة               | التقدير |
|----------------------|---------|
| الفلسفة التأسيسية    | امتياز  |
| فلسفة العلوم والعلوم | امتياز  |
| علم المنطق           | امتياز  |
| المنطق الحديث        | امتياز  |
| فلسفة النفس والفن    | امتياز  |
| علم النفس العام      | امتياز  |
| فلسفة الاجتماع       | امتياز  |
| فلسفة التربية        | امتياز  |
| فلسفة الاقتصاد       | امتياز  |
| فلسفة السياسة        | امتياز  |

السنة الرابعة في العام الجامعي ١٩٧٦/١٩٧٧

| المادة               | التقدير |
|----------------------|---------|
| الفلسفة التأسيسية    | امتياز  |
| فلسفة العلوم والعلوم | امتياز  |
| علم المنطق           | امتياز  |
| المنطق الحديث        | امتياز  |
| فلسفة النفس والفن    | امتياز  |
| علم النفس العام      | امتياز  |
| فلسفة الاجتماع       | امتياز  |
| فلسفة التربية        | امتياز  |
| فلسفة الاقتصاد       | امتياز  |
| فلسفة السياسة        | امتياز  |

السنة الأولى في العام الجامعي ١٩٧٦/١٩٧٧

| المادة               | التقدير |
|----------------------|---------|
| فلسفة التأسيسية      | امتياز  |
| فلسفة العلوم والعلوم | امتياز  |
| علم المنطق           | امتياز  |
| المنطق الحديث        | امتياز  |
| فلسفة النفس والفن    | امتياز  |
| علم النفس العام      | امتياز  |
| فلسفة الاجتماع       | امتياز  |
| فلسفة التربية        | امتياز  |
| فلسفة الاقتصاد       | امتياز  |
| فلسفة السياسة        | امتياز  |

السنة الثالثة في العام الجامعي ١٩٧٦/١٩٧٧

| المادة               | التقدير |
|----------------------|---------|
| فلسفة التأسيسية      | امتياز  |
| فلسفة العلوم والعلوم | امتياز  |
| علم المنطق           | امتياز  |
| المنطق الحديث        | امتياز  |
| فلسفة النفس والفن    | امتياز  |
| علم النفس العام      | امتياز  |
| فلسفة الاجتماع       | امتياز  |
| فلسفة التربية        | امتياز  |
| فلسفة الاقتصاد       | امتياز  |
| فلسفة السياسة        | امتياز  |

السنة الأولى في العام الجامعي ١٩٧٦/١٩٧٧

| المادة               | التقدير |
|----------------------|---------|
| فلسفة التأسيسية      | امتياز  |
| فلسفة العلوم والعلوم | امتياز  |
| علم المنطق           | امتياز  |
| المنطق الحديث        | امتياز  |
| فلسفة النفس والفن    | امتياز  |
| علم النفس العام      | امتياز  |
| فلسفة الاجتماع       | امتياز  |
| فلسفة التربية        | امتياز  |
| فلسفة الاقتصاد       | امتياز  |
| فلسفة السياسة        | امتياز  |

حررت هذه الشهادة بناءً على طلبه لتكفيها إلى سيرة حياته من مسئولية الحكومة له أو لغيره  
فيما يتعلق بها  
تحريراً في ١٩٧٧/١/٢٠

تفاصيل شهادتي في درجة بكالوريوس الفلسفة (باللغة العربية)، تاريخها نوفمبر 1976



### غنية فرقة

يا كامل الأديس يا العالم الانسان  
أبشر وصلت الميس وشـرقت امدرمان

\*\*\*

من أهلك الطيبين حزت العـالم والدين  
وأصـحى الـعالم والمـصـحـر بك العابدين ناس الفضـل واللين  
ختيت بصماتك للراحوا والجـايين  
ياالعالم الانسان  
شرقت امدرمان

\*\*\*

من كافة البلدان توجت بالتـيـجان  
وجسدت للانسان ايه قـيـمة الفنـان  
ياقائد الفرسان في اصعب الازمان  
نهديك انا امدرمان  
ممزوجة بالالخان

\*\*\*

اهلك في بيت المال ختوك في الاحـدق  
شالت غذاك عزة زحمة فـسـرح دفاق  
وغتوك للاطفال انشـوة في الاعماق  
وضموك في الوجدان  
ياكامل الانسان

\*\*\*

وتعظيم في حى السور المنـشـوع النور  
وايضاً لنهر النيل البرى خـيـر مـدهور  
والعرفى سر الليل البـيـك زاد حـيـور  
انشوة ليها زمان  
من بلدة ضوها بان

\*\*\*\*

يا كامل التهذيب فيك الرجـاء ما بخيب  
من قمت إنت تجـيب وللحاجة إنت حبيب  
في الرفقة حزت نصيب عـلـمك غـزير ومهيب  
ياالعالم الانسان  
شرفت امدرمان

أغنية تحمل إسمي وقد قامت بإدائها فرقة نسائية غنائية في 2006





Office of Registration, Student Records,  
and University Scheduling  
614/594-6911



OHIO UNIVERSITY

Chubb Hall 108, Athens, Ohio 45701

MARCH 20, 1978

TO WHOM IT MAY CONCERN:

THIS IS TO VERIFY KAMIL ELTAYEB IDRIS, 888-88-4262, COMPLETED  
THE FOLLOWING GRADUATE COURSES FALL QUARTER 1977-78:

| COURSE                                 | HOURS | GRADE |
|----------------------------------------|-------|-------|
| PHIL 692 SPECIAL STUDIES               | 5     | A     |
| POLS 591 RESEARCH IN POLITICAL SCIENCE | 5     | A     |
| POLS 598 PROBLEMS IN POLITICAL SCIENCE | 5     | CR    |
| INST 500 INTRO/GRAD STUDIES            | 2     | CR    |

MR. IDRIS EARNED 17 GRADUATE HOURS AND A GRADE POINT AVERAGE OVER  
OF 4.000 ON A 4.000 SCALE.

*Kenneth H. Slater*  
KENNETH H. SLATER, DIRECTOR  
OFFICE OF STUDENT RECORDS

MB0\*



درجاتي الكاملة التي حصلت أثناء دراستي في جامعة أوهايو (الولايات المتحدة الأمريكية)، تاريخها  
مارس 1978



**SALTO UNIVERSITY**  
**HAZROUN BRANCH**  
**FACULTY OF ARTS**

**TO WHOM IT MAY CONCERN**

This is to certify that **MR. KAMIL M. TAYEB** has obtained the B.A. degree from the department of Philosophy of this Faculty in March 1976 with the Grade "Very Good" "Honours"

The credits he got in the examinations during the four years of regular study of this degree are as follows:-

**FIRST YEAR 72-1973**

|     |                      |             |
|-----|----------------------|-------------|
| 1-  | NATIONAL SUBJECT     | GOOD        |
| 2-  | ISLAMIC CIVILIZATION | GOOD        |
| 3-  | ARABIC LANGUAGE      | VERY GOOD   |
| 4-  | FRENCH LANGUAGE      | VERY GOOD   |
| 5-  | ENGLISH LANGUAGE     | VERY GOOD   |
| 6-  | History              | DISTINCTION |
| 7-  | PHILOSOPHY           | DISTINCTION |
| 8-  | SOCIOLOGY            | GOOD        |
| 9-  | GEOGRAPHY            | GOOD        |
| 10- | GENERAL ESTIMATE     | VERY GOOD   |

**SECOND YEAR 73-1974**

|     |                     |             |
|-----|---------------------|-------------|
| 1-  | GREEK PHILOSOPHY    | GOOD        |
| 2-  | MEDIEVAL PHILOSOPHY | DISTINCTION |
| 3-  | ARITHMETICS         | DISTINCTION |
| 4-  | FORMAL LOGIC        | VERY GOOD   |
| 5-  | CHILD PSYCHOLOGY    | DISTINCTION |
| 6-  | GENERAL PSYCHOLOGY  | DISTINCTION |
| 7-  | GREEK LANGUAGE      | VERY GOOD   |
| 8-  | ENGLISH LANGUAGE    | DISTINCTION |
| 9-  | NATIONAL SUBJECT    | VERY GOOD   |
| 10- | ISLAMIC PHILOSOPHY  | VERY GOOD   |
|     | GENERAL ESTIMATE    | DISTINCTION |

**THIRD YEAR 74-1975**

|    |                                 |             |
|----|---------------------------------|-------------|
| 1- | ISLAMIC PHILOSOPHY              | VERY GOOD   |
| 2- | MODERN PHILOSOPHY               | DISTINCTION |
| 3- | MORAL PHILOSOPHY                | VERY GOOD   |
| 4- | MODERN LOGIC                    | DISTINCTION |
| 5- | SOCIAL PSYCHOLOGY               | VERY GOOD   |
| 6- | ECONOMIC AND POLITICAL THEORIES | GOOD        |
| 7- | ENGLISH LANGUAGE                | DISTINCTION |
| 8- | GREEK LANGUAGE                  | GOOD        |
| 9- | GENERAL ESTIMATE                | VERY GOOD   |

**FOURTH YEAR (B.A. DEGREE) 75-1976**

|    |                                  |                     |
|----|----------------------------------|---------------------|
| 1- | ISLAMIC PHILOSOPHY AND MYSTICISM | GOOD                |
| 2- | CONTEMPORARY PHILOSOPHY          | VERY GOOD           |
| 3- | METAPHYSICS                      | DISTINCTION         |
| 4- | PHILOSOPHY OF SCIENCE            | DISTINCTION         |
| 5- | ETHICS                           | DISTINCTION         |
| 6- | PHILOSOPHICAL TEXTS IN ENGLISH   | VERY GOOD           |
| 7- | LANGUAGE                         | VERY GOOD           |
| 8- | SPECIAL DISSERTATION             | VERY GOOD           |
| 9- | GENERAL ESTIMATE                 | (VERY GOOD) HONOURS |

M. El Hafni  
REGISTRAR  
21/11/1976

DEAN

Professor Samir B. Gann

تفاصيل درجة البكالوريوس في الفلسفة (باللغة الإنجليزية)، تاريخها مارس 1976





ميدالية تقدير وعرفان من جمعية تطوير الخرطوم،  
سبتمبر 2008



جائزة التميز والإبداع الثقافي من وزير الثقافة  
في السودان، أغسطس 2007



شهادة تكريم من جمعية القرآن والدراسات الإسلامية، تاريخها 2003



## الملحق الثاني

### شهادات وثناءات

فيما يلي مختارات من شهادات وثناءات:

• الدكتور بي. إس. راو، الرئيس السابق للجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي (الهند)

«الدكتور كامل إدريس شخص ذو مواهب متعددة. إنه مجموعة أشياء لمجموعة أشخاص. يبدو عصياً على أي شخص الإلمام بشكل واف على صفاته التي لا يمكن حصرها بما يمكن أن يحصل منها على صورة مركبة كاملة له. أثناء فترة صباه عانى الكثير من الصعاب ولكنه علّم نفسه بشكل جيد داخل بلاده وخارجها.

لقد حصل على درجات علمية في القانون ودراسات أخرى. عمل بجد ملحوظ وشهد أوقاتاً عصيبة في حياته. إنه يتفهم مشكلات الشباب التي يواجهونها في الحياة. يتميز بالواقعية ولكنه يمتلك الشجاعة في تصور أحلام كبيرة وجعلها ممكنة. عمل مع أناس صغار بقدراتهم المتواضعة، وفي الوقت ذاته انتهى به المطاف للعمل مع فئات من الناس ذوي مستويات مرموقة حول العالم. عمل مع رؤساء الدول والحكومات وتم تكريمه بسطاء نظير الخدمات التي قدمها للعديد من الدول والأقاليم.

حينما قدّم لي الدكتور كامل إدريس لأول مرة داخل قصر الأمم المتحدة في جنيف عام 1991،

أثناء حضوري اجتماعاً للجنة للقانون الدولي كأحد أعضائها، كان ذلك ذات صباح صائف وتلك كانت مصادفة لمقابلة شخص رائع. كانت المحادثة بيننا مختصرة نوعاً ولكنه أثار إعجابي على الفور بأنه شخص ذو تركيز عال وممتلئ تصميمًا لوضع علامة فارقة في الحياة العامة. بجانب إبرازه طاقة ضخمة وحماسة بالغة لأشياء كان يقوم بأدائها أو يود أداءها لاحقاً. كان يبدو دائماً شخصاً مليئاً بالابتسامات، ومصافحاته كانت دافئة وقوية. انعقدت بيننا علاقة ضاربة الجذور، لذا كنت مستعداً لمنحه كامل تأييدي الذي كان يبحث عنه بغية انتخابه في لجنة القانون الدولي في نوفمبر المقبل لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك.

انتخابات لجنة القانون الدولي كانت كالعهد بها دائماً مسرحاً لمنافسة قوية مليئة بالإثارة. العديد من الشخصيات ذوي المناصب المرموقة، ممن يُعدون مهنيًا وسياسيًا من الشخصيات المهمة والأكثر احتراماً كانوا في المنافسة. لم يكن أي منا يتوقع ضمان الفوز في تلك الانتخابات. جميع اللاعبين الكبار من الأمم المتحدة والقوى الكبرى من القارات الخمس ينافسون بعضهم بعضاً في عدد محدود من المقاعد تم تخصيصها لكل من المناطق الخمس: إفريقيا، وآسيا، وشرق أوروبا، وأميركا اللاتينية وغرب أوروبا وآخرون (الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلانده). كل من الدكتور كامل إدريس وشخصي تم انتخابنا لعضوية لجنة القانون الدولي لفترة خمس سنوات تبدأ في 1992 وتنتهي في 1996. كسب الدكتور كامل إدريس في تلك العملية امتيازاً متفرداً إذ أصبح ولأول مرة في تاريخ لجنة القانون الدولي عضواً فيها، حتى مع كونه متبوعاً مركزاً قيادياً في سكرتارية المنظمة الدولية للملكية الفكرية التي هي وكالة متخصصة داخل أنظمة الأمم المتحدة. لقد كان أول موظف خدمة مدنية عالمي ينافس في عضوية لجنة القانون الدولي. وعلى النقيض من ذلك، مما يجدر ذكره، فإن أعضاء سكرتارية الأمم المتحدة لا يمكنهم خوض الانتخابات لعضوية لجنة القانون الدولي.

عقب انتخابنا، بدأنا العمل معاً كعضوين في لجنة القانون الدولي لفترة السنوات الخمس التالية (1992 - 1996) وأمضينا معاً وقتاً طويلاً خلال اجتماعات لجنة القانون الدولي وخارجها. والآن كعضوين زميلين في لجنة القانون الدولي، لم نعد فقط نعرف بعضنا بعضاً بشكل جيد، بل أصبحنا على اتصال وثيق للغاية ببعضنا.

اعتدنا أن نتحرك عقب الاجتماعات المسائية إلى مكتبه في المنظمة الدولية للملكية الفكرية والذي يقع مباشرة في مواجهة قصر الأمم المتحدة. كان معظم وقتنا في تلك الزمالة الحميمة نمضيه بداية لمراجعة ومتابعة الأعمال اليومية للجنة القانون الدولي، ولكن سرعان ما تحول اهتمامنا بالأحوال الشخصية والأسرية، فضلاً عن الأمور الأخرى ذات الاهتمام المشترك. كان كامل على الدوام يبدي شعوراً إنسانياً كبيراً أياً كانت جدية الأمر موضوع نقاشنا. كانت تعليقاته في غالبيتها تخون التزامه القوي بتعزيز مساواة وصون كرامة الدول الخارجة من نير الاستعمار في المجتمع الدولي.

وبالمقابل كان أيضاً ملتزماً برفع معدل التمثيل، في كل من الأعداد والقامات الاعتبارية للأشخاص القادمين من تلك الدول للعمل خلال سكرتارية المنظمة الدولية للملكية الفكرية والأمم المتحدة.

وكعضو في لجنة القانون الدولي، فقد كان حريصاً للغاية على متابعة إجراءاتها. وهي إجراءات تتعلق بأمور تقنية عالية المستوى تختص بالقانون الدولي والسياسة. وحتى في التعامل مع تلك الإجراءات فإن تكييف السياسات وما يملكه الدكتور إدريس من فرشة عريضة كانا يقدمان دائماً للمسات الفنية الجميلة للنقاش لتكون يد الجميع.

كان ماهراً في تحديد البؤر التي يمكن اللقاء حولها حتى حينما يبدو أن البعض قد ضاعوا تيهاً في متابعة الجدل حول اختلافات بعضهم بعضاً. كانت أطروحاته قوية الحجة، وفي الصميم، لم تكن أبداً بالطريقة التوعوية العادية، وفي معظم الوقت كان يتحرك في منتصف الطريق وغالباً بشكل مقنع. كان ينتهج الإنجليزية تحدثاً، وبالمقابل كان ماهراً في الفرنسية، وأخيراً أجاد اللغة الإسبانية أيضاً. وكان يستخدم لسان أمه، اللغة العربية، حيثما تقتضيه المناسبة. وبوصفه عضواً في لجنة القانون الدولي كان الدكتور كامل إدريس راعياً بدقة تنظيم مصالح قارة إفريقيا والعالم الثالث، وكان دائماً يلعب دور الوسيط المعتدل في حل النزاعات والنقاشات التي تصاحب عادة تطور مسيرة صوغ المسودات للمواد المختلفة التي تضمنتها أجندة اجتماعاته. مهاراته في التفاوض، وإلمامه القوي السريع بالموضوعات الأساسية ذات الصلة، ومقدرته على تحديد نقاط الاهتمام المشترك كانت تشكل أصولاً متينة للجنة القانون الدولي. وكان مفاجئاً بالنسبة لي على أية حال أن الدكتور إدريس لم يسع إلى إعادة انتخابه، رغم أنه كان بداية أحد المرشحين حينما عقدت الانتخابات لدورة جديدة، وفي مثل حالته كان متاحاً له الاستمرار لفترة ثانية تمتد لخمس سنوات أخرى في لجنة القانون الدولي، في نوفمبر 2001. وكان سبب ذلك، كما علمت لاحقاً، أنه في ذات الوقت كان قد تم ترشيحه وانتخابه لاحقاً مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية في ظروف لم تكن متصورة تماماً.

وبهذا المستوى كان الدكتور إدريس قد أسس سجلاً عالمياً آخر حينما صار في تاريخ المنظمة الدولية للملكية الفكرية أول إفريقي وفي الواقع أول دبلوماسي/محترف من العالم الثالث يفوز في انتخابات المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

وأياً كان الأمر بالنسبة لنا كأعضاء في لجنة القانون الدولي فقد حصلنا على فرصة أخرى لاختياره عضواً في لجنة القانون الدولي حينما حدث في منتصف فترة (1987 - 2001) شغور لوظيفة عضو في حصة إفريقيا نتيجة وفاة زميلنا الكبير السنغالي دودو ثيام بعد أن خدم في اللجنة لفترة 29 عاماً، وهي الفترة الأطول التي لم يتح أبداً لأي فرد أن يخدمها من قبل. وكانت إعادة تقديم الدكتور إدريس لعضوية لجنة القانون الدولي في عام 2000 علامة احترام يستحقها منا جميعاً، نحن أعضاء لجنة القانون الدولي، نظير دوره النشط الذي كان يلعبه إبان فترة

عضويته الأولى. وكما أشرت من قبل، في حقيقة الأمر، فإنه لم يحدث، سواء قبل انتخابه في لجنة القانون الدولي أو عقب مغادرته للجنة نهائياً في 2001، لأي شخص خدم في سكرتارية المنظمة الدولية للملكية الفكرية أو أية منظمة دولية كونية أخرى أن سعى إلى أو تم انتخابه في عضوية لجنة القانون الدولي. بالنسبة لإدريس فإن حالته تعد فريدة من نوعها ومن الصعوبة تكرارها إذ أن الانتخاب للجنة القانون الدولي يتطلب من المتقدم قدراً من المستوى الرفيع في حقل القانون الدولي ونوعاً من الجدارة والأهلية بما يؤهله للمساهمة في عملية التقنين والتطور المتنامي للقانون الدولي لكي يتم اختياره عضواً في لجنة القانون الدولي، وفقاً لما نص عليه في المادة 13 من ميثاق الأمم المتحدة.

الانتخابات التي أجريت لانتخاب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية منحت الدكتور كامل إدريس فرصة جديدة لإعادة تكيف أولوياته كشخص أكثر من كونه موظفاً رفيع المستوى لقيادة منظمة عالمية يختص بما ينام به من أعباء وواجبات تهدف لحماية والرقى بحقوق الملكية الفكرية على نطاق العالم. العمل مع المنظمة ثم قيادتها لاحقاً وضع الدكتور إدريس في موقع خاص متفرد. ومن جهة واحدة كان عليه أن يعمل، طيلة بقائه على رأسها، على توسعة الدور التقليدي للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، باعتباره مطوراً ومدافعاً عن حقوق الملكية الفكرية التي حتى ذلك الحين كانت تحظى كثيراً بالاحترام والحماية في الدول المتطورة اقتصادياً وتقنياً. وكان هذا يعني انتشار الرسالة في أوساط الدول المتطورة التي تهتم بقيمة حقوق الملكية الفكرية. وفي الوقت ذاته كان يتطلب من الدول النامية أن تكون متحفزة ومجهزة بالأدوات الضرورية من خلال دوائر اختصاصها لحماية حقوق الملكية الفكرية المتعارف عليها لدى بقية الدول وإنفاذها. ومن الجهة الأخرى كان يتطلب منه الاستجابة للأولويات التنموية للإقتصادات النامية والأقل نمواً في العالم والتي لم تكن معدة إعداداً كاملاً للنيل من النظام القائم لحقوق الملكية الفكرية لكي تتمكن من تأمين مواردها التقنية والمالية الضرورية بالقدر الذي يجعلها تزرع فنونها الخاصة بها وثقافتها وتراثها الجيني في شكل منتجات تجارية قابلة للحياة حتى تكسب حقوق ملكيتها الفكرية الخاصة بها وبما يكفيها لتنافس في السوق المفتوحة.

ولإحداث التوازن بين تلك الأهداف المتباينة الظاهرة للعيان، فقد عمد الدكتور إدريس إلى اتخاذ خطوة ثلاثية متشعبة الأبعاد: أولها، نشر أفكار ومعلومات ضرورية في أوساط الدول النامية حول أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه حقوق الملكية الفكرية في تنمية اقتصادات الدول الفقيرة وغير المتطورة تكنولوجياً. ولتسويق هذه النقطة فقد ألف كتاباً مهماً حول قيمة حقوق الملكية الفكرية باعتباره «أداة التشغيل» للنمو الاقتصادي. ثانياً، توفير المساعدة التقنية اللازمة إليهم لتعزيز قدراتهم في تملك مثل تلك المعرفة وتسجيلها رقمياً أو «تقنياتهم المسبقة» التي امتلكوها من قبل، بشأن الموارد الوراثية والمعرفة التقليدية والفنون الشعبية، وتسخيرها كقاعدة

لتطوير هذه الموارد أو إنشاء معرفة جديدة من شأنها أن تصبح قادرة على اكتساب حقوق الملكية الفكرية. ثالثاً، بما أن القوانين الوطنية كانت تختلف في ما بينها حول حماية حقوق الملكية الفكرية وإنفاذها، ولضرورة التركيز على تناغم تلك القوانين مع بعضها كان لازماً اتخاذ أفضل الممارسات وتأسيس معايير دولية جديدة لذلك الغرض. وقد نجح بشكل كبير في جهوده لجعل قيمة حقوق الملكية الفكرية معروفة لكل الدول الكبرى في إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية عبر العديد من مختلف أنواع برامج المساعدات التقنية وورش العمل والندوات التي تم تنظيمها استناداً إلى قيمة معرفتهم التقليدية ومواردهم الوراثة وفنونهم الشعبية ومنتجاتهم الأخرى.

باعتباره مديراً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، فقد عمل لاحقاً على تشجيع إعادة تكييف أجندة اجتماعات المنظمة حتى تعكس أولويات الدول ذات الاقتصادات المتواضعة والأقل نمواً التي كانت بحاجة إلى حماية معرفتها الوراثة والتقليدية، وكمثال لذلك حول طب الأعشاب والطب «الأيرفيدي» (طريقة هندوسية تقليدية للعلاج)، والتصميمات الإثنية والفنون الشعبية والموسيقى. وكان خلال تلك الفترة أن بدأ المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية في التركيز بجدية حول أجندة التنمية لتلك الدول. ونتجاً لذلك أنشأت المنظمة الدولية للملكية الفكرية في عام 2000 لجنة دولية عبر الحكومات للملكية الفكرية والموارد الوراثة والمعرفة التقليدية والفنون الشعبية. وكان هناك أيضاً عنصر منفرد يختص بأجندة التنمية للدول النامية، برعاية البرازيل. لقد أسس مكاتب في مقر الأمم المتحدة بغرض تنوير دبلوماسيي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة حول برامج وأولويات المنظمة الدولية للملكية الفكرية وغالباً ما كان يتم إشراكهم في تبادل وجهات النظر للفائدة المتبادلة. كما أنه أنشأ مكاتب إقليمية في سنغافورة ومكتباً في واشنطن دي سي.

أنشأت المنظمة الدولية للملكية الفكرية أيضاً أكاديمية لترقية الدراسات والبحوث في كل من الأمور القانونية والتقنية والعلمية والسياسية ذات الصلة بتعزيز وحماية حقوق الملكية الفكرية. تلك كانت خطوات إبداعية في وقت أصبحت الآن جزءاً من حزمة الكيان المعماري العريض للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

من خلال تلك المؤسسات ظل الدكتور إدريس يعمل بلا كلل بغية توسعة المشروعات التي تهدف لبناء قدرات الدول النامية التي كانت في حاجة لإنشاء مؤسسات وسلطات إقليمية قائمة على معايير دولية، أولاً لإنشاء حقوق ملكيتها الفكرية الخاصة بها، ومن ثم لترقية حقوق الملكية الفكرية لتلك الدول وحمايتها جنباً إلى جنب مع تطوير وحماية حقوق الملكية الفكرية الممنوحة والمتعارف عليها من قبل الدول المتقدمة في السوق العالمية. جزئياً، فإنه نسبة لما قدمته المنظمة الدولية للملكية الفكرية من مجهودات استناداً إلى توجيهات الدكتور كامل إدريس الحكيمة المفعمة بالحيوية، وكمسألة للتسجيل، فإن حقوق الملكية الفكرية ظلت تسجل مكاسب قيمة في الدول التي يشار إليها باعتبارها اقتصادات ناشئة ودولاً نامية أخرى من التي



تتحرك وفقاً للضوابط الاقتصادية والتقنية.

وكشخص كان كامل إدريس طيب القلب متفهماً للأمور ومنفتحاً على الآخرين، حتى وهو يثمن خصوصياته ويحميها. كان رب أسرة مرموقاً فخوراً بوالدته وزوجته وأبنائه، وكان دائماً يذكر بالخير أسرته الممتدة الكبيرة المكونة من أشقائه وأشقائه زوجته. وكان مخلصاً للغاية لكل معارفه المقربين وأصدقائه. وعرف عنه كونه مراعيًا ومهتمًا بظروف أعضاء فريق العمل وأحوالهم وكذا الحال تجاه الآخرين الذين قابلهم. كان سباقاً لتقديم العون في أي وقت، وتمتد أياديهِ بالمساعدة الكريمة لكل المحتاجين. وكان يملك موهبة تحديد الصفات المفيدة للناس الذين سبق له ملاقاتهم حتى لو قابل بعضهم بشكل عرضي فقط. وجد متعة قصوى أثناء توليه منصب المدير العامل للمنظمة الدولية للملكية الفكرية بتأمين خدماتها وتسخيرها من أجل بعثاتها العريضة المتخصصة. وحينما يأتي الوقت لاتخاذ القرارات كان يطلب النصح من المجموعات الصحيحة ولكنه دائماً يتخذ قراراته بنفسه ويتمسك بها. ومما يحمد له، أثناء منصبه كنائب للمدير أو المدير العام للمنظمة الدولية، أن كثيراً من الناس المتحدرين من العالم الثالث والبلدان التي تمر بمراحل انتقالية قد تم تعيينهم وترقيتهم إلى مناصب مهمة في قسم سكرتاريته أكثر من أي وقت مضى.

أبدى الدكتور إدريس صلابة واضحة والكثير من المرونة تجاه معارضيهِ ومنتقدي أعماله وقراراته. ولم يحدث أبداً أن فقد رزاقته وهدهؤه حتى في مواجهة أشد الأزمات، وفي بعض الأحيان كلما اشتدت الظروف والأزمات قوة وعنفاً كان يقابلها بما يكافحها من قوة وصلابة. بعض المشكلات التي واجهته إبان عمله مديراً عاماً للمنظمة في رأيي كانت نتاجاً لطموحاته الكبيرة وتطلعاته ولعدم اختباره الفريق المساعد الصحيح في الوقت الصحيح لتحويلهما إلى الواقع. وحتى نجاحه الممتاز في تنمية فن الدبلوماسية، فضلاً عن شجاعته في إحراز الطموحات الكبيرة، وممارسته لفن تحويل السلطات والمهام لفائدة كسب الوقت وإحداث الكفاءة، ثم صب كل ما امتلكه من صفات الجودة في خدمة المنظمة الدولية للملكية الفكرية، التي كان مديريها العام الدكتور إدريس يهيئ نفسه لعمل أكبر وربما أكثر تحدياً، ألا وهو خدمة بلاده عقب تقاعده من العمل كمدير للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

وبذاك المستوى أعد نفسه بشكل واضح أو على الأقل كان شخصاً معروفاً في الدوائر الدبلوماسية والسياسية العالمية بما سيؤهله لخدمة بلاده الحبيبة السودان. وبالنظر إلى طاقاته المعروفة، وصفاته المتفردة وخبرته الواسعة كموظف خدمة مدنية على النطاق العالمي، كان يبدو أن الأمر لم يكن سوى مسألة وقت قبل أن ينخرط في موقع من الأهمية والرفعة بمكان يؤهله لخدمة أمته العظيمة.

الدكتور كامل إدريس كان رجل مصير ومن شأنه بلا أدنى شك أن يصبح رجل كل المواسم! نسأل الله أن يمطر أكثر تبريكاته الطيبات على الدكتور كامل إدريس ووطنه الحبيب السودان الذي آل على نفسه أن يخدمه لأطول فترة مقبلة!»

#### • الدكتور لاري ألمان، المتخصص العالمي في حقوق النشر (الولايات المتحدة الأميركية)

«صديقي وأستاذي ومصدر حمايتي.

التحقت بالعمل في المنظمة الدولية للملكية الفكرية في عام 1995. لقد كان بشكل لا يصدق موقعاً رائعاً مرموقاً للعمل، مصبوغاً بسمعة طيبة زاهية على نطاق العالم. وكان الدكتور كامل إدريس وقتها نائب المدير العام ومسؤولاً تحديداً عن إدارة التعاون من أجل التنمية. وكنت أعمل في الإدارة القانونية لحقوق النشر، لذلك كان اتصالي به محدوداً من منطلق واجباتي الرسمية. كنت أراه كل صباح في موقع البريد السريع. وأكد أجزم بأنه إنسان خاص. ذهبت إليه في مكتبه خلال السنة الأولى من عملي، ودعوته لتناول طعام الغداء معي بالخارج. وللهذهشة لقد وافق على طلبي. قضينا وقتاً طيباً، وتحدثنا حول ظروف عملنا في المنظمة الدولية للملكية الفكرية، وبدأ يعاملني معاملة ندية - وبما أنني كنت وقتها حديث العهد بالخدمة وقليل الخبرة، فقد أثبت لي براعته في العمل وكم كان كريماً تجاهي. ومنذ تلك الأيام ولاحقاً إلى أن غادرنا العمل معاً في عام 2008 كان دائماً ودوداً طيباً مسانداً، وحينما أصبح المدير العام، كان مهتماً بشخصي بشكل واضح. فهو يمتلك مهارات متفردة لتفهم كل فرد بل يجعل أي فرد يبدو مرتاحاً، حتى لو بشكل خاص، في حضرته.

في صيف عام 1997 حينما تم ترشيحه رسمياً لمنصب المدير العام المقبل، لم يكن موجوداً، إذ كان وقتها يحضر مؤتمراً وزارياً عقد في ترينداد. وكنت من ضمن وفد المنظمة الدولية للملكية الفكرية في ذلك المؤتمر. وكان بحق قد أذهل كل واحد من الوزراء الحاضرين، لقد شاهدنا ذلك مباشرة. في موقف معين أثناء المؤتمر، أخذ كامل بعضاً منّا لمقابلة رئيس وزراء ترينداد وتوباجو. وكانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لي التي أقابل فيها رئيس وزراء دولة بشكل مباشر. وبما أن كاملاً كان هناك، فإن رئيس الوزراء قد عاملنا جميعاً باحترام ملحوظ، وكان واضحاً أن الدكتور كامل قد امتلك الحضور والمقدرة على جعل الناس يشعرون بالأهمية والاحترام وأن يكونوا جزءاً من اللحظة. إنه يمتلك مهارات عالية للتعامل بها مع الناس. كان قد غادر المؤتمر مبكراً يرافقه إثنان من الزملاء. وبعد يومين غادرنا نحن عائدتين إلى المنظمة عبر لندن. سعدنا إلى الطائرة وكنت أنا ومساعد المدير العام (كارلوس فيرنانديس باليستيروس) قد أخذنا مقاعدنا على الدرجة الأولى في الطائرة من طراز 747. وقبل الإقلاع مباشرة كان كامل وإثنان من الزملاء قد وصلوا للسفر معنا على متن الطائرة ذاتها، واتجهوا لأخذ مقاعدهم في درجة رجال الأعمال وهي بالطبع أقل اتساعاً من مقاعد الدرجة الأولى. والذي حدث أن سفريتهم الأصلية كانت قد ألغيت

وأدرجوا في آخر لحظة ضمن ركاب هذه الرحلة. وعقب الإقلاع توجهت للخلف لأطلب من كامل أن يستغل مقعدي في الدرجة الأولى - ولكنه رفض واستمر في الخلف مع زملائه، واعتبر الأمر عادياً كأني واحد من بقية الوفد. لم يحدث أبداً خلال تجربتي معه، أن رأيت يفرض نفسه على الآخرين، ولم يحدث أبداً أن استخدم مكانته الوظيفية الرفيعة ليتخذ منها أي منفعة.

حينما تم تعيينه مديراً عاماً، عمل على تشكيل ما يمكن اعتباره دائرته الحكومية، ومكتبه للتخطيط الاستراتيجي وتطور السياسات، وكان قد اختارني للمشاركة، بالإشراف على إدارة حقوق النشر. كما أنه اختارني لأكون ممثلاً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية لدى منظمة التجارة العالمية. وكان ذلك شرفاً عظيماً لي.

بعد حوالي ستة أشهر، تناولت وجبة غداء مع مساعدة المندوب الأميركي لمنظمة التجارة الأميركية. وما زلت حتى الآن غير متأكد لماذا تم ذلك، ولكنني اعتقدت أن بإمكانني التحدث إليها كشخص عادي (ربما لكونها أميركية الجنسية أيضاً)، ولكن حدث سوء فهم حاد وترك ذلك أثره على علاقتي ببلادي. أما كامل فقد تعامل مع الأمر كله بشيء من الكياسة والانضباط. دعاني لمقابلته، وشرح لي مفصلاً ما حدث، كما أخبرني أنه ربما أوكلت إلي بعض الأعمال الأخرى ذات الأهمية، وبأن لا أكثرث كثيراً لما قد حدث، وكان ذلك التعامل قد منحني الإحساس بأنني اكتسبت صديقاً. تعامل مع الأمر بشكل أصبح قادراً على التعلم منه، كما أمكنني معرفة أنه قد تفهمني تماماً، وتلك مهمة لم تكن من السهولة بمكان.

ولاحقاً أيضاً حدثت مشكلة أخرى وكان كامل مرة أخرى هو من يعمل على احتوائها بحنكة استثنائية. وفي اعتقادي أن هناك قلة من الناس في المنظمة الدولية للملكية الفكرية من وجدوا خطأً من هذه المعاملة الخاصة، وقد ظلت أشكره كل صباح في صلواتي لجعله حياتي في المنظمة الدولية للملكية الفكرية طيبة بهذا المستوى.

كانت آخر مشروعاتي في المنظمة الدولية للملكية الفكرية هي إنشاء كتاب كنت قد اقترحت تأليفه، يحكي تاريخ المنظمة الدولية للملكية الفكرية من عام 1992 حتى عام 1997، وهي فترة زمنية أعقبت كتاباً آخر يحكي تاريخاً عميقاً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية تم إنجازه بإشراف الدكتور بوقش. شرعت في ذلك الكتاب أساساً لاعتقادي بأن المنظمة ينبغي لها أن تفعل شيئاً ذا قيمة خاصة لكامل، وهو الذي أجرى عليها الكثير من التغييرات والبعث، إذ نشرها معزراً تمثيلها على نطاق العالم. أعطى الضوء الأخضر للمشروع، ولكنه طلب مني أن أكمله مستعيناً بفرقة عمل. اتجهت إلى أكثر الناس خبرة في المنظمة الذين، بحسب اعتقادي آنذاك، كانوا يملكون المهارات الممتازة بغية إخراج المشروع بأفضل ما يمكن من مستوى. وكان أحد جوانب ذلك الكتاب أن تكتب سيرة شخصية قصيرة لكل من كامل والدكتور بوقش. ظلت أعمل مع كامل للعديد من الأمسيات، في مكتبه، وكانت جلسات رائعة بشكل لا يصدق بحيث شملت جوانب حياته كافة، وكنت أسجل مذكراته ثم أحيلها إلى صفحات مكتوبة. علمت الكثير جداً عن

شخصيته، ولكن بشكل أساسي، أتيح لي أن أمضي معه وقتاً ومساحة شملت تاريخ حياته، وكنا أنا وهو فقط، وكانت بمثابة ذلك النوع من الأشياء التي يتذكر المرء فيها الحياة الكاملة لشخص آخر. لقد كانت فعلاً كذلك، ويا لها من لحظات خاصة. أكملت سيرته الذاتية المصغرة، في خمس صفحات، ولكن في نهاية الأمر قرر كامل عدم إدراج أي منهما (كتبت سيرة بوقش أيضاً مأخوذة من سيرته الذاتية بقلمه/ مذكراته). ويمكنني القول إنه لم يحدث لأي موظف في المنظمة الدولية للملكية الفكرية قاطبة القيام بمهمة ذات خصوصية مع رجل عظيم مثله.

ومع اقتراب نهاية عملنا معاً، في 2008، حينما علمت أنه سوف يغادر المنظمة الدولية للملكية الفكرية، عرفت أن الوقت قد حان لي أيضاً بالمغادرة، فقد كانت تحيط بي ظروف أخرى، ولكن مغادرته كانت تشكل العامل الأكبر بالنسبة لي. كانت لدي طريقتان للمغادرة، إحداهما تتمثل في (إلغاء وظيفتي) وهذه من شأنها أن تمنحني حيلة مالية أكبر مما لو كان الأمر تقاعداً عادياً، ولكنها تتطلب سلطة استثنائية من المدير العام. اتصلت لمقابلته - وكان دائماً يخصني باجتماع سريع معه، مما لم يكن متاحاً لأي موظف آخر. أوضحت له ما أنوي القيام به وهو إلغاء وظيفتي للحصول على حصة مالية طيبة. تفهم الأمر فوراً، واستخدم سلطاته الخاصة للتنفيذ، بل حتى أشرف على الأمر بنفسه تحسباً وتذليلاً لكل العقبات والتعقيدات. ذات مرة، حينما ظهرت لنا عقدة واضحة في التنفيذ، وحينما أخبرته بها، نادى على الفور الأربعة الكبار الذين كانوا يشرفون على الأقسام المتعددة الضرورية لإنفاذ الموضوع، مثل مدير الموارد البشرية، والمستشار القانوني وكبير الموظفين، ومن شاكلتهم، وشرح لهم، أمام نظري وسمعي، بأنه يود لعملية إلغاء وظيفتي/ المغادرة أن تسير بسهولة وكفاءة، وفي وقتها المناسب. نتاجاً لذلك، وبفضل جهوده شخصياً، غادرت المنظمة الدولية للملكية الفكرية بحزمة مالية محترمة، ومعها بعض الذكريات العظيمة للغاية والأفكار الطيبة حول كم كنت محظوظاً بأن ألتقي صديقاً مثل كامل إدريس.

#### • السيدة هيدي هوكنجز، المساعد الشخصي للمدير التنفيذي (الولايات المتحدة)

أحد الأشياء التي ستظل عالقة بذهني بقوة حيال تجربة كامل إدريس كمدير عام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، هي أنه حقيقة جاء ليخدم بنفسه لا أن يُخدم بواسطة الآخرين. إن تعيينه لإدارة منصب بهذا المستوى لم يكن إنجازاً كبيراً بالنسبة له، بل هو مسؤولية طلب منه إزاءها الوفاء بدور أكثر تحدياً. بالتأكيد، لقد أنجز أشياء عديدة خلال الأعوام الأحد عشر التي قضاها في الوظيفة - ومن بينها أنه أحال المنظمة إلى واحدة من شاكلة المنظمات مفتوحة الشخصية، وجعلها مكشوفة للتفاعل مع عالم متقلب الظروف (وتحديداً في ما يتعلق بالأهمية المتنامية للملكية الفكرية للعديد من الدول والأعمال التجارية). أنجز تلك المتغيرات بالعديد من الوسائل وعبر استراتيجيات متعددة (سياسية وإدارية، مثلاً)، ولكن حقيقة نجاحه الكبير في

ذلك كما يبدو لي أنه، فوق كل شيء، بفضل مواهبه الكبيرة في العمل مع الناس.

ظل كامل إدريس دائماً يجد الوقت للتحدث مع الناس، والاستماع إليهم والاهتمام بأمور حياتهم ورفاهيتهم. ومع عملي معه بشكل لصيق، فقد كنت شاهدة على أوقات لا حصر لها من التي وضع فيها مصالح الآخرين وحاجاتهم فوق حاجاته - ليس فقط بسبب اعتقاده بأن ذلك هو الطريق الصحيح للتعامل (وهذا ما فعله)، ولكن بسبب اهتمامه بصلافة بشؤون الآخرين وحبّه للناس عموماً. مثال لذلك فقد كانت حاجات الموظفين العاملين في المنظمة عزيزة إلى قلبه، وكانت العديد من التغييرات التي طبقها في العمل ذات صلة بتحسين ظروف عمل الموظفين وفائدتهم. وعمل بلا كلل لتأكيد أن ينشأ نظام عدلي داخلي جديد بغية أن كل العاملين بمختلف مستوياتهم يجدون الفرصة العادلة لسماع أصواتهم ومن ثم الحصول على العدالة. وكان أيضاً يدخر وقتاً لسماع حالات فردية للموظفين - إذ كان يقابلهم مباشرة متى دعت الضرورة لذلك، وتحديداً لمن فقد الأمل في العثور على حل لمشكلته. كان بكل بساطة مهتماً بما يكفي ومؤمناً بأن كل فرد - تحديداً ذوي التدرج الهرمي الأدنى - يجب أن يمنحوا مراجعة عادلة أو إعطائهم فرصة ثانية.

كان أيضاً حريصاً على العمل مع الزملاء وممثلي الدول والمنظمات الأخرى على أساس بناء المشورة وتوافق الآراء. ورغم أنه لم يكن يخجل كثيراً من اتخاذ بعض القرارات الصعبة متى كان ذلك ضرورياً، فقد كان دائماً منفتحاً للاستماع لأي موضوع من جوانبه كافة - وكانت ثقته بنفسه كافية بما يدعوه أحياناً إلى تغيير قراراته وفقاً للمعطيات الجديدة من المعلومات التي ترد إليه. كانت لديه طريقة مدهشة في التعامل مع الوفود من جميع الدول - بالقدر الذي يجعل كل وفد يشعر بأهميته وأن أفكارهم وآراءهم قد وجدت تقييمها الصحيح. لا أنذكر أبداً أنه قد أبدى نوعاً من التحيز لدول أو مناطق بعينها، بل يجدر بي أن أتفهم رغبته لتأكيد أن أي فرد مرحب به في طاولة المفاوضات ليناقش ويقرر طيلة فترة النقاش. عقد استشارات لا يمكن حصرها مع مجموعات ووفود مسبقاً قبل انعقاد الاجتماعات الكبيرة، لتأكيد أنهم سيتفهمون، وأن بإمكانهم إبداء وجهات نظرهم، في الموضوعات المطروحة للنقاش. ذلك الاستثمار كان قد أتى ثماره، إذ أعطى الوفود الشعور بأنهم مشاركون بشكل حقيقي وواقعي وبالتالي فإن مساهماتهم قد وجدت صداها وأهميتها. كما أنها ساعدت في تقليل الخلافات غير الضرورية إلى حدها الأدنى أثناء اجتماعات اللجنة نفسها. من رأيي، كان ذلك عملاً ممتازاً من وجهة النظر الإدارية والسياسية على السواء.

هذه القدرة رفيعة المستوى لجمع كل اللاعبين على الطاولة كما حدث ذلك، أحضرت معها أيضاً تحديات مؤكدة - كانت إحداها أن الناس كانوا يتصايحون بشكل حقيقي لرؤيته. وكان ذلك مفهوماً، ومع ذلك كانت لدينا فقط عدة ساعات في اليوم لترتيب الاجتماعات، فضلاً عن التعامل مع البرنامج طرْحاً وجذباً بحسب المتطلبات والحاجة لذلك. كان ذلك يحدث أحياناً وفقاً



لظروف إنسانية في إدارة الأمور اللوجستية لمواعيد متداخلة ومتشابكة مع بعضها. لم يكن شيئاً غير معتاد لموظفي مكتب الرئاسة (شخصي وإثنان آخران) في تقديم القهوة/ الشاي لمجموعة واحدة في غرفة الانتظار، ثم الهرولة لأخذ جولة أخرى من القهوة/ الشاي لمجموعة أخرى في مكاتب أخرى للسيد إدريس، كل ذلك فيما كان هو يعقد اجتماعاً مع طرف ثالث في مكتبه الأساس. وبما أن واجبي كان يتطلب تأكيد حسن سير البرنامج، فقد كان ذلك أحياناً مما يسبب لي قليلاً من الإحباط. في بعض الأحيان كان يساورني الشك بأن ذلك قد يسر السيد إدريس من وقت لآخر - وبلا شك فقد كان أفضل سلوك للسير على نهجه وسط نشاط محموم كهذا. وعلى أية حال، يجدر بي القول إن ثلاثتنا في المكتب الرئاسي قد تعلمنا بكل تأكيد الكثير عن الكياسة الدبلوماسية من السيد إدريس. حتى حين الأمر يتطلب من الزوار الانتظار لحين مقابلة السيد إدريس كان دائماً يجعلهم يشعرون بالترحاب الشديد حتى يغادروا وهم في مزاج طيب.

لم يكن كامل إدريس أبداً مهتماً بتسلم أي شيء إضافي له علاقة بواجبه المنوط به، لا امتيازات محددة مقابل العطاء، لأنه كان رئيس المنظمة. في بداية عهده، كان قد قاوم حتى فكرة تعيين سائق خاص لسيارته. وحينما أصبح الأمر جلياً بأنها مسألة عملياتية تقبل المسألة كضرورة، ولكنني أعلم جيداً أنه كان يجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق بدلاً من الجلوس في المقعد الخلفي. وفي ذلك الوقت كانت لوائح المنظمة الدولية للملكية الفكرية تسمح لمديرها بالطيران على الدرجة الأولى، بينما تقرر لبقية الموظفين السفر على درجة رجال الأعمال. وعلى أية حال فقد كان السيد إدريس يفضل السفر مع زملائه في درجة رجال الأعمال - وكان ذلك من شأنه ليس مجرد توفير المال على المنظمة بل أيضاً ليؤكد لزملائه مدى تقديره لهم أكثر من حصوله على راحته الشخصية. كل هذا لم يكن يعني إهماله لدرجته الوظيفية، بل بالتأكيد فقد عمل على صونها بجدارة. وبكل البساطة يمكن القول إنه لم «يكن فيها لنفسه» أو من أجل أية فوائد كان متاحاً له أن يجنيها. وكمثال ذلك، من أول الأشياء التي فعلها عقب تعيينه مديراً عاماً هي تنازله عن الراتب الثاني الذي كان يدفع تقليدياً لمنصب الأمين العام للإتحاد الدولي لحماية الأنواع المتعددة من النباتات (وهو منصب تقع مسؤوليته تلقائياً على عاتق المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية بالضرورة). قرر أن يحال راتبه الثاني لمساعدة الدول النامية - وهي ميزة أخرى ضمن قائمة طويلة لصفات تنتزع الإعجاب.

عبر السنوات، تعلمت الكثير من كامل إدريس - الكثير عن أن تكون صادقاً مع قيم ومعتقدات شخص ما، وعلى نفسه، في مواجهة ضغوط من شأنها أن تقودك إلى عمل مخالف. كان يتبنى صفتي العدالة والرحمة كأشياء من الأهمية بمكان، ومن دون اعتبار لتصرفات الآخرين وآرائهم، كان دائماً يقول يجب علينا «أن نسمو أكثر علواً» من الحادثات - بمعنى ألا نلجأ للثأر من جهة، أو نجتنب السلوك الطيب من الجهة الأخرى. هذه مثاليات أنا أيضاً أتبناها، ولكنها تجسدت بكلياتها لدى السيد إدريس الذي سأظل دوماً أذكره كمثال. ربما كانت هذه الذكريات لا تبدو

بهية الملامح، ورغم ذلك، حينما تسقط بعيداً كل الأقنعة التي تحيط بالموقف، فتلك هي الأشياء التي أذكرها أكثر.

• صاحب السعادة السفير (دكتور) / ألفريدو مايوليسي، السكرتير العام للمنظمة العالمية للدول، البرلمان الدولي للسلام والسلامة (إيطاليا)

نهر النيل الساحر يشكل خلفية زاهية الألوان لقصة كامل إدريس الملهمة من عمالة الأطفال، واختطافه ومخاطرته بحياته على أسطح القطارات بحثاً عن عمل، إلى أن وصل به المطاف إلى وظيفة قيادية دولية عليا مع الأمم المتحدة.

تعد المذكرات أيضاً بمثابة حجر كريم زاهي الألوان لسودان قلما يرى، لعائلة ممتلئة تحناناً ومودة عصفت بها العديد من المآسي المفجعة، إلى شخصيات غريبة الأطوار، والأسواق القديمة، وأسواق الجمال وتراث تاريخي عظيم ذلك الذي تم اكتشافه للتو. في وقت ما تحت الحبس المنزلي، يبرز كامل من خلال هذه الحكاية المدهشة بطلاً مكافحاً للتسامح والتجاوز وحقوق الإنسان.

وجدتها غنية بالمكافأة، وجديرة بقراءتها، وبلا تردد أوصي مثنياً عليها.

• الدكتور ميراندا براون، محام دولي ومدافع عن حقوق الإنسان (المملكة المتحدة/أستراليا)

كامل إدريس سياسي حكيم نال احترام المنصة الدولية، بجانب ما ناله من احترام في بلاده، السودان. هذا الكتاب سرد يأخذ بالألباب عن سيرة حياته متابعاً لرحلته منذ عهد الصبا الباكر في السودان، حيث امتهن عمالة الأطفال لمساعدة أسرته، وخلال سنوات عقده الثاني محاطاً بأقارب غريبة تصرفاتهم في الخرطوم، وانتقالاً إلى مرحلة النضج ثم الصعود إلى التقدير الدولي، كقائد على نطاق العالم في الأمم المتحدة وعلى مستوى السلطة في السودان. حبه لوطنه الأم ذو بريق لا يخفى على أحد، ومع ذلك لا يجد حرجاً من وصف المآسي التي ارتكبت في الحرب الأهلية في دارفور. التزامه بحقوق الإنسان وبسط السلام الدائم في السودان يشكلان مصدر إلهام.

• الدكتور مارينو بورزيو (محام في القانون، وشريك ممول لشركة الحمامة بورزيو، ريوس، غارسيا

في سانتياغو، شيلي. كان سابقاً نائب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية بين 1979 و1987. ورئيس الجمعية العمومية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية 1999 - 2001) (شيلي)

كان لي الشرف أن كنت مشاركاً في تعيين كامل إدريس للعمل في المنظمة الدولية للملكية الفكرية في جنيف، في عام 1982، وكان تعيينه أساساً من أجل العمل مع واحدة من وحدات إدارة التعاون التنموي التي كانت تحت إشرافي بحكم منصبه نائباً للمدير العام للمنظمة الدولية

كنت معجباً بكامل إدريس، مراقباً إياه وهو يشارك في اجتماعات دولية متعددة كدبلوماسي شاب ملحق مع بعثة السودان الدائمة في جنيف. قدراته الدبلوماسية الكبيرة مقرونة بمعرفة ممتازة لغالبية الموضوعات المهمة المطروحة للنقاش على مختلف منظمات الأمم المتحدة في جنيف، جعلت مساهماته مثاراً للملاحظة والأهمية، وتحديداً من أجل الدول النامية التي كان كامل يعنى بمصالحها وعلى استعداد لتمثيلها. وبذلك المستوى فقد أصبح أحد الأصول المهمة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية وبشكل محدد تجاه الدول الأفريقية والعربية الأعضاء.

أمكن لكامل إدريس أن يحصل على فترة عمل ناجحة مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية حين تم انتخابه في نهاية المطاف، في عام 1997، مديراً عاماً للمنظمة، ثم أعيد انتخابه لفترة ثانية في عام 2003. وبهذا أصبح الدكتور إدريس ثالث المديرين العامين للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، يسوده الشعور بالرضا والقناعة بكونه أول مدير عام للمنظمة قادماً من دولة نامية، وهي مسألة بالنظر إلى طبيعة الفكرة التخصصية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية وتعقيداتها، كانت بكل تأكيد إنجازاً سياسياً مرموقاً.

غادرت المنظمة الدولية للملكية الفكرية في عام 1987 عائداً إلى موطني شيلي، حيث واصلت ممارسة عملي القانوني الخاص، ولكن خلال السنوات اللاحقة، ما زالت الفرصة قد أتيت لي لزيارة جنيف كمندوب لشيلي، مما منحني إمكانية متابعة السنوات الأولى لكامل كمدير عام. وكنت بذلك قادراً على التضامن معه في بعض أنشطته، وبشكل أساس كعضو في اللجنة الاستشارية للسياسات، وهي جسم كان قد أسسه كامل ليستقبل النص من عديد الاختصاصيين من الدول المختلفة، وبالنسبة لي كان ذلك بحكم وظيفتي السابقة رئيساً للجمعية العمومية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، للفترة 1999 - 2001.

أشعر بالسعادة أن قرر كامل إصدار هذا الكتاب الذي يحتوي على أفكاره ورؤاه الخاصة عن الفترة الأكثر أهمية له كرئيس للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، مكماً بالعديد من حقائق سيرته الذاتية ذات الصلة بعمله المهني المهم، فضلاً عن حقائق أخرى أكثر عن حياته الخاصة.

• البروفيسور مكرم خوري - مكحول، مدير المركز الأوروبي لدراسة التطرف، كمبردج، إنجلترا (فلسطين/ المملكة المتحدة)

كتاب كامل إدريس يُعدُّ مثلاً وثائقياً حول كيفية أن غائز البقاء الكامنة لدى أحد الأطفال، والتي قدر لها مع مرور الزمن النيل تعزيراً متصلاً لاشعورياً، قد وصلت بصاحبها إلى أرقى قمم التطور البشري، والقدرة العقلية والمهنية الخلاقة.

رحلة كامل هي تجسيد للعلاقة التكافلية الواضحة بين سياق محلي واجتماعي بسيط (يمثل نقطة انطلاق غير مستقرة من خلال حقل إقليمي ضبابي أكبر حجماً) وهو الذي يتحول فجأة

منسجماً مع التركيبات العالمية الأكثر رقياً على وجه الأرض. هذه الأوديسا تعكس قوة التحمل، وصفات الرحمة والتسامح التي تتسم بها حياة كامل.

#### • صاحب السعادة السيد هنري - فيليب سامبوك، محام تجاري دولي (سويسرا)

طيلة العديد من النقاشات المهنية مع الدكتور كامل إدريس الذي كان وقتها المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، في مكتبه الرحب الأنيق الذي يطل على بحيرة جنيف الهادئة، لم أكن أعرف شيئاً عن قصة حياته الباكورة التي اتسمت بالعمل الشاق والتصميم والشجاعة المستمرة. بالنسبة لي فقد كان مفكراً ممتازاً، ذا مهارات دبلوماسية رفيعة، وملمّاً بمعرفة أكثر كثافة عن الثقافات المتعددة. تلك النظرة الباكورة قد اكتملت الآن بصورة عن طفل، ابن للعلاقات نهر النيل، وبشكل مجازي فهو يحفر مستخدماً غزافته في التربة الجافة في حرارة سودان صامت ليكتشف ويقتني من معرفة وطنه الحبيب أكثر ما أمكنه ذلك.

كتاب الدكتور إدريس يعد درساً في التواضع لأولئك الذين تناسوا كم هو ضيق طريق الحياة وقوي مكين الخيال البشري، وهو تقدير لأولئك الذين يتبعون رؤيتهم الشخصية.

#### • صاحب السعادة الدكتور محمد البرادعي، المدير العام السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية، وحاصل على جائزة نوبل (مصر)

مذكرت ملهمة لرحلة حياة اكتنزت غنى بمختلف الثقافات والقيم. تجربته جعلته عرضة لتعقيدات السياسات الدولية والإقليمية. كان مصدراً لتطبيب خواطر البسطاء من الناس ولمن هم في الأماكن العليا على السواء. إنها شهادة موثقة تحكي عن رباط الإنسانية المتين الذي يتحدى الخطوط الخرقاء للون والدين والعرق، وهي مرشد مستحق لأولئك الذين يسعون لمتابعة عالم أساسه السلام والكرامة البشرية.

#### • صاحب السعادة السفير برونسون ماكينيلي، المدير العام السابق للمنظمة الدولية للهجرة (الولايات المتحدة)

من ضفاف نهر النيل إلى سواحل بحيرة جنيف، كامل إدريس أنجز ملحمة رائعة مدوناً خبراته كافة في هذه المذكرات المدهشة التي تستوجب القراءة بقوة، لقد اكتنزت افكاراً ورؤى في الطبيعة البشرية والسياسة الدولية. أوصي بها لجميع القراء على اختلاف مشاربهم، خاصة أولئك المهتمون بحقيقة كيف يسير هذا العالم الذي تسوده العولمة وكيف يلعب دوراً أفضل في المستقبل.

• صاحب السعادة الدكتور عمرو موسى، وزير الخارجية والأمن العام السابق لجامعة الدول العربية سابقاً (مصر)

إنها قصة نجاح، وقصة رائعة حقاً. لقد سحنت لدي أكثر من مرة لأستمع أو أقرأ حول العديد من قصص النجاحات في مجموعتنا من الدول في إفريقيا أو العالم العربي. ولكن كامل إدريس شخص متفرد. بدءاً بعمالة الأطفال وانتهاء بالجلوس على قمة واحدة من أكثر المنظمات التخصصية أهمية في النظام العالمي متعدد الثقافات والجوانب... من البقاء على سطح القطار العابر للصحراء السودانية في طريقه إلى القاهرة بحثاً عن عمل ثم متابعة لفرص يستقي منها العلم والمعرفة انتهاءً إلى التطلع نحو خوض غمار انتخابات الرئاسة في السودان... من صبي كاد أن يتيه ضمن حياة العمال الفقراء في بلد فقير، إلى شاب متمرد صمم على «أن يفعلها»... إلى سيد محترم بارع تلقى تعليماً راقياً.

حينما يناقش كامل تشكيلة نظراته العامة للحياة، يشير دائماً وبقوة إلى الأثر الذي بثه نهر النيل في نفسه. ويا له من تأثير، لقد قدر لي شخصياً أن أعيش في خضم هذا التأثير، صبر متأصل غرساً، عزيمة ومثابرة، فضلاً عن روح العمل الريادي.

خلال اطلعنا على الكتاب نقرأ، ليس فقط عن كامل، بل عن السودان، ذلك البلد الشاسع الجميل غير أنه لم يجد ما يناسبه من الاهتمام بعد. يتحدث عن إفريقيا وشبابها الذين يتطلب منهم أن يجدوا في ما فعله كامل مثلاً طيباً ليحذوا حذوه وعليه أن يتعلموا أن الإنجاز في الحياة وتحقيق النجاح الكامل، مع كونه ليس سهلاً، إلا أنه ممكن الأداء. لعلني أدعو المدارس في إفريقيا والعالم العربي لاتخاذ هذا الكتاب متاحاً للأجيال الشابة للاستفادة منه. وبالتأكيد سوف أبقى مساهماً في تشكيلهم الإيجابي.

أنا أحد الذين يعرفون الإمكانيات الحقيقية لكامل إدريس كإبن حقيقي لإفريقيا وكمثال للنشاط الدائم والفعالية والتطلع نحو الكمال.

المهنية كانت واضحة للغاية في أسلوب عمله. حينما يشير إلى أولئك القادة العالميين الذين أجرى معهم «نقاشات متعمقة» نجد بيل كلنتون وصادق حسين. كما نجد أيضاً إمبراطور اليابان وروبرت موغابي، تشكيلة متنوعة من البشر، من حيث الأيديولوجيات وأنظمة الحكم.

كان نيلسون مانديلا محقاً حينما حث كامل على كتابة سيرته الذاتية، ومن جانبي أجد سعادة في أن أكتب مثيلاً على هذه المذكرات المثيرة.

• صاحب السعادة السفير الدكتور مارتن إيهوغيان يهوميهي، المندوب الخاص المشارك/ الرئيس الوسيط المشارك للأمم المتحدة - الأمين العام ورئيس الاتحاد الإفريقي، العملية الهجين بين الاتحاد الإفريقي - الأمم المتحدة في دارفور، السودان (نيجيريا)



الأوديسا على النيل قصة مؤثرة لإفريقي ملؤه التحدي الذي ظل يتعلق متشبهًا بتلابيب الأمل بأن السلام العالمي ممكن تحقيقه حتى في مواجهة الضغوط الدولية الرهيبة، والتناقضات في دهاليز السياسة، والاختلافات في الثقافات، والفوارق في الأديان. هذا الكتاب الذي أعد بدقة وجدارة ينفث حياة جديدة في تاريخ مقبول وإضافة مرحب بها ضمن ذخيرة مختارة من فلسفة العالم. الأوديسا على النيل عمل يتحتم قراءته من أجل أولئك الذين يؤمنون والذين تساورهم الشكوك على السواء بأن، الشمال والجنوب والشرق أو الغرب، كل العالم كتلة واحدة.

• القاضي ميشيل ويل، قاض فرنسي سابق ودبلوماسي سابق (فرنسا)

هذه القصة المؤثرة والاستثنائية لطفل من إفريقيا، تعززه جذوره، وهو الذي قدر له أن يجوب أرجاء العالم، يلتقي زعماء الدول ليصبح رجلاً منفتح الذهن ديدنه السلام والإخاء بين الأمم، ليظل مصيره مدفوعاً بالمعنى الذي يحمله إسمه: «صبور وقادر على احتلال الوظائف العليا...».

## الملحق الثالث

### السيرة الذاتية

بروفيسور دكتور (متعدد) كامل الطيب إدريس - سيرة ذاتية

• رئيس

المحكمة الدولية للتحكيم والوساطة

• المدير العام السابق

المنظمة الدولية للملكية الفكرية

• الأمين العام السابق

الإتحاد العالمي لحماية الأنواع الجديدة من النباتات

• عضو سابق

لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي

• رئيس سابق

المحكمة الدولية للتحكيم والوساطة

• عضو

المحكمة الدائمة للتحكيم، لاهاي

• أستاذ في القانون

## التميز الأكاديمي

- الشهادة المدرسية السودانية (امتياز)
- بكالوريوس الآداب، جامعة القاهرة (القسم الأول مع مرتبة الشرف)
- ليسانس الحقوق (القانون)، جامعة الخرطوم (مرتبة الشرف)
- دبلوم، الإدارة العامة (شعبة الإدارة)، معهد الإدارة العامة، الخرطوم (القسم الأعلى)
- ماجستير في الشؤون الدولية، جامعة أوهايو، الولايات المتحدة (متوسط الدرجة الأولى)
- درجة الدكتوراه في القانون الدولي، خريج معهد الدراسات الدولية، جامعة جنيف (امتياز)
- رسالة الدكتوراه: «دراسة حالة حول معاهدة تأسيس منطقة تجارة تفضيلية لدول شرق وجنوب إفريقيا»

## الاهتمامات الأكاديمية

### • شهادات

- الاقتصادات الدولية، خريج معهد الدراسات الدولية (جنيف)
- التاريخ الدولي والعلوم السياسية، خريج معهد الدراسات الدولية (جنيف)
- القانون الدولي للتنمية، خريج معهد الدراسات الدولية (جنيف)
- قانون الممرات المائية الدولية، خريج معهد الدراسات الدولية (جنيف)
- القانون الدولي للتمويل والأنظمة البنكية، خريج معهد الدراسات الدولية (جنيف)

## اللغات

- العربية
- الإنجليزية
- الفرنسية
- الإسبانية (إلمام جيد بها)

## التدريس

- محاضر في الفلسفة وفلسفة التشريع، جامعة القاهرة (1976 - 1977)
- محاضر في فلسفة التشريع، جامعة أوهايو، الولايات المتحدة (1978)

- ممتحن خارجي في القانون الدولي، كلية القانون، جامعة الخرطوم (1984)
- محاضر في قانون الملكية الفكرية، كلية القانون، جامعة الخرطوم (1986)
- محاضر في العديد من المؤتمرات وورش العمل والندوات العالمية والإقليمية
- عضو، الاتحاد الدولي لترقية التدريس والبحث في قانون الملكية الفكرية

### أوسمة وجوائز

- مُنح ميدالية الدولة الذهبية للعلماء والباحثين، قُدمت من رئيس جمهورية السودان (1983)
- منح الميدالية الذهبية للعلماء والباحثين، قُدمت من رئيس أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر (1985)
- منح وسام الأسد القائد الوطني، من السنغال (1985)
- منح ميدالية مسرح البولشوي، قدمت من مدير مسرح البولشوي، روسيا الاتحادية (1999)
- منح الميدالية الشرفية، قدمت من رئيس معهد الدولة للعلاقات الدولية في موسكو، روسيا الاتحادية (1999)
- منح الميدالية الشرفية لدول مجلس التعاون الخليجي، المملكة العربية السعودية (1999)
- منح اللوحة الذهبية لمدينة بانسكا بيستريكا، قدمت من عمدة بانسكا بيستريكا، سلوفاكيا (1999)
- منح الميدالية الذهبية لجامعة ماتيج بيل، قدمت من رئيس جامعة بانسكا بيستريكا، سلوفاكيا (1999)
- منح ميدالية اليوبيل الفضي لمنظمة براءة الاختراع الأوروبية، قدمت من السيد فيكتور بيلينيكوف، رئيس مكتب براءة الاختراع الأوروبية، روسيا الاتحادية (2000)
- منح جائزة الجدارة المتميزة، قدمت من المجلس الأعلى المصري للعلوم والتكنولوجيا، مصر (2000)
- منح لوحة تذكارية من اتحاد المخترعين السوري، جمهورية سوريا العربية (2000)
- منح الصليب الكبير لإنفانتي دي إنريك، البرتغال (2001)
- منح ميدالية من مجلس الشعب المصري، مصر (2001)
- منح ميدالية من المحكمة الدستورية في رومانيا (2001)

- منح ميدالية من البرلمان الروماني، رومانيا (2001)
- منح ميدالية دولوريس ديل ريو الذهبية للاستحقاق الدولي لصالح حقوق المترجمين الفوريين من الاتحاد الوطني للمترجمين، المكسيك (2001)
- منح الميدالية الذهبية من وكالة الدولة لحماية الممتلكات الصناعية، جمهورية مولدوفا (2001)
- منح وسام القائد دي لوردي دو ميريت الوطني، ساحل العاج (2002)
- منح ميدالية ماريا سكلودوسكا - كوري من اتحاد المخترعين والعقلانيين، بولندا (2002)
- منح وسام النيلين من الدرجة الأولى، من رئيس جمهورية السودان، السودان (2002)
- مكتبة كامل إدريس، جامعة جوبا، السودان (2002)
- قاعة مؤتمرات كامل إدريس، محكمة الملكية الفكرية، الجهاز القضائي، السودان (2002)
- منح ميدالية دانك (ميدالية المجد)، من رئيس جمهورية غيرغيستان، غيرغيستان (2003)
- منح جائزة من جامعة الاقتصاد الوطني والعالمي، بلغاريا (2003)
- منح «جائزة فينيسيا للملكية الفكرية»، قدمت من عمدة فينيسيا (2004)
- منح ميدالية عُمان، قدمت من صاحب السمو الملكي فهد بن أحمد السعيد، نائب رئيس الوزراء لمجلس الوزراء، عمان (2004)
- منح وسام نسر الآزتيك، قدم من السفير لويس الفونسو دي ألبا (الممثل الدائم للمكسيك للمنظمات الدولية في جنيف) إنابة عن رئيس المكسيك فيسنت فوكس (2005)
- مبنى كامل إدريس، مركز تدريب إقليمي، منظمة الملكية الفكرية الإقليمية الإفريقية، هاراري، زيمبابوي (2006)
- منح ميدالية لإحياء الذكرى الستين للأمم المتحدة، بلغاريا (2006)
- منح ميدالية لإحياء الذكرى الستين لاستقلال الأردن، الأردن (2006)
- جائزة القيادة المتميزة، قدمت من اتحاد الناشرين العالمي واتحاد الناشرين العرب، مصر (2007)
- منح ميدالية بمناسبة احتفال الفجيرة العالمي للمونودراما، الفجيرة، دولة الإمارات العربية المتحدة (2007)
- منح ميدالية بمناسبة يوم الملكية الفكرية، من المعهد الإقليمي للملكية الفكرية التابع لكلية الحقوق بجامعة حلوان، مصر (2008)
- منح الميدالية المتميزة للإبداع الثقافي، السودان (2008)
- منح وسام نادي الأسرة، السودان (2008)



- منح ميدالية منظمة الملكية الفكرية العالمية، جنيف، سويسرا (2008)
- منح الميدالية المتميزة للمركز السوداني للملكية الفكرية، الخرطوم، السودان (2009)
- منح ميدالية شركة سكر كنانة، الخرطوم، السودان (2009)
- منح وسام الوفاء والتقدير من محطة امدردان للإذاعة القومية، السودان (2010)
- منح (وشاح) الثورة السورية (2013)
- منح (وشاح) مركز راشد دياب الثقافي، الخرطوم، السودان (2013)
- منح ميدالية التميز من الإتحاد العالمي للمحامين المسلمين (2014)

### درجات فخرية

- 1999 أستاذ فخري في القانون، جامعة بكين، الصين
- 1999 دكتوراه فخرية، مجلس الدكاترة لجامعة دولة مولدوفا، جمهورية مولدوفا
- 1999 دكتوراه فخرية، مركز فرانكلين بيرس للقانون (كونكورد، نيوهامبشير)، الولايات المتحدة الأمريكية
- 1999 دكتوراه فخرية، جامعة فودان (شنغهاي)، الصين
- 2000 دكتوراه فخرية، جامعة الاقتصاد الوطني والعالمي (صوفيا)، بلغاريا
- 2001 دكتوراه فخرية، جامعة بوخارست، رومانيا
- 2001 دكتوراه فخرية، جامعة هانام (ديجيون)، جمهورية كوريا
- 2001 دكتوراه فخرية، جامعة منغوليا للعلوم والتكنولوجيا (يولانباتار)، منغوليا
- 2001 دكتوراه فخرية، جامعة ماتيج بيل (بانسكا بيستريكا)، سلوفاكيا
- 2002 دكتوراه فخرية، جامعة أوكرانيا الوطنية للتقنية «معهد كييف للعلوم التطبيقية» (كييف)، أوكرانيا
- 2003 دكتوراه فخرية، جامعة الإمام المهدي (ولاية النيل الأبيض)، السودان
- 2005 درجة الدكتوراه في الآداب (دكتوراه فخرية)، جامعة أنديرا غاندي الوطنية المفتوحة، الهند
- 2005 دكتوراه فخرية، أكاديمية لاتفيا للعلوم، لاتفيا
- 2006 دكتوراه فخرية، جامعة آذربيجان، آذربيجان
- 2007 دكتوراه فخرية، جامعة الجزيرة، السودان
- 2007 دكتوراه في القانون الدولي وأستاذ فخري، جامعة دولة بيلاروسيا، بيلاروسيا

- 2007 دكتوراه فخرية، جامعة الخرطوم، السودان
- 2007 دكتوراه فخرية، الجامعة السيريلية والميثودية (سكوبجي)، جمهورية ماسيدونيا من يوغسلافيا السابقة
- 2008 دكتوراه فخرية، جامعة دولة قيرغيز للإنشاءات والنقل والمعمار (بيشكيك)، قيرغيزستان
- 2008 شهادة تقدير، الجامعة الأهلية، الخرطوم، السودان

## الخبرة

### • مهنيًا

- صحفي غير متفرغ، مع صحيفتي «الأيام» و«الصحافة» السودانييتين (1971 - 1979)
- محاضر، جامعة القاهرة (1976)
- مساعد مدير، الإدارة العربية، وزارة الخارجية، الخرطوم (1977)
- مساعد مدير، إدارة البحوث، وزارة الخارجية، الخرطوم (يناير - يونيو 1978)
- نائب المدير، الإدارة القانونية، وزارة الخارجية، الخرطوم (يوليو - ديسمبر 1978)
- عضو بعثة السودان الدائمة لمكتب الأمم المتحدة، جنيف (1979 - 1982)
- نائب القنصل السوداني في سويسرا (1979 - 1982)
- المستشار القانوني لبعثة السودان الدائمة لمكتب الأمم المتحدة في جنيف (1979 - 1982)
- مسؤول قيادي للبرمجة، مكتب التعاون التنموي والعلاقات الخارجية لإفريقيا، المنظمة الدولية للملكية الفكرية (1982 - 1985)
- مدير، مكتب التعاون التنموي والعلاقات الخارجية للدول العربية ووسط وشرق أوروبا، المنظمة الدولية للملكية الفكرية (1985 - 1994)
- سفير، بوزارة الخارجية، السودان (الوضع الحالي على المستوى القومي)
- نائب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية (1994 - 1997)
- المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، منذ 1997
- الأمين العام للاتحاد العالمي لحماية أصناف النباتات، منذ 1997

### • خاص

- عضو، المجلس الأكاديمي، جامعة الخرطوم (السودان، أبريل 2007)
- عضو، مجلس الأمناء، جامعة وادي النيل (مصر، يونيو 2000)
- عضو، لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي (2000 - 2001)
- عضو، المجلس الاستشاري للملكية الفكرية، مركز فرانكلين بيرس للقانون (كونكورد، نيوهامبشير، 1999)
- عضو، لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي (1992 - 1996)
- نائب الرئيس، لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي، في جلسة انعقادها الخامسة والأربعين (1993)
- ممثل لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي، لدى اللجنة الآسيوية - الإفريقية الاستشارية القانونية في جلسة انعقادها الخامسة والثلاثين، مانيتا (مارس 1996)
- عضو، المجموعة العاملة للجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي لصوغ النظام الأساسي لمحكمة الجنايات الدولية
- عضو، لجنة الصياغة التابعة للجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي
- خبير قانوني في عدد من اللجان الوزارية بين السودان ودول أخرى
- عضو لجنة الخبراء القانونيين لمنظمة الاتحاد الإفريقي، التي أعدت العديد من المعاهدات الإقليمية
- مستشار قانوني في المجالس الوزارية ومؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الإفريقية (الخرطوم يوليو 1978) (مونروفيا يوليو 1979)
- مشارك في العديد من الاجتماعات والمؤتمرات الدولية التابعة لمنظمة الصحة العالمية، ومنظمة العمل الدولية، والاتحاد الدولي للاتصالات، والمنظمة الدولية للملكية الفكرية، والصليب الأحمر، واللجنة التنفيذية للمندوب السامي للاجئين
- عضو اللجان الخاصة التي تأسست لجمع الأموال لإعانة اللاجئين في إفريقيا
- مقرر اللجنة الثالثة (البحث العلمي البحري) التابعة لملخص الجلسة التاسعة لمؤتمر الأمم المتحدة لقانون البحار (جنيف، 1980)
- رئيس وفد السودان للمؤتمر التمهيدي لمنظمة الوحدة الإفريقية لصوغ القواعد السلوكية الخاصة بنقل التكنولوجيا (أديس أبابا، مارس 1981)
- المتحدث الرسمي باسم المجموعة الإفريقية ومجموعة الـ 77 في كل الموضوعات المتعلقة بنقل التكنولوجيا والطاقة والممارسات التجارية المحظورة والتعاون التقني في أوساط الدول النامية في الجلستين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين في مجلس

- التجارة والتعاون (جنيف، فبراير وسبتمبر 1981)
- رئيس وفد السودان والمتحدث الرسمي بإسم المجموعة الإفريقية ومنسق المجموعة ال 77 في الجلسة الرابعة لمؤتمر الأمم المتحدة للقواعد السلوكية المتعلقة بنقل التكنولوجيا (جنيف، مارس - أبريل 1981)
- المتحدث الرسمي بإسم مجموعة ال 77 بمقتضى الفصل التاسع (القانون الملزم التطبيق وتسوية النزاعات) في مؤتمر الأمم المتحدة حول قواعد السلوك العالمية في نقل التكنولوجيا (جنيف، مارس - أبريل 1981)
- رئيس وفد السودان ورئيس ورشة العمل الخاصة بالسياسات القانونية إزاء نقل التكنولوجيا (الكويت، سبتمبر 1981)
- رئيس المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في الجلسة الأولى للمجموعة الدولية للحكومات للخبراء عن الممارسات التجارية المحظورة ( جنيف، نوفمبر 1981)
- رئيس مجموعة ال 15 الدائمة حول نقل التكنولوجيا وتطويرها، المنبثقة عن مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (جنيف، 1980 - 1983)
- المتحدث الرسمي بإسم المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في الاجتماع الخاص بالشؤون الاقتصادية والتجارية والتنمية لنظام الملكية الصناعية (جنيف، فبراير 1982)
- منسق المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في الجلسات الأولى والثانية والثالثة للجنة التمهيدية لتطبيق قواعد السلوك العالمية في نقل التكنولوجيا (جنيف، مارس، مايو، سبتمبر - أكتوبر 1982)
- منسق المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في اجتماع خبراء الحكومات عن نقل وتطبيق وتنمية التكنولوجيا في البضائع الأساسية وقطاعات الآليات الصناعية (جنيف، يوليو 1982)
- المنسق والمتحدث الرسمي بإسم المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في مجموعة الحكومات الدولية للخبراء عن جدوى قياس سريان المورد البشري على نقل التكنولوجيا عكسياً (هجرة الأدمغة) (جنيف، أغسطس - سبتمبر 1982)
- منسق الدول النامية في صوغ القرار الخاص بتفويض مكتب المندوب السامي للاجئين، خلال الجلسة الثالثة والثلاثين للجنة التنفيذية
- لمكتب المندوب السامي للاجئين (جنيف، أكتوبر 1982)
- المنسق والمتحدث الرسمي بإسم المجموعة الإفريقية ومجموعة ال 77 في اجتماع خبراء الحكومات عن نقل وتطبيق وتنمية التكنولوجيا في قطاع الطاقة (جنيف، أكتوبر - نوفمبر 1982)

- المنسق والمتحدث الرسمي بإسم المجموعة الإفريقية ومجموعة الـ 77 في الدورة الرابعة للجنة نقل التكنولوجيا (جنيف، نوفمبر - ديسمبر 1982)
- عضو، مجلس الرعاة، مصدر إدارة الملكية الفكرية (نسخة على الإنترنت للملكية الفكرية/كتيب إدارة الاختراع)، 2007
- مساعد الرئيس، لجنة العلاقات الخارجية، وزارة الثقافة (السودان 2011)
- رئيس، مؤسسة السودان للدفاع عن الشعب السوري (2012 - 2013)
- نائب رئيس، مؤسسة السودان للدفاع عن الحقوق والحريات (2012 - 2013)
- عضو، مؤسسة السودان للمصالحة والتعايش الديني (2012 - 2013)
- خبرة قضائية وعضوية مهنية لاتحادات
- عضو في لجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة (1992 - 1996) و(2000 - 2001)
- عضو ورئيس للعديد من لجان الخبراء القانونيين التي تم إنشاؤها من منظمة الاتحاد الإفريقي
- أستاذ القانون الدولي العام، جامعة الخرطوم، السودان
- عضو اتحاد القانونيين السودانيين (الخرطوم)
- عضو اتحاد فقهاء القانون الأفارقة (داكار وباريس)
- رئيس مناوب، مجلس العلاقات الخارجية، وزارة الثقافة، السودان
- محام وموثق عقود مسجل في جمهورية السودان
- نائب الرئيس، منظمة السودان لحماية الحقوق الأساسية والحريات
- عضو، لجنة السودان العليا للإصلاح القضائي

#### مشروعات ومستندات

- قمت بتشكيل ومناقشة، إنابة عن المنظمة الدولية للملكية الفكرية، مشروعات متعددة ذات صلة بالتعاون التنموي في مجال الملكية الفكرية
- نظمت، إنابة عن المنظمة الدولية للملكية الفكرية، سماعات متنوعة وورش عمل فضلاً عن إلقاء العديد من المحاضرات
- أعددت صوغ مستندات مختلفة عن الجوانب التنموية للملكية الفكرية
- أشرفت على مراقبة وإدارة الجوانب الإدارية والمادية لمشروعات تم تنفيذها على نطاق العالم



## مؤتمرات وسمينارات ودورات دراسية وندوات

- مثلت السودان في العديد من المؤتمرات العالمية والإقليمية، مشاركاً في سمنارات عدة وندوات ومجموعات نقاش وحاضرت طلاباً خريجين حول مختلف التخصصات الأكاديمية العالمية
- مثلت المنظمة الدولية للملكية الفكرية في اجتماعات وسمنارات وندوات عالمية مختلفة
- مثلت المنظمة الدولية للملكية الفكرية في برامج السياسة والعمليات التابعة لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية
- أنجزت جولة دراسية في معهد ماكس بلانك (ميونيخ) في مجال تدريس قانون الملكية الفكرية (1986)

## منشورات

- الحوار الأوروبي - العربي، يونيو 1977
- مسؤولية الدولة في القانون الدولي، سبتمبر 1977
- نظرية العمل الإنساني، سبتمبر 1977
- فلسفة «الحديث» و«السنة» في الشريعة الإسلامية، يناير 1978
- عقيدة الاختصاص القضائي في القانون الدولي، ديسمبر 1978
- حادثة السفارة الأميركية في طهران، مارس 1979
- النظام القانوني لنهر النيل، ديسمبر 1980
- موضوعات متعلقة بنقل وتطوير التكنولوجيا في السودان، مايو 1981
- الصين والقوى في القرن التاسع عشر، مايو 1981
- الأبعاد القانونية للتعاون الاقتصادي في محيط الدول النامية، يونيو 1981
- الصندوق المشترك للسلع، يونيو 1981
- الجوانب العامة لنقل التكنولوجيا على المستويين الإقليمي والعالمي، نوفمبر 1981
- اتفاقيات التجارة التفاضلية بين الدول النامية، فبراير 1982
- علاقات التأمين بين الشمال والجنوب: التبادل غير المتساوي، ديسمبر 1984
- قانون الاستخدامات غير الملاحية في المسارات المائية الدولية، مواد مسودة لجنة القانون الدولي: نظرة عامة، نوفمبر 1995

- نظرية الأصل والهدف في سايكولوجية الطفل، يناير 1996
- نحو أمم متحدة أفضل نحو الألفية الجديدة، يناير 2000
- الملكية الفكرية - أداة فاعلة من أجل النمو الاقتصادي، 2003
- السودان، العام 2020: دروس ورؤى، 2004
- الملكية الفكرية - الأمم المتبقطة: رسم خريطة الطريق من النامية إلى المتطورة، 2006
- السودان 2020، (2008)
- السودان: من الأقل نمواً نحو الأسرع تنمية، 2008
- تحكيم: نظرة من أجل تنفيذ العدالة، 2009
- تحكيم: وجهة نظر حادة للتشريع السوداني حول فض المنازعات، 2009
- السودان 2025: تصحيح المسار وحلم المستقبل، 2015
- سبعة قتلى على النيل، 2015
- طريق السودان نحو المستقبل: حلم واقعي من أجل 2025، 2016
- قانون تحقيق العدالة في مواجهة داعمي الإرهاب (2017)، (JASTA)
- أوديسا على النيل، 2017

#### مقالات

- عدد من المقالات حول القانون والشؤون الاقتصادية والفقہ القانوني والجماليات، نشرت في العديد من الصحف والدوريات
- الغزو الروسي لشبه جزيرة القرم: هل هو انتهاك للقانون الدولي؟ خطأ لن يشكلاً عملاً صحيحاً. مقالة نشرت بواسطة مركز لاهاي للقانون وفض المنازعات، أبريل 2014
- الإصلاح القضائي في السودان: مارس 2015

## الملحق الرابع

### سجل الإنجازات

#### المنظمة الدولية للملكية الفكرية

- برنامج استراتيجي وميزانية لكلا السنتين من 1998 - 1999 (مع الرؤية الشاملة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية) وما صاحبها من تأييد بالإجماع من الدول الأعضاء كافة.
- أجازت لجننا الميزانية والمبنى كل الاقتراحات والتوصيات التي قدمت من المكتب الدولي، وصادقت على التمويل من صندوق الاحتياط الخاص، وكذا التوافق على المزيد من المشتريات لمبان إضافية.
- تأسيس تشكيلة القيادة العليا، وتشكل الفريق الإداري القيادي، ومجموعة تطوير السياسات، واجتماعات تنفيذ السياسات (تم إيقافها)، ولجان الرقابة على السياسات. تأسيس اجتماعات المعلومات المهنية في صباح الثلاثاء من كل أسبوع.
- إعادة تنظيم وتحويل السكرتاريا التابعة للمكتب الدولي، وتشمل مفاهيم جديدة، مثلاً تطوير الموظفين، وأمور الجنس والنوع، ومكتب التخطيط الاستراتيجي وتطوير السياسات، ومكتب الاتصالات العالمية والدبلوماسية العامة، وعلاقات إعلامية متطورة، ومركز للزوار، وأكاديمية عالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية وتشمل التعليم عن بُعد، ووحدة للدول الأقل نمواً.. الخ.
- تحسين صورة الشراكة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، ويشمل ذلك تبديد الغموض الذي يكتنف العقول حول الملكية الفكرية، مع إنشاء شعار جديد للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.
- مراعاة ومتابعة يوم المنظمة الدولية للملكية الفكرية في 26 أبريل، وهو اليوم الذي

بدأت فيه اتفاقية المنظمة الدولية للملكية الفكرية حيز التنفيذ (اليوم السادس والعشرون من أبريل عام 2001).

- قسم إدارة الموارد البشرية وتطوير الموظفين.
- التوزيع الجغرافي للوظائف.
- تطور متقدم للقانون الدولي وتشفير القانون.
- المساعدة في مواجهة أية التزامات بمقتضى الاتفاقية ذات الجوانب التجارية المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية.
- خطط عملية ذات تركيز إقليمي.
- السكان الأصليون والمعرفة التقليدية، بما يشمل تكوين لجنة حكومية دولية تابعة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، والتي تعنى بنواحي الملكية الفكرية وصولاً إلى الموارد الجينية والمشاركة في الفائدة والمعرفة التقليدية والتعبير عن الأدب الشعبي.
- قرار من الجمعية العامة بتوسعة استعمال اللغة البرتغالية، وتحديدًا في التعاون من أجل الأنشطة التنموية للدول النامية والأقل نمواً المتحدثة باللغة البرتغالية.
- إعادة توجّهات المعاهدات الأساسية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية: معاهدة التعاون لبراءات الاختراع ومعاهدة مدريد.
- إجراء عملية إصلاحات أساسية لمعاهدة التعاون لبراءات الاختراع من خلال إنشاء جسم خاص للدول المنضوية تحت معاهدة التعاون لبراءات الاختراع لتقديم اقتراحات من شأنها أن تقود، منذ اللحظة الأولى، إلى المزيد من تبسيط إجراءات معاهدة التعاون لبراءات الاختراع، مع الوضع في الحسبان أحكام معاهدة قانون براءات الاختراع.
- علاقات مع المنظمات غير الحكومية.
- مركز المنظمة الدولية للملكية الفكرية للتحكيم والوساطة، والإسم النطاقي في الإنترنت وخدمات تسوية النزاعات.
- مشروعات الحوسبة: شبكة المنظمة الدولية للملكية الفكرية في الإنترنت، والمشروع التأثيري لمعاهدة التعاون لبراءات الاختراع.
- مجموعة قوانين من أجل الأرشفة الإلكتروني.
- تأسيس صفحة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية في شبكة الإنترنت باللغات الإنجليزية والعربية والفرنسية والإسبانية، وكذلك للمكتبة الإلكترونية للمنظمة.
- توفير أجهزة كمبيوتر شخصية ومحطات عمل للبعثات الدائمة للدول النامية في جنيف.
- تشكيل اللجنة الاستشارية السياسية واللجنة الاستشارية الصناعية.

- اعتماد اللجنة الاستشارية السياسية لإعلان الملكية الفكرية العالمي.
- تشكيل الهيئة الاستشارية للخصخصة.
- مبادرة الإصلاح الدستوري.
- مؤتمر دبلوماسي لاعتماد قانون جديد لاتفاق لاهاي بشأن الإيداع الدولي للرسوم والنماذج الصناعية (يونيو 16 إلى يوليو 6، 1999).
- مؤتمر عالمي حول التجارة الالكترونية والملكية الفكرية ( سبتمبر 14 إلى 16، 1999).
- مؤتمر دبلوماسي لاعتماد اتفاقية قانون براءة الاختراع (مايو 11 إلى يونيو 2، 2000).
- نظرة شاملة على تنفيذ البرنامج وأداء البرنامج (قسم المراجعة الداخلية والإشراف العام).
- تشكيل برنامج عمل خاص يهدف إلى مساعدة الأعمال الصغيرة والمتوسطة الحجم حول العالم لمعرفة فوائد الملكية الفكرية بتعزيز قدراتهم التنافسية وأداء أعمالهم التجارية (قسم الشركات الصغيرة والمتوسطة).
- إجراء تحسينات على ظروف العمل، كمثال، الدوام الجزئي، وتحسينات في قوانين العاملين في ما يتصل بالعطلة السنوية، وتسويات الرواتب، والتأمين الطبي، والإجازة المرضية، والسفر وتكاليف الترحيل (وهي ممارسات منظّمة أساساً وقائمة من خلال النظام الموحد للأمم المتحدة).
- قرار من الجمعية العامة بإعلان أن عطلات المنظمة الدولية للملكية الفكرية تشمل يومي الأعياد الإسلامية، عيد الفطر وعيد الأضحى.
- عمليات تجديد على المبنى السابق للمنظمة العالمية للأرصاد الجوية.



## الملحق الخامس

### مهمات رسمية كمدير عام

1997

- زيارة لليابان (برفقة السادة: غوري، وسويدي، ويو) نوفمبر 3 و4
- زيارة للسودان، ديسمبر 26 إلى 30

1998

- زيارة إلى فرنسا (برفقة السادة غوري، وبيلقر، ونتشاتشو والسيدو روغ)، فبراير 24
- زيارة إلى الولايات المتحدة الأميركية (برفقة السادة غوري، وسويدي، ووإيلدر)، مارس 1 إلى 7
- زيارة إلى ألمانيا (برفقة السادة بومر وبيلقر)، أبريل 1
- مهمة رسمية إلى لبنان (المؤتمر الإقليمي العربي للمنظمة الدولية للملكية الفكرية عن الملكية الفكرية، بيروت) (برفقة السادة سعدالله، وستارين، وطباع)، أبريل 21 و22
- زيارة إلى السنغال (برفقة السادة سويدي، وثيام، وعثمان، وفال) أبريل 27 و28
- القائد العام، اجتماع المعهد الوطني للأسد، بوسطن (برفقة السادة بومر، وماشادو، وترامبوش)، مايو 13
- مهمة رسمية إلى البرازيل (مؤتمر الاتحاد العالمي لحماية الملكية الفكرية، ريو دي جانيرو) وزيارة إلى برازيليا (برفقة السادة كورشود، وكاستيلو، وبومر، وروبيو، وسويدي، وترامبوش) مايو 23 إلى 26

- اجتماع المجلس الوزاري للمنظمة الإفريقية الإقليمية للملكية الفكرية، مومباسا، كينيا (برفقة السادة سويدي، وثيام، وعثمان)، مايو 28 و29
- زيارة إلى تونس (برفقة السادة سعدالله، وعثمان، والسيدة دعبوسي)، يونيو 8 و9
- زيارة إلى المغرب (برفقة السادة سعدالله، وعثمان، والسيدة دعبوسي)، يوليو 13 و14، 1998
- زيارة إلى السودان، يوليو 18 إلى 21
- زيارة إلى إيطاليا (برفقة السيد كاستيلو، والسيدة قرافينا، والسيد بوتاسو، والسيدة توسو - دونانت)، سبتمبر 24 و25
- زيارة إلى فنلندا (برفقة السيدة جيمينيز)، سبتمبر 29 و30
- زيارة إلى كندا واجتماع منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، أوتاوا (برفقة السيد غوري)، أكتوبر 7 إلى 9
- زيارة إلى الأردن (برفقة السيد سويدي والسيدة حيدر والسيد عثمان)، أكتوبر 11 و12
- اجتماع لجنة التنسيق الإدارية، نيويورك (برفقة السيد سويدي والسيدة حيدر والسيد عثمان)، أكتوبر 29 إلى 31
- زيارة إلى تونس، نوفمبر 16
- زيارة إلى الأرجنتين (برفقة السيد روبيو والسيد عثمان)، نوفمبر 24 و25
- زيارة إلى جمهورية إيران الإسلامية (برفقة السادة سابهاروال، وسويدي، والسيدة حيدر، والسيد محي الدين)، ديسمبر 12

## 1999

- زيارة إلى منظمة براءات الاختراع الأوروبية، ميونيخ (برفقة السادة كورشود، وكاستيلو)، يناير 21
- زيارة إلى الصين (برفقة السادة كاستيلو، وسابهاروال، وسويدي، إيكشتاين، وجال لولين، والست وانج، والست شامون)، يناير 26 إلى 28، (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى الهند (برفقة السادة كاستيلو، وسابهاروال، ووايلدر، وجايا، والست وانج، والسيدة شروت)، فبراير 8 إلى 9
- زيارة إلى الاتحاد الروسي (برفقة السادة إيكشتاين، وعثمان، وخليستوف، وخابиров، والست شامون)، فبراير 24 و25 (ميدالية فخرية، معهد موسكو للعلاقات الدولية)، (ميدالية، مسرح البولشوي)

- زيارة إلى سلوفاكيا (برفقة السيد أومبورا، والست وانغ، والست شيلينج)، مارس 8 و 9 (ميدالية ذهبية، جامعة ماتيج بيلي)، (اللوحة الذهبية، بانسكا بيستريكا)
- زيارة إلى اليابان (برفقة السادة أومبورا، وسويدي، والسيدة ساغياتي)، مارس 15
- اجتماع البحوث الدوائية والمصنعون (فلوريدا) (برفقة السادة سويدي، ووایلدر)، مارس 24
- زيارة إلى النمسا (الذكرى المئوية للمكتب) (برفقة السادة كورشود، وماشادو، وسويدي)، أبريل 22
- زيارة إلى جمهورية مولدوفا (برفقة السادة أومبورا، وسويدي، والست وانغ والسيد زوتالين)، أبريل 23 (دكتوراه فخرية)
- مركز فرانكلين بيرس للقانون (برفقة السادة سويدي، وسنجيلا، وفاسيهون، وقرأ أ أرانها، وعثمان، وسانكوراثريباتي) مايو 15 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى النرويج (برفقة السادة كورشود، وكاستيلو، وآرنبييرغ، والسيدة كيبيلين)، مايو 19
- زيارة إلى مكتب التنسيق في السوق الداخلي، أليكانتي، [هذا الاسم لم يعد قائماً منذ مارس 2016، واستعيز عنه الآن باسم «مكتب الاتحاد الأوروبي للملكية الفكرية»] - {المترجم}. (برفقة السادة كورشود، وماشادو، وعثمان)، يونيو 10
- زيارة إلى زيمبابوي (برفقة السادة كاستيلو، وسويدي، وأونيمبا، وسيري - كور)، يونيو 21 و 22
- زيارة إلى مركز الدراسات الاستراتيجية، وزيارة إلى وزارتي الثقافة والعدل في الخرطوم، السودان، يونيو 30 إلى يوليو 2
- زيارة إلى الأردن (لجنة العمل السياسي) (برفقة السيد سعدالله، والسيد عثمان، والسيدة ساغياتي، والسيد طبّاع، والسيد نيل)، يوليو 19 و 20
- زيارة إلى اليابان (برفقة السادة أومبورا، وتاكاجي، وإيكشتاين، والست وانغ، والست تابوشي)، يوليو 22 و 23
- زيارة إلى تونس مهرجان قرطاج السنوي (برفقة السيدة دعبوسي)، يوليو 31 وأغسطس 1
- زيارة إلى بلغاريا (برفقة السيد أومبورا، والست وانغ، والسيد يوسفوف)، أكتوبر 6
- زيارة إلى الصين (شنغهاي، وكونمنج، وبيجين) (برفقة السيد سويدي والسيدة وانغ)، أكتوبر 11 - 13، (دكتوراه فخرية، جامعة فودان، شنغهاي)

- اجتماع لجنة التنسيق الإدارية، نيويورك (برفقة السيد سويدي)، أكتوبر 29
- زيارة إلى اليابان (برفقة السادة كورشود، وأمورا، وسويدي)، نوفمبر 16
- زيارة إلى الدنمارك (برفقة السيد بلومكفست، والست وانغ)، نوفمبر 23
- زيارة إلى إسرائيل (برفقة السادة سويدي، وإيكشتاين، والسيدة ساغياتي، والسيدة شواب، والست غورين)، نوفمبر 30
- اجتماع منظمة التجارة العالمية، سياتل، الولايات المتحدة (برفقة السيد سويدي)، ديسمبر 1
- منظمة المؤتمر الإسلامي، جده (برفقة السادة سويدي وثيام)، ديسمبر 10
- زيارة إلى الصين (عودة مكاو إلى الصين) (برفقة السيد سويدي، والست وانغ، والسيد عثمان)، ديسمبر 19 و20

## 2000

- زيارة إلى السودان (أنا السودان)، يناير 3
- زيارة إلى المكتب الأوروبي لبراءات الاختراع، ميونخ (برفقة السادة كورشود وكاستيلو)، فبراير 7
- زيارة إلى السويد (برفقة السادة تاكاجي، وبلومكفست، وإيكشتاين)، فبراير 9
- اجتماع الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، بانكوك، تايلاند (برفقة السادة كاستيلو، وسويدي، ووايلدر، وشينكورو، وعثمان)، فبراير 12
- زيارة إلى عمان (برفقة السادة سويدي، وسعدالله، وطباع)، فبراير 16
- زيارة إلى واشنطن دي سي (لجنة منظمة الملكية الفكرية العالمية، ومكتب الولايات المتحدة للعلامات التجارية وبراءات الاختراع، ولجنة العمل السياسي) (برفقة السيد سويدي، والسيدة جيمينيز، والسادة وايلدر، وعثمان، وسالمون، ونيللي)، فبراير 29 ومارس 1
- زيارة إلى المكسيك (برفقة السيد روبيو، والسيدة جيمينيز، والسيدة روغ، والسادة عثمان وتوليدو)، مارس 2
- زيارة إلى أستراليا (برفقة السادة غوري، وسابهاروال، وسويدي)، مارس 6 و7
- زيارة إلى أوزبكستان (برفقة السادة سويدي، وإيكشتاين، والست وانغ، والسيد خابروف)، مايو 17 و18
- زيارة إلى كوبا (برفقة السادة روبيو، وسويدي، والسيدة جيمينيز، والسادة روكا كامبانا،

وعثمان)، يونيو 6

- زيارة إلى كوستاريكا (برفقة السادة روبيو، وسويدي، والسيدة جيمينيز، والسادة روكا كامبانا، وألفاريز)، يونيو 7
- زيارة إلى بلغاريا، جامعة الاقتصاد الإقليمي والعالمي (برفقة السيدة روغ، والسادة يوسفوف، وبنسيد)، يوليو 4 و6 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى مصر (برفقة السيدة حيدر، والسيد سعدالله، والست زهران)، يوليو 15 و16
- زيارة إلى تونس، مهرجان قرطاج الدولي (برفقة السيد عثمان والسيدة دعبوسي)، يوليو 23 و24
- زيارة إلى السودان، رابطة الأمم المتحدة من أجل السودان، أغسطس 20
- زيارة إلى الصين (برفقة السادة سويدي، وإيكشتاين، والست وانغ)، أكتوبر 10 و11
- زيارة إلى المكتب اليورآسيوي لبراءات الاختراع، موسكو (برفقة السادة سويدي، وخايبروف، وخليستوف، وعثمان، وأوشاكوف)، أكتوبر 12
- اجتماع لجنة التنسيق الإدارية، نيويورك (برفقة السيد سويدي)، أكتوبر 27
- زيارة إلى نيجيريا (برفقة السادة سويدي، وأونيمبا، وفاسيهون، والست أوديبو)، نوفمبر 15
- زيارة إلى المجموعة الأوروبية، بروكسل (برفقة السيد تاكاجي والسيدة روغ)، نوفمبر 23

## 2001

- إلقاء محاضرة في رابطة الأمم المتحدة من أجل السودان، الخرطوم، وزيارة للحكومة، يناير 3 و4
- زيارة إلى إسبانيا (برفقة السادة كاستيلو، وبلانش، وكاراسكو، وعثمان)، يناير 30
- زيارة إلى البرتغال (برفقة السادة كاستيلو، وكارفالو، وعثمان، وبنسيد)، يناير 31
- المائدة المستديرة عالية المستوى للأقاليم المتعددة الملكية الفكرية للدول الأقل نمواً، لشبونة، البرتغال (برفقة السادة كاستيلو، وعثمان، والست ناناياكارا، والست شامون)، فبراير 9
- زيارة إلى مكتب براءات الاختراع الأوروبي، ميونيخ (برفقة السادة كرشود وكاستيلو)، فبراير 13
- زيارة إلى غريغيزستان (برفقة السادة سويدي، وخليستوف، وعثمان، والست شامون)،



- والسيدة تليفيسوفا)، فبراير 21
- زيارة إلى كازخستان (برفقة السادة سويدي، وخليستوف، وعثمان، والست شامون، والسيدة تليفيسوفا)، فبراير 22
- اجتماع لجنة التنسيق الإدارية في نيروبي، (برفقة السادة سويدي، وفاشون، ونيللي)، كينيا أبريل 2 و3
- اجتماع فريق العمل للجنة الأعمال السياسية، نيويورك (برفقة السادة سويدي، وتاكاجي، ونيللي، وعثمان)، مايو 3
- زيارة إلى بلغاريا، (مؤتمر مع الرئيس ستويانوف) (برفقة السادة سويدي، وإيكشتاين، ويوسفوف)، مايو 29
- زيارة إلى رومانيا (برفقة السيد إيكشتاين، والست وانغ، والسيد خليستوف)، يونيو 6 و7 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى جنوب إفريقيا ( برفقة السادة سويدي وأونيميا)، يونيو 20 و21
- مهمة إلى السودان، استشارات، يوليو 7
- منظمة الاتحاد الإفريقي، لوساكا، زامبيا (برفقة السادة سويدي، وأونيميا، وبنسيد)، يوليو 9
- منظمة الملكية الفكرية الإقليمية لإفريقيا، هراي، زيمبابوي، يوليو 10 إلى 13
- زيارة إلى جمهورية كوريا (برفقة السيد سويدي والست وانغ)، نوفمبر 19 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى منغوليا (برفقة السيد سويدي والست وانغ، والسيدة باقيو)، نوفمبر 20 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى سلوفاكيا (برفقة السيد بوبروفسكي، والست وانغ، والسيد خليستوف)، ديسمبر 4 و5 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى كل من منظمة المؤتمر الإسلامي وبنك التنمية الإسلامي، جده (برفقة السيد ثيام)، ديسمبر 13 و14
- زيارة إلى السودان، ديسمبر 17 و18

## 2002

- منتدى مسقط، عُمان (برفقة السادة سويدي، وسعدالله، والسيدة زهران) يناير 21 و22
- زيارة إلى موريتانيا (برفقة السادة سويدي، وسيري، وعثمان وبنسيد، والسيدة دعبوسي)،

يناير 29 و30

- زيارة إلى جمايكا (برفقة السادة رويو، وروكا كامبانا، وعثمان)، مارس 11 و12
- زيارة إلى ساحل العاج (برفقة السادة سويدي، وسيري - كور، وثيام)، أبريل 7 و8
- اجتماع لجنة التنسيق الإدارية، روما (برفقة السادة سويدي، ونيلي)، أبريل 10 و11
- المنتدى الصيني - الإفريقي، واجتماع مجموعة العمل للجنة العمل السياسي، بيجين (برفقة السيد كاستيلو، والسيدة هيز، والسادة سويدي، وتاكاجي، والست وانغ، والسيد نيلي، والسيد غورين، والسيدة نيسي)، مايو 20 إلى 24
- زيارة إلى أوكرانيا (برفقة السيد بيتيت، والست وانغ، والسادة خليستوف وعثمان) مايو 28 و29 (دكتوراه فخرية)
- زيارة إلى ألمانيا (برفقة السادة تاكاجي، وشميدت دفيرتمان)، يونيو 19
- زيارة إلى السودان، يوليو 31 إلى أغسطس 4
- زيارة إلى تونس، مهرجان قرطاج الدولي (برفقة السيد سويدي والسيدة دعبوسي)، أغسطس 17
- زيارة إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، جدة (برفقة السادة سويدي وثيام)، نوفمبر 27 إلى 30
- زيارة إلى السودان، ديسمبر 13 إلى 18

2003

- زيارة إلى بيلاروسيا (برفقة السيد سويدي، والست وانغ، والسيد خليستوف)، يونيو 10 و11
- زيارة إلى بلغاريا (برفقة السادة سويدي ويوسفوف)، أكتوبر 12 و13
- زيارة إلى مصر والسودان، أكتوبر 27 إلى 31
- زيارة إلى رومانيا واجتماع لجنة العمل السياسي، بخارست (برفقة السيدة هيز، والسادة سويدي، وتاكاجي، والست وانغ، والسادة إيكشتاين، وأوشاكوف، وراي، ونيلي، والسيدة نيسي)، نوفمبر 13 و14
- اجتماع وزاري، أنتجوا وباربودا (برفقة السادة سويدي وروكا كامبانا)، نوفمبر 27
- مهمة رسمية إلى السودان، ديسمبر، (دكتوراة فخرية)

2004

- زيارة إلى مكتب براءات الاختراع الأوروبي، ميونيخ (برفقة السيد غوري)، مارس 9
- جائزة فينيسيا العالمية للملكية الفكرية ومؤتمر التصميم الدولي (برفقة السيد روبيو، والسيدة غرافينا، والسيد غرا أ أرهانا، والست شاموم)، مايو 12 و13
- احتفال الألفية الثالثة، طوكيو (برفقة السيد تاكاجي والسيد أوميورا)، مايو 25 و26
- مهمة رسمية إلى السودان، أغسطس 3 و4
- مهمة رسمية إلى عمان (برفقة السيد سعدالله)، سبتمبر 25

## 2005

- الدار البيضاء، المغرب: اجتماع تشاوري غير رسمي يختص بالدورات المستقبلية للجنة الدائمة لقانون براءات الاختراع (برفقة السادة غوري، ويون وسعدالله، وبشتولد)، فبراير 16
- زيارة إلى الهند (برفقة السيد راي) جامعة أنديرا غاندي الوطنية المفتوحة، 5 مارس، 2005 (دكتوراة فخرية)
- زيارة إلى لاتفيا (برفقة السادة بيتيت، ويوسفوف، وسفانتتر)، أبريل 6 و7 (دكتوراة فخرية)
- زيارة إلى كولومبيا (برفقة السادة روكا كامبانا، عالم، والسيدة ويل - غوتمان)، نوفمبر 7 و8
- زيارة إلى السودان: اجتماع وزاري لمنتدى الملكية الفكرية تحت إسم: أداة قوة من أجل النمو الاقتصادي (برفقة السادة شنكورو وياسين)، نوفمبر 30
- زيارة إلى السودان: زيارة رسمية للحكومة والجلسة الافتتاحية لندوة بشأن الهندسة وعلم الحاسوب (اتحاد من أجل ترويج الإبداع العلمي)، ديسمبر 17 إلى 20

## 2006

- منظمة الملكية الفكرية الإقليمية لإفريقيا، هراري، زيمبابوي، (برفقة السادة تاكاجي، وأونييما، وسنجيلا، وسيد، والسيدة شيكوري)، فبراير 15
- احتفال بالذكرى الخمسين للهيئة القضائية في السودان، الخرطوم، فبراير 21
- زيارة إلى آذربيجان (برفقة السيدة ويل - غوتمان، والسادة يوسفوف، وزوتين)، مارس 3، (دكتوراة فخرية)
- زيارة إلى سنغافورة (بجانب مؤتمر دبلوماسي وورشة عمل) (برفقة السادة يو، وروبيو،

وسعدالله، والست وانغ)، مارس 13 و14

- زيارة إلى جمهورية كوريا (برفقة السادة يو، وسعد الله، وأبيسكسرا)، مارس 15 و16
- مهمة إلى السودان، مارس 24 و26
- مهمة إلى البرتغال (مؤتمر وزراء الدول الناطقة باللغة البرتغالية) (برفقة السيد يو)، أبريل 28
- مهمة إلى مدريد (افتتاح المكتب الإسباني الجديد لبراءة الاختراع والعلامات التجارية) (برفقة السيد كاراسكو)، سبتمبر 7
- مهمة إلى السودان، ديسمبر 23 و24

## 2007

- زيارة إلى مصر (برفقة السيد سعدالله، والسيدة حيدر، والسيد عبدالعزيز، والست زهران)، يناير 26 و27
- زيارة إلى بيلاروسيا (برفقة السيد خليستوف)، يناير 31 إلى فبراير 1
- زيارة إلى السودان - جامعة الجزيرة، أبريل 2 و3 (دكتوراة فخرية)
- زيارة إلى السودان - جامعة الخرطوم، أبريل 28 (دكتوراة فخرية)

## الملحق السادس

### وثائق الزواج

خطاب معنون لصهري المزمع الانتساب إليه مؤرخ في اليوم الواحد والعشرين من يناير 1986، طالباً السماح لي بالزواج من إبنته عازة.

الصفحة التالية تبين رده لي بتاريخ الخامس عشر من فبراير 1986 (بعد ثلاثة أسابيع من رسالتي له) يوضح موافقته.

عقب ذلك تمت الدعوة الرسمية لعقد القران والزواج، في اليوم الخامس من مايو 1986.

بسم الله الرحمن الرحيم

جنيبا ٨٦/١/١١

أخي العزيز هي الدين ..

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته - والشكر لك الشكر على ما وجدناه منكم من ترحاب وعلما أثناء تواجدى بالسودان في ديسمبر الماضي .. جزاكم الله عتاً خيراً الجزاء ..

أود - عبر هذه الرسالة المقتضبة - أن أؤكد ما نقله بعد يومين الوضوح عن المتهم - وفانكم فيه يوم الاثنين ٨٦/١/١١ بحسب ذلك الأمر الخبير .. والذي استقرت فيه الله عز وجل وأنا إذ أقدم على ذلك ، فإني أتمنى أن يكون يومكم تقديري لانتمائكم .. وأدرك جيداً أهمية العلاقة ومخزى العروقة ومفاء المعشر .

وكما ذكرت نذكر عبر الهاتف يوم الأربعاء ٨٦/١/١١ فإني استبجرك عذراً لعدم تمكن من التحدث وحكم حول الأمر أثناء وجودى بالبحر ، ولعلك أدركى وأدرك بعض الحقائق وأقرب تلك الأيام . فلكل شئ مؤيد وكلامه مشيئة .

أقول قولي هذا ، وأنقل لكم بعض العرفان لحسن استجابتكم وبنيت مشاعركم ، وأسأل الله لى ولكم العفو والعافية في الدين والناس والأرض .

أمل أن يحضر للسودان في الأشهر القليلة القادمة ، فقط للتحدث وحكم بعض الأمور والتشاور في ما يأتى من أيام .

مطلق ليماني وهمارق أمانيان والسلم نؤسسة الزينة وجميع الأهل . ولتبت كل كلمة في الله . من أجلك

بسم الله الرحمن الرحيم

المحرم ٩/١٥  
٨٦

السيد الفاضل والأخ الكريم كمال

لك التحية والشكر أجزله للشفقة اللبيرة  
التي خصصت بها أبنين وقره جهازه وزهره  
حطاق بمنزلة . يا ربك الله لك في أختي  
أورك وبارك لك في سبيل أبايك  
والله أنال أنه تكلم لمن صبه فلك  
أبدًا . عرف أنك اخترت الله في أورك  
خالق دائما فيما يختاره الله ويقتن أنه  
هذا السر طمأنينة لا كان رزقها  
وأصرار كل من تقدم لها ولكن دائما أنظر  
إليها بشي من الاستغراب وهي ترفض  
كل من يتقدم لطلب يدك وكانت تفرق الله  
أستغرابا هذه المنة عندما قبلت  
وبطنت السهولة . شكرى لله فقد  
المنة عندما أفتاك أنت لها نعم ألك  
بنات وأبنائ خصصناها لكل حين ومعالناها  
من صدمات لمعرفنا منشآت مدله وإراد  
الله - وهذه آياته - أنه تفقد والدها عرفت  
ذلك كثيرا وعزمت به أهلها ولكنه يقين  
أنه الله ما أخذ إلا ليظهر نعم بك أنت  
وأنت لها سنة محققان كل أمن من صلتها  
فلا أسلك إلا أنه أبارك ما خطه الله

من الأهل فأنه لبيتك ولبيتك سررتك  
نعم من يصاهر وما بمنزلة ولأهل إلا  
شريطة لتجبر هذه الأسرة التي  
تسعى بمروقها وتشاكت ربيعية من  
أصول أباينا وأجدادنا الطيب وطاح صبه  
وبورك و...

وال لقاء

معي الله



## بسم الله الرحمن الرحيم

آل مبروك أبو مازن وآل الطيب ادريس

لهم عظيم الشرف بدعوتكم لحضور حفل المربطات بمناسبة عقد  
قران كريمة محي الدين أحمد مبروك ( عزه ) على الدكتور كامل الطيب  
وذلك في تمام الساعة ٥ مساء الاثنين ٥ مايو ١٩٨٦م بمنزلهم رقم (١٦)  
مربع ( ٢ ) بحى المطار ..  
وشكراً ..

م. النجيين

بطاقة الدعوة لحفل الكوكيتيل بمناسبة زواجنا في يوم الإثنين الخامس من مايو 1986

## الملحق السابع

### قائمة الشكر

◀ لن تكون سيرتي الذاتية مكتملة إذا فشلت في إهداء الشكر للعديد من الزملاء والأصدقاء الذين عملوا معي في أروقة الأمم المتحدة، وتحديدًا حينما كنت على رأس المنظمة الدولية للملكية الفكرية والاتحاد الدولي لحماية الأصناف الجديدة من النباتات، وأحد القادة للجنة القانون الدولي للأمم المتحدة. وبطبيعة الحال لا يمكنني سرد أسماء آلاف الزملاء والزميلات الذين تعاونوا معي بشكل لصيق. لذا أقدم اعتذاري لأي نوع من السهو أو الهفوات.

أعتز كثيرًا بذكراتي في مقابلاتي واجتماعاتي المتعددة مع كبار المسؤولين المرموقين وما أعقبها من صداقات موطدة.

وأود أيضًا أن أسجل تحية خاصة للآتية أسماؤهم من كبار أعمدة أسرتي الممتدة. إنني مدين لهم لما اتصفوا به من حكمة، وصبر، وكرم وتفان في سبيلنا جميعاً.

وهم:

حسنين أحمد مبروك

فريد الطيب إدريس

محيي الدين أحمد مبروك

شرف الدين أحمد إدريس

عزالدين عثمان أحمد

و

آمال خليل حسنين

سمية محمد مبروك

سعاد أحمد مبروك

سميرة الطيب إدريس

شخصيات مرموقة ورجال دولة:

|                         |                       |
|-------------------------|-----------------------|
| إي إن آر روبنسون        | آن فينيمان            |
| إي بي جي عبدالكلام      | أنثونيو غوتيرس        |
| عبدالباقي هيرماسي       | أنور السادات          |
| عبدالرحمن الخليفة       | أشوك سوتا             |
| عبدالرحمن شلقم          | أسكار أكاييف          |
| عبدالرحمن سوار الذهب    | عاصم عطا              |
| عبدالسلام التريكي       | أون إس آي - خازاونه   |
| عبدالرحمن يوسف          | بابكر النور           |
| عبدو ضيوف               | بهاء الدين محمد إدريس |
| عبدول جي كوروما         | بكري حسن صالح         |
| عبدالرحمن بن حمد العطية | بينازير بوتو          |
| أبيل أليز               | بنجامين مكابا         |
| أبوبكر عثمان محمد صالح  | بشير البكري           |
| آشي أتسين               | بيل كلنتون            |
| عادل حامد               | بولا أديسامبو أجيولا  |
| أحمد عبدالحليم          | بونا ملوال            |
| أحمد المهدي             | بطرس غالي             |
| أحمد الميرغني           | برونو سيما            |
| أحمد محمد علي           | برونسون ماكينلي       |
| آلين بيليت              | سي جون آر دوغارد      |
| البرتو شيزكيلى          | كارلوس منعم           |
| الكساندر كورشاغي        | كارلوس روبيرتو ليونى  |
| الكساندر لوكاشنكو       | سيلسو آموريم          |
| على المادح              | سيلسو لافير           |
| على محمود حسنين         | شيه ليو               |
| على عثمان طه            | شوسي يامادا           |
| أمارا إيسي              | كلير شورت             |

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| دفع الله الحاج يوسف      | أمين مكي مدني            |
| دانيال بيرنارد           | أمير بهاتي               |
| ديريك وليام بويت         | عمرو موسى                |
| دودو ثيامي               | أندرياس جي جاكوفيدس      |
| إدوارد دايان             | إدموندو فارغاس كارينو    |
| الجزولي دفع الله         | إكمل الدين إحسانوغلو     |
| إبراهيم قمباري           | الرشيد الطاهر            |
| إدريس الجزائري           | الصادق المهدي            |
| إلهام علييف              | الطيب سليمان نيل         |
| النور أحد النور          | إميل كونستانتينسكو       |
| إيون إليسكو              | إيمانويل أكوي أدو        |
| إسماعيل حاج موسى         | أكيهيتو إمبراطور اليابان |
| عصام حسون                | التجاني الكارب           |
| عصام صالح                | فاروق أبو عيسى           |
| عزالدين الفاتح           | فاروق حمدالله            |
| عزالدين حامد             | فتح الرحمن البشير        |
| جاكوب إس سيلبي           | فيدل كاسترو              |
| جاك ضيوف                 | فيدل راموس               |
| جاك شيراك                | فيدل راموس               |
| جيمس كوشرين              | فرانسييسكو فرانقيالي     |
| جيمس لوتابانزيبوا كاتيكا | فرانسييس دينق            |
| جيمس تي موريس            | جعفر نميري               |
| جان إلياسون              | جورجي بارفانوف           |
| جان - كلود إيمي          | جيلبيرتو أمادو           |
| جيان سونغ                | غودموندور إريكسون        |
| جيان زيمين               | جويدو دي ماركو           |
| جيونغ شي                 | جويدو دي ماركو           |
| جاكوب كلينزبيرغر         | غيلومي بامبو - توهيفوندا |

|                                 |                                                                  |
|---------------------------------|------------------------------------------------------------------|
| هاشم هجو                        | جويل شوينفيلد                                                    |
| حسن الترابي                     | جون دي سارام                                                     |
| حيدر خير الله                   | جون قرنق ميارديت                                                 |
| هاينز بارديلهي                  | جورج أميقو كاستانيدا                                             |
| هنري أولسون                     | جورج سامبايو                                                     |
| هيرمان اسبروجيت                 | جوان سومافيا                                                     |
| هيلاري كلينتون                  | جوليوس نايرييري                                                  |
| هيساميتسو أراي                  | كمال ناصرالدين                                                   |
| حسني مبارك                      | كانديه يومكيلا                                                   |
| هوانغ هويكانغ                   | كاتسو أوقاوا                                                     |
| حسين م البهارنا                 | الملك عبدالله، ملك الأردن                                        |
| إبراهيم أحمد عمر                | الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود،<br>ملك المملكة العربية السعودية |
| الملك فيليب السادس، ملك إسبانيا | محمد الرادعي                                                     |
| الملك الحسن الثاني، ملك المغرب  | محمد بنونا                                                       |
| الملك حسين، ملك الأردن          | مصطفى مدني                                                       |
| الملك حسين، ملك الأردن          | نبيل العربي                                                      |
| كوفي عنان                       | نادمي أوشي                                                       |
| كويشيرو ماتسورا                 | ناند كيشور سينغ                                                  |
| لاكشمان كاديرقامار              | ناصر جودة                                                        |
| لورينت قباقيو                   | ناتساجين باقاباندي                                               |
| لي هسين لونغ                    | نلسون مانديلا                                                    |
| لي يونغ ووك                     | نيكولاس جورج هايك                                                |
| لويس آربور                      | نور سلطان نازارباييف                                             |
| لويجي فيراري برافو              | أولوسيجون أوباسانجو                                              |
| ما ليانيوان                     | عمر البشير                                                       |
| مهاتير محمد                     | عثمان يوب عبدالله                                                |
| مهدي مصطفى الهادي               | باولو كوستا                                                      |

|                                      |                           |
|--------------------------------------|---------------------------|
| باسكال لامي                          | مأمون عوض أبوزيد          |
| باتريك ليتون روبنسون                 | منصور خالد                |
| بول بيا                              | مريم المهدي               |
| بول فولفيتس                          | ماريلين إس كادي           |
| بيماراجو سرينيفاسا راو               | مارينو بورزيو             |
| بيتر أستويانوف                       | مارتن أوهمويني            |
| بيتر سي آر كاباتسي                   | ماري روبنسون              |
| بيترو لوسينشي                        | ماير غاباي                |
| بيتيو لوسينشي                        | مازن عبدالله              |
| الأمير الحسن، الأردن                 | مايكل ك كيرك              |
| روبرت موقابي                         | مايكل جارود               |
| روبرت روزنستوك                       | ميشيو ناروتو              |
| روبرتو أكو                           | مو إبراهيم                |
| رومانو برودي                         | مختار موسوما - أتماجي     |
| ساليغو فومبا                         | محمد عبدالحليم            |
| سالم أحمد سالم                       | محمد أحمد المادح          |
| سالف كير                             | محمد إبراهيم نقد          |
| سامح شكري                            | محمد خريسات               |
| سيرجي بي كريلوف                      | محمد ميرغني مبارك         |
| سيرجيو مارشي                         | محمد عمر بشير             |
| شيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الإمارات | محمد عثمان الميرغني       |
| السير إيان براونلي                   | صديق محمد                 |
| طلال أبو غزالة                       | قابوس بن سعيد، سلطان عمان |
| توني بلير                            | توماس فيليبسون            |
| أبوزيد الحسن                         | وجدي ميرغني محبوب         |
| أحمد عبد الوهاب جبارة الله           | وائل عمر عابدين           |
| أحمد الطيب الكردفاني                 | والتر قيقر                |
| أحمد دياب                            | ويلهيلم هوينك             |



ويليام إم ديلاي

ياسر عرفات

يوشيو أوتسومي

يوسف بن علوي بن عبدالله

زين العابدين عبد القادر

زهو رونجي

علي أحمد سحلول

أحمد المعتصم

أحمد يوسف التني

الفتاح عبدالله يوسف

الفتاح إبراهيم حماد

الفكي عبدالله الفكي

علي عبدالرحمن النميري

علي آدم

## سـفـراء

عباس المعتصم

عباس موسى

عباس موسى مصطفى

عباس عثمان الخليفة

عبدالله عباس

عبدالله جبارة

عبدالعال سنادة

عبدالباسط السنوسي

عبدالغفار عبدالرحمن

عبدالغني النعيم

عبدالهادي الصديق

عبدالحليم بابو فاتح

عبدالماجد علي حسن

عبدالمحمود عبدالحليم

عبدالماجد بشير الأحمد

عبدالمنعم مصطفى الأمين

عبدالمنعم مبروك

عبدالرحيم خليل

عبدالرحمن بخيت

علي حمد إبراهيم

علي حسن حاج الصديق

علي خالد الحسين

علي يوسف أحمد

النور علي سليمان

الطاهر مصطفى

عامر المرضي

أسماء محمد عبدالله

عطا الله حمد بشير

عوض الكريم فضل الله

عوض محمد الحسن

عوض مرسي طه

بابكر علي عبدالكريم

بابكر علي خليفة

بكري الأزهرى

بشير محمد الحسن

شارلس مانيانق

دفع الله الحاج علي

دفع الله محمد

|                          |                        |
|--------------------------|------------------------|
| عيسى مصطفى سلامة         | عبدالرحمن حمزة         |
| الطيب أحمد حميدة         | عبدالوهاب الصاوي       |
| الأمين بشرى              | عبدالله علي جابر       |
| النقراشي عبدالمجيد حمدتو | أبو القاسم عبدالواحد   |
| الرشيد أبوشامة           | أبو بكر عثمان محمد خير |
| الصادق الفقيه            | أبو بكر صالح محمد نور  |
| كمال كنيذة               | الطيب سليمان نيل       |
| كوال مانيانغ             | فاروق عبد الرحمن       |
| محجوب الباشا             | فاطمة البيلي           |
| محجوب رضوان              | جعفر أبوحاج            |
| محمود بانقا              | جعفر كبيدة             |
| محمود حسن الأمين         | جعفر طه حمزة           |
| محمود تميم الدار         | جلال عتباني            |
| مامون إبراهيم حسن        | حافظ عبدالرحمن         |
| ميرغني النور جاويش       | حاج الفكي هاشم         |
| ميرغني خليل سليمان       | حمد النيل أحمد         |
| أشول دينق                | سيد أحمد الحردلو       |
| ميرغني محمد صالح         | حمد النيل أحمد محمد    |
| محمد آدم                 | حامد التني             |
| محمد المكي إبراهيم       | هاشم أحمد عبدالرحيم    |
| محمد بشير                | هاشم عبدالرحمن         |
| محمد العباس أباسعيد      | هاشم عبدالرازق         |
| محمد محمود أبوسن         | هاشم التني             |
| محمد نور طه              | هاشم عثمان             |
| محمد عثمان النجومي       | حسن عابدين             |
| محمد صلاح الدين عباس     | حسن عبدالعزيز فرج      |
| محمد شريف عبدالله        | حسن آدم                |
| مبارك حسين رحمة          | حسن بشير عبدالوهاب     |

|                      |                                     |
|----------------------|-------------------------------------|
| معتمد البرير         | حسن جاد كريم                        |
| مصطفى محمد مصطفى     | إبراهيم عبدالمنعم                   |
| نجيب الخير عبدالوهاب | إبراهيم أحمد عبدالكريم              |
| ناهد أبو بكر         | إبراهيم الخليفة                     |
| نصر الدين أحمد محمد  | إبراهيم حمرا                        |
| نور الدين ساتي       | إبراهيم ميرغني                      |
| نوري خليل صديق       | إبراهيم محمد علي                    |
| عمر عباس عجينا       | إبراهيم طه أيوب                     |
| عمر عبدالماجد        | أيضاً شانكو                         |
| عمر العالم           | عصام أبوجديري                       |
| عمر حيدر             | عصام حسن                            |
| عمر شونة             | إسماعيل عبدالدافع                   |
| عمر يوسف بريدو       | إسماعيل أحمد إسماعيل                |
| عمر دهب              | عزت بابكر الديب عبداللطيف عبدالحميد |
| عمر الشيخ            | عزالدين سعيد عثمان                  |
| عمر صالح عيسى        | جمال محمد إبراهيم                   |
| صلاح احمد محمد صالح  | عمر صديق                            |
| صالح النيل الشفيق    | عثمن السمحوني                       |
| سيد جلال الدين       | عثمان درار                          |
| سيد شريف أحمد        | عثمان الدرديري                      |
| صديق أبوعاقلة        | عثمان السيد                         |
| صديق أحمد محمد       | عثمان نافع                          |
| سايمون هاج كلوسيك    | رحمة الله محمد عثمان                |
| سراج الدين حامد      | سعيد سعد                            |
| سليمان مصطفى         | سرالختم السنوسي                     |
| يوسف الهادي          | يحيى عبدالجليل                      |
| يوسف سعيد            | يوسف فضل أحمد                       |
| زينب محمد محمود      | يوسف مختار                          |

## شخصيات قيادية عامة

|                     |                           |
|---------------------|---------------------------|
| علي غيلوب           | عباس أبو شامة             |
| علي كرتي            | عباس حاج حسين             |
| علي محمد عثمان يسن  | عبدالله آدم خاطر          |
| علي مهدي            | عبدالله الأشعل            |
| علي ماجوك           | عبدالله الطيب             |
| علي شمو             | عبدالله إدريس             |
| علي سليمان          | عبدالله مدني              |
| المسلمي الكباشي     | عبدالعزیز خالد            |
| أمجد فريد           | عبد الباقي الظافر         |
| آمي بهاتي           | عبدالعزیز الحلو           |
| أمين حسن عمر        | عبدالقادر مصطفى الحاج     |
| أمير عبدالله ميرغني | عبد المنعم عبد العزيز فرج |
| أمير بلة            | عبد الباقي العوض          |
| أمير التجاني        | عبدالباسط سبدرات          |
| آن - ماري بيتيت     | عبد الباقي الكتيابي       |
| أنتوني هيل          | عبدالقادر ورسمه           |
| أنور دفع الله       | عبدالحی كيجوك             |
| أركو مناوي          | عبدالكريم أحمد حميدة      |
| عطا البطحاني        | عبدالكريم الكابلي         |
| عوض الكرسي          | عبدالمحسن القطاني         |
| عوض الجسن النور     | عبد المنعم عبد الباقي     |
| أيمن رمضان          | عبد الرحيم عبد الحليم     |
| عزمي عبدالرازق      | عبد الرحمن الصادق         |
| عزام إبراهيم        | عبد الرحمن موسى           |
| بإكر البخيت         | عبد الوهاب الأفندي        |
| بكري المدني         | عبد الوهاب حيمات          |
| بكري عثمان سعيد     | عبد ه حاج حسين            |

أبوبكر صالح محمد نور  
عادل عبدالغني  
عادل عجيب  
عادل الباز  
عادل محمد الحسن  
عادل مفتي  
أحمد عبدالرحمن  
أحمد عوض الكريم  
أحمد بن يوسف العبد  
أحمد دقش  
أحمد البلال  
أحمد البشير الهادي  
أحمد الجعلي  
أحمد التجاني  
أحمد حسين  
أحمد محمود يوسف  
أحمد محمد فضل  
أحمد شبرين  
عينوس عبدالملك  
علاء ناجي  
علي البشير جادالله  
علي غيلوب  
علي كرتي  
علي محمد عثمان يسن  
علي مهدي  
علي ماجوك  
علي شمو  
علي سليمان

بيرنارد كيسدجان  
بشير سهل  
بروس ليهمان  
بشرى حاج الفضل  
بشرى التوم  
شارلس مانيانق  
دفع الله الصايم  
ضياء الدين يلال  
دينا شيخ الدين  
فضل الله برمة  
فضل الله محمد  
فيصل عبدالرحمن علي طه  
فيصل عبدالرحمن كبيدة  
فيصل بن حامد معلا  
فيصل محمد صالح  
فريد الطيب إدريس  
فاروق محمد إبراهيم  
فتح الرحمن النحاس  
فتح الرحمن الشيخ  
فتح الرحمن شبارقة  
فاطمة عبدالحمود  
فاطمة محمد إبراهيم  
فائزة أبوالنجا  
فيلوسوس فرج  
جعفر عباس  
جعفر ميرغني  
جلال الأزهري  
جلال محمد عثمان

|                    |                      |
|--------------------|----------------------|
| غازي صلاح الدين    | المسلمي الكباشي      |
| جبريل إبراهيم      | أمجد فريد            |
| هاني نوري          | أمي بهاتي            |
| هاشم أبو الحسن     | أمين حسن عمر         |
| هاشم صديق          | أمير عبدالله ميرغني  |
| حسن أبشر الطيب     | أمير بلة             |
| حسن بيومي          | أمير التجاني         |
| حسن البشاري        | آن - ماري بيتيت      |
| حسن كمال           | أنتوني هيل           |
| حسن كمبال          | أنور دفع الله        |
| حسن مكي            | أركو مناوي           |
| فائزة أبو النجا    | عطا البطحاني         |
| محجوب عروة         | حسن تاج السر         |
| محجوب حسين         | حسن طه               |
| محجوب محمد صالح    | حسن أبشر الطيب       |
| محجوب شريف         | حسن بيومي            |
| محمود فضل          | حسن البشاري          |
| محمود جحا          | حسن كمال             |
| محمود شحات         | حسن كمبال            |
| ميسرة الحاج الصديق | حسن مكي              |
| مكاوي عوض المكاوي  | حسن تاج السر         |
| مكرم خوري          | حسن طه               |
| مالك عقار          | حاتم السر            |
| مالك حسين          | حيدر دفع الله        |
| مهيرة حسن بابكر    | حيدر إبراهيم         |
| ميراندا براون      | حيدر خيرالله         |
| ميرغني محمد الحسن  | عوض الكرسي           |
| محمد عبدالعزيز     | فريد عوض الحسن النور |



|                     |                     |
|---------------------|---------------------|
| أيمن رمضان          | محمد أبو زيد        |
| عزمي عبدالرازق      | محمد علي كاكوم      |
| عزام إبراهيم        | محمد عالم           |
| بابكر البخيت        | محمد عمار           |
| بكري المدني         | محمد الأمين         |
| بابكر البخيت        | محمد الفاتح حامد    |
| بكري عثمان سعيد     | محمد الخطيب         |
| بيرنارد كيسدجان     | محمد المهدي         |
| بشير سهل            | محمد الشوش          |
| بروس ليهمان         | محمد حاج حسين       |
| بشرى حاج الفضل      | محمد حسين           |
| بشرى التوم          | محمد فاروق          |
| شارلس مانيناق       | محمد إبراهيم الطاهر |
| دفع الله الصايم     | محمد ماء العينين    |
| ضياء الدين بلال     | محمد محجوب هارون    |
| دينا شيخ الدين      | محمد ميرغني         |
| دومينيك بوير        | محمد نور            |
| الفاتح عروة         | محمد وردي           |
| النور حواد          | محمد يوسف حيدوب     |
| السموأل خلف الله    | محمد يوسف محمد      |
| الأمين عوض          | محيى الدين مبروك    |
| العركي الريح العليش | معز السراج          |
| الباقر محمد عبدالله | مبارك بشير          |
| زهير حسن بابكر      | مضوي الترابي        |
| البخاري الجعلي      | مجاهد عوض           |
| الفاضل سعيد         | منير شيخ الدين      |
| الفاتح البدوي       | منير زهران          |
| الفاتح الحاج        | مصطفى الفقيه        |

|                        |                      |
|------------------------|----------------------|
| مصطفى الخير            | الفتاح حسنين         |
| مصطفى إدريس            | الفتاح كاشف          |
| مصطفى عثمان            | الهادي آدم           |
| معتصم الحارث           | الهادي نصرالدين      |
| معتز البرير            | الهادي شلوف          |
| معتز كاشف              | الحاج وراق           |
| موافي عوض              | الحارث إدريس         |
| نبيل أديب              | الهندي عزالدين       |
| نصرالدين الهادي المهدي | المحبوب عبدالسلام    |
| نصرالدين شلقامي        | الريح السنهوري       |
| عمر عبدالعزيز          | الصادق سليمان        |
| عمر الفاروق شميننا     | الصاوي بلة           |
| عمر الجزلي             | الشفيع خضر           |
| عمر الطيب الدوش        | الشيخ موسى           |
| عمر مصطفى شركيان       | الطاهر فضل           |
| عمر الزين              | التاج علام           |
| أسامة محمد علي         | الطيب العباس         |
| أسامة عبدالله          | الطيب مصطفى          |
| عثمان حبة              | الطيب صالح           |
| عثمان خالد             | الطيب يوسف صالح      |
| عثمان ميرغني           | الطيب زين العابدين   |
| عثمان رضوان            | التجاني حاج موسى     |
| عثمان شبونة            | التجاني سعيد         |
| عثمان طه               | الواثق كمير          |
| بيتر دوفي              | هنري - فيليبي سامبوس |
| قاسم بدري              | هيو دياس             |
| راشد دياب              | حسين النعيم          |
| رحاب طه                | حسين خوجلي           |

|                    |                     |
|--------------------|---------------------|
| حسين سيد أحمد      | روضة الحاج          |
| إبراهيم دقش        | سعد بشير            |
| إبراهيم دريج       | سعد غنيم            |
| إبراهيم الأمين     | سعيد الأمين         |
| إبراهيم الصلحي     | صلاح بندر           |
| إبراهيم السنوسي    | صلاح قرشي           |
| إبراهيم الشيخ      | صلاح حمدتو          |
| إبراهيم غندور      | صلاح كرار           |
| إبراهيم حامد       | صلاح منديل          |
| إبراهيم محمد الحسن | صلاح محمد إبراهيم   |
| إبراهيم محمد عثمان | صلاح عمر            |
| إمام محمد إمام     | صالح الأمين         |
| عصمت العالم        | صالح محمود          |
| عصام الترابي       | سارة أبو            |
| عزالدين عثمان      | ساتي الحاج          |
| جمال هلال          | سيد أبوسيفين        |
| كمال أبوسن         | سيد عيسى            |
| كمال الجزولي       | سيد سليمان          |
| كمال حمزة          | سيف الدين محمد أحمد |
| كمال حسن بخيت      | صديق الترابي        |
| كمال نصرالدين      | صديق يوسف           |
| كمال عمر           | سعاد إبراهيم عيسى   |
| كمال شداد          | سليمان فضيل         |
| خلف الله الرشيد    | تاج السر الشوش      |
| خالد الإعيسر       | طه علي البشير       |
| خالد التويان       | طه يوسف             |
| خالد بشارة         | طاهر المعتصم        |
| خالد ساتي          | تاج الدين بانقا     |

فيفيك شانكر  
يحيى حبة  
يسن أحمد  
ياسر عرمان  
زهير السراج

خالد عويس  
خالد إبراهيم  
محاسن حاج الصافي  
محجوب عباس  
يوسف فضل حسن

### الأمم المتحدة

جايا غوريكبال سنغ  
جيمس نيل  
جين ساغياتي  
جينو بوبروفسكي  
جياهاو لي  
جواكيم بيلقر  
يورغن بلومفيست  
جوسيه غراسا - أرانها  
جوديث زاهرا  
خميس سويدي  
لاكشمان كاديرقامار  
لالا راکوتومالالا  
لاري ألما  
ليزلي شيروود  
لودويج بومر  
مارسيلو لانديشو  
ماري - كريستين بورسيل - سانشير  
مارينو بورزيو  
ماوونو شابمان نياهو  
ماير غاباي  
مارسيدس مارتينيز - دوزال

البرت ترامبوش  
اليجاندرو روکا كامبانا  
علي يسن  
ألان روش  
آن كرافن  
آن - ماري ناليت  
أرباد بوقش  
بينونغ وانغ  
بوجان برتنار  
بريت فيتزجيرالد  
كارلوس فيرنانديز - باليستيروس  
كارلوتا قرافينا  
كارولين شواب  
كارولين ديفس - ألونسو  
كريستيان إقناسي  
كورنيليو (ليو) روزول  
دولوريس جيمينيز - هيرنانديز  
دومينيك ديلماس  
إدوارد كواكوا  
إليزابيث كاسيو  
إلسييث ليشت

|                        |                         |
|------------------------|-------------------------|
| میشیل بیټي             | ايرنستو رويو            |
| میشیل ویل - غوتمان     | فرانسوا کورشود          |
| میهایلی فیکسور         | جیفری اونیاما           |
| منصف حطیب              | جیوفانی تاقناني         |
| مبازي سنجلا            | غاي ايكشتاين            |
| مبارك رحمة الله        | هیدي شروت - هوکنج       |
| نهلة حيدر              | هنري - فیلیپی سامبوس    |
| نارندرا سابهاروال      | هیرمان نشاتشو           |
| نلسون لانديشو          | إيهاب عثمان             |
| علا زهران              | جاك شفایترز             |
| أوروبولا فاسیهون       | جیمي سیفیلا             |
| بیشنس هافلیقر          | بي إي راو               |
| فیلیب توماس            | بولیت کیبلین            |
| فیلیپی بیتیت           | فیلیپی فافاتیر          |
| راما راو سانکوراثریاتی | بیترو روسی              |
| راکویل کوزین           | رانجانا اَبیسکیرا       |
| ریتشارد وایلد          | ریتشارد اُوینز          |
| روینا باقیو            | ریتا هیز                |
| شیلا کورنیش            | سالي لیقي               |
| شریف سعدالله           | شیلا جنجر               |
| تامارا نانایاکارا      | سایمون اُویدراوغو       |
| تونی کییفر             | تود لارسون              |
| توشیووکي تاغاکي        | فیکتوریا مینیزیس - میلر |

## الملحق الثامن

### مثال للعمل الصحفي

هذا نموذج لعمل الصحفي كتيبه حينما كنت طالباً في الخرطوم. المادة تناقش موضوعاً فلسفياً.





## الملحق التاسع

### مستندات مختارة من المنظمة الدولية للملكية الفكرية

#### المنظمة الدولية للملكية الفكرية WIPO

التاريخ: 30 مايو 2010

#### إلى من يهمه الأمر

هذا المستند لتأكيد أن الدكتور كامل إدريس، المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية (وايبو) في الفترة من 1997 إلى 2008، لم يكن طرفاً في أية نشاط مخالف لأنظمة العاملين وقواعد موظفي المنظمة الدولية للملكية الفكرية. وفي هذا الصدد، فإن ما ورد بشأن عمره الذي ظهر في شبكة الإنترنت، لم يكن سوى خطأ إداري في دائرة ملفات المنظمة، والذي تم تصحيحه في حينه. كما أن ذلك الخطأ قد جرى تصحيحه أيضاً في سجلات قسم الصندوق المشترك للمعاشيين في الأمم المتحدة. ولم تنتج عن ذلك الخطأ أية تبعات مالية للمنظمة. يرجى عدم التردد في الاتصال بي، متى تطلب الأمر حاجتكم لمزيد من المعلومات أو التوضيحات.

المخلص

إدوارد كواكا

المستشار القانوني



30 May, 2010

**TO WHOM IT MAY CONCERN**

This is to confirm that Dr. Kamil Idris, Director General of the World Intellectual Property Organization (WIPO) from 1997 to 2008, did not engage in any activity contrary to the staff regulations and staff rules of WIPO. In this regard, the story concerning his age that appeared on the Internet, was only in connection with an administrative error in the files of WIPO, which have since been rectified. That error has also since been rectified by the United Nations Joint Staff Pension Fund (UNJSPF) in its records. The error had no financial implications for the Organization.

Please do not hesitate to contact me, should you have a need for further information or clarification.

Sincerely,

Edward Kwakwa  
Legal Counsel

انطلاقاً من السجلات الرسمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية (وايبو)، بهذا يسعني توضيح الحقائق التالية المتعلقة بالمدير العام السابق للمنظمة، الدكتور كامل الطيب إدريس (الدكتور إدريس):

الدكتور إدريس مولود في 26 من شهر أغسطس 1954. وكان قد تم انتخابه مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية في العام 1997 لفترة ست سنوات، ثم أعيد انتخابه بالإجماع في العام 2003 لفترة ست سنوات أخرى.

كان مقررًا للفترة الثانية للدكتور إدريس على رئاسة المنظمة الدولية للملكية الفكرية أن تنتهي في 30 نوفمبر 2009. ولكنه في عام 2007 كان قد أخطر رئيس لجنة التنسيق للمنظمة الدولية للملكية الفكرية بتسريع الإجراءات المتعلقة باختيار مدير جديد للمنظمة وتعيينه بدلاً عنه. وبهذا تسلم المدير الجديد المنتخب أعباء منصبه في اليوم الأول من أكتوبر عام 2008.

طيلة فترة عمله مديراً عاماً للمنظمة، ظل الدكتور إدريس يتبرع براتبه الإضافي (بوصفه أميناً عاماً لاتحاد حماية الأصناف المتعددة من النباتات)، لصالح الدول النامية.

صدر تقرير تحقيق خارجي من مؤسسة إيرنست آند يونج يؤكد بلا أدنى تحفظ بأنه «لا يمكننا التوصل إلى قرار أن مستخدمين بعينهم في المنظمة الدولية للملكية الفكرية وأطراف ثالثة ذات علاقة قد ارتكبوا أي تزوير أو أعمال مخلة بالشرف».

حين مغادرته رئاسة المنظمة في عام 2008، لم يقبل الدكتور إدريس تسلم أية حزمة إضافات مالية أكثر من استحقاقاته الروتينية كمدير عام للمنظمة.

إدوارد كواكا

المستشار القانوني

May 30, 2010

According to the official records of the World Intellectual Property Organization (WIPO), I hereby state the following facts regarding the former Director General of WIPO, Dr. Kamil Idris ("Dr. Idris"):

1. Dr. Idris was born on August 26, 1954. He was elected Director General of WIPO in 1997 for a six-year term, and was re-elected by consensus in 2003 for a second six-year term.
2. Dr. Idris's second term of office as Director General would otherwise have expired on November 30, 2009. But in 2007, he informed the Chair of the WIPO Coordination Committee of his decision to advance the process for nominating and appointing a new Director General of WIPO to replace him. The newly-elected Director General of WIPO took over on October 1, 2008.
3. Throughout the period of his tenure as Director General of WIPO, Dr. Idris donated his corresponding salary (as Secretary-General of the Union for the Protection of Plant Varieties, UPOV) to developing countries.
4. An External Investigation Report by Ernst & Young categorically stated that it "could not conclude that certain employees of WIPO and third parties concerned committed fraud or dishonest acts".
5. Upon leaving office in 2008, Dr. Idris did not accept any extra package or remuneration apart from his routine entitlements as Director General.



Edward Kwakwa  
Legal Counsel

## الملحق العاشر

### قائمة مختارة من تصريحات مساندة

المستندات التالية متوفرة على شبكة الإنترنت

WO/GA/XXI/13

بتاريخ 1 أكتوبر 1997

A/38/3

بتاريخ 27 مايو 2003

#### أدلى الوفد الكاميروني بالتصريح التالي:

«أنا والوفد المرافق لي نشعر بالسعادة وأقصى درجات القناعة إزاء انتخاب الدكتور كامل إدريس بالتزكية في منصب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. بالنسبة لنا في الوفد الكاميروني، كما هو حال الكثيرين غيرنا، فإن انتخاب الدكتور كامل يعد حدثاً استثنائياً، ونقطة تحول حقيقية - وبالفعل، هي بداية جديدة لمنظمتنا. إذ، ولذاكرة أعضاء المنظمة، فإنه الحدث الأول من نوعه الذي يمر بنا في الوضع الحالي منذ حوالي ربع قرن من الزمان. وهذا بحد ذاته دليل على أن العالم في حراك مستمر. وأن الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة تتحرك كذلك، وبالتالي فإن المنظمة الدولية للملكية الفكرية كان قدرها أيضاً التحرك، ليس فقط للتفاعل من

أجل مسيرة الموضة بل بالعمل في أكثر درجات السلم علواً. وبينما تغمرنا السعادة بشأن ذلك الألق الذي يصاحب هذا التغيير، يجب علينا أن لا ننسى أن البحث عن النجاح في هذه الجلسة من الجمعية العامة واهتمامنا بتسهيل تأكيد انتخاب المدير الجديد للمنظمة الدولية للملكية الفكرية هي أعمال من صميم بل في قلب العمل الذي حدث في الجلسة الماضية للجنة التنسيق التي أجريت هنا في 18 و19 من شهر مارس 1997، تحت رئاسة الأكثر جدارة ونموذجية سفير ألمانيا صاحب السيادة السيد فيلهيلم هوينك. إنابة عن وفد بلادي أود تهنئته على حسن بصيرته ورؤيته الواضحة، وكفاءته وحياديته التي أبداهها خلال المراحل الإقصائية الصعبة التي شملت عشرة مرشحين أولي بأس وكفاءة عالية، مما يضاف تقديراً له ولبلاده على السواء.

«أما بالنسبة للدكتور كامل إدريس، هذا الإبن الإفريقي الجدير بقارته، فأرجو أن أنقل إليه مقدار السعادة والفخر الذي شملني أنا ووفد بلادي نتيجة انتخابه المتميز. ومرة أخرى نتوجه إليه بأصدق آيات التهنية الأخوية، مدعومة بأطيب الأمنيات القلبية له أن يكلل بكل معاني النجاح والتوفيق في موقعه الجديد. نحن على يقين بأن ما يمتلكه من كاريزما، وإحساسه الفطري بالعلاقات البشرية، ومعرفته التامة للمنظمة، وما يتحلى به من قيم فكرية وأخلاقية ستشكل رصيذاً طيباً وأصلاً تعينه على مواجهة التحديات الناشئة عن التدويل التي تحدث بشأنها للتو، ومما تمليه علينا من أشكال التقارب الممكن الاستغناء عنها. يجب علينا التفكير بأن انتخابنا له بهذا الابتهاج قبل لحظات، إنما هو إشارة من الدول الأعضاء التي رغبت في إرسال إشارة ليس فقط في قرارهم بوضع كامل ثقتهم فيه، ولكن أيضاً لكونهم عاقدي العزم، متى كان ذلك ضرورياً، لمنحه كل مساندتهم ودعمهم. لقد استمعنا تواً بكل حواسنا وبسعادة غامرة لأول حديث رسمي يصدر من المدير العام الجديد. لقد كنا سعداء إذ علمنا بما يمتلكه من روح إبداعية يتميز بها برنامجه، أن الأولوية التي يسعى لها وفقاً لتصنيفات محددة لكل من المشروعات متعددة الجوانب والإقليمية، مثل إنشاء أكاديمية للملكية الفكرية على نطاق العالم، وإعادة التأكيد بضرورة التعاون التنموي وأهميته لفائدة الدول النامية، ووضع الوسائل المناسبة لاتخاذ القرار تحت تصرف الموظفين، وضمان استقلالية العاملين، وإبراز الشفافية، وإنشاء لجنتين استشاريتين رفيعتي المستوى، وإعطاء الأولوية للمشروعات الإقليمية، وتنشيط التعاون بين الدول والقطاع الخاص، وهذا فقط ما يمكن الإشارة إليه. كل ذلك يعكس رؤية جلية لمستقبل منظمتنا، وهو شهادة بالحاجة الملحة للتغيير في المنظمة الدولية للملكية الفكرية في ما يتعلق بالعديد من المواقع ذات الاهتمام. ولا يمكننا إلا أن ندعم المدير العام الجديد في هذا المنحى.

«والآن في طريقي إلى آخر نقطة من حديثي. فإن مجال الملكية الفكرية كغيره من المجالات، قد مر في السنوات الأخيرة بمرحلة من التطور الدرامي للتقنيات المعلوماتية. وقد أصبح مؤكداً أن هناك حاجة لوجود حلول مفصلة لتطبيقات محددة من تلك التقنيات في الملكية الفكرية. والغرض من تلك الحلول المفصلة أن تكون من شأنها أولاً وأخيراً تأمين الاتصالات العاملة بين



العديد من المكاتب والمنظمات المشتغلة في هذا الحقل. في شهر يوليو انعقدت هنا في جنيف مجموعة عمل عن تقنيات المعلومات للملكية الفكرية. وقد تبنت تلك المجموعة عدداً من القرارات والتوصيات، والتي تضمنتها الوثيقة WO/GA//XX1/5. دعوني من منطلق هذه النقطة أساساً أن أصرح بأن وفد بلادي يبدي موافقته التامة على تلك النتائج والتوصيات».

### أدلى الوفد الألماني بالتصريح التالي:

«أولى التهاني من وفد بلادي إليك، السيدة الرئيس. أنا سعيد يا سيدتي، لرؤيتك على رأس مجلسنا هذا خلال فترة هاتين السنتين.

«الدكتور إدريس، إنابة عن الحكومة الألمانية، أود تهنئتك على تحمل مسؤولياتك الجديدة. نحن جد سعداء إذ أمكننا الحصول على شخص ذي قدرة وجدارة لتولي زمام الأمور قديماً. لقد ظلت بلادي دائماً تولي اهتماماً خاصاً لجهود التعاون التي تنتهجها المنظمة الدولية للملكية الفكرية لمساعدة ومد يد العون للدول النامية، ومرة أخرى أنتهز هذه السانحة لأعيد تأكيد عزم بلادي رؤية ذلك التعاون يتفاعل إلى الأمام لتمكين مثل تلك الدول ليس فقط القيام بالترتيبات الضرورية تجاه قواعد تشريعاتها، بل أيضاً لتأكيد تطبيق أسس حماية الملكية الفكرية.

«لهذا السبب، فإن التصدي لتلك الأولويات الملحة، مما لا يتطلب من المدير العام الجديد البقاء لبعض الوقت انتظاراً لممارسة ولايته بشكل فعال. إن رغبة بلادي تكمن في أن الاجتماع العام لشهر أغسطس المقبل من شأنه أن يمنحه الصلاحيات الواضحة في ذلك المنحى لكي يستخدم نوعاً من المرونة في العمليات التي لا تحتل الانتظار، وذلك سيؤدي إلى تسهيل مرور التتابع.

«وبهذا المستوى، سيصبح بإمكان المدير العام الآن المبادرة بطرح الاستشارات المناسبة حول أكثر الإصلاحات الإنشائية عجلة، وتحديد برنامجه، ووضع ميزانيته للسنتين المقبلتين، وأن يعطي زخماً أكبر للتعاون الشمالي - الجنوبي الذي سوف يؤسس لواحد من الأبعاد الحقيقية لما تقوم به المنظمة الدولية من أنشطة.

«وربما أمكن ملاحظة أن هذا الحديث عن سياسة المنظمة قد فتح آفاقاً مهمة في هذا الصدد. إن وفد بلادي ليرحب تحديداً بالخطوة الجديدة التي انطلقت من رحم المنظمة الدولية للملكية الفكرية وتهتم بكل من بداية إجراءات الاستشارات الداخلية وتقوية الدور الذي تلعبه المنظمة في تنظيم القواعد، ثم إدخال تقنيات جديدة للاتصالات من خلال مجتمع المعلومات الجديد».

## أدلى الوفد الصيني بالتصريح التالي:

«بداية ذي بدء، أود أن أسجي، إنابة عن الوفد الصيني وباسمي شخصياً، أطيب أمنياتي الحارة إلى الدكتور كامل إدريس بمناسبة تعيينه مديراً عاماً جديداً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. «أحرز الدكتور إدريس إنجازات عظيمة في القانون الدولي وفي قوانين الملكية الفكرية، فضلاً عن خبرته الثرة التي حصل عليها من عمله الطويل في الحقل الدبلوماسي والمنظمات الدولية. إنطلاقاً من فترة عمل تقارب الخمسة عشر عاماً في المنظمة الدولية للملكية الفكرية، فقد عرف المنظمة ودولها الأعضاء كأفضل ما يكون، ومع إلمامه التام بالعديد من اللغات، لدينا كل الأسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن المنظمة الدولية للملكية الفكرية، تحت إشرافه المباشر، سوف تستمر في تقديم جهودها الرامية إلى ترقية أسباب الملكية الفكرية عبر العالم، وتعزيز مكانة الملكية الفكرية وما تلعبه من دور في كل الدول، وسوف تنشر أواصر التنسيق والتعاون في مجال الملكية الفكرية وفي أي منطقة تتطلب التنمية لدى الدول النامية. ستظل الصين، كالعهد بها دوماً، داعمة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية في أعمالها فضلاً عن تعزيز أواصر التعاون مع المنظمة. إننا نأمل مع تطور حقوق الملكية الفكرية في الصين مستقبلاً، سوف نستمر في الحصول على المساعدات والدعم من الدكتور إدريس والمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«يؤكد الوفد الصيني أنه، لولا الإنجازات الكبيرة والجهود المتصلة على المدى الطويل وبلا انقطاع للمدير العام الحالي الدكتور أرباد بوقش في مجال الملكية الفكرية، فإن المنظمة الدولية للملكية الفكرية لم تكن لتحظى بهذا الامتياز الرفيع وذلك التأثير حول العالم بما قدر لها أن تستثمر كمنظمة عالمية مع 165 دولة عضوة وحوالي عشرين إتحاداً تحت قيادتها. نتيجة لذلك فقد حظي الدكتور بوقش بقدر كبير من الاحترام من قبل مجتمع الملكية الفكرية والمجتمع العلمي عبر العالم. معترزاً بالشعور الودي الطيب تجاه بالشعب الصيني واهتمامه المقدر برعاية الملكية الفكرية الصينية، فقد ظل الدكتور بوقش وعلى مر الزمن داعماً ومسانداً للصين في تأسيس وتطوير نظام للملكية الفكرية هناك، وتدريب المهنيين العاملين في مجال الملكية الفكرية، ووضع تشريع للملكية الفكرية، وتعاونه في تبادل الخبرات مع بقية دول العالم في هذا الحقل. وبهذا فقد استحق ثناء وإعجاباً كبيرين من الحكومة ومجتمع الملكية الفكرية في الصين. لذا يرغب الوفد الصيني في التعبير مرة أخرى عن عميق إعجابه وتقديره للدكتور بوقش.

«أود بهذه المناسبة أن أؤكد مرة أخرى بأن الصين عضو في مجموعة الأقطار الآسيوية كما أنها أيضاً الدولة الأكثر تطوراً في العالم. ومن خلال تصنيف المجموعات الإقليمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، فإن الصين تعد قطاعاً مستقلاً. إن الإنجازات المتميزة للصين في مجال الملكية الفكرية قد أكسبتها تقديراً متنامياً على نطاق العالم. ولكن أياً كان الأمر، حتى يومنا هذا، ليس هناك مواطن صيني واحد تم وضعه في مراتب المنظمة الدولية للملكية الفكرية. وقد سبق للحكومة الصينية أن رشحت الدكتور غاو لولين، الرئيس الحالي لمكتب الصين لبراءات

الاختراع للانضمام للمنظمة. علماً بأن الدكتور غاو مستوف لكل الشروط التي تؤهله لاحتلال المراكز العليا في المنظمة في ما يختص بالمؤهلات والمعرفة والخبرة والقدرات ذات الصلة. وقد تضمنت التوصية أن الصين تعطي أهمية كبيرة وتعمل كثيراً على أهداف المنظمة الدولية للملكية الفكرية. وأعتقد أن الدكتور غاو لولين، كخبير متميز وعضو مؤسس لنظام الملكية الفكرية في الصين، سوف يعمل بكل طاقاته مسانداً للدكتور كامل إدريس، وبإمكانه حتى فتح آفاق لمستقبل أكثر إشراقاً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. وفقاً لهذا، فإن الوفد الصيني يرغب ملتصقاً من الدكتور كامل إدريس المدير العام المنتخب للتو، والدول الأعضاء في كل من لجنة تنسيق المنظمة والجمعية العمومية أن تأخذ بعين الاعتبار وجهة النظر الصينية».

### أدلى الوفد الهندي بالتصريح التالي:

«يود الوفد الهندي الانضمام إلى بقية الوفود بأن يتقدم إليك، يا سيدتي، ولبقية الأعضاء المنتخبين شاغلي الوظائف في المنظمة، بأطيب التهاني القلبية. نحن على ثقة تامة بأن روح التناغم والتعاون التي كانت دائماً سائدة في أوساط المنظمة الدولية للملكية الفكرية ستظل على الدوام بشكل أكثر متانة تحت رقابتكم القوية أنت وزملائك.

«نحن سعداء بأن المدير العام المقبل سيكون ابن إفريقيا المتألق الذي يمثل آمال وتطلعات دول العالم النامي كافة. إن المشكلات السائدة في مجال حقوق الملكية الفكرية، على نطاق واسع، تكاد تكون عامة لدى كل الدول النامية. ويعزى ذلك إلى نقص البنية التحتية الصلبة لإدارة حقوق الملكية الفكرية، ونقص الوعي العام حول أمور حقوق الملكية الفكرية ومآلاتها، والغياب التام لنظام إداري متماسك ومتطور بصورة جيدة يُعنى بحقوق النشر وحقوق الجوار، والإهمال التام لما برز من دراسات أكاديمية حول حقوق الملكية الفكرية، ثم غياب مجموعة من المهنيين الأكفاء والمختبرين لإدارة دفة الملكية الفكرية. هذه السليبات تتطلب منا أن تتم مواجهتها بشكل حاسم. لذلك فنحن نتطلع إلى المدير العام الجديد بآمال عراض وتوقعات كبيرة لمساعدتنا في هذا المنحى. الدكتور كامل إدريس معروف لدينا جميعاً - بعيداً عن ابتسامته الطبيعية، وإخلاصه المتجدد، ودماثة خلقه - بأنه على استعداد لمواجهة كل القضايا الخلافية وتسويتها بما لديه من قدرة خارقة على الاستيعاب والفهم. لقد سبق أن أُتيحت لنا الفرصة لنعرف منه مباشرة مدى رؤيته للأمور، ورغبته الملحة في تأكيد الشفافية والمحاسبية، ومثابرته على إعادة تنظيم وتوسعة النموذج الإداري، وتصميمه لتأكيد برامج العمل ذات التركيز الإقليمي. ونحن سعداء تحديداً أن سمعنا من كلمة الدكتور إدريس أنه ينوي السعي، عبر برنامج التنمية والتعاون، إلى تلطيف الآثار السالبة للتغيير السريع الذي حدث للدول النامية والأقل نمواً.

«بلا أدنى شك فإن تلك أولويات لا نملك إلا مساندتها والمساهمة في حلها بكل المقاييس والإمكانات. وهو أيضاً بلا شك يحمل على أكتافه عبئاً ثقيلاً، ولكنني أود التأكيد له أن مهمته

المنوطة به ستجد كنزاً من العزيمة الصادقة والتعاون غير المحدود من كل فرد فيها. «كما ننتهز أيضاً هذه السانحة لنقدم تحياتنا الخالصة وشكرنا إلى الدكتور أرباد بوقش الذي سيغادر مكتبه قريباً بعد عمل حافل بالعطاء. وأثناء فترة عمله الطويلة المتميزة، ظلت المنظمة الدولية للملكية الفكرية تنمو من قوة إلى أكثر قوة وأصبحت واحدة من أكثر منظمات الأمم المتحدة حيوية وفعالية. إن تعريف الدكتور بوقش بالمنظمة كان شيئاً متكاملًا. نتمنى له سعادة دائمة وموفور الصحة في مقبل أيامه».

### أدلى وفد المملكة المتحدة بالتصريح التالي:

«تغمرنى السعادة بالانضمام لبقية الوفود لأتقدم بأطيب وأحر آيات الترحيب للدكتور كامل إدريس الذي آل على نفسه تحمل مسؤولية قيادة المنظمة الدولية للملكية الفكرية. «وأسمحوا لي بالمقابل أن أسدي تحية حارة لخلفه الدكتور أرباد بوقش الذي ظلت إنجازاته كموظف خدمة مدنية متميز محل تأريخ من ممثل الولايات المتحدة ومتحدثين آخرين. «خلال الفترة التي قادها الدكتور بوقش والتزامه التام بها، أصبحت المنظمة الدولية للملكية الفكرية بما هي عليه اليوم. لقد ساعد في انسجام أنظمة الملكية الفكرية عبر العالم فضلاً عن مساهمته في ترقية أنظمة التسجيل العالمية - بمقتضى اتفاقية التعاون لبراءات الاختراعات وبروتوكول مدريد - التي تساعد بشكل مباشر مستخدمى الملكية الفكرية. «إن أسرة الأمم المتحدة بأكملها مدينة للدكتور بوقش بما حققه من نجاح لهذه المنظمة. وإنها وصية وعهد له أن يتم اختيار نائب المدير العام مباشرة ليكمل البناء الذي وضع هو لبناته الأولى. لذا أضم صوتي للآخرين متمنياً له كل أسباب السعادة والرضا في مستقبل حياته. «أما الدكتور كامل إدريس فلم يكن هناك من هو أفضل منه لقيادة المنظمة. خبرته الواسعة في مجال الملكية الفكرية، وشخصيته وثقافته، ثم مهاراته كقائد ودبلوماسي، جميعها مما يؤكد أن المنظمة تسير من قوة إلى أكثر منعة. في خطابه الذي ألقاه اليوم، كان الدكتور إدريس قد ضرب الأرض وهو يركض. لقد وضع خريطة طريق لتطور مستقبل المنظمة. إذن لا وقت لإضاعته هدرًا، ونتفق مع ممثل الكاميرون وآخرين من الذين طالبوا المدير العام الجديد بالبداية في مشاوراته مع العاملين وممثلي الدول الأعضاء فوراً. «نرحب بتأكيدات الدكتور إدريس بوضعه أسس المحاسبية والشفافية والاتصالات الفعالة بين الدول الأعضاء، ونتطلع بشدة للعمل معه.

«سيدتي، رئيس الجلسة، وفقاً لما أعلنته قيادتكم، هناك موضوعات مهمة يتطلب مناقشتها خلال هذا الأسبوع، وتضم تلك التي أثّرت من جانبنا وكذا من بعض الوفود، والتي قيد التشاور مع المجموعات الإقليمية. وسيتم التعامل معها كنقاط ذات أولوية في في الأجندة، ولكن اليوم،

فهو الوقت الذي نود التعبير فيه هن عميق مشاعرنا وتحايانا إلى الدكتور بوقش ودعمنا القوي لخلفه، الدكتور إدريس».

### أدلى الوفد المصري بالتصريح التالي:

«أسمحوا لي، سيدتي، بالتعبير عن تهنئتنا بانتخابكم لرئاسة الجمعية العمومية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. ويجدر بي أيضاً تهنئة كل من نائبي الرئيس. ونحن على ثقة أنه بما لديكم من خبرة ومهارات، ستكونوا قادرين على تتويج عملنا بالنجاح.

«إنابة عن الوفد المصري، أود التعبير عن عميق تهنئتنا إلى الدكتور كامل إدريس بمناسبة انتخابه مديراً عاماً جديداً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. الدكتور كامل إدريس يعد أنموذجاً لأحد أبناء قارة إفريقيا والذي شرف قارته في العديد من المنتديات العالمية. وهو أيضاً أحد أبناء السودان، وهو بلد عربي آخر ترتبط معه مصر بوشائج متينة عبر العديد من الأجيال والقرون. إن تاريخ الدكتور إدريس مليء بالإنجازات التي تجعله مؤهلاً ليصبح المدير العام. فهو خبير في القانون الدولي، وهو دبلوماسي مرموق، ومنذ ارتباطه بالعمل في المنظمة عام 1982، سبق له أن تقلد العديد من مناصبها مما أكسبه مهارات مكثفة وكفاءة عالية. لقد كان تعيينه نائباً للمدير العام في عام 1994 نتاجاً طبيعياً لما قد حققه من نجاح في المنظمة آنذاك. لذا فإن تعيين الدكتور كامل إدريس مديراً عاماً يأتي في منعطف تاريخي مهم لهذه المنظمة، ليس فقط بالنسبة لمنظمتنا بل أيضاً للمجتمع الدولي قاطبة».

«ما سمعناه بالأمس من الدكتور كامل إدريس في تصريحه المتطلع إلى المستقبل وما يحويه من موضوعية من شأنه أن يقنعنا أكثر بأننا، بصفة خاصة، قد اتخذنا الاختيار الأكثر سعادة بإعادة ثقتنا فيه. كما أن تركيزه على التعاون التنموي، وتنمية الموارد البشرية، والبرامج ذات التركيز القومي، وتصميمه على أن يبقي المتغيرات التكنولوجية في طليعة اهتمامه، جميعها مثار ترحيبنا الصادق. لقد استمعنا أيضاً بمزيد من الاهتمام إلى الأسئلة العديدة المهمة التي وجهها لنا، نحن الدول الأعضاء، ونؤكد له أننا سوف نضع أسئلته نصب أعيننا ونوليها أكيد اهتمامنا.

«السيدة الرئيس، نتطلع أن نرى المدير العام الجديد وهو يبدأ مسيرته على وجه السرعة بمواجهة العديد من الأعمال الأكثر إلحاحاً التي تواجهه، وبخاصة الأمور ذات العلاقة بتنفيذ البرنامج والميزانية. ويحدونا الأمل في أن توضع موارد المنظمة الدولية كافة تحت تصرفه خلال الفترة الانتقالية.

«ختاماً، سيدتي الرئيس، نود أن نؤكد للمدير العام الجديد الدكتور كامل إدريس الذي يفخر وفندا بمناذاته الأخ، دعمنا غير المحدود وتعاوننا له في سعيه لجعل المنظمة الدولية للملكية الفكرية جهازاً كاملاً الاستجابة لحاجات ومتطلبات زمننا الحاضر الأسرع تقلباً».

## أدلى الوفد المكسيكي بالتصريح التالي:

«سيدتي الرئيس، يود الوفد الذي أمثله أن يتقدم إليك أولاً بالتهنئة على انتخابك لرئاسة أعمالنا خلال العامين المقبلين. وهذا ببساطة اعتراف بتميزك بحياة مهنية طويلة في مجال الملكية الفكرية.

«ثانياً، يعبر وفد المكسيك عن احترامه وتقديره للدكتور أرباد بوقاش، ويرغب الوفد في إرسال تحية خاصة لهذا لرجل الذي ظل، من أجل مصلحة هذه المنظمة والعديد من دولها الأعضاء، مكرساً جزءاً كبيراً من حياته وأفكاره، ومعاناته، ومثله العليا، وأهدافه ومراميه وما صاحب ذلك من تحديات خلال فترة امتدت لسنوات عديدة مضت.

«ثالثاً، بعظيم الامتنان يتقدم وفد المكسيك بالتهاني الطيبة للدكتور كامل إدريس، الذي تم انتخابه بالإجماع مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، ويتمنى له كل أسباب النجاح في تنفيذ وظيفة ذات مسؤولية في غاية الأهمية.

«الدكتور إدريس، نحن نعلم أن ما يأتي من أيام يحمل أوقاتاً من التغيير والتحدي للمنظمة ودولها الأعضاء، ونحن على ثقة بأننا تحت قيادتكم سنواجه ذلك بكل نجاح. ولعلك تكون واثقاً من الآن فصاعداً بتلقي التعاون التام من حكومة المكسيك.

«السيدة الرئيس، خلال الأسابيع المقبلة سنجد أنفسنا في خضم فترة مكثفة من التحضير لأعمال الفترة القصيرة المتصلة بالتحول نحو إدارة جديدة.

«جميعنا يعلم أن الخبرات الكبيرة التي كان يمتلكها المدير العام السابق، الدكتور أرباد بوقاش، في سبيل ترقية أهداف المنظمة وإداراتها خلال العقدين الماضيين، كلها تمثل مرجعاً قيماً سوف تفيد منه الإدارة الجديدة وسيكون موضع تقديرها إلى حد كبير، وستبقى تلك الخبرة عوناً ومساهمة للإدارة الجديدة».

«وبهذا المستوى فقد أتاحت لي الفرصة لأستثمر علاقات مباشرة مع كلا الشخصين، وبحسب طريقة تفكيري، لا أعتقد كثيراً أن عهداً من الإدارة قد مضى بسبب مغادرة المدير العام، بل العهد ذاته سوف يستمر، وبما أن السيد إدريس نفسه يعد واحداً من الإضاءات القيادية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، فإن صعوده إلى قمة المنظمة لا يبدو لي إلا تتويجاً حتمياً لعمل مرموق بامتياز. يشكل محتوى خطابه بالنسبة لنا إشارة إلى دفقة من الحيوية الجديدة التي ينوي بثها في أوصال المنظمة باعتباره المدير العام لها، وهو يملك كل الصفات المميزة لذلك الغرض. إذن فنحن فخورون عن قناعة لرؤيته على قمة هذه المنظمة الدولية. ومع ذلك، ليس كافياً فقط بالنسبة له أن ينتخب لتولي هذه المسؤولية العظمى: لذا أود التعبير عن أشد أمنياتي حرارة بأن الدكتور كامل إدريس ذلك الأنموذج الراقي للدبلوماسية والمفكر الذي يعرف الجميع مؤهلاته، ربما ليس لي قدم منجزات درامية فقط، ولكن ربما لينجح في تكيف المنظمة الدولية للملكية الفكرية مع متطلبات الألفية المقبلة، ليس فقط بفضل مواهبه الشخصية بل أيضاً بفضل



مساهمات قادة مفكرين آخرين، أولئك العاقدون العزم والقادرون على العمل من أجل هدف نبيل جدير بالثناء لهذه المنظمة الدولية».

### أدلى وفد ترينيداد وتوباغو بالتصريح التالي:

«ننضم للآخرين، ترينيداد وتوباغو، لنقدم عميق تهانينا لتعيينكم في موقع الرئيس، وكذلك تعيين الآخرين الذين سيقدمون لكم المساعدة في هذا

الاجتماع. سيدتي الرئيس، حينما عرضت رجاءك بأن يتقدم وفد بروندي المحترم بالحديث قبل وفد ترينيداد وتوباغو، كنت أعلم أنك كنت تمارسين أقوى ما لديك من الحس الطيب، لأنه ولطالما ظل يتحدث بإسم آلاف النساء، أعلم أننا سوف نسمح له بالحديث مرة تلو الأخرى. وإلى هذا الحد، سيدتي الرئيس، تكوني قد أدت كل القدرات الضرورية في الشخص القيادي ذي النزعة الإنسانية والقلب الكبير. ولا يساورنا الشك في أنه خلال ما يتبقى من فترة لرئاستكم سوف تستمرون في قيادة هذا الإجتماع واجتماعات أخرى في مستوى مشرف.

«يتقدم وفد جمهورية ترينيداد وتوباغو بأطيب التهاني القلبية إلى الدكتور كامل إدريس بمناسبة انتخابه مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. سيدتي الرئيس، في هذا العصر الذي نعيشه اليوم، فإن ما نفعله من أشياء هنا وما نطلقه من أحاديث الآن يمكن رؤيتها والاستماع إليها في أي مكان في هذه القرية العالمية. إذن وعبر السنوات الأربع والعشرين الماضية التي قاد فيها الدكتور بوقش هذه المنظمة، شهدنا تطورات عظيمة، ونظراً لما يتمتع به الدكتور بوقش من قدرات مدهشة فإن المنظمة الدولية للملكية الفكرية قد وصلت إلى ما هي عليه الآن. لقد قادنا إلى حواف الألفية الثالثة و، كما قلت له أخيراً، فإن حياته قد بدأت للتو. لذلك فإن ترينيداد وتوباغو تعبر عن عظيم تقديرها للدكتور بوقش. ونتمنى له التوفيق وأن يبارك الرب في أيامه وهو يبدأ مرحلة جديدة من حياته.

«ونحن نقرب من الألفية الجديدة، فبلا شك سوف نشهد تغييرات مدهشة في هذا العصر المعلوماتي بما تحمل معها العديد من التدخلات المراد بها حماية الملكية الفكرية في العالم. وإن الدكتور إدريس سوف يقدم، من وجهة نظرنا المفعمة بالاحترام له، الاستمرارية المطلوبة ودينامية جديدة ضرورية للغاية للنهوض بالمنظمة إلى الأمام. نحن نعرف، ومعنا سنبدى تعاطفاً وتأزراً، ولأننا نعلم أن هذه المهمة لن تكون سهلة إذن يتطلب منه منذ الآن مواجهة متطلبات العالم النامي».

«مرة أخرى، أود متمنياً للمدير العام الجديد موفور الصحة ومزيداً من التوفيق، ومرة أخرى أيضاً أود التأكيد على المساعدات القيمة والدعم الذي تلقيناه من الدكتور بوقش. أمنياتي له السعادة والصحة في مقبل أيامه وآمل ألا يتوقف نشاط حياته عند هذا الحد. وأنا على يقين بأنه سيستمر في كونه أكثر حكمة وأغزر خبرة. لا أعتقد أنه سيرضخ بكل بساطة للتقاعد متجهاً للبحث عن معاشه. إنه سيفعل ذلك، بالطبع، ولكنني أعتقد أنه أيضاً سوف يستمر في العمل لصالح المنظمة الدولية للملكية الفكرية وأنشطتها».

### أدلى وفد المملكة العربية السعودية بالتصريح التالي:

«السيدة رئيس الجلسة، أسمحوا لي بداية أن أعبر لكم عن شكر العربية السعودية بمناسبة انتخابكم لرئاسة جمعيتنا العمومية متمنياً لكم كامل النجاح. نحن على قناعة تامة بأن خبراتكم وما لديكم من قدرات سوف تقودنا نحو جمعية عمومية ناجحة.

«السيدة الرئيس، أسمحوا لي بالتعبير عن إعجابي بالخدمات المتميزة التي قدمها الدكتور أرباد بوقش خلال قيادته لهذه المنظمة. إن حكمته ومعرفته وقدراته جعلت من المنظمة الدولية للملكية الفكرية منظمة أمكنها إنجاز العديد من الأعمال الرائعة. كما أن قدراته وحسه القيادي قد دفعا بهذه المنظمة نحو معرفة أفضل لمتطلبات الدول النامية في مجال الملكية الفكرية. هذه المنظمة وفرت لتلك الدول المساعدات التقنية التي بلا شك ساعدتها على تنفيذ برامجها التقنية الطموحة. نود بهذا أن نتمنى للدكتور أرباد بوقش كل النجاح وموفور الصحة والسعادة في المرحلة المقبلة من حياته.

«السيدة الرئيس، إنابة عن حكومة المملكة العربية السعودية، أود التعبير عن سعادتنا وترحبنا بانتخاب الدكتور كامل إدريس مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. كما أود إنابة عن حكومة بلادي أن أتقدم بالتهنئة الخالصة له بمناسبة انتخابه في هذا المنصب. الدكتور إدريس، إنني على قناعة تامة بأن قدراتكم تؤهلكم لقيادة هذه المنظمة لإيمانكم وقدراتكم المتميزة وكفاءتكم الشخصية، وخبراتكم التي لا جدال حولها في مسعاكم الدبلوماسي. الدكتور كامل، لقد كشفتم عن قدرة تقنية متعددة، وبرهنتم على مكانتكم الرفيعة في مجال الملكية الفكرية، ولقد أبنتم إخلاصكم وتفانيكم في مهمتكم خلال فترة عملكم في هذه المنظمة. الدكتور إدريس، لقد استمعنا بكل اهتمام، يحدونا أمل كبير، لخطابكم الافتتاحي وتصريحكم بالقبول الذي يؤشر إلى نياتكم الطيبة لإنجاز أهداف طموحة من أجل هذه المنظمة. إنها أهداف شفافة وتنضح تنظيمياً من وجهة النظر الإدارية. لقد عبرت عن وأوضح شجاعة في مواجهة مباشرة مع تحديات المستقبل. إن واحدة من أولى التحديات التي تواجه الدول النامية، سيدي، هي تطبيق اتفاقية الرحلات مع منظمة التجارة العالمية. نحن على قناعة تامة بأن هذا الأمر سيكون مصدر قلق الدكتور إدريس واهتماماته وسيكون مركز كل المشاورات التي يخطط لاتخاذها. ونعبر عن كامل دعمنا لما يقوم به من جهد وعمل في هذا المجال.

### أدلى وفد نيجيريا بالتصريح التالي:

«السيدة، رئيس الجلسة، إن وفد بلادي سوف يستغل هذه المنصة لأسباب ثلاثة أساسية. «أولها لتهنئتك شخصياً ونائبكم الإثنين على انتخابكم المستحق لتولي المناصب الأعلى في هذه الجمعية العمومية.

«ثانياً، للتعبير عن سعادة وفدنا، وبالحقيقة بلادنا، حول تعيين واحد من أبناء إفريقيا

المرموقين، الدكتور كامل إدريس، مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. إذن فنحن ننتهز هذ السانحة لتهنئته ونتقدم بالشكر لجميع الوفود المحترمين، على قرارهم هذا الذي جاء بالإجماع.

«العديد من الوفود الذين سبقونا بالحديث كانوا قد أشادوا مدحاً للصفات العظيمة التي يحملها الدكتور إدريس والتي ساهمت كثيراً في جعله مناسباً لخلف للدكتور أرباد بوقش. نحن نتفق كلية مع هؤلاء الوفود. إذ أن تعيين الدكتور إدريس يشكل مصدر فرحة وفخر لبلادي، وبالطبع لكل القارة الإفريقية، إذ ينظر اليه بكونه اعترافاً بأفضليته ومهنيته وتميزه ونزاهته وحصافته.

«إنه تقدير للحصاد الإفريقي من الكفاءات والقيادات المهنية الذي يمثله الدكتور إدريس بكل تواضع. إن نيجيريا لا يساورها أدنى شك في أنه سيستغل خبرته الثرة كعالم ودبلوماسي مكتمل الجوانب وخبير إداري في المنظمة الدولية للملكية الفكرية ليؤكد لنا أن هذه المنظمة ستضي قدماً لتصبح المنظمة المتخصصة الأولى من بين المنظمات المتخصصة في بوتقة الأمم المتحدة.

«إن خطاب القبول الذي أدلى به الدكتور إدريس بالأمس يعطينا أملاً جديداً نحن في الدول النامية، وبلاده واحدة منها، بأن المنظمة تحت قيادته ستكون رهن الاستجابة لحاجات الدول النامية في سعيها لاستغلال أصولها ومواردها الثقافية الموهولة، بغية تنمية اقتصاداتها والمساهمة في معرفة العالم وتقدمه.

«حقيقة، فإن خلفية الدكتور إدريس من شأنها أن تضعه في الموقف المتميز لتقدير حاجة الدول النامية لتصبح ذات بأس وقوة في كل مجالات سعيها لتمكينها من السير إلى الأمام مع بقية العالم نحو الألفية المقبلة.

«السيد الرئيس، إن المجموعة الإفريقية مدركة للجهود الإيجابية الأخرى للمدير العام في تمسكه ودعمه لرؤية المنظمة الدولية للملكية الفكرية بوضع الملكية الفكرية في قلب التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ونتفق في أن الملكية الفكرية، بمفردها، ليست غاية في حد ذاتها. إننا نحث المدير العام للاستمرار في ترجمة هذه الرؤية ومن ثم تحسين رفاهية كل الشعوب. ستستمر الشعوب الإفريقية في دعم سياسة المنظمة التي تترجم الرؤية في اندماج عملي لأبعاد التنمية من واقع برنامج عمل المنظمة الدولية للملكية الفكرية.

السيد الرئيس، إن عمل المنظمة يقودني إلى نقطة رؤيوية أخرى وهي إذا قدر للدول النامية أن تعتبر شركاء في تطور جهاز الملكية الفكرية، إذن فإن مسألة التنبؤ واليقين في تمويل أنشطة المنظمة التي تخدم مصالحها يجب أن تكون مبدأً أساسياً للمنظمة. تحديداً، ومنذ العام 1997، حينما تولى الدكتور إدريس منصبه، كان الفائض المالي للمنظمة يتم استثماره استراتيجياً في تحديث البنية التحتية للمنظمة بما يخدم الدول الأعضاء، بما فيها الدول النامية. جاء ذلك متفقاً

مع بداية الدول النامية مضاعفة جهودها في تأسيس وإعادة النظر وتحديث مؤسسات الملكية الفكرية لديها، ونذكر بالتقدير المساعدات الفنية للمنظمة من أجل تحديث البنية التحتية للملكية الفكرية وبناء قدراتها. هذه الجهود والزخم ينبغي أن يجدا المساندة والدعم في عهد الاقتصاد المبني على المعرفة إذ أن الملكية الفكرية قد أصبحت أحد المكونات المهمة في استراتيجية التنمية. في أروقة العالم النامي تبدو الحاجة للمزيد من التعاون الدولي ومساعدة المنظمة الدولية للملكية الفكرية، أكثر إلحاحاً بكل تأكيد. من المعلوم بشكل واسع اليوم أن الملكية الفكرية لديها تدخلات واسعة عبر القطاعات من أجل أهداف مهمة في السياسة العامة، من أجل أن يترك ذلك أثره على حماية الصحة العامة والتنوع البيولوجي. ونأمل في هذا الصدد أن تأخذ المنظمة الدولية للملكية الفكرية في اعتبارها لاحقاً، هذا الأثر القطاعي الذي يحدث، خلال برنامج عملها.

«السيد الرئيس، هناك آلية مهمة من خلالها تدفع الدول النامية الملكية الفكرية إلى الأمام، وهي عمل الأكاديمية العالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. هذه الأكاديمية تؤدي عملاً ممتازاً للدول الإفريقية والدول النامية الأخرى لبناء قدراتها في الأمور الخاصة بالملكية الفكرية حتى يتسنى لها جني الفوائد الضرورية. إن حماية الملكية الفكرية ينبغي أن تسير يداً بيد مع المكون التعليمي. إضافة لذلك نحتاج إلى أن يكون كل من التعليم والتدريب قادرين بشكل كامل على استخدام الخدمات المتعددة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، مثلاً معاهدة التعاون لبراءات الاختراع وأنظمة مدريد. لهذا السبب يجب على الأعضاء مساندة المطالبة بالمزيد من التمويل لمواجهة أنشطة الأكاديمية لمقابلة متطلباتها المتعددة وتدريب منسوبي الدول النامية. سيدي الرئيس، إن تكوين جهاز مكتمل الجوانب للملكية الفكرية ثم إنشاء بيئة عمل طيبة هما واجبان أساسيان لتيسير العمل في أنظمة الملكية الفكرية. إن المجموعة الإفريقية لفخورة بتعيين المدير العام الدكتور كامل إدريس والتزامه بإنشاء جهاز للملكية الفكرية بحيث يتسنى للدول النامية أن تجني فوائده المرجوة. ونتطلع إلى جميع الأعضاء بإمداد المدير العام بمواردهم كافة حتى يمكنه إكمال العمل المهم المتراكم أمامه.

« في الختام، سيدي الرئيس، أسمحوا لي بالتعبير عن وافر شكري وتقديري لجميع الوفود الإقليمية لهذه المنظمة على دعمهم الذي عبّروا عنه في اختيار الدكتور كامل إدريس لفترة رئاسية ثانية مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية».

#### أدلى وفد البرتغال بالتصريح التالي إنابة عن المجموعة (ب):

«متحدثاً باسم المجموعة ب، أود التعبير عن عميق التهاني الطيبة للدكتور كامل إدريس بمناسبة تعيينه مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، للفترة من 2003 إلى 2009. «إننا نعرف، بكامل التقدير، الكفاءة التي كان ينظم بها أعمال المنظمة الدولية للملكية

الفكرية، وأهمية استراتيجية الإصلاح التي انتهجها إدارة للمنظمة، حتى يتسنى للملكية الفكرية أن تقدم خدماتها بشكل أفضل لأسباب ودواعي النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة.

«إن المجموعة ب تحديداً تود أن تعبر عن تقديرها وعرفانها لاتصالاته النشطة مع كل الدول الأعضاء، ونشكره على مجهوداته الدائمة للترويج للملكية الفكرية عبر العالم.

«أود أن أنقل للدكتور كامل إدريس أن المجموعة (ب) عاقدة عزمها لتقديم كامل أسباب التعاون له خلال فترة رئاسته الثانية، وأن تساهم مع سعيه الناجح نحو أجندة عالمية حيوية للملكية الفكرية، كهدف أسمى للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. إن المجموعة ب على ثقة بأن منجزات المنظمة ستزداد نمواً في المستقبل تحت قيادة الدكتور كامل إدريس، بفضل قدرته الإدارية ونظرة الثاقبة ومهاراته».

**أدلى الوفد البرازيلي، متحدثاً باسم مجموعة أميركا اللاتينية ودول الكاريبي، بالتصريح التالي:**

«إنابة عن مجموعة دول أميركا اللاتينية والكاريبي، أشعر بالفخر والسرور في تهنئة الدكتور كامل إدريس بمناسبة إعادة انتخابه في منصب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. «أكمل الدكتور كامل إدريس فترته الأولى مديراً عاماً بكثير من الالتزام والحيوية، وقد ساهم كثيراً في تحديث المنظمة وأساليب عملها. ونحن نعدّه منصفاً ومناسباً بالقدر الذي تطلب إعادة انتخابه بإجماع الدول الأعضاء في هذه المنظمة.

«نكرر تقديرنا وتحايانا لعدد المبادرات التي تم اتخاذها خلال فترة إدارته الأولى. إن مجموعتنا بصفة خاصة تعتبر ذلك عملاً مهماً للسير به مع تقوية برنامج التعاون من أجل التنمية وترقيته. كذلك من الأهمية بمكان للمجموعة تكوين لجنة ما بين الحكومات للملكية الفكرية والموارد الجينية، والمعرفة التقليدية، والفنون الشعبية.

إن الملكية الفكرية مادة تستحق بروزاً ضخماً مستداماً في أوساط الأجندة العالمية. هناك تطورات حديثة جرت في منتديات مختلفة ألقت الضوء على العلاقة بين الملكية الفكرية والتنمية ومساحات مهمة للفائدة العامة. إن أنشطة هذه المنظمة سوف تستمر في أهميتها المتنامية إلى الحد الذي يساعدها في إضفاء مزيد من العمق على المناقشات. على الملكية الفكرية أن تخدم كآلة ذات كفاءة عالية من أجل ترقية التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لدى كل الأمم.

إذن فنحن نفضل جانب التكامل في التنمية كمعيار لكل أنظمة المنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«مرة أخرى نكرر التهنئة للدكتور كامل إدريس في إعادة انتخابه، ونعبر عن أمنياتنا أن تكون فترته الثانية في الرئاسة أكثر نجاحاً من الفترة الأولى».

أدلى الوفد الباكستاني، متحدثاً إنابة عن المجموعة الآسيوية، بالتصريح التالي:

«السيد الرئيس، إنابة عن المجموعة الآسيوية، إنه من دواعي سروري أن أقدم بالتهنئة للدكتور كامل إدريس بمناسبة إعادة انتخابه في منصب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية لفترة ثانية. إن إعادة الانتخاب التي تمت بالإجماع والتهليل لهي حقاً انعكاس للثقة المستمرة التي تطمئن حيالها الدول الأعضاء في شخصه.

«إن إعادة انتخاب الدكتور إدريس لهي أيضاً تعبير عن الدعم للسياسات التي ظل ينتهجها، كما تتحدث عن النجاح في تحويل المنظمة إلى كيان ديناميكي رفيع من خلال منظومة الأمم المتحدة. وبذات المستوى فإنه إظهار للإحترام الذي ظلت الدول الأعضاء تبديه على الدوام اعترافاً بمهنيته، ومهاراته الدبلوماسية، وسلوكه الإبداعي، ومقدرته على موازنة المصالح المتضاربة لكل الشركاء.

«السيد الرئيس، سيكون تقصيراً من جانبي إن لم أذكر، في حضرة تجمعنا هذا في أكتوبر، بعضاً من الإنجازات المهمة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية تحت قيادة الدكتور كامل إدريس بما يشهد له ولكفاءته كفائد لهذه المنظمة المهمة. إن مبادرات الدكتور إدريس في تأسيس أكاديمية المنظمة الدولية للملكية الفكرية على نطاق العالم، وإنشاء مواد الموارد الجينية، والمعرفة التقليدية والأدب الشعبي في أجندة المنظمة، ثم برنامج للأعمال التجارية الصغيرة ومتوسطة الحجم، كلها أمور وجدت تقديراً ودعماً واسعين. خلال هذه المبادرات التي أطلقها المدير العام، أتيح لمعظم الدول الأعضاء الفرصة لتطوير مواردها البشرية، وتحديث والاستفادة من أصولها وحمايتها مثل المعرفة التقليدية، ثم تشجيعها لاستخدام الملكية الفكرية حافزاً للتنمية الاقتصادية. وكفائدة ثانوية، فإن ما كان سائداً من غموض حول الملكية الفكرية قد تم تبديده إلى حد كبير، وما لقيته من احترام، وبصفة خاصة في أوساط الدول النامية، قد ازداد بشكل ملحوظ.

«إن النجاح الذي أصاب الأجندة الرقمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، والتي تم وضعها قبل بضع سنوات، لهو إنجاز مهم آخر للدكتور كامل إدريس. في الألفية الجديدة، فإن مشروعات مثل شبكة المعلومات العالمية التابعة للمنظمة، وبرنامج التسويق العالمي للزراعة والسلع والتجارة، ومكتبات الملكية الفكرية، ومكتب برامج المساعدات التلقائية، جميعها مما يتوقع له أن يحرز فوائد بعيدة المدى للدول الأعضاء كافة.

«السيد الرئيس، لقد ظلت المجموعة الآسيوية وعلى الدوام ترحب بالمبادرات الصديقة للتنمية التي يطلقها المدير العام وتبسط كل معاول الدعم المتاحة ضماناً لنجاحها. لقد كان رائعاً بحق أثناء رسم الطريق للمنظمة الدولية للملكية الفكرية للأمام، أن الدكتور إدريس لم يكن يفقد نظرتَه أبداً تجاه الاهتمامات والقيود التي تعانيها الدول الأعضاء التي لم تكن قادرة على الاستفادة القصوى من إمكانات الملكية الفكرية في تنميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.



في هذا السياق فإن خطة العمل ذات التركيز الإقليمي قد أتت بفوائد مذهشة لعدد كبير من الدول الأعضاء للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. إن مرونة البرنامج لكي يتسق مع الشروط العصبية السائدة في كل دولة، ضمنت قبوله، وتعاون موظفي الملكية الفكرية في الدولة المضيفة وتنفيذه الناجح.

«السيد الرئيس، إن المجموعة الآسيوية على دراية تامة بالتزام الدكتور إدريس بشأن ترقية الملكية الفكرية على نطاق العالم. إن المبادرات التي أطلقتها المنظمة الدولية للملكية الفكرية تحت قيادته أتاحت فرصاً لدولها الأعضاء في تبيان توقعاتهم لما سيكون عليه التنظيم العالمي للملكية الفكرية. إن التجربة التي لا تقدر بقيمة، تلك المكتسبة خلال المناقشات المتعمقة والصارمة التي عقدت حديثاً بين الدول الأعضاء حول الموضوعات الأساسية ذات الاهتمامات وما يسود من قلق بشأنها، كانت بلا شك ذات فائدة قصوى لكل الدول الأعضاء في مداولاتهم حول المسائل المهمة للملكية الفكرية تحت اهتمام ورعاية المنظمة الدولية للملكية الفكرية بجانب منظمات أخرى كذلك.

«المجموعة الآسيوية أيضاً تقدر الجهود التوحيدية للدكتور إدريس في القائه الضوء على دور الملكية الفكرية في اقتصاد معرفي وتشيد إعجاباً بأفكاره في هذا المنحى. وفي هذا السياق يجدر بي أن أحييه عن كتابه الذي صيغ بعناية فائقة تحت عنوان «الملكية الفكرية: أداة قوية للنمو الاقتصادي». هذا الكتاب يحوي ثروة من المعلومات عن أفضل ما يمكن استخدامه للملكية الفكرية من أجل التقدم الاقتصادي. وأنا على يقين أن هذا الكتاب سيكون مصدراً قيماً للمعلومات يفيد الجهات المناط بها وضع سياسة الملكية الفكرية على نطاق العالم.

«قبل ختام حديثي، إنابة عن المجموعة الآسيوية، أود التأكيد للدكتور كامل إدريس عن مواصلة دعمنا له ونأمل له نجاحاً عظيماً خلال فترته الثانية من رئاسة المنظمة».

#### **أدلى الوفد الروماني، متحدثاً إنابة عن دول أوروبا الوسطى والبلطيق، بالتصريح التالي:**

«إنابة عن دول أوروبا الوسطى والبلطيق، إنه لشرف وسعادة غامرة لي أن أتقدم بالتهنئة للدكتور كامل إدريس بمناسبة إعادة انتخابه مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. السيد الرئيس، أسوة بما حدث في مناسبات سابقة، فإن مجموعتنا قد انضمت لنظرة الإجماع معبرة عن تقديره للطريقة المتميزة التي سارت على نهجها المنظمة تحت قيادة الرجل القدير الدكتور إدريس في تنفيذ أجندة سياستها ومواصلة أنشطتها المخطط لها. خلال هذه الفترة تمكنت المنظمة الدولية للملكية الفكرية من تأسيس نفسها كواحدة من المنظمات القيادية في ما يعرف بالاقتصاد الجديد المبني على المعرفة. لقد ظل طورها المثير للإعجاب الذي يمكن التنبؤ به، فضلاً عن مواردها المالية السليمة سمة بارزة في البيئة العالمية المضطربة أحياناً. وحتى اليوم، فإن المنظمة قد أحسن إعدادها لمواجهة تحديات المستقبل. وفي هذه الدورة الرابعة

عشرة غير العادية للجمعية العمومية، فإن مجموعتنا الإقليمية تود أن تتقدم بالتحية وإلقاء الضوء على مساهمة الدكتور إدريس الهادفة إلى ضمان سلامة الأداء الديناميكي المثير للإعجاب للمنظمة. حقاً إن الرؤية التي يتمتع بها المدير العام قد سمحت للمنظمة الدولية للملكية الفكرية أن تستمر في متابعة أجندة متعددة وغنية. لقد قامت المنظمة بتنفيذ مشروعات ومبادرات، ومن ناحية أولى، فقد لاقت استحسان الدول الأعضاء بل فاقت تطلعاتهم، ومن ناحية ثانية، عززت انتقال المنظمة من جهاز يغلب عليه الطابع التنظيمي إلى منظمة ديناميكية ذات رؤية تشاركية حيث يمكن للملكية الفردية أن تقدم خدماتها كأداة من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية. نحن نؤمن، السيد الرئيس، بأن الطرح الذي قدمه الدكتور إدريس للتو كان مثيراً للإعجاب بشأن النتائج والأهداف الطموحة للمستقبل. وحقيقة لقد حدثت العديد من الإنجازات الباهرة للمنظمة خلال الأعوام القليلة الماضية. وأود هنا أن أشير إلى أمثلة قليلة منها، مثلاً تبني اتفاقيات عالمية جديدة في مجال قانون براءات الاختراعات وتنفيذها، والتصميمات الصناعية، وحقوق النشر والحقوق الأخرى ذات الصلة، ووضع أجندة رقمية، والمبادرات الناجحة للمنظمة الدولية للملكية الفكرية حول قانون النزاعات في الأسماء المدونة على نطاق شبكة الإنترنت، والبداءة الناجحة لأنشطة أكاديمية المنظمة، ومشروع شبكة المعلومات العالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية لتحسين الاتصالات مع المكاتب الإقليمية للملكية الفكرية، والاهتمام الذي بدأ يظهر على الأمور ذات العلاقة للأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة، والتركيز الجديد على المعرفة التقليدية، والموارد الجينية والأدب الشعبي. وقد لا يسمح لي الزمن بسرد المزيد من التفاصيل والتوسع في هذه القائمة.

«إذا وضعنا في اعتبارنا الدور الذي تلعبه الملكية الفكرية في الاقتصاد المبني على المعرفة، فإن المنظمة الدولية للملكية الفكرية تشكل جهازاً يتم استدعاؤه بثبات لنشر مساهمتها في عالم يواجه المزيد من التعقيدات والتحديات المتراكمة دوماً. بأنموذج أنشطتها الديناميكية والشفافة والحديثة فضلاً عن قيادتها الحالية، فإن المنظمة بإمكانها رفد مساهمات ذات معنى في هذا الإطار. إن مجموعة الموضوعات المعروضة على جدول أعمال المنظمة يعكس التزامها وقدرتها على مساعدة الدول في أوجه تنميتها الاجتماعية والاقتصادية. في واقع الأمر لقد كسبت المنظمة في السنوات الأخيرة الكثير من وضوح الرؤية في النظام متعدد الأطراف بل عززت من دوره المنوط به. نحن نحث الدكتور إدريس على المضي قدماً في مساعيه تلك، وأن يزداد أدأؤه لتوطيد دعائم المنظمة وسجلها خلال فترة رئاسته الثانية. وأكثر من ذلك، سيدي الرئيس، فنحن نعتبر، خلال السنوات الست الماضية، أن اهتماماً كبيراً قد أولي للتصدي بشكل محدد للجوانب ذات الأهمية والمقلقة للدول التي تتبع لإقليمنا. إن تحديث أنظمة الملكية الفكرية بجانب استخدامها من أجل التنمية الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة لهي أعمال لقيت اهتماماً كبيراً في عمل المنظمة الدولية للملكية الفكرية، مع الأخذ في الاعتبار الثنائيات والحساسيات القائمة. لقد شرعنا في مجالات جديدة وأشكال من العمل التعاوني. في الإطار العام للسياسة الراهنة

وأساليب العمل في المنظمة، فإن بلادنا بإمكانها الآن السعي وملاحقة حتى الأهداف الأكثر طموحاً في المستقبل، ومن ثم العمل على تطوير أنظمة الملكية الفكرية لديها، وتساهم بفعالية في منظومة التعاون الدولي الرامية إلى تعزيز كل من نظام حقوق الملكية الفكرية وتقاسم المنافع من الأنظمة السائدة، ورفع مستوى الوعي في مجتمعاتنا حول أهمية حقوق الملكية الفكرية وأصولها، وأخيراً وليس آخراً، المساهمة في تطوير نظام حقوق الملكية الفكرية من خلال المنظمة نفسها. ونأمل بالتالي أن تستمر دول منطقتنا في تلقي الاهتمام المناسب والمساعدات اللازمة في المستقبل، وبالمقابل فنحن أيضاً نجدد تصميمنا بشكل محدد على إبراز مساهمتنا الخاصة بنا دعماً للعمل المهم الذي يجري هنا في المنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«في الختام، سيدي الرئيس، وامتنالاً لهذه الخلفية، فإن مجموعة أوروبا الوسطى ودول البلطيق تود إعادة تأكيد عظيم تقديرها لأداء الدكتور كامل إدريس في وظيفة المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، ورضاءها بإعادة تعيينه متمنية له كل النجاح خلال دورة رئاسته الثانية مديراً عاماً للمنظمة».

**أدلى وفد روسيا البيضاء، متحدثاً إنابة عن دول آسيا الوسطى ودول القوقاز وأوروبا الشرقية، بالتصريح التالي:**

«إنابة عن المجموعة الإقليمية لآسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الشرقية، أود مجدداً أن أعبر عن دعمنا لترشيح الدكتور إدريس لإعادة انتخابه في وظيفة المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية لفترة رئاسية ثانية.

«أود القول إننا نشتمن عالياً ونبدي احترامنا للدكتور إدريس، وندعم كل مبادراته الهادفة إلى بسط نطاق أنشطة المنظمة ونشرها.

«نرحب بجهود الدكتور إدريس، كمدير عام للمنظمة، الرامية إلى تحويل الملكية الفكرية إلى آلة قوية فاعلة من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للدول الأعضاء في المنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«إن ما أبداه الدكتور إدريس من كفاءة وشفافية وديناميكية هي ميزات لا جدال حولها إزاء قيادته للمنظمة. وتحت قيادته أصبحت المنظمة الدولية للملكية الفكرية إحدى أقوى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة في عالم الاقتصاد المبني على المعرفة.

«إنه لمن الضروري التأكيد بانحياز الدكتور إدريس تجاه تحديث وترشيد أساليب العمل الناجحة في المنظمة - كمثال، من خلال طرح انفتاح أكبر، ثم الشفافية في تأسيس برنامج المنظمة وميزانياتها، وكذلك تطبيق القرارات المبنية على التقنيات الحديثة - وبصفة خاصة، مشروع حوسبة نظام اتفاقية تعاون براءات الاختراع.

«في عام 1998 أنشئت أكاديمية المنظمة الدولية للملكية الفكرية على نطاق العالم بمجهودات مباشرة من الدكتور إدريس، وكان الهدف منها مساعدة الدول الأعضاء التابعة للمنظمة لتطوير مواردها البشرية من أجل تدريب الاختصاصيين هناك في أمور ذات علاقة بسياسة الملكية الفكرية.

«تحت قيادة الدكتور إدريس، برزت العديد من التوجهات الجديدة في أنشطة المنظمة الدولية للملكية الفكرية. وتحديداً فإن المنظمة كانت قد بدأت في تطبيق برنامج خاص يهدف إلى إنشاء، في الدول النامية والدول في مرحلة الانتقال، إدارة حقوق ملكية فكرية مترابطة خدمة للمبدعين كالمؤلفين والموسيقيين والفنانين المؤدين.

«منذ 1999 ظلت المنظمة تتبنى طريقة الأجندة الرقمية - وهو برنامج عمل درجت المنظمة تعتمد عليه للسنوات المقبلة وهو مبني على أساس عمل مشترك بين الإنترنت والتكنولوجيا الرقمية ونظام الملكية الفكرية.

«نحن نؤمن بأن واحداً من أهم إنجازات المنظمة هو مبادرة الدكتور إدريس بشأن جذب الأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة الحجم للمساهمة في أنشطة المنظمة بما يجعل مثل هذه الأعمال تمتلك فرصاً واسعة تمكنها من استخدام قدرة نظام الملكية الفكرية حتى يتسنى لها تطوير أنشطتها التجارية وتعزيز تنافسيتها.

«في ختام حديثي، أود شخصياً أن أقدم أمنياتي للدكتور إدريس بتصريف أعمال في مستوى رفيع مع قوة بدنية طيبة، وفي معرفة المهمات التي تواجه المنظمة الدولية للملكية الفكرية، ويشمل ذلك تطبيق توجهات مثل:

الإحساس بما هو أكثر أهمية - القيادة الصحيحة - التأثير على الطريقة التي تقف عليها الأمور - صورة الشراكة - الاعتماد المشترك.

«نأمل أنه، بتسوية هذه الأعمال ثم تعزيز دور الملكية الفكرية في مجالات جديدة لأنشطة أخرى مثل الإنترنت، والحماية البيئية وحماية المعرفة التقليدية والفلكلور، سوف تصبح المنظمة قادرة على تهيئة الظروف الضرورية من أجل أنشطة خلاقة وإبداعية، ومن ثم تقودنا إلى ضمان رفاهية الأجيال المقبلة».

**أدلى وفد دولة الإمارات العربية المتحدة، متحدثاً إنابة عن المجموعة العربية، بالتصريح التالي:**

«يسرنا إنابة عن المجموعة العربية أن نتقدم بالتهنئة والشكر للدكتور كامل إدريس. كنت قد تحدثت في اجتماع شهر مارس إنابة عن هذه المجموعة عن الشروط الموضوعية التي قادتنا إلى دعم ترشيح الدكتور كامل إدريس لقيادة المنظمة الدولية للملكية الفكرية لفترة

ثانية. إنه موقف اتخذته المجموعة العربية ومجموعات أخرى لتأييد الدكتور إدريس. لقد عبرنا جميعاً عن دعمنا له بالنظر إلى منجزاته خلال الفترة الأولى. ولهذا السبب، فإننا اليوم نساند كل النجاحات التي حققتها المنظمة والتي تجسد الآن التنمية الاقتصادية في العالم، بما في ذلك ترقية المعرفة التقليدية، والموارد الجينية، والفنون الشعبية، والآداب والبحوث القائمة حول تعزيز هذه المعرفة. إننا نضع ذلك في حسابنا من أجل المستقبل بغية تمكين كل الثقافات والشعوب لجمع الصف وتقدير ذلك الإرث الغني من الأدب المتوارث في سبيل التنمية المنشودة لتلك الدول. السيد الرئيس، بإعادة انتخاب الدكتور إدريس، فنحن ندعم الإصلاحات الدستورية كافة والتطبيقات المتعددة الرامية إلى المحافظة على الفنون الشعبية والتراث. إننا نسعى من أجل سبل تضامنية لتوسعة مواعين الثقافة وحماية التراث الإنساني. وكل ذلك يبدو ممكناً من خلال الوسائل المتخذة حالياً، نظراً إلى خدمات شبكة المعلومات العالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية والفرص المتاحة الأخرى. كل ذلك يتطلب أيضاً وسائل تنموية معاصرة، علماً بأن المنظمة تعمل جنباً إلى جنب مع منظمة التجارة العالمية، وهذا يعني - بفضل التعاون بين المنظمين - لقد أصبح ممكناً الاتفاق حول الجوانب التجارية للملكية الفكرية. كل ذلك يتطلب جهداً متصلاً لتمكين عملنا في هذا الصعيد العالمي من إيجاد حل متوازن لأية تحديات من أية جهة كانت. في منطقتنا العربية، نأمل أن نجعل علاقتنا مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية أكثر متانة عبر المكتب العربي. خلال السنوات القليلة الماضية شهدنا عدداً كبيراً من نقاشات الموائد المستديرة، وأنجز عمل كثير من خلال بوتقة المجموعة العربية بالتضامن مع مجموعة خبراء من المنظمة وخبراء عرب آخرين، مما أدى إلى نهضة في المنجزات الفكرية والثقافية، كما ساهم أيضاً في تحديث فكرة الملكية الفكرية في الدول العربية. الملكية الفكرية أيضاً وسيلة لتنمية مستقبلية لكل الأنشطة الأخوية وإثراء لتراث جميع الشعوب. مرة أخرى، إنابة عن المجموعة العربية، أود أن أنقل تهنئتنا إلى الدكتور إدريس. نتمنى له المزيد من النجاح في عمله بمثل ما ذكره في خطاب العرض الذي قدمه».

### أدلى الوفد اليوناني، إنابة عن الاتحاد الأوروبي والدول العشر الصاعدة والدول المرتبطة معه، بالتصريح التالي:

«إنابة عن الاتحاد الأوروبي، والدول العشر الصاعدة، والدول المرتبطة معه وهي بلغاريا ورومانيا وتركيا، أرجو أن تسمحوا لي بالتعبير عن عميق التهاني لكم، الدكتور إدريس - أو الدكتور المدير العام، وهو اللقب الشرفي الذي منحه إياكم السفير شاه بمناسبة تعيينكم مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية لفترة ثانية. خلال فترتكم الأولى نجحتم في وضع الملكية الفكرية وصيانتها بصلافة في عداد الأجندة الدولية، فعلتم ذلك في مستوى متوازن، بالشكل الذي يقابل اهتمامات كل أصحاب الشأن. نحن على ثقة تامة بأن الدور الحيوي الذي يمكن للمنظمة

الدولية للملكية الفكرية أن تساهم به في النمو الاقتصادي والتنمية سيكون أكثر تعزيزاً ومتانة تحت قيادتكم القديرة خلال السنوات المقبلة. فلتكن على يقين من الدعم المستمر كاملاً من الاتحاد الأوروبي، والدول الصاعدة، والدول المشتركة معها للفترة المقررة لقيادتكم. أتمنى لك النجاح في قيادة منظمة الملكية الفكرية هذه، بما تملكه من التميز الفكري الذي اعتدنا عليه جميعاً. أود أن أشرك بحرارة، أما الاتحاد الأوروبي فلن يكون أكثر سعادة من هذا الحدث».

#### أدلى وفد ميانمار بالتصريح التالي إنابة عن إتحاد أمم جنوب شرق آسيا (آسيان):

«السيد الرئيس، أخطبكم بوصفي ممثلاً لدول آسيان الأعضاء في المنظمة الدولية للملكية الفكرية. نحن، دول آسيان، نود أن نلحق أنفسنا بالتصريح الذي صدر عن باكستان إنابة عن مجموعة آسيان. وكما جاء على لسان الوفود التي سبقتنا بالحديث، نود أيضاً أن نتقدم بالتهنئة للدكتور إدريس لإعادة انتخابه لفترة ثانية مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. إن الدعم المذهل الذي لقيه الدكتور إدريس في معركة إعادة انتخابه لهو انعكاس لمنجزاته في المنظمة ولثقة التي وضعتها الدول الأعضاء في ميزاته ومؤهلاته ليستمر مقدماً قيادة فاعلة للمنظمة. إنابة عن دول آسيان نود أيضاً التأكيد للدكتور إدريس عن الدعم والتعاون اللامحدودين من آسيان في تمحيص أجندة النظام العالمي للملكية الفكرية خلال فترة رئاسته الثانية.

«إننا نأمل بصدق أن الالتزام الحالي تجاه آسيان بصدد أنشطة التعاون التقنية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، كما كان تحت إشراف الدكتور بوقش، سوف يستمر تحت قيادة الدكتور إدريس. وتود وفود آسيان التعبير عن أطيح تمنياتنا القلبية للدكتور بوقش في حياته المقبلة.

«ختاماً، سيدتي الرئيس، فإن جميع وفود آسيان ترغب مرة أخرى في إهداء تهنئة حارة للسيد إدريس بمناسبة تعيينه، وسنمنحه أقوى ما لدينا من دعم وتعاون في أداء واجبات وظيفته مديراً عاماً جديداً».

#### أدلى وفد أوروغواي بالتصريح التالي:

«تود أوروغواي أن تعبر عن سعادتها ودعمها اللامحدود لإعادة انتخاب الدكتور كامل إدريس مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«نود أيضاً أن نتبنى ونشارك ما جاء من تعليق للوفد البرازيلي إنابة عن مجموعة أميركا اللاتينية ودول الكاريبي. نحن نؤمن بأن المدير العام

قد أحال المنظمة إلى منظمة مفتوحة للعالم وكفوة وقادرة وأكثر حداثة، وذات فعالية أكبر للاستجابة لحاجات وتطلعات دولها الأعضاء وللدول النامية على وجه الخصوص. وبسبب تلك المنجزات فإن حكومتي لا يسعها إلا أن تعبر عن عظيم امتنانها ودعمها للمدير العام للمنظمة. كما أن الطريق الذي يتطلب عبوره أيّاً كان الأمر ليس خالياً من الصعاب والعقبات. وعلى المدير



العام أن يواجه التحدي العظيم لجعلها منظمة حرة في خضم بيئة عالمية معقدة. إن الصدع التقني المالي بين الدول النامية والدول المتقدمة ما زال ينمو، لذلك فإن احتمالات إجراء البحوث وأعمال التنمية قد أصبحت متدنية، وبالتالي انسحب ذلك على قدرة الدول النامية نفسها حول استيعاب الملكية الفكرية. نحن شهود عيان بشكل يومي على النقل العكسي للتكنولوجيا الذي من خلاله أتيح للعلماء والباحثين والمهنيين ذوي الكفاءات العالية الذين تلقوا تعليمهم في الدول النامية بتكلفة عالية للغاية، أن يهاجروا للدول الصناعية، حيث يمارسون هناك حرفيتهم وقدراتهم الإبداعية...

«... نظرة المدير العام، الدكتور إدريس، «آلية الملكية الفكرية من أجل بناء الثروات» تم تبنيها بالإجماع في مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في بروكسل بشأن الدول الأقل نمواً. هذا الالتزام الأخلاقي يستمر لتحديد عمل المنظمة الدولية للملكية الفكرية في أعين أولئك الذين يسعون غالباً ويعتمدون على المنظمة في دعمها لهم. لا يمكن أن تنبني السلطة الأخلاقية على افتراضات غامضة، ولكن فقط على الخدمات الحقيقية التي تقدم للناس. واليوم هذا ما تفعله المنظمة للدول الأقل نمواً حول العالم عن طريق برنامجها العالمي «منجزات المنظمة الدولية للملكية الفكرية للدول الأقل نمواً». من خلال مهماتها وأهدافها وأنشطتها المتعددة في الدول المختلفة، فإن النظريات قد تم اختبارها بالعمل الجاد.

«لطالما يتوجب على جهود التنمية الاستجابة لحاجات قومية بعينها، والأولويات والظروف المحيطة، فلا يمكن لنظرية واحدة أو مجموعة نظريات أن يتم تطبيقها على جهود التنمية لكل الدول كلاً على حدة. لذلك تكمن أهمية وتفرد التوجه الإبداعي لخطط العمل ذات التركيز القومي للدول الأقل نمواً التي تنتهجها المنظمة، والتي تهدف إلى منح المساعدة المعدّة تفصيلاً لمقابلة للحاجات المحددة لدول بعينها. وبسبب حقيقة أن التنمية تتطلب توازناً دائماً للأولويات، وتأكيداً وإعادة تقييم مستمرة للمتطلبات والسياسات، فإن دور القيادة هنا ضروري وحاسم. وفي هذا الصدد فإننا نقدر عالياً مساهمة الدكتور كامل إدريس منذ توليه قيادة المنظمة.

«فيما نحن نصفق للمدير العام نظير إنجازاته في الماضي، فنحن على ثقة أنه سوف يمضي قدماً في دعم مصالح الدول النامية، وبصفة خاصة الدول الأقل نمواً. الملكية الفكرية يجب أن تكون متاحة للجميع حتى يتسنى لها أن تلعب دورها في تنمية كل من القطاع الاجتماعي والثقافي والتكنولوجي والاقتصادي، وأن تكون مفهومة بشكل أفضل لدى الحكومات والقطاع الخاص وللجمهور بشكل عام. ويجب على المنظمة أن تسعى قدماً لتقوية جهودها في مساعدة الدول النامية بغية صقل روح الإبداع وتقويتها لديهم، وتستفيد بشكل كامل من إبداعات مواطنيها، إلى جانب أولئك الذين يعيشون في العالم الخارجي.

«ختاماً، أود أن أختتم حديثي معبراً عن أطيّب أمنياتي للمدير العام الدكتور كامل إدريس بالنجاح خلال فترة عمله الثانية في قيادة المنظمة».

### أدلى وفد الولايات المتحدة الأميركية بالتصريح التالي:

«طلب مني سفير الولايات المتحدة الأميركية، صاحب السعادة كيفن موللي، أن أقدم لك تهنئته وكذلك تهاني حكومة الولايات المتحدة. السفير موللي لم يتمكن من الحضور إلى هنا نظراً لتضارب الموعد مع الاحتفالات الرسمية للولايات المتحدة بمناسبة يوم الذكرى.

«وجهتني الولايات المتحدة بإسمها أن أنقل تقديرها لما حققه المدير العام من رؤية وإنجازات، وللتعبير عن سعادتنا للتطلع للعمل مع الدكتور كامل إدريس خلال السنوات المقبلة. في اعتقادي بالمثل القول عن أن غالبية أصحاب المصلحة المنضوين تحت لواء المنظمة الدولية للملكية الفكرية، هم مواطنو الولايات المتحدة.

«وباختصار شديد، وعلى المستوى الشخصي، فقد تعلمت قدراً كبيراً عن القيادة من المدير العام.

«القائد هو الشخص الذي يرى التضاريس والمطبات أمامه فيما الشخص المحنك ذو الخبرة والبدئية الحاضرة هو من يخبره بكيفية التعامل معها. يجمع ذلك الشخص فريقه المساند وشركاءه للمغامرة في أراضٍ جديدة. المخاطر والصعاب غير المتوقعة من شأنها أن توقفه، والسكان ربما كانوا ممن لا يؤتمن جانبهم، أو حتى عدائين.

«بعض الشركاء ربما كانت لديهم أفكار وحاجات تختلف عما لديه وتختلف - بشكل أكثر إمعاناً - عن البقية الباقية. كل مهمة استكشافية تستحق القيام بها من شأنها أن تواجه تلك العقبات، بجانب عاملي الشك والغمول.

«المطلوب، هو شخص يمكنه رؤية الهدف - ليس فقط حيث كانت المجموعة وإلى أين تتجه في الوقت الحالي - ولكن إلى حيث يجب أن تتجه، وماذا عليها أن تفعل لتحقيق النجاح. ثم شخص ذو بلاغة وحضور بدهي ليربطنا معاً. كامل إدريس هو ذلك الرجل».

### أدلى وفد استراليا بالتصريح التالي:

«شأني كالآخرين الذين سبقوني بالحديث، أود أن أقدم أقوى أنواع الدعم والتهاني إلى الدكتور كامل إدريس على إعادة انتخابه مديراً عاماً.

أفعل ذلك إنابة عن حكومة أستراليا وإنابة عن السفير الأسترالي، السيد ديفيد اسبنسر، الذي يعتذر بحرارة عن عدم تمكنه من الحضور في هذه الظهيرة.

«استراليا على يقين تام، كمدير عام، فإن الدكتور إدريس سوف يكون قادراً على أداء الخاص بترقية آفاق الملكية الفكرية عبر كل قطاعات المجتمع بل عبر كل المناطق في العالم. وبالتالي فإن أستراليا تسجل دعمها الكامل لعمله هذا.

«استراليا أيضاً كانت قد ساندت بقوة كل الإصلاحات التي قدمها الدكتور إدريس خلال السنوات

الست الماضية. وإن التركيز على ارتفاع وتيرة الشفافية والتحديث والمحاسبية والمشروعات الموجهة تجاه النتائج قد وجدت منا كل الترحيب.

«ونقدر أيضاً للمدير العام تصميمه لمكافحة التحديات الآتية نحو التشغيل الفاعل لنظام الملكية الفكرية العالمي، بجانب تطبيق تفكير استراتيجي لوجهة النظر بعيدة المدى. إن استراليا لتعيد تأكيد التزامها بالمساهمة في منتديات المنظمة بغية تجانس قوانين الملكية الفكرية، والمشاركة في نقاشات الأمور الملحة وتوفير المساعدات الفنية عند الضرورة.

«تعد منطقة آسيا - الباسفيكي، بطبيعة الحال، ذات أهمية أساسية بالنسبة لنا، ولقد سعدنا من قبل في إنشاء عدد من المشروعات عبر خطة العمل ذات التركيز الإقليمي.

«في الختام، السيد الرئيس، أود أن أعيد تأكيد أستراليا بدعمها القوي للدكتور كامل إدريس. ونتطلع قدماً لاستمرار دعمنا لبرنامج عمل المنظمة خلال فترة رئاسته المقبلة».

### أدلى وفد كندا بالتصريح التالي:

«إنها سعادة خاصة بالنسبة لي، إنابة عن كندا، لضم صوتها إلى تصريح منسقنا الإقليمي، إسمياً هو البرتغال، متحدثاً عن المجموعة الإقليمية (ب)، كما هو حال جميع الوفود التي استمعنا إليها، وبلا شك الوفود القادمة كذلك، في دعم الدكتور إدريس وتحيته لقيادة المنظمة لفترة ثانية.

«من وجهة نظر كندا فإن فترته الأولى قد سجلت نجاحاً لا جدال حوله. إنه نجاح لأسباب عديدة سبق أن لمحت لها الدول الأعضاء. أولاً، في اعتقادي أن قيادته كانت حكيمة وذكية، وأعتقد أن وفد الولايات المتحدة للتو قد وصفها بالطريقة الصحيحة. أعتقد أنك حين تنظر إلى هذه القيادة، ستري أنها تجسد قدراً عظيماً من الخبرة. الخبرة والقيادة عاملان لا يمكن الاستغناء عنهما أو الفكاك منهما.

«إنه لشرف كبير لي أن أتحديث باسم الدول الأقل نمواً في الجلسة الرابعة عشرة غير العادية في الجمعية العمومية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، تلك الجلسة التي خصصت تماماً لتجديد الفترة الرئاسية للمدير العام للمنظمة، إنه الدكتور كامل إدريس الذي أمضى سنوات عديدة يعمل بجهد كبير على رأس هذه المنظمة.

«أسمحوا لي أن أشير هنا إلى أن المدير العام للمنظمة، في آخر أعماله المتعلقة بالملكية الفكرية: «أداة قوية للنمو الاقتصادي»، قد أعاد توكيد قناعته بأن الملكية الفكرية هي آلية قوية للتنمية، ولكنها آلية بكل أسف لم تعد مستخدمة للاستفادة القصوى منها لفائدة جميع الدول.

«وفقاً لما يدور في ذهنه، فإنه قد ضمن مؤكداً أن المنظمة سرعان ما شكلت وطبقت التزامها تجاه الدول الأقل نمواً التي، من خلالي، تنقل له عميق تقديرها.

«ولأنه بفضل تفانيه وإخلاصه، وفوق كل شيء، لجهوده وعمله الدؤوب، فإن منظمنا قد

أنجزت تقدماً عظيماً. ولا يمكننا إلا أن نكون أكثر فخراً بهذا العمل. إنه لشيء عادي، إذن، أن شخصاً بذل نفسه وروحه لمنظمتنا جدير به أن يمنح فرصة الاستمرار لقيادتها نحو نجاحات ما أكثر تميزاً.

«وبما أنه ظل دائماً يجاهد في سبيل رفعة المنظمة، فقد تم وضعه في المكان المناسب حتى يتفهم خفايا وأسرار هذا الإجراء وحتى يؤكد لنا أن المنظمة تساهم في تقديم آلية الملكية الفكرية التي سوف تنتج رفاه اقتصادياً وسلاماً.

«إذا قدر للمنظمة اليوم أن تبدو كأنموذج، فإن ذلك بلا شك سيكون بسبب الطاقة التي يبذلها المدير العام وفريقه.

«لقد ساهمت المنظمة بالفعل في تكوين مؤسسات في مجال الملكية الفكرية والتعاون من أجل التنمية.

«لذلك أود أن أقدم بتحية خاصة للمدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، ليس فقط لمميزاته الاستثنائية، ولكن أيضاً بسبب جهوده الطيبة التي بذلها في إصلاح المنظمة، ورفد دماء جديدة في شرايينها، والمزيد من الزخم في أعمال السكرتاريا، وابتكار برامج جديدة من بينها برنامج للدول الأقل نمواً والذي أعيد النظر فيه على ضوء التحديات التي تسود عالمنا حالياً.

«على نطاق العالم، فإن المنظمة تعد رمزاً ليس فقط للعزيمة من أجل حماية الاختراع وترقيته، بل أيضاً من أجل التقدم والسلام. كل الجهود التي بذلتها المنظمة قد ارتقت بما لديه من نية لحماية منتوج الذكاء البشري وما نتج عن التنمية.

«هذا الالتزام الأخلاقي لا يمكن أن يعتمد بمفرده على الأفكار المجردة، ولكن على أساس خدمات حيوية ومهمة تقدم للشعوب. ويمكننا إزاء هذا ملتزمين، جانب السلامة، القول إن المنظمة حتى الآن قد كرست نفسها لمصالح الدول الأقل نمواً.

«المنظمة ملتزمة بتنمية وترقية شعوب الدول الأقل نمواً.

«ختاماً، أود الانضمام للأعضاء الآخرين في التعبير عن تقديري، مرة أخرى، للعمل المتميز الذي قام به الدكتور كامل إدريس، مؤكداً له الدعم الصارم من بلادي وعزمها على التعاون معه خلال فترة رئاسته الثانية، التي نثق كثيراً في أنها ستكون ناجحة».

### أدلى وفد روسيا الاتحادية بالتصريح التالي:

بادئ ذي بدء، إنابة عن وفد الاتحاد الروسي، أود أن أتقدم بالتهنئة لكل أعضاء المنظمة الدولية للملكية الفكرية، وكل المشاركين في الجمعية العمومية، وكذلك العاملين في المكتب الدولي في هذا الحدث التاريخي - تعيين الدكتور كامل إدريس في منصب المدير العام للمنظمة لفترة رئاسية ثانية.

«إن ما حدث من إجماع واتفاق كامل تقريباً من أعضاء المنظمة كافة في تقييم أنشطة الدكتور إدريس كمدير عام للمنظمة، لهو ذو صلة بطاقته اللامحدودة، ومستواه الرفيع من المهنية في تقييم المشكلات التي تحيط بالملكية الفكرية، وما يملكه من وضوح في إنشاء المهمات والبرامج، فضلاً عن الانفتاح والشفافية وحسن تعامله مع الدول الأعضاء.

«قبل حوالي ست سنوات تقريباً، كان الدكتور إدريس قد تحدث عن الوسيلة التي تخيلها مناسبة لتطوير أنشطة المنظمة، والتي بفضل خبرته وسلطته ونشاطه قد تم أداؤها، مع توالي السنين، مدعوماً بقوة من أعضاء المنظمة.

«لقد ظل وفد الاتحاد الروسي على الدوام يثمن عالياً ويدعم جميع المبادرات التي أطلقها المدير العام، انطلاقاً من معرفة شاملة لكل المشكلات القائمة في محيط الملكية الفكرية.

«وبهذا أود التعبير عن عميق احترامي للدكتور كامل إدريس لما قام به من جهود ذات مواهب وفعالية كبيرة في منصب المدير العام، والتي تمخض عنها بصفة خاصة قانون للملكية الفكرية في الاتحاد الروسي، مع الوضع في الحسبان كل التوجهات على نطاق العالم التي تسعى نحو التنمية في هذه الدائرة، وكذلك تم دخول روسيا في عدد من الاتفاقيات التي أبرمتها المنظمة.

«أود أيضاً أن أشكر الدكتور إدريس على العمل المفيد الذي تناط به أكاديمية المنظمة الدولية للملكية الفكرية عبر العالم. إن إنشاء نسخة باللغة الروسية لكورسات الدراسة عن بُعد في معاهد الملكية الفكرية قد أثمر نجاحاً بتدريب حوالي ألف متخصص في هذا العام من أقاليم متعددة في روسيا مما عزز الرغبة في تبني ذلك النوع من التدريب.

«يختص الدكتور كامل إدريس بقدرات متفردة لتشكيل، بنظرة ثاقبة وأسلوب مقنع، الأعمال التاكتيكية والاستراتيجية التي تواجه المنظمة في مجال الملكية الفكرية. أما الأعمال المقترحة أداؤها مما تم إعلانه اليوم لتجد كامل دعمنا ومساندتنا.

«أود أن أنضم إلى جميع التهاني التي عبّر عنها أصحابها اليوم إلى الدكتور كامل إدريس، وإني على يقين، تحت قيادته الرشيدة في مقبل السنوات، سوف ننجز معاً نجاحات ملموسة جديدة تقود إلى رفع وتيرة الدور الذي تلعبه الملكية الفكرية في إبراز نمو اقتصادي ثابت في كل الدول وفي جميع القارات».

### أدلى وفد اليابان بالتصريح التالي:

«إنني في غاية السرور اليوم للتعبير عن خالص أمنياتي القلبية بمناسبة تعيين الدكتور كامل إدريس لفترة ثانية في منصب المدير العام».

## أدلى وفد كوبا بالتصريح التالي:

«بلا أدنى شك فإن الملكية الفكرية أصبحت مادة من الأهمية بحيث أمكنها أن تشرى ساحات النقاس العالمية في جميع المنتديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي التي تركز بقوة على أهميتها بكونها أداة فاعلة من أجل التنمية ومصدراً مدرراً للثروة.

«خلال الفترة الأولى لرئاسة الدكتور إدريس، وبما لديه من طاقة وفعالية هما مميزاته الراقية، أنجزت فيها تحديثاً جذرياً في أوصالها بما أمكنها مما أتاح لها التحول إلى منتدى جاهز لمواجهة، بطريقة أكثر شفافية، كل التحديات الناتجة عن متطلبات الألفية الثالثة.

«إن واحدة من أكبر القيم التي يمتلكها الدكتور إدريس هي قدرته على الإبداع والنهوض، عبر مساعدات تقنية مهمة وتعاونية من أجل التنمية، وأنشطة موجهة من أجل الدول النامية، وتنمية الموارد البشرية كعامل أساسي في تأسيس أجهزة الملكية الفكرية الإقليمية وتنميتها. نحن على يقين، في المستقبل، بأن النمو والموارد المضطربة التي خطط لاستمراريتها، وأنشطة التعاون التنموي والمتعدد المرتفعة الوتيرة، سوف تستمر لتأتي بنتائج إيجابية وقوية للمنظمة ومديرها العام.

«على دراية بالتعقيدات غير العادية للمعايير والبرامج الدولية الجديدة للملكية الفكرية، فنحن واثقون من أن الدكتور كامل إدريس يمتلك كل المقومات والقدرات اللازمة للتعامل معها، مع الوضع في الاعتبار، كالمعتاد، متطلبات ووجهات نظر الدول النامية والأقل نمواً، وتسهيل أمر المناقشات، لجعل رؤيته بأن الملكية الفكرية أداة للتنمية، حقيقة.

«نشعر بالسرور ونحن نشهد جهود المدير العام في ترقية مشروعات مهمة وأكثر حيوية، مثل استخدام الملكية الفكرية والأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة الحجم استخداماً مكثفاً لتقنية معلومات جديدة، مثل شبكة المعلومات العالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، ومعاودة التعاون لبراءات الاختراع - والطلبات الآمنة المودعة إلكترونياً، من ضمن أخريات، مثل: تأسيس لجنة ما بين الحكومات حول الملكية الفكرية والموارد الجينية، والمعرفة التقليدية والفنون الشعبية. وتطلع قدماً لختام ناجح لكل تلك المشروعات».

## أدلى وفد ملاوي بالتصريح التالي:

«وفد ملاوي أيضاً يشعر بالفخر العميق لمنحه الفرصة لتهنئة الدكتور كامل إدريس، ونؤكد مجدداً دعمنا الكامل لإعادة تعيينه في وظيفة المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، بالشكل الذي عبّر عنه ممثل المجموعة الإفريقية بجانب ممثل الدول الأقل نمواً. خلال الاجتماع الأخير للجمعية العمومية عبر وفد بلادي عن دعمه لترشيح الدكتور كامل إدريس لأننا نثق في ميزاته القيادية كما تمثلت في النتائج المذهلة والتميزة التي أنجزتها المنظمة إبان فترة رئاسته الأولى. وبما أن إنجازات الدكتور إدريس المدهشة قد تم التنويه إليها بشكل جيد من



قبل وفود عدة، سيكون كافياً بالنسبة لي القول إن وفد بلادي يرغب في الانضمام بكلياته إلى تلك المشاعر الوجدانية ونسجل قناعتنا بالرؤية الثاقبة للدكتور إدريس التي أحالت المنظمة إلى منظمة مدعنة دوماً للاتجاهات المتطورة ومطالب أجهزة الملكية الفكرية مثل التي تسود مناطق المعرفة التقليدية، والموارد الجينية والفنون الشعبية. ما جاء من تطورات بأن جهاز الملكية الفكرية كأداة لتنمية المجتمع والاقتصاد على السواء قد شهدت ترحيباً طيباً مشتركاً بين الدول النامية والأقل نمواً مثل ملاوي داخل جهاز الملكية الفكرية».

«نحن على يقين، سيدي الرئيس، أن إعادة اختيار الدكتور كامل إدريس سيأتي بالفائدة لكل أعضاء المنظمة، التي لن يعجزها أن تستغل هذه هذه السانحة للاستزادة أكثر، خلال فترة رئاسته الثانية، من السياسات التي يتطلع المدير العام لتنفيذها، ومن خبرته الواسعة والثرة وابتكاراته ومخططاته.

«أشار الدكتور إدريس هذا الصباح لمزايا الملكية الفكرية كقوة لإنشاء اتحاد فيدرالي لكل الأمم على وجه هذا الكوكب، بصرف النظر عن تبايناتهم الثقافية.

«هل يمكن للعمل الذي أنجز في هذا الصدد تحت قيادة الدكتور كامل إدريس أن ينير لنا الطريق لكي يتاح لنا التصدي لعديد التحديات التي تواجه عالمنا اليوم؟».

### أدلى وفد غيرغستانان بالتصريح التالي:

«خلال الأعوام القليلة الماضية أنجزت المنظمة الدولية للملكية الفكرية نتائج استثنائية جاءت ثمرة لإدارة مشبعة بروح المبادرة مما كشف عنها الدكتور كامل إدريس. إذ إن تفانيه في العمل قد أحال المنظمة إلى منظمة أفضل إعداداً لمقابلة التحديات التي تواجهها الآن.

«عمل الدكتور إدريس على ترقية كل المساهمات النشطة من جميع الدول الأعضاء. إن أسلوبه في الإدارة، المبني على الانفتاح والحوار، بلا أدنى شك يستحق منا كل التقريظ والثناء، ولعله عمل على توطيد وتقوية مبدأ الإجماع والمشاركة في عملية صنع القرار.

«الدكتور إدريس عمل بشكل ملحوظ على توسعة برامج المنظمة وأمدّها بنظرة تشاركية ومبادرات أكثر حداثة. لقد كان قادراً على تنظيم عمل منظّمته بفاعلية ملحوظة وذلك بانتهاجه تعزيز التنمية التقنية والثقافية والاقتصادية، عن طريق وسائل عمل حديثة، كما أجرى مناقشات عالمية ذات شفافية، مؤكداً تعامل المنظمة مع أمور ذات أهمية حيوية من أجل جميع الأعضاء، وعلى وجه الخصوص، الدول النامية.

«إن نظرة الدكتور إدريس الاستراتيجية لمشاركة الدول النامية في إطار الملكية الفكرية بشروط إيجابية، هي نتيجة الزخم الجديد الذي أداره بغية غرسه في عمل المنظمة. إن تقوية التعاون من أجل التنمية وتأسيس أكاديمية المنظمة المنتشرة على نطاق العالم كانا أمراً حاسماً لتلك الأغراض.

«خلال دورته الرئاسية الأولى، كان قد حفز تنمية التكنولوجيا عن طريق مشروعات ذات أهمية كبيرة مثل برنامج التسويق العالمي للسلع الزراعية والتجارة، وشبكة المعلومات العالمية للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. كما أن مبادراته ذات العلاقة بالأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة الحجم، والتجارة الإلكترونية، وأسماء النطاق الإلكتروني - مع تأسيس مركز التحكيم والوساطة - لهي مساهمات في غاية الأهمية والحيوية. وبالمثل، فقد أجري إصلاح دستوري، وبالنظر إلى تحديث الهيكل المؤسسي للمنظمة، وإدخال اتفاقية حقوق النشر للمنظمة الدولية للملكية الفكرية حيز التنفيذ، ومعاهدة المنظمة الدولية للملكية الفكرية بشأن العروض والتسجيلات الصوتية، كانت جميعها جزءاً من النتائج لأنشطة إبداعية وديناميكية مهمة.

إن بلادي تعلق أهمية كبرى على تعاونها مع المنظمة الدولية للملكية الفكرية. وفي هذا الصدد فإن حوافز قوية قد اتخذت من أجل تعاوننا أثناء الزيارة الرسمية لوفد المنظمة الذي ترأسه الدكتور كامل إدريس إلى بلادي في عام 2001.

«خلال تلك الزيارة عقد اجتماع ضم رئيس بلادي والدكتور كامل إدريس وبقية أعضاء الوفد، وحدد الاجتماع آفاق التعاون مستقبلاً بين غيرغستان والمنظمة. وقد تم التوقيع على برنامج تعاون بين حكومتنا الوطنية والمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«لقد ظلت المنظمة على الدوام تقدم مساعداتها لنا، وبدا ذلك في شكل تأسيس نظام براءات الاختراع وتطويره، فضلاً عن نظام الملكية الفكرية في بلادنا ككل، والذي سيبلغ قريباً عامه العاشر في شهر يونيو تأريخ تأسيسه. هذه المساعدة ذات أوجه متعددة، وهي تقدم لنا في شكل خدمات استشارية وتقنية، بجانب كونها تمثل دعماً لتدريب المديرين وفقاً للكورسات المخصصة لهم، وتنظيم المؤتمرات وخلافه.

«ما تقدمه المنظمة لنا من دعم، وتعاونها المنتظم معنا بقياً أمراً مستمراً طيلة السنوات القليلة الماضية، ونتيجة للاهتمام المبذول بعناية من الدكتور كامل إدريس الذي، بصفته المدير العام، أثبت حساسية فائقة تجاه أمثالنا من الدول، لهي خطوة ذات أهمية كبيرة يهمننا بصدها أن نتقدم له بتقديرنا العميق.

«إن وفدنا على قناعة بأن المنظمة الدولية للملكية الفكرية، تحت قيادة الدكتور كامل إدريس، سوف تستمر في تطويرها الديناميكي مستقبلاً لفائدة مجتمع الملكية الفكرية من أجل حصد المزيد من التقدم الاقتصادي والازدهار الثقافي لكل الدول، وفي هذا السياق، سوف نستغل كل الوسائل الممكنة لتتقدم بدعمنا للدكتور كامل إدريس. وفي الختام، مرة أخرى نتقدم لك، الدكتور كامل إدريس، بمناسبة إعادة اختيارك لفترة ثانية مديراً عاماً في هذا المنصب».

### وفد إسرائيل أدلى بالتصريح التالي:

«يود وفد إسرائيل أن يتقدم بالتهنئة للدكتور إدريس لإعادة اختياره بإجماع الأعضاء في منصب المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. إن إنجازات الدكتور إدريس مثبتة

وواضحة للعيان وكذا قيادته غير العادية ومهاراته الدبلوماسية. يحتاج المرء فقط للاستماع لما أدلى من تصريحات للوفود في هذه القاعة اليوم حتى يصل إلى تقدير كامل لما قدمه الدكتور إدريس من مساهمات للمنظمة وإلى حقل الملكية الفكرية.

إذا سمحتم لي، أود أن أقول كلمة واحدة فقط عن مساهمات الدكتور إدريس بشأن العلاقة بين المنظمة وإسرائيل. منذ أن تولى الدكتور إدريس زمام القيادة، طرأ تحسن جذري في العلاقة بين المنظمة وإسرائيل. الدكتور إدريس منحنا الإحساس بأننا في وطننا في إطار المنظمة. لقد قام بجهد حقيقي متعاوناً مع إسرائيل في ترقية الملكية الفكرية في بلادنا. لقد شرفنا بزيارة إلى إسرائيل في ديسمبر 2000، تلك الزيارة وما تبعها من أفعال كانت تجسداً للطريقة التي يضع فيها الدكتور إدريس الكلمات موضع العمل. كما يؤمن الدكتور إدريس أيضاً بأن الملكية الفكرية قد تستخدم كجسر للسلام في منطقتنا وهو يعمل جاهداً لترقية تلك النظرة. لكل تلك الأسباب دعوني مرة أخرى أن أتقدم بالتهنئة للدكتور إدريس متمنياً له النجاح الملحوظ ونتعهد بذلك أقصى ما يمكن من دعم له».

#### وفد البرتغال أدلى بالتصريح التالي:

«بداية، تود البرتغال أن تتقدم بالتهنئة للدكتور كامل إدريس بمناسبة إعادة انتخابه مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية.

«وبهذه المناسبة المهمة، نود التعبير عن قناعتنا بالعمل الذي تم إنجازه من المدير العام خلال السنوات الست الماضية.

«أمنيتنا هي أن تتوحد جهودنا أكثر بل بشكل أكثر متانة، بما يقوي أواصر التضامن في ما بيننا لكي ندعم بقوة لا مثيل لها السياسة المحددة لكل واحدة من منظميتنا.

«خلال السنوات القليلة الماضية كان التعاون بين البرتغال والمنظمة الدولية للملكية الفكرية قد أخذ بُعداً وإطاراً جديدين.

بصفة خاصة وبسبب حساسيته المفرطة واهتمامه بمشكلات الدول النامية، لم يدخر الدكتور كامل إدريس وسعاً في بذل جهوده هذا المنحى. ونحن نشكره والعاملين معه على تلك الجهود.

«سنبقى على ثقة بأن العهد الجديد الذي يبدأ الآن سيشهد تقوية أشد لذلك التعاون في سبيل المصالح المتبادلة بين منظميتنا.

«عاش التعاون بين المنظمة الدولية للملكية الفكرية والبرتغال».

#### أدلى وفد الاتحاد الإفريقي بالتصريح التالي:

«مرة أخرى، إنه لفخر وتشريف للاتحاد الإفريقي أن يمنح الفرصة لمخاطبة هذه الجمعية العمومية المنعقدة في شهر أغسطس بمناسبة إعادة انتخاب الدكتور كامل إدريس لمنصب

المدير العام للمنظمة الدولية للملكية الفكرية. لقد مرت علينا مناسبات، كالعديد من الدول الأعضاء في هذه المنظمة، للتعليق على أوراق الاعتماد المرموقة والأداء الذي لا تشوبه شائبة للدكتور إدريس. إن الإفادات التي أدلى بها خلال اجتماعات الجمعية العمومية السابعة والثلاثين للمنظمة، والجلسات غير العادية الستة عشر للجنة التنسيق التابعة للمنظمة، مما يتطلب مجلدات للحديث عن قدرات الدكتور كامل إدريس وكفاءته. وكما جلسنا خلال كل تلك الجلسات نناقش ونستمع لعبارات الدعم والمساندة بالإجماع لمرشح إفريقيا، فقد تملكنا شعور بالفخر، وامتلاً وجداناً بالفرحة والامتنان. جميع الأفارقة، وحقبة أن رؤساء الدول والحكومات الذين ساندوا هذا الترشيح ربما سادهم الشعور ذاته. أما الآن وقد تحدث ممثلو الدول الأعضاء وقد عبروا بقوة عن مظهرهم الداعم للترشيح بالانتخاب المثير للدكتور كامل إدريس لفترة ثانية مديراً عاماً للمنظمة الدولية للملكية الفكرية، أسمحوا لي، سيدي، لأضم صوتي إلى ما قاله ممثل المجموعة الإفريقية في التعبير عن عظيم امتناننا وأطيب مشاعرنا القلبية وعميق شكرنا إلى كل من ساهم بقوة وجعل هذا الحدث الفريد ممكناً. وإلى أخي كامل إدريس، دعني فقط أقول لك إن إفريقيا فخورة بك وتتمنى لك نجاحاً باهراً في فترتك الرئاسية الثانية. فليبارك الله فيك».

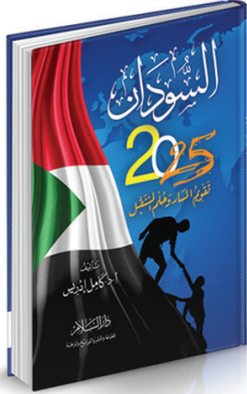
#### وفد السودان أدلى بالتصريح التالي:

«لقد انتظرت طويلاً، ولكنه انتظار ممزوج بالسعادة على أية حال. باللغة العربية نقول: «الأفضل يأتي أخيراً». السيد الرئيس، إن النيلين الأزرق والأبيض يصدحان معاً بالغناء في حبور وبهجة. الأرض العظيمة لهذا النهر العظيم تومض فرحة جذلي، أبناء إفريقيا، بنين وبنات يضربون الدفوف في أحراش غاباتهم، ومزاميرهم تغني طربة. إنهم يحتفلون بنجاح أحد أبنائهم، مفكر عظيم، ودبلوماسي مرموق، وقائد واثق من نفسه وإداري ناجح. لقد جاء من وينتمي إلى كل ذلك. إنه مفخرة بلاده، وشعبه وقارته، وأمتة جمعاء. طموحاته تناطح عنان السماء، وسوف يصل إليها.

«لك التهاني من شعبك، الدكتور كامل إدريس، بكلمات ملؤها التقريظ والثناء لك. إن شعبك سعيد بشخصيتك العظيمة، رغم ما يكتنفك من تواضع واستعداد دائم لم يد العون للآخرين. التهاني موصولة لأسرتك الكريمة ولزوجتك ولتجمع السودانين في سويسرا، وإلى أصدقائك وزملائك. إنها لحظة عظيمة لحضارتنا الممتدة على وادي النيل الرائدة في اكتشاف العلوم والتكنولوجيا التي كانت أول من استخدم الماء عن طريق الشادوف والمحراث والتفنن في تشكيلات التبن وجداول المياه».

## الملحق الحادي عشر

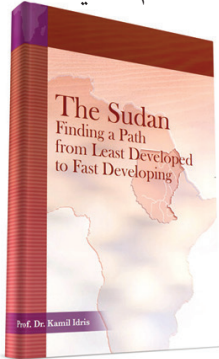
### قائمة مطبوعات



السودان 2025 - طريق السودان نحو المستقبل:  
حلم واقعي من أجل 2025



المرشد من أقواله والمختصر من نظراته الفلسفية



السودان يجد طريقه من الدول الأقل نمواً  
الى الأسرع نمواً



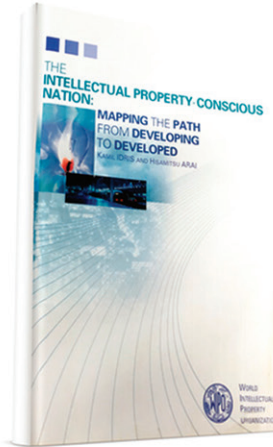
نحو أمم متحدة أفضل من أجل الألفية الجديدة



مداخل في معرفة نفسية نمو الأطفال



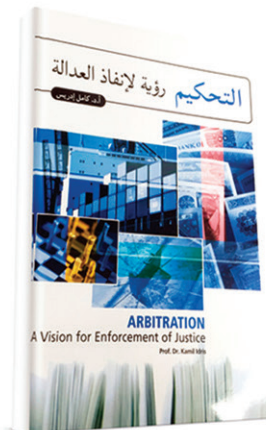
السودان 2020 - تقويم المسار ورؤية المستقبل



الملكية الفكرية - أمة واعية: خريطة المسار من  
النامية إلى المتقدمة



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



التحكيم - رؤية لإنفاذ العدالة





الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



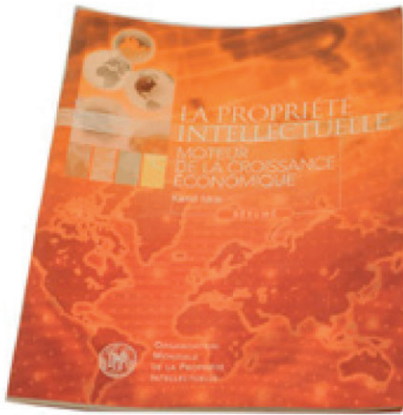
الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



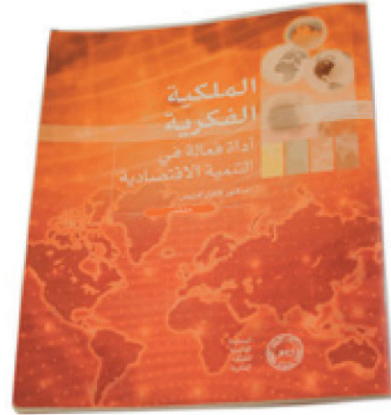
الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



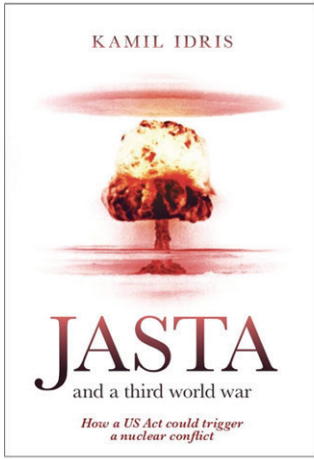
الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



الملكية الفكرية - أداة قوية للنمو الاقتصادي



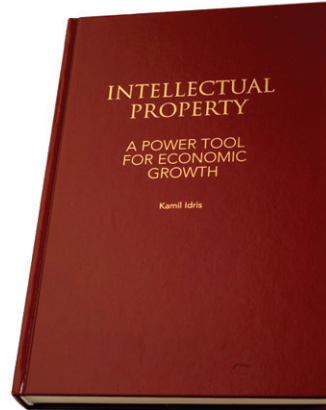
جاستا وحرب عالمية ثالثة



قانون التحكيم السوداني لسنة 2005 - رؤية نقدية



الملكية الفكرية أداة قوية من أجل نمو اقتصادي



الملكية الفكرية أداة قوية من أجل نمو اقتصادي



أيام كامل إدريس (1983 - 1984)



الملكية الفكرية أمم واعية: رسم المسار  
من نامية إلى متقدمة 2006



أيام كامل إدريس (1986)



أيام كامل إدريس (1985)



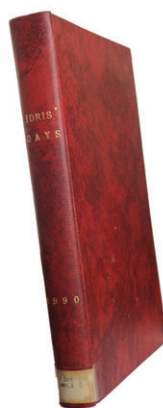
أيام كامل إدريس (1989)



أيام كامل إدريس (1988)

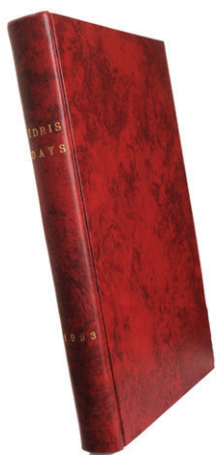


أيام كامل إدريس (1991)

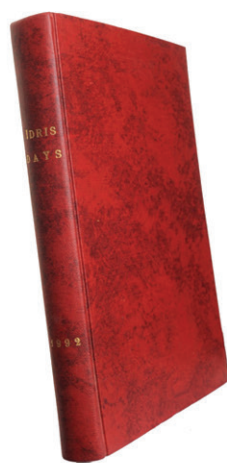


أيام كامل إدريس (1990)

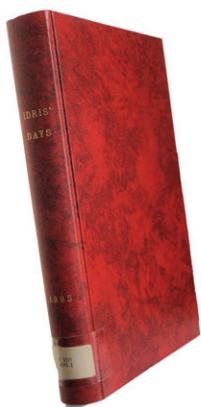




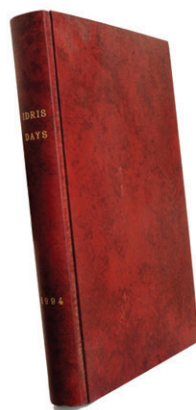
أيام كامل إدريس (1993)



أيام كامل إدريس (1992)



أيام كامل إدريس (1995)



أيام كامل إدريس (1994)



أيام كامل إدريس (1997)



أيام كامل إدريس (1996)



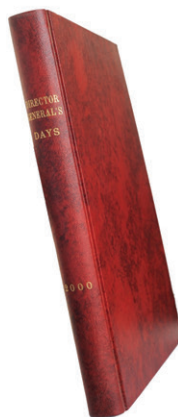
أيام كامل إدریس (1999)



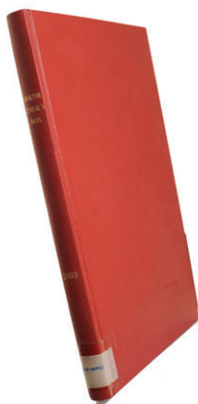
أيام كامل إدریس (1998)



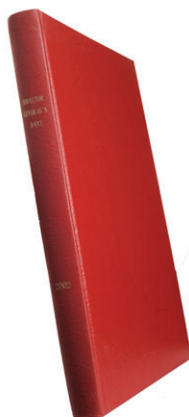
أيام كامل إدریس (2001)



أيام كامل إدریس (2000)



أيام كامل إدریس (2003)



أيام كامل إدریس (2002)





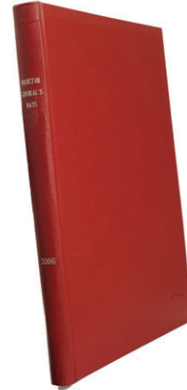
أيام كامل إدريس (2005)



أيام كامل إدريس (2004)



أيام كامل إدريس (2007)



أيام كامل إدريس (2006)

تفاصيل أوفى عن هذه المطبوعات يمكنكم الحصول عليها في موقعي الإلكتروني:

[www.profkamilidris.co.uk](http://www.profkamilidris.co.uk)

## الملحق الثاني عشر

### أمدردان التاريخفة والخرطوم

أمدردان التاريخفة وأخواتها الخرطوم والخرطوم بحري، مدن ساحرة. وما تزال ضواحيها وأحيائها القديمة تأسر لبي:

«بيت المال»، كان يمثل وزارة المالية في عهد المهديّة.

«الملازمين»، كانوا هم حرس الخليفة الذين يلازمونه في كل الأوقات.

«بيت الأمانة»، كان يستخدم لحفظ وتخزين السلاح والذخيرة.

«حي الهجرة»، حيث اعتاد الخليفة الإقامة لمشاهدة جيشه قبل مغادرته إلى الشمال من البلاد. وقد صلب جيشه حتى جبال كرري.

«ود نوباوي»، سمي تخليداً لإسم الأمير محمد ود نوباوي من قبيلة «بني جرار».

«حي العمدة»، سمي تخليداً للعمدة المقبول.

«أبو روف»، الإسم ذو علاقة بالخصوبة المتنامية للأرض.

«بوابة عبدالقيوم»، سميت تخليداً لإسم قائد الطابية.

«أم بدة»، سميت تخليداً لإسم الأمير أمبدي. كان أحد قادة وأمرأء المهديّة.

«العرضة»، حيث كان جيش المهدي يجتمع كل يوم جمعة.

«الموردة»، مرسى لمراكب شراعية مخصص لشحن وتفريغ البضائع.

«حي الأمراء»، كان مقراً للأمراء وقادة المهديّة.

«حي الضباط»، منطقة يسكنها ضباط الجيش.

«العباسية»، معظم سكان هذا الحي قدموا من العباسية ثقلي.

«حي المكي»، سمي تخليداً لإسم السيد المكي، ابن الشيخ إسماعيل الولي، شقيق السيد البكري، وجد السيد إسماعيل الأزهري، أول رئيس - وزراء للسودان عقب استقلاله.

«حي ود البنا»، سمي تخليداً لإسم الشاعر الشهير ود البنا.

«القماير»، وتصغيرها قمير. كان موقعاً تاريخياً اشتهر بصناعة الجير الأبيض والخزف، على طول ضفة نهر النيل.

«حي الشهداء»، سمي تخليداً للشهداء الذين قتلوا في الحرب ضد كتشنر.

«حي الربيع»، سمي تخليداً للفارس الربيع، أحد فرسان المهديّة الذي أعدهم كتشنر في ذات الموقع.

«حي الركابية»، سمي على قبيلة الركابية.

«ود البصير»، ينتمي إلى قبيلة الحلاويين.

«حي المغاربة»، هذ الحي يقطنه السكان القادمون أصلاً من المغرب.

«الدراسة»، سمي تخليداً لأولئك الذين يعملون في خدمات السكك الحديدية.

«الصحافة»، سمي تخليداً لإحدى الصحف القائمة منذ زمن بعيد.

«حي الديم أو الديوم»، تم تخطيطه بواسطة الحكم الاستعماري لديمي المأوى والفقراء حول معسكر ود يوم.

«حلة حمد»، سميت تخليداً للشيخ حمد ود أم مريوم. وهو: الشيخ حمد بن محمد علي بن يعقوب بن مقلي الذي كان حواراً لأرباب العقائد.

«حلة خوجلي»، سميت تخليداً للشيخ خوجلي عبدالرحمن أبو الجاز، ابن عم الشيخ حمد.

«كوبر»، أطلقت على إسم رجل إنجليزي إسمه كوبر.

«الدروشاب»، سميت على إسم قبيلة من رفاة.

«الحاج يوسف»، سميت تخليداً للشيخ الحاج يوسف ود دهاشة.

«الكباشي»، تنتمي للشيخ إبراهيم بن الأمين بن علي المعروف بالشيخ الكباشي. هذه المنطقة كانت أساساً منحة من ملوك العبدلاب. وكان إسمها الأصلي الفُعُر.

«الفكي هاشم»، سميت تخليداً للشيخ الفكي هاشم.

«الأسكلة»، تقع في مواجهة قاعة الصداقة، وهي في الأصل كلمة إيطالية، معناها «ميناء»، وقد استولى عليها الأتراك من الإيطاليين.

## اعتمادات الصور وتراخيصها

الغلاف:

غروب الشمس على نهر النيل

المؤلف: ديفيد هاييرلاه

الترخيص: CC Attribution 3.0 Unported

Source: [https://commons.wikimedia.org/wiki/file:Nile\\_sunset\\_dar\\_almanasir.jpg](https://commons.wikimedia.org/wiki/file:Nile_sunset_dar_almanasir.jpg)

الأهرامات غرب جبل البركل

المؤلف: بيرترامز

الترخيص: CC Attribution 3.0 Unported

Source: [https://commons.wikimedia.org/wiki/file:Nile\\_sunset\\_dar\\_almanasir.jpg](https://commons.wikimedia.org/wiki/file:Nile_sunset_dar_almanasir.jpg)

صائد سمك على النيل

المؤلف: بيرنارد دوبونت

الترخيص: Share Alike 2.0 Unported - CC Attribution

Source: [https://commons.wikimedia.org/wiki/file:White\\_Nile\\_Fishermen\\_\(18156464842\).jpg](https://commons.wikimedia.org/wiki/file:White_Nile_Fishermen_(18156464842).jpg)

## ملحمتي النيلية

◀ **كامل إدريس** رجل يعتز بأصوله البدوية، قاسى وكابد ظروف عمالة الأطفال في مصانع يكتنفها السواد والكآبة. وهو صبي سافر في رحلات إلى القاهرة مستغلاً أسطح القطارات، بل تعدّاها إلى رحلات تشوبها الخطورة والمجازفة إلى أوروبا وكان ما يزال في عقده الثاني. تعرض للقبض والتهديد بالقتل من قبل قراصنة النيل من صائدي الأسماك الذين اعتقدوا أنه روح شريرة أو من الجن، واشتدت معاناته قسوة حين تعرض مكرهاً للبقاء في صحراء النوبة بشمال السودان ذات الحرارة التي تشوي الوجوه.

وحديثاً .... تعرض للاعتقال والحبس رهين منزله مع أسرته الصغيرة ووضع تحت المراقبة الأمنية، وذلك بسبب آرائه حول حقوق الإنسان والإصلاح السياسي. كان ملهماً بوعد من الزعيم الإفريقي نيلسون مانديلا له بكتابة مذكراته. وهي ما صاغها في هذا الكتاب الذي يعد بوتقة زاهية شملت تفاصيل لعائلة تزخر حياً جماً لبعضها أصابتها سلسلة من الكوارث تباعاً، ثم يأتي ذكر الأسواق التقليدية القديمة في أمدرمان، وأسواق تجارة الجمال، وشخصيات غريبة الأطوار، والملوك الفلاسفة القدماء، وحكاوي والده عن العصور الأولى لقارة إفريقيا ومنطقة النوبة وعجائب الإنسانية الضاربة في القدم. أثناء طفولته أخذ كامل إلى منطقة مروي ليمعن النظر في ما تبقى من حضارة مملكة كوش العظيمة التي تضم في أحشائها من الإهرامات ما يتجاوز ضعفي الإهرامات في مصر. بل أكثر من ذلك فإن الحفريات التي أجريت حديثاً أطمأت اللثام عن إعادة اكتشافات مدهشة للفراعنة السود الذين سبق لهم أن حكموا منطقة الشمال الشرقي من إفريقيا كافة وما وراءها قبل أكثر من ألفين وخمسمائة عام مضت. وفوق كل شيء، فإن المذكرات تعد احتفالاً رائعاً من كامل وإجلالاً لمعشوقه الملهم نهر النيل الخالد الذي يراه رمزاً تعبيرياً يتحكم في مصائرنا كافة. إنها ملحمة لا يمكن تصديقها.



## كامل إدريس

◀ عالم ورجل دولة وشخصية عالمية ذو مواهب وثقافات متعددة. البروفيسور كامل إدريس هو المدير السابق لوكالة الأمم المتحدة المتخصصة، المنظمة الدولية للملكية الفكرية، (WIPO) ومدير الاتحاد الدولي لحماية الأصناف الجديدة من النباتات (UPOV)، وعضو قيادي بارز في لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولي (ILC). وكان قد شغل أيضاً منصب رئيس المحكمة الدولية للتحكيم والوساطة (ICAM)، وعضو في المحكمة الدولية الدائمة لفض النزاعات في لاهاي. يمتلك خبرة ثرة كسفير ودبلوماسي من الطراز الأول، مما مهد له السبل لملاقاة تشكيلة واسعة من رؤساء الدول والوزارات والقادة الدوليين. من خلال عمله أمكنه أن يصبح شخصية رفيعة المستوى مؤثرة وموثوق بها للمساعدة في تسوية الأزمات العالمية. ومن خلف الكواليس فهو إنسان ذو معتقدات لا هوادة فيها في مجالي حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية. في عام 2010 رشح نفسه في انتخابات رئاسة بلاده، السودان، مما نتج عنه وضعه في الإقامة الجبرية بمنزله بل هُدد بالقتل، ولكنه رفض الإذعان الى التهريب والتخويف. إنه تركيبة من ذلك الطراز النادر من البشر، أكاديمي ومفكر وحاصل على العديد من درجات الشرف العليا ورسالات الدكتوراه من جميع قارات العالم. مزوداً بوعي سياسي حاد، فقد أصبح نصيراً ومنافحاً لكل من حرية التعبير وحرية الأديان والإصلاح السياسي. نشرت له طائفة مكتنزة من الكتب والمقالات في مجال الملكية الفكرية والعلوم السياسية والفلسفة والإلحاد والقانون الدولي والتنمية. رسالته الواضحة هي أن التعافي والتصالح الدولي أمر ممكن وليس نزوة أو خيالاً، ولكن يمكن إنجازه فقط عبر التسامح والتفاهم وإبداء حسن النية للجميع، وليس بفرض المواقف العدوانية وانتهاج العنف وإملاء المعتقدات العقائدية.